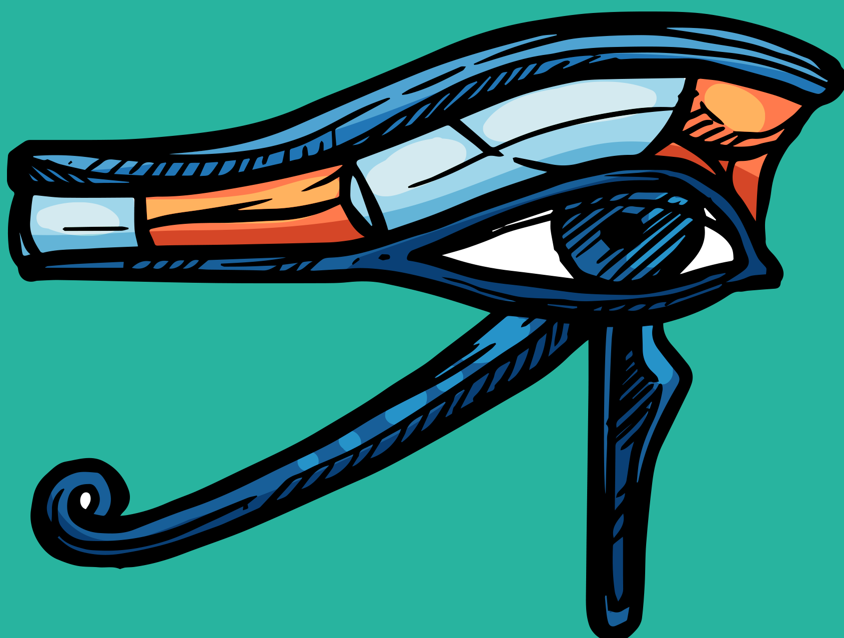
عين أوزيريس

آر أوستن فريمان



عين أوزيريس

تأليف
آر أوستن فريمان

ترجمة
رشا صلاح الدخاخني

مراجعة
هاني فتحي سليمان



عين أوزيريس

آر أوستن فريمان

The Eye of Osiris

R. Austin Freeman

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: يوسف غازي.

الترقيم الدولي: ٩ ٢٢٨٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١١
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

المحتويات

الفصل الأول

اختفاء رجل

كانت الكلية التابعة لمستشفى سانت مارجريت محظوظة بمُحاضِرها في مادة الطب الشرعي، أو الطب الجنائي، كما تُسمَّى أحيانًا. ففي بعض الكليات، يُعيَّن مُحاضر هذه المادة نظرًا لأنه — فيما يبدو — يفتقر إلى المؤهلات اللازمة لتدريس أي مادة أخرى. ولكن في حالتنا هذه، كان الأمر مختلفًا تمامًا: لم يكن جون ثورندايك رجلًا نشيطًا ذا علمٍ غزير وسمعة طيبة وحسب؛ وإنما كان مُعلِّمًا استثنائيًّا، مُفعمًا بالحيوية، يتمتع بأسلوب ساحر ومقومات وموارد لا مُتناهية أيضًا. وكل قضية مُهمة أُبلِغ عنها من قبل، بدا جون ثورندايك أنه على دراية تامة بها؛ وكل حقيقة — كيميائية أو فيزيائية أو بيولوجية أو حتى تاريخية — يمكن تطويعها لتكتسب أهميةً طبية وقانونية، كان يستعين بها لخدمة أهدافه؛ وبدت تجاربه المتنوعة والفذَّة وكأنها معين لا ينضب أبدًا. وأحد أساليبه المفضلة لبثِّ الحياة وإثارة الاهتمام بموضوعٍ مملٍّ إلى حدٍّ ما هو تحليل القضايا المعاصرة المنشورة في الصحف والتعليق عليها (بالتأكيد، قضايا ذات صلة دومًا بالاعتبارات القانونية والاجتماعية)؛ كانت هذه هي الطريقة التي تعرفتُ بها للمرة الأولى على سلسلةٍ مُذهلة من الأحداث التي قُدِّر لها أن تؤثر في حياتي الخاصة تأثيرًا بالغًا.

تناولت المحاضرة التي انتهت توًّا موضوعًا خلافيًّا متعلقًا بعلامات البقاء على قيد الحياة. كان أغلب الطلاب قد غادروا قاعة المحاضرات، وتجمَّع الباقون حول طاولة المحاضر للاستماع إلى التعليقات غير الرسمية التي اعتاد دكتور ثورندايك تقديمها في هذه المُناسبات بأسلوبٍ حواري سلِس، وهو ينحني إلى الأمام نحو حافة الطاولة، ويبدو وكأنه يُوجه ملاحظاته إلى قطعة الطباشير التي يمسك بها بين أصابعه.

قال ردًّا على سؤال طرحه أحد الطلاب: «تظهر مسألة تحديد علامات البقاء على قيد الحياة عادةً في الحالات التي تكون فيها جُثَث الضحايا قابلةً للفحص، أو في الحالات التي تكون فيها واقعة الوفاة ووقت حدوثها التقريبي معروفًا بالفعل. ولكن ربما تظهر صعوبة مماثلة في حالة اختفاء جثة أحد الضحايا، وربما نفترض واقعة الوفاة على أساس أدلة غير مباشرة.

هنا يظهر، بالطبع، السؤال الحيوي الذي لا بدَّ من حسْمه، ألا وهو: ما اللحظة الأخيرة التي شُوهد فيها هذا الشخص على قيد الحياة يقينًا؟ وحَسْم الإجابة عن هذا السؤال ربما يستثير بعض الملابسات ذات النوعية الأكثر بساطة. ثمة قضية نُشرت في الجرائد هذا الصباح توضِّح هذه المسألة؛ حيث اختفى رجل على نحوٍ غامض. كان آخِر مَنْ رآه هي خادمة أحد أقاربه أثناء زيارته لمنزله. الآن، لو افترضنا أن هذا الرجل لن يظهر مرةً أخرى مطلقًا، حيًّا كان أو ميتًا، فسيتحول السؤال المتعلق بتوقيت آخِر مرة شُوهد فيها على قيد الحياة يقينًا بدوره إلى السؤال الآخر، ألا وهو: «هل كان يرتدي، أو لا يرتدي، حليةً مُعينة حين زار منزل قريبه هذا»؟»

توقَّفَ لبرهةٍ بعينٍ متأملة يرمُق قطعة الطباشير التي كان لا يزال يمسك بها؛ وبعد أن لاحظَ الاهتمام المترقِّب الذي كنَّا نوليه إيَّاه، استأنف حديثه قائلًا:

«ملابسات هذه القضية غريبة جدًّا؛ في الواقع، هي ظروف غامضة للغاية، وإذا ما برزَتْ أي مسائل قانونية مُتعلقة بها، من المرجَّح أن تقود إلى بعض التعقيدات الملحوظة جدًّا. الرجل المختفي، السيد جون بيلينجهام، هو رجل معروف في الأوساط المهتمة بالآثار. عاد مؤخَّرًا من مصر، وجلب معه مجموعةً رائعة جدًّا من الآثار — بالمناسبة، قدَّم بعضًا منها هديةً إلى المتحف البريطاني، حيث إنها موجودة الآن في العرض — وبعد تقديم هذه الهدية، يبدو أنه سافر إلى باريس في رحلة عمل. واسمحوا لي أن أذكُر أن الهدية كانت عبارة عن مومياء بحالةٍ جيدة جدًّا ومجموعة كاملة من أثاث المقبرة. بيد أن المجموعة الأخيرة لم تصِل من مصر حتى الوقت الذي سافر فيه الرجل المختفي إلى باريس، في حين خضعت المومياء للفحص في الرابع عشر من أكتوبر بمنزل السيد بيلينجهام، على يدي الدكتور نوربيري من المتحف البريطاني، في حضور المانح ومُحاميه، والأخير كان مخولًا بتسليم المجموعة الكاملة إلى سلطات المتحف البريطاني، عندما تصِل قطع أثاث المقبرة؛ وهو ما فعله منذ ذلك الحين.

ويبدو أنه عاد من باريس في الثالث والعشرين من نوفمبر، وذهب مباشرة إلى محطة قطار تشيرينج كروس، ومنها إلى منزل أحد الأقارب، الذي يُدعى السيد هيرست، وهو رجل

أعزب يعيش في مُقاطعة إلثام. وصل إلى المنزل في الساعة الخامسة والثلث، ونظرًا لأن السيد هيرست لم يكن قد جاء من وسط المدينة ولم يكن مُتوقَّعًا وصوله حتى الساعة السادسة إلا الربع، فقد عرَّف نفسه إلى الخادمة، وقال إنه سينتظر في غرفة المكتب وسيكتُب بعض الخطابات؛ ومِن ثَم، قادته الخادمة إلى غرفة المكتب، ووفرت له أدوات الكتابة وتركته هناك.

وفي الساعة السادسة إلا الربع، فتح السيد هيرست باب المنزل بمفتاحه، وقبل أن تسنحَ للخادمة فرصة التحدُّث إليه، كان قد اجتازها مُتجهًا إلى غرفة المكتب وأغلق الباب.

وفي تمام الساعة السادسة، حين دق جرس العشاء، دخل السيد هيرست غرفة الطعام بمفرده، ولاحظ أن المائدة قد أُعدَّت لفردَين، وتساءل عن السبب!

أجابت الخادمة قائلة: «ظننتُ أن السيد بيلينجهام سيمكُث حتى العشاء يا سيدي.»

صاح صاحب المنزل في دهشة قائلًا: «سيد بيلينجهام! لم أكن أعلم أنه هنا. لماذا لم يخبرني أحد؟»

ردَّت الخادمة: «كنتُ أظنه في غرفة المكتب معك يا سيدي.»

وبناءً على هذا بحثوا عن الزائر، وكانت النتيجة أنه لم يُعثَر على أي أثرٍ له في أي مكان. لقد اختفى دون أن يترك وراءه أثرًا. وما جعل الحادث أكثر غرابةً أن الخادمة كانت متأكدة من أنه لم يخرج من الباب الأمامي؛ ونظرًا لأنها لم تكن هي ولا الطاهي يعرفان السيد جون بيلينجهام معرفةً شخصية، فقد ظلَّا طوال الوقت إما في المطبخ، الذي يطلُّ على البوابة الأمامية، وإما في غرفة الطعام التي تؤدي إلى الردهة المواجهة لغرفة المكتب. وغرفة المكتب نفسها بها نافذة تؤدي إلى قطعة أرضٍ عشبية ضيِّقة، على الجانب الآخر منها تُوجَد بوابة جانبية تؤدي إلى ممشًى؛ ويبدو أن السيد بيلينجهام قد خرج من هذا الطريق الغريب بشكلٍ أو بآخر. وعلى أي حال، وهذه هي الحقيقة المُهمة، لم يكن موجودًا بالمنزل، ولم يرَهُ أحد يغادر.

وبعد أن تناول وجبته مُتعجِّلًا، عاد السيد هيرست إلى المدينة واتجه إلى مكتب محامي السيد بيلينجهام ووكيله الأمين، ويُدعى السيد جيليكو، وذكر له الأمر. لم يكن السيد جيليكو يعرف شيئًا عن عودة مُوكِّله من باريس، واستقل الرجُلان على الفور قطارًا مُتجِهَين إلى وودفورد، حيث يعيش السيد جودفري بيلينجهام، شقيق الرجل المفقود. قال الخادم الذي استقبلهما إن السيد جودفري ليس موجودًا بالمنزل، ولكن ابنته موجودة في المكتبة، وهي عبارة عن مبنًى مُنفصل يقع عند أيكة أشجارٍ خلف الحديقة الموجودة في الجزء الخلفي

من المنزل. وهناك لم يجد الرجلان الآنسة بيلينجهام وحسْب، وإنما وجَدا أباها أيضًا الذي كان قد دخل من البوابة الخلفية.

استمع السيد جودفري وابنته إلى قصة السيد هيرست باستغرابٍ شديد، وأكَّدا لهما أنهما لم يريا أو يسمعا أي شيءٍ عن السيد جون بيلينجهام.

وفي الحال، غادرت المجموعة المكتبة وساروا إلى المنزل؛ ولكن على بُعد بضع أقدام من باب المكتبة لاحظ السيد جيليكو وجود شيءٍ مُلقًى على العُشب وأشار إلى السيد جودفري.

التقطه الأخير، وتعرَّفوا عليه جميعًا بأنه حلية جعران اعتاد السيد جون بيلينجهام أن يرتدِيَه مُتدليًا من سلسلة الساعة. لم يكن هناك ما يدعو إلى اللبس. كان جعرانًا بحالةٍ جيدة يعود إلى الأسرة الثامنة عشرة مُطعَّمًا باللازورد ومنقوشًا حوله إطار مُزخرف لأمنحوتب الثالث. كان مُتدليًا من حلقةٍ ذهبية مُثبتًا بسلكٍ يمرُّ عبر فتحة التعليق، والحلقة، رغم أنها كانت مكسورة، كانت لا تزال في موضعها.

بالطبع، لم يفعل هذا الاكتشاف شيئًا سوى أنه زاد الغموض، الذي تصاعدت وتيرتُه أكثر عندما اكتُشفت، أثناء التحقيق، حقيبة سفرٍ صاحبها مجهول الهوية، تحمل الحروف الأولى ج. ب. في حجرة المعاطف بمحطة تشيرينج كروس. وأظهرت مراجعة الإيصالات الخاصة بسجلِّ التذاكر أنه تم إيداع الحقيبة في توقيت وصول قطار كونتيننتال السريع في الثالث والعشرين من نوفمبر، ومِن ثَم فلا بدَّ أنَّ صاحبها قد ذهب إلى مقاطعة إلثام.

القضية تقف عند هذه النقطة في الوقت الحالي، وإذا لم يظهر الرجل المختفي ثانيةً أبدًا أو إذا لم يُعثَر على جثته أبدًا، فالسؤال الذي لا بدَّ من حَسمه، كما ترون، هو «متى وأين، وما الوقت والمكان تحديدًا، الذي شُوهِد فيه على قيد الحياة لآخِر مرة؟» أما بالنسبة إلى المكان، فأهمية الموضوعات التي لها صِلة بهذا السؤال واضحة للعيان ولسنا بحاجةٍ إلى التفكير فيها. ولكن السؤال المتعلق بالوقت له أهمية مختلفة. كما أشرتُ في المحاضرة، كانت ثمة قضايا ضَمِنَت فيها علامات البقاء على قيد الحياة ولو لأقل من دقيقة توريثَ الممتلكات. وهنا، آخر مرة شُوهد فيها الرجل المختفي على قيد الحياة كانت في منزل السيد هيرست في الساعة الخامسة والثلث من يوم الثالث والعشرين من نوفمبر. ولكن يبدو أنه زار شقيقه في وودفورد، ونظرًا لأنه لم يُشاهده أحد في ذلك المنزل، فليس مؤكدًا ما إذا كان قد ذهب إلى هناك قبل زيارته للسيد هيرست. فإن كان قد ذهب إلى هناك أولًا، فإنَّ الساعة الخامسة والثلث من مساء اليوم الثالث والعشرين هي آخر لحظة شُوهد فيها الرجل على قيد الحياة، وإن كان قد ذهب إلى هناك فيما بعد، فسيكون لزامًا إضافة أقصر وقتٍ ممكن يستطيع فيه الانتقال من هذا المنزل إلى ذاك.

ولكن السؤال المطروح بخصوص أي المنزلَين زاره أولًا، مُتوقف على ارتدائه حلية الجعران. فإذا كان مُرتديًا الجعران حين وصل إلى منزل السيد هيرست، فمن المؤكد أنه ذهب إلى هناك أولًا؛ ولكن إذا لم يكن الجعران حينئذٍ مُعلَّقًا في سلسلة ساعته، فهناك احتمال قائم بأنه ذهب إلى وودفورد أولًا. هكذا، كما تلاحظون، سؤال واحد — لعله صار في أكثر لحظةٍ حيوية ذا أهمية بالغة لتحديد مسألة توريث الممتلكات — مُعتمِد على الملاحظة التي أدلت بها هذه الخادمة بخصوص حقيقةٍ تافهة وبسيطة من الناحية الظاهرية.»

غامرتُ بطرح سؤال: «هل أدلتِ الخادمة بأي بيانٍ حول هذا الموضوع، يا سيدي؟»

أجاب دكتور ثورندايك: «كلَّا، لا يبدو أنها فعلت. وعلى أي حال، لا يُوجَد أي إشارة لهذا البيان في التقارير الصحفية، رغم أن القضية وردت في تقارير بالتفصيل، والتفاصيل الثرية، بما فيها تصميمات كِلا المنزلين، ملحوظة جدًّا وجديرة بالملاحظة باعتبارها تُمثل في حدِّ ذاتها حقيقةً ذات أهمية كبيرة.»

تساءل أحد الطلاب قائلًا: «أهمية كبيرة بخصوص ماذا يا سيدي؟»

رد دكتور ثورندايك قائلًا: «أوه، أظن أنني يجب أن أترككم لتُفكروا في إجابة هذا السؤال بأنفسكم. هذه القضية لم تُطرح بعد في ساحة المحكمة، ويجب ألَّا نستخفَّ بتصرفات الأفراد ودوافعهم.»

سألتُه قائلًا: «هل أتاحت الجرائد أي أوصافٍ للرجل المختفي يا سيدي؟»

«أجل، وصف تفصيلي تمامًا. في الواقع، تفصيلي إلى حدِّ عدم اللياقة، ولنضعْ في الاعتبار أن الرجل ربما يثبت في أي لحظةٍ أنه لا يزال على قيد الحياة وبخير حال؛ إذ يبدو أنه يُعاني من كسر بوت قديم بالكاحل الأيسر، وندبة خطية طولية على رُكبتيه — لم يُذكر المصدر، ولكن يسهل تخمينه — ولقد وَشَم على صدره باللون القرمزي صورةً واضحة جدًّا ودقيقة للغاية لرمز عين أوزيريس — أو عين حورس أو رع، حسب تسمية السلطات المختلفة. لن يكون هناك قطعًا أي صعوبة في التعرُّف على الجثة. ولكننا نأمل ألا يصل الأمر إلى ذلك.

الآن، يجب عليَّ أن أغادر سريعًا، وكذلك أنتم أيضًا، ولكن أودُّ أن أنصحكم جميعًا بشراء نسخة من الجرائد والاحتفاظ بها بعدما تقرءُون التفاصيل الكاملة اللافتة للنظر. إنها إحدى أغرب القضايا، ومن المرجَّح جدًّا أننا سنسمع عنها مرة أخرى. طاب يومكم، يا شباب.»

راقت نصيحة دكتور ثورندايك كل من سمعوها، حيث كانت مادة الطب الشرعي في الكلية التابعة لمستشفى سانت مارجريت مادةً مثيرة ومُفعمة بالحيوية، وكنَّا جميعًا

مُهتمين بها أيما اهتمام؛ ومِن ثَم، انطلقنا في مجموعاتٍ إلى أقرب بائع جرائد، واشترى كل منَّا نسخةً من جريدة «ديلي تليجراف»، ثم توجَّهنا معًا إلى غرفة السكن الجامعي لنقرأ في تشوُّقٍ التقرير ثم نناقش الاحتمالات الخاصة بالقضية، غير عابئين بالاعتبارات الحسَّاسة التي شغلت مُعلمنا الأكثر دقةً وتدقيقًا.

الفصل الثاني

المتنصِّت

تُعدُّ إحدى قواعد السلوك القويم، المرتبطة ارتباطًا وثيقًا (في السياق الملائم) بجميع الأشخاص المهذبين، هي ضرورة تقديم المعارف تقدمةً لائقة. الآن، يجدُر بي الالتزام بهذه القاعدة الصارمة، التي تغاضَيْتُ عنها على مدى فصلٍ كامل؛ وقد مر ما يقرب من عامين على أول ظهور غير رسمي لي.

اسمحوا لي أن أقدِّم لكم بول بيركلي، الحاصل على بكالوريوس طب، وما إلى ذلك، مؤخرًا — مؤخرًا جدًّا — والمؤهَّل للعمل، والذي يرتدي بالكامل السترة السوداء الاحترافية وقبعةً طويلة، في لحظة تقديمه هذه كان يجول بحرصٍ يشوبه القلق في ممرٍّ ضيق بين صفٍّ من أشولة الفحم الممتلئة عن آخِرها وطبق ضخم مُكدَّس بثمار البطاطس الصغيرة الحجم.

قادني هذا الممر الضيق إلى أرضٍ فسيحة لحارة فلور دي ليس، حيث وقفت لدقيقةٍ لمراجعة قائمة زياراتي. كان أمامي مريض واحد لزيارته هذا الصباح يسكن في ٤٩ نيفيلز كورت، أينما كان هذا العنوان. سعيتُ للحصول على معلومات من صاحبة متجر الفحم.

«هلَّا من فضلك أرشدتِني إلى شارع نيفيلز، سيدة جابليت؟»

كان بوسعها أن تُرشدني، وأرشدتني فعلًا، ممسكةً بذراعي على انفراد (حتى ظلَّت علامة أصابعها على كمِّي لأسابيع) مشيرة بسبابتها المهتزة إلى الجدار المصمت أمامي. قالت السيدة جابليت: «نيفيلز كورت يقع في حارة، تدخلها عبر قنطرة. وعندما تمضي قدمًا يظهر على اليمين حارة فيتر، في الجهة المقابلة من مباني بريم.»

شكرتُ السيدة جابليت ومضيتُ في طريقي وأنا سعيد بأن الجولة الصباحية أوشكت على الانتهاء، مُدركًا بشكلٍ غامض النزعة المتزايدة والرغبة في الاغتسال بماءٍ ساخن.

الكشف الذي كنت أقوم به لم يكن خاصتي. كان كشفًا منوطًا بأدائه ديك برنارد المسكين، رجل عجوز يعمل بمستشفى سانت مارجريت ذو روح جامحة وبنية ضئيلة، وكان قد بدأ في اليوم السابق رحلةً عبر البحر المتوسط على متن سفينةٍ تعمل في تجارة العنب؛ وكانت هذه الجولة؛ جولتي الصباحية الثانية، تُشبه رحلة استكشاف جغرافي.

سرتُ بخطًى سريعة متجهًا إلى حارة فيتر حتى وصلتُ إلى فتحة ضيقة مقنطرة، تحمل لافتة «نيفيلز كورت»، أبطأت خطواتي، وهنا التفتُّ لأواجه واحدةً من تلك المفاجآت التي تنتظر المتجول في الطرق الجانبية بلندن. توقَّعت العثور على الواجهة القذرة الكئيبة للقصور المعتادة في لندن، إلا أنني نظرتُ من تحت ظلال القنطرة إلى ما وراء صفٍّ من المتاجر الصغيرة ذات المستوى الجيد عبر مشهدٍ مفعم بالأضواء والألوان — مشهد الأسقف والجدران القديمة مُغطاة بألوانٍ باهتة تُنعشها أوراق النباتات المضاءة بأشعة الشمس. فأن ترى شجرة في قلب لندن بمثابة مفاجأة سارة دائمًا؛ ولكن هنا لا تُوجَد أشجار فقط؛ وإنما شُجيرات وزهور أيضًا. كانت الأرصفة الضيقة يُتاخمها حدائق صغيرة ذات أسيجةٍ خشبية وشُجيرات منسَّقة جيدًا، أضافت إلى المكان طابعًا ريفيًّا جذابًا ووقورًا؛ بينما كنتُ أَهِمُّ بالدخول، صادفتُ سربًا من العاملات، يرتدين بلوزات مبهجة الألوان وشعورهن تلمع في ضوء أشعة الشمس، مما جعل الخلفية الهادئة تسطع بالضوء كالزهور البرية التي تزخرف سياجًا من أشجار الصيف.

وفي إحدى الحدائق، لاحظت أن الممرات الصغيرة كانت مُعبَّدة بما يشبه البلاط الدائري، ولكن عند تدقيق النظر، وجدت أنه حجر قديم الطراز على هيئة قوارير الحبر، الجزء السُّفلي منها مقلوب لأعلى؛ كنت أتأمل الغرور الغريب الذي قاد كاتب العدل المنسي الذي زخرف محيط مسكنه بهذه الطريقة — أو لعلَّه يكون كاتب قانون أو مؤلفًا أو ربما يكون شاعرًا — حين لاحظت الرقم الذي كنت أبحث عنه مكتوبًا على بابٍ مُهترئ من جدار عالٍ. لم يكن هناك جرس ولا مطرقة، ومِن ثَم رفعت المزلاج ودفعت الباب ودخلت.

ولكن إذا كانت الحارة في حدِّ ذاتها مفاجأة، فقد كان هذا مُدهشًا على نحوٍ إيجابي وكأنه حلم. وهنا على مقربةٍ من ضجيج شارع فلييت، كنت أقف داخل حديقةٍ عتيقة الطراز محاطة بجدران عالية، والآن بعد أن أُغلقت البوابة، انقطعت الحديقة عن مرأى

ومعرفة العالَم الحضري المهتاج بالخارج. وقفتُ وحدَّقت في دهشة مبتهجة؛ أشجار لامعة بأشعة الشمس وأحواض زهور يانعة الخطمية الوردي الرائع، كل هذا يُشكِّل طليعة المشهد؛ وفوقها تُحلق فراشتان ذواتا لونٍ أصفر فاقع، غافلتان عن قطةٍ بيضاء سمينة ونظيفة على نحو إعجازي تلاحقهما، وهي تتراقص عبر الحدود وتلوِّح بمخالبها البيضاء، كبياض الثلج، في الجو سُدًى. لم تكن خلفية المشهد أقل روعة؛ كان يطلُّ على هذه الحديقة منزل عتيق فاخر له سقف داكن وطراز مهيب يعود إلى الفترة التي كان يُحمل فيها العجائز المتأنقون على مِحَفَّاتٍ عبر الفناء، وكان النبيل إيزاك والتون يتسلل من متجره في شارع فليت، ويتجول في حارة فيتر ذاهبًا إلى منطقة تمبل ميلز ليصطاد.

كنتُ مبهورًا جدًّا بهذا المشهد الخلَّاب المفاجئ لدرجة أن يدي كانت تقترب من مقبض الجرس المتدلي قبل أن أستجمع نفسي، ولم أنتبه حتى ذكَّرني أبشع صوت صلصلة آتٍ من الداخل بمهمَّتي، لاحظتُ بالأسفل منه لوحة نحاسية صغيرة مكتوبًا عليها «الآنسة أومان».

انفتح الباب على نحوٍ مباغت بعض الشيء، رمقتْني سيدة قصيرة القامة في منتصف العمر بنظرات نهمة.

«هل قرعتُ الجرس بالخطأ؟» سألتها بحماقةٍ بالغة، لا بدَّ أن أعترف بذلك.

فردَّت بسؤال: «كيف يمكنني أن أعرف؟ أتوقع أنك فعلتُها. هو أمر قد يفعله الرجال — يقرعون الجرس ثم يعتذِرون.»

أجبتُ بسرعة: «لم يبلُغ بي الأمر هذا الحد. يبدو أن هذا كان له التأثير المرغوب، بالإضافة إلى أنني اكتسبتُ معرفتك.»

تساءلت قائلة: «من الذي تريد زيارته؟»

«السيد بيلينجهام.»

«هل أنت الطبيب؟»

«أنا ... أنا طبيب.»

قالت الآنسة أومان: «اتبعني إلى الطابق العلوي ولا تضع يدك على الطلاء.»

عبرتُ الردهة الفسيحة تسبقني مُضيفتي، وصعدتُ درجًا من سلالم خشب البلوط الفخم، كنتُ أمشي بعناية على شريطٍ من الحصير مفروش في منتصف الدرَج. توقفت الآنسة أومان في الطابق الأول وفتحت بابًا وأشارت إلى الغرفة قائلة: «ادخل إلى هنا وانتظر، سأُخبرها بأنك قد أتيت.»

«قلت — السيد — بيلينجهام.» هممتُ بقول هذه العبارة ولكن أُغلق الباب بعنف، وخفَتَ وقع أقدام الآنسة أومان بسرعة وهي تنزل الدرج.

في الحال اتَّضح لي أنني كنتُ في وضع صعب للغاية. الغرفة التي اقتُدت لها كانت ملحقةً بغرفة أخرى، ورغم أن الباب الفاصل بينهما كان مغلقًا، فقد أدركتُ على نحوٍ بغيض أن ثمة محادثة تجرى في الغرفة المجاورة. في البداية، وصلني عبر الباب مجرد تمتمة مُبهمة، بعباراتٍ غير مترابطة، ثم فجأة رنَّ صوت غاضب بوضوحٍ وعلى نحو جليٍّ ومؤلم.

«أجل، فعلتها! وأُكرِّرها مرة أخرى. رشوة! مؤامرة! هذا ما بلغه الأمر. أنت تريد رشوتي!»

«لا شيء من هذا القبيل، جودفري.» جاء الردُّ بنبرةٍ منخفضة أكثر؛ ولكن عند هذه اللحظة سعلتُ بشدة وحركتُ أحد الكراسي، انخفض الصوتان مرةً أخرى إلى همهمةٍ مُبهمة.

ولكي أُشتِّت انتباهي بعيدًا عن جارَيَّ الخفيَّين، رمقتُ الغرفة في فضول وتكهنت بشخصيات سكانها. كانت غرفة غريبة جدًّا، ذات إيحاء مؤثر بفخامة بالية ووقار العالم القديم؛ غرفة مثيرة للاهتمام، ذات طابع مميز ومليئة بالاختلافات والتناقضات المحيرة. فالجزء الأغلب منها ينمُّ عن فقرٍ لا تخطئه عين؛ لكنه جدير بالاحترام. كادت الغرفة أن تكون خاليةً من الأثاث تقريبًا، والقليل الموجود كان عبارة عن أرخص أثاث: طاولة مطبخ صغيرة وثلاثة كراسي وندسور خشبية (اثنان منها بلا أذرع)، وسجادة رثَّة مفروشة على الأرض، ومَفرش قطني رخيص فوق الطاولة؛ هذا بالإضافة إلى مجموعة أرفف، مصنوعة بلا شك من صناديق البقالة. شكَّل كل هذا جناحًا بأكمله. وعلى الرغم من فقره، بدا المكان مُغلفًا بأجواءٍ منزلية مريحة بل زاهدة، وذوق رفيع لا غبار عليه. كان اللون الخمري الهادئ لمفرش الطاولة متوافقًا على نحوٍ سائغ مع اللون الأخضر الباهت المائل للزرقة للسجادة البالية، كانت الكراسي وأرجل الطاولة قد تعرَّت من الطلاء اللامع وبقيتْ ملطخةً باللون البني. وبساطة المشهد بأكمله استعارتها جرَّة صفراء فاقعة اللون ذات زهورٍ نضرة وُضعت في منتصف الطاولة.

غير أن التناقُضات التي تحدثتُ عنها كانت الأكثر غرابةً وغموضًا. فعلى سبيل المثال، كانت أرفُف الكتُب منزلية الصنع ومطلية بتكلفة زهيدة، ولكنها زاخرة بأحدث وأجدد الأعمال الباهظة من عِلم الآثار والفنون القديمة. وكان يُوجَد أغراض على رف المدفأة: نسخة

طِبق الأصل بالبرونز — لا الجص البرونزي اللون — من تمثال رأس هيبنوس الجميل، وزوج من تماثيل أوشبتي. كانت ثمة ديكورات على الجدران؛ عدد من النقوش — أدلة موقعة، على كل واحدٍ منها — لموضوعاتٍ شرقية ونُسَخ طبق الأصل رائعة من أوراق البردي المصرية. كان التناقُض لأقصى درجة، هذا المزيج من الأعمال النفيسة وضرورات الحياة البخسة والرثة، من الثقافة المرهفة والفقر الواضح. لم أستطع فهم شيء من هذا. تساءلتُ في نفسي: أي نوع من الرجال ينتمي إليه مريضي الجديد؟ هل هو رجل بخيل، يُخفي نفسه وثروته داخل هذه الحارة المنعزلة؟ عالِم غريب؟ أم فيلسوف؟ أم شخص غريب الأطوار، وهو الأكثر ترجيحًا؟ ولكن عند هذه اللحظة، قطع تأمُّلاتي صوت قادم من الغرفة المجاورة، ارتفع الصوت مرةً أخرى في غضب.

«ولكني قلت إنك ... إنك توجِّه اتهامًا! أنت تُلمح بأنني قتلتُه.»

جاء الرد: «إطلاقًا، ولكني أُكرر أنها مسئوليتك أن تتحقق مما حدث له. المسئولية تقع على عاتقك.»

ردَّ الصوت الأول قائلًا: «على عاتقي أنا! وماذا عنك؟ موقفك مُريب جدًّا، إذا كنَّا سنتحدَّث بصراحة.»

صرخ الصوت الآخر: «ماذا؟ هل تُلمح بأنني قتلتُ أخي؟»

أثناء هذا الحديث العجيب، وقفتُ فاغرًا فمي في دهشةٍ عارمة. ثم استجمعت نفسي فجأة، وجلستُ على الكرسي، ووضعتُ مِرفقي على ركبتي وربتُّ بيديَّ على أُذنيَّ؛ لا بدَّ أنني بقيتُ في هذا الوضع لدقيقة كاملة حين أدركت أن بابًا يُغلق خلفي.

وقفتُ على الفور واستدرتُ وقد بدا عليَّ بعض الإحراج (لا بدَّ أنني بدوتُ سخيفًا بشكلٍ لا يُوصَف) لأواجه فتاةً طويلة القامة وبارعة الجمال على نحوٍ لافت للنظر، وقفت ويدها على مقبض الباب، حيَّتني بإيماءةٍ رسمية. ومن نظرةٍ خاطفة، لاحظتُ كيف توافقتْ على نحوٍ مُتقن مع ما يحيط بها. رداء أسود، وشعر أسود، وعينان سوداوان رماديَّتان، ووجه حزين شاحِب وحاسِم ذو بشرةٍ عاجية اللون، وقفتْ وكأنها إحدى لوحات الرسام جيرارد تيربورخ القديمة؛ تناسُق في درجات الألوان محدود للغاية لدرجةٍ تجعلها صورة مقتصرة على لونٍ واحد فقط. وعلى الرغم من الرداء الرث البالي، فإن ثمة شيئًا في وضعية الرأس المتزن والحواجب المستقيمة يُوحي بأنها تملك روحًا لم تكسرْها الشدائد وإنما زادتها قوة.

قالت: «يجب أن أطلُب منكَ أن تُسامحني على تركك تنتظر.» بينما كانت تتحدَّث، برز قَدْر من اللين عند زاويتي الفم المتيبِّس ذكَّرني بالموقف السخيف الذي وجدَتْني فيه.

تمتمت قائلًا إن التأخير كان بسيطًا ولا يترتب عليه أي عواقب من أي نوع، وإنني في الواقع سعدتُ بالاستراحة القصيرة؛ وكنتُ، على نحوٍ غامض بعض الشيء، بصدَد التطرُّق إلى موضوع المريض حين اخترقَ الصوت القادم من الغرفة المجاورة بوضوحٍ بشِع:

«قلتُ لك إنني لن أفعل شيئًا من هذا القبيل! يا إلهي، تبًّا لك، الأمر لا يقلُّ عن كونه مؤامرةً كما تقترح!»

سارت الآنسة بيلينجهام — حسبما افترضتُ أن تكون — عبر الغرفة بسرعة، مُستشيطة غضبًا على الأرجح؛ ولكنها بمجرد أن وصلتْ إلى الباب، فُتح ليخرج مُسرعًا إلى الغرفة رجلٌ نحيف أنيق الهندام في منتصف العمر.

صاح قائلًا: «جُنَّ والدُك، يا روث! جُنَّ تمامًا! وأنا أرفض استمرار التواصُل معه بأي شكلٍ من الأشكال.»

ردَّت الآنسة بيلينجهام ببرود: «هو لم يسْعَ للمقابلة الحالية.»

جاء الردُّ الغاضب: «كلَّا، لم يكن الأمر كذلك. كرَمي كان غلطتي. ولكن ها أنا ذا. ما فائدة الحديث؟ لقد بذلتُ قصارى جهدي من أجلكم ولن أبذل المزيد. لا تُتعبي نفسك لتوصيلي إلى الخارج؛ أستطيع الخروج بنفسي. صباح الخير.» قالها بإيماءةٍ جامدة ونظرة سريعة إليَّ، خرج المتحدِّث من الغرفة، وأغلق الباب بقوةٍ وراءه.

قالت الآنسة بيلينجهام: «حريٌّ بي أن أعتذِر على هذا الاستقبال الغريب؛ ولكن أعتقد أن الأطباء لا يندهِشون بسرعة. سأُقدمك إلى مريضك حالًا.» فتحت الباب، بينما تبعتُها إلى الغرفة المجاورة، ثم قالت: «إليك زائر آخر، يا عزيزي. دكتور ...»

قلت: «بيركلي. أنا أنوب عن صديقي دكتور برنارد.»

كان المريض رجلًا وسيمًا يبلغ من العمر نحو خمسةٍ وخمسين عامًا، جالسًا في الفراش مدعومًا بكومة وسائد؛ مدَّ المريض يدًا مُرتعشة بشدَّة، أمسكتُ بها على نحوٍ ودود وسجَّلت في ذهني ملاحظةً عن الرعشة.

قال السيد بيلينجهام: «كيف حالك، يا سيدي؟ أتمنَّى ألا يكون دكتور برنارد مريضًا.»

أجبته قائلًا: «أوه، كلَّا. لقد ذهب في رحلةٍ عبر البحر الأبيض المتوسط على متن سفينة تجارية. لقد أتته الفُرصة فجأة، وشجَّعتُه على قبولها قبل أن يُغير رأيه. ولذا، جاءت زيارتي غير رسمية، وأتمنى أن تصفح عن ذلك.»

جاء ردُّه الودود قائلًا: «لا عليك. أنا سعيد بأنك شجَّعته على الرحلة، الرجل المسكين كان يريد إجازة. كما أنني سعيد أيضًا بمعرفتك.»

قلت: «هذا لُطف بالغ منك.» وحينئذٍ أومأ بخفة بالقدْر المسموح لرجل يجلس في الفراش تدعمه كومة من الوسائد، وبعد الانتهاء من تبادل عريضةٍ من مُقدِّمات اللُّطف والكياسة، إن جاز التعبير، بدأنا أو على الأقل بدأتُ العمل.

سألته في حذر، راغبًا في عدم توضيح حقيقة أن مُديري لم يُعطني أي معلوماتٍ بخصوص حالته الصحية: «منذ متى وأنت راقِد في الفراش؟»

ردَّ قائلًا: «أسبوع حتى اليوم. بدأتِ الحادثة المشئومة بسائق عربة خيول اعترض طريقي أمام محاكم العدل الملكية، وطرحَني أرضًا وسط الشارع. بالطبع، الغلطة غلطتي، أو على الأقل هذا ما قاله السائق، أفترض أنه قالها. ولكن هذا لم يُواسِني.»

«هل تأذَّيتَ كثيرًا؟»

«كلَّا، ليس تمامًا؛ ولكنَّ السقوط أصاب رُكبتي بكدمةٍ شديدة نوعًا ما تسبَّبت لي في صدمة. كما ترى أنا رجُل طاعن في السن ولا يمكنني تحمُّل مثل هذه الأشياء.»

قلت: «أغلب الناس كذلك.»

«صحيح، ولكن يمكنك أن تقود آلة الحصاد بسلاسةٍ وأنت في العشرين من عمرك أكثر مما لو فعلتَ وأنت في الخامسة والخمسين. غير أن الركبة تتحسَّن بصورة كبيرة — يمكنك أن تكشف عليها الآن — وستُلاحظ أنني أمنحها الراحة التامة. لكن هذه ليست كل المشاكل أو أسوأها. المشكلة في أعصابي المرتبكة. فأنا سريع الانفعال كشيطانٍ وعصبي كقط. ولا أستطيع الحصول على قِسط من الراحة ليلًا.»

تذكَّرت اليد المرتعشة التي مدَّها إليَّ. لا يبدو أنه شخص سكِّير، ولكن لا يزال …

سألته بنبرةٍ دبلوماسية: «هل تُدخِّن كثيرًا؟»

نظر إليَّ نظرة خبيثة وضحك قائلًا: «هذه طريقة كَيِّسة جدًّا لطرح الموضوع، يا دكتور. كلَّا، أنا لا أُدخن كثيرًا، أنا لا أثني إصبعي الصغير. رأيتُك تنظر إلى يدي المرتعشة الآن، أوه، هوِّن عليك؛ أنا لستُ مستاءً. مهمة الطبيب أن يبقى يقظًا. ولكن يدي ثابتة بدرجةٍ كافية عمومًا، حين لا أكون مُضطربًا، ولكن أقل انفعال يجعلني أرتجف كحلوى الهلام. والحقيقة أنني كنتُ في مقابلة مزعجة جدًّا …»

قاطعتْهُ الآنسة بيلينجهام قائلة: «أظن أن دكتور بيركلي بالتأكيد، والحيَّ بأكمله، يُدركون هذه الحقيقة.»

ضحك السيد بيلينجهام في خجلٍ بالغ وقال: «آسِف على أنني فقدت أعصابي، ولكنني عجوز مُتهور، يا دكتور، وحين أنزعج أكون على استعدادٍ للتعبير عن رأيي، ربما بقدْرٍ قليل جدًّا من الغلظة.»

وأضافت ابنته: «وبصوتٍ عالٍ. هل تعرف أن دكتور بيركلي اضطر إلى سدِّ أُذنيه؟» نظرت إليَّ أثناء حديثها، وفي عينيها الرماديتين الوقورتين بريق.

«هل صحت؟» تساءل السيد بيلينجهام، دون إبداء ندمٍ شديد، وأظن أنه أضاف: «آسِف جدًّا يا عزيزتي؛ ولكن لن يتكرر الأمر مرة أخرى. أظن أن هذه هي المرة الأخيرة التي سنرى فيها ذلك الرجل الطيب.»

ردَّت قائلة: «بالتأكيد أتمنى ذلك. والآن، سأتركك لتستأنف حديثك؛ سأكون في الغرفة المجاورة إذا كنتَ تريدني.»

فتحتُ لها الباب، وعندما خرجت أشارت إليَّ بإيماءةٍ رسمية بسيطة، جلستُ عند طرف السرير واستكملتُ الكشف. كان من الواضح أنها حالة انهيارٍ عصبي، لا شك أن حادثة عربة الخيول أسهمت فيها. وأما بالنسبة إلى السوابق الأخرى، فلم تكن من اهتماماتي، رغم أن السيد بيلينجهام أبدى أنه يظن العكس، حيث استطرد قائلًا: «كانت حادثة العربة هذه القشة التي قصمت ظهري وقضت عليَّ، كما تلاحظ، ولكن ساءت الأمور معي أكثر فأكثر منذ فترةٍ طويلة. لقد عانَيت من مشكلاتٍ كثيرة خلال السنتين الأخيرتين. وأظنُّ أنني لا ينبغي أن أزعجك بتفاصيل حياتي الشخصية.»

قلتُ له: «أنا مُهتم بأي شيءٍ يؤثر على حالتك الصحية الحالية إن كنت لا تمانع في إخباري بها.»

هتف قائلًا: «أُمانع! هل التقيتَ من قبلُ مريضًا لا يستمتع بالحديث عن حالته الصحية؟ القاعدة العامة هي أن المستمع هو الذي يمانع.»

قلت: «حسنًا، المستمع الحالي لا يمانع.»

قال السيد بيلينجهام: «إذن، سأنتهز الفرصة لإخبارك بجميع مشكلاتي، فأنا لا تُتاح لي الفرصة عادةً لأشكو إلى شخصٍ مسئول ومؤتمَن من طبقتي. وأنا لي بعض الأعذار لأشكو حظي، كما ستتَّفِق معي عندما أخبرك أنني قبل عامين مَضيا أويتُ إلى الفراش في إحدى الليالي وأنا رجل مُستقل لديَّ مواردي الخاصة وأتمتع بإمكانيات رائعة، واستيقظتُ في الصباح لأجد نفسي شحَّاذًا تقريبًا. وكما تعلم، هذه تجربة من حياتي ليست مبهجة على الإطلاق، أليس كذلك؟»

وافقتُه الرأيَ قائلًا: «بلى، ولا حياة أي شخصٍ آخر.»

واستطرد قائلًا: «ولم يكن هذا كل شيء؛ حيث إنني في اللحظة نفسها فقدتُ أخي، وأعز وأطيب أصدقائي. اختفى — اختفى من فوق وجه الكرة الأرضية — ولعلك سمعتَ عن القضية. الجرائد اللعينة تعجُّ بهذه القضية في الوقت الحالي.»

توقف فجأة، وقد لاحظ بلا شكٍّ تغيرًا مفاجئًا في ملامح وجهي. بالطبع، تذكرتُ القضية الآن. ومنذ أن دخلتُ المنزل وثمة وترٌ في الذاكرة يهتزُّ بصوت ضعيف، إلا أن كلماته الأخيرة جعلت النغمة الموسيقية واضحة.

عقَّبت قائلًا: «أجل، أتذكر الحادثة، على الرغم من أنني لا أظن أنها كانت لتلفتَ انتباهي لولا أن مُحاضر مادة الطب الجنائي أشار إليها.»

قال السيد بيلينجهام في استياءٍ بالغ، كما خُيل إليَّ: «بالتأكيد، ماذا قال عنها؟»

«أشار إليها باعتبارها قضية يظن أنها تنطوي على بعض التعقيدات القانونية المثيرة جدًّا.»

صاح السيد بيلينجهام: «يا إلهي! هذا الرجل عرَّاف! تعقيدات قانونية، قطعًا! ولكني مُتأكد من أنه لا يتوقَّع مُطلقًا أي نوع من التعقيدات الجهنمية التي تجتمع حول القضية بالفعل. بالمناسبة، ما اسمه؟»

أجبتُه قائلًا: «ثورندايك؛ دكتور جون ثورندايك.»

كرَّر السيد بيلينجهام بنبرةٍ تأملية وكأنه يستعيد ذكريات الماضي قائلًا: «ثورندايك. يبدو أنني أتذكر الاسم. أجل، بالتأكيد. لقد سمعتُ صديقًا لي من الأوساط القانونية، يُدعى السيد مارشمونت، يتحدث عنه في إشارةٍ إلى قضية رجل كنتُ أعرفه معرفة سطحية منذ سنوات — رجل يُدعى جيفري بلاكمور اختفى في ظروفٍ غامضة جدًّا. أتذكَّر الآن أن دكتور ثورندايك حلَّ لغز هذه القضية ببراعةٍ لافتة للأنظار.»

اقترحت عليه: «أجرؤ على القول إنه سيكون مُهتمًّا جدًّا بسماع قضيتك.»

فجاء ردُّه: «أفترض أنه سيهتم. ولكن لا يستطيع المرء أن يأخذ من وقت شخصٍ محترف بلا مُقابل، وأنا لا أستطيع تحمُّل تكلفة نفقاته. وهذا يُذكرني بأنني آخُذ من وقتك للحديث عن شئونٍ شخصية صِرفة.»

قلت له: «انتهت جولتي الصباحية، بالإضافة إلى أن شئونك الشخصية مُثيرة جدًّا للاهتمام. أظن أنني لا يجب أن أسأل عن طبيعة التعقيدات القانونية!»

«إلا إذا كنتَ مُستعدًّا لقضاء باقي اليوم هنا، وتعود إلى المنزل وقد فقدتَ عقلك كمجنونٍ يهذي. ولكني سأخبرك بالكثير: المشكلة متعلقة بوصية أخي المسكين. ففي المقام الأول، لا يمكن تنفيذها لأنه لا يُوجَد دليل كافٍ بأنَّ أخي تُوفي؛ وثانيًا، وإذا كان من الممكن تنفيذها، فإن الممتلكات ستذهب إلى أشخاصٍ لم يكن من المفترض أبدًا أن يستفيدوا منها. الوصية في حدِّ ذاتها هي أكثر وثيقة تُثير السخط أعدتها البراعة المنحرفة لرجلٍ عنيد. هذا هو كل ما في الأمر. هلا كشفتَ على رُكبتي!»

ونظرًا لأن شرح السيد بيلينجهام (الذي جاء بنبرةٍ سريعة ومُتصاعدة انتهت تقريبًا بصرخة) تركه في حالة انفعالٍ انعكست على وجهه المحتقن ورعشةِ يده، رأيتُ أنه من الأفضل إنهاء حديثنا. وبناءً على ذلك، شرعتُ في فحص الركبة المصابة، التي كانت الآن على ما يُرام تقريبًا، وفحصتُ مريضي فحصًا عامًّا؛ وأعطيته تعليماتٍ تفصيلية بخصوص سلوكه العام، ونهضتُ وهممتُ بالرحيل.

وقلتُ له وأنا أصافح يدَه: «تذكَّر، ممنوع التبغ والقهوة والانفعال بأي شكلٍ من الأشكال. عِشْ حياةً هادئة بلا انفعال.»

قال في تذمُّر: «كل هذا جميل جدًّا، ولكن افترض أن الناس أتَوا إلى هنا واستفزوني؟»

قلت له: «تجاهلهم واقرأ روزنامة ويتاكر.» وبهذه النصيحة الأخيرة خرجتُ مُتجهًا إلى الغرفة الأخرى.

كانت الآنسة بيلينجهام تجلس إلى المائدة وأمامها كومة من الكراسات المغلَّفة باللون الأزرق، اثنتان منها كانتا مفتوحتين، تُظهران صفحاتٍ مكتوبة بخطٍّ صغير مُنمق. وقفتْ بمجرد أن دخلتُ ونظرتْ إليَّ مُستفسِرة.

قالت: «سمعتُك تنصح أبي أن يقرأ روزنامة ويتاكر؛ هل هذا تدبير علاجي؟»

أجبتُها قائلًا: «تمامًا، لقد نصحتُ بها لمناقبها الدوائية، باعتبارها ترياقًا ضد الانفعال النفسي.»

ابتسمَتْ في تردُّد وقالت: «لا بدَّ أنه بالتأكيد ليس كتابًا شديد العاطفية!» ثم تساءلت: «هل لديك أي تعليمات أخرى؟»

«حسنًا، لعلِّي أُسدي النصيحة التقليدية ألا وهي الحفاظ على أجواءٍ مرِحة وتجنُّب القلق؛ ولكني لا أعتقد أنكِ ستجدينها مُفيدة.»

ردَّتْ في مرارة قائلة: «كلَّا، إنها نصيحة مثالية. الناس في موقفنا لا ينتمون إلى طبقةٍ مرحة للغاية؛ يؤسِفني أن أقول إنهم لا يسعَون وراء دواعي القلق من منطلق العناد الصرف. وإنما يأتيهم القلق دون سَعي منهم. ولكن لا يسعك الدخول في هذا النقاش.»

«يؤسِفني أنني لا أستطيع تقديم مُساعدة عملية في هذا الصدد، ولكني آمُل من كل قلبي أن تستقيم أمور والدِك وتُحل مُشكلاته في القريب العاجل.»

شكرتْني على أُمنياتي الطيبة ورافقتني إلى الطابق السفلي وحتى باب الخروج، وبإيماءةٍ ومصافحةٍ جامدة بعض الشيء ودَّعتْني.

عصفَ ضجيج حارة فيتر الشديد بأُذنيَّ وأنا أمرُّ عبر القنطرة، وظهرت قذارة الشارع الصغير واضطرابه الشديد مقارنةً بوقار وهدوء الأديرة الخاصة بالحديقة العتيقة. أما العيادة، بأرضيتها المفروشة بالمشمع وحوائطها، فقد كانت بغيضة بأطُرها الذهبية الزائفة المبهرجة لبطاقات التأمين، كان مظهرها مُثيرًا للاشمئزاز لدرجة أنني توجَّهت مُسرعًا إلى سجلِّ الزيارات اليومية لتشتيت انتباهي، وشغلتُ نفسي بتسجيل زيارات الصباح حين دخل التمرجي، أدولفوس، خلسةً ليعلن وقت الغداء.

الفصل الثالث

جون ثورندايك

حقيقة أن شخصية المرء تنعكس كثيرًا على ملابسه هي حقيقة معروفة لمن يتحلَّى بأقل قدرٍ من قوة الملاحظة. وحقيقة أن هذه الملاحظة تنطبق تمامًا على مجموعات الرجال هي حقيقة مُتعارف عليها بدرجةٍ أقل؛ إلا أنها على القدْر نفسه من الصحة. أليس أفراد المهن القتالية يرتدون حتى يومنا هذا الريش والألوان المبهرجة والحُليَّ المطلية بالذهب، على غرار قادة الحروب الأفارقة أو «شجعان» الهنود الحمر، وبالتالي تُشير إلى مكانة الحروب في الثقافة الحديثة؟ ألا ترسل الكنيسة الرومانية قساوستها إلى مذبح الكنيسة بملابس كانت شائعة قبل سقوط الإمبراطورية الرومانية، كرمزٍ يُشير إلى تحفظها الراسخ؟ وأخيرًا، ألا يرمز رجال القانون، الذين يأتون في ذَيل التقدُّم، بخضوعهم إلى طقس ارتداء الباروكة الذي يعود إلى الأيام الخوالي لحُكم الملكة آن؟

يجب أن أعتذر للقارئ على إقحامه في هذه التأمُّلات السخيفة بعض الشيء؛ التي أثارتها الأدوات الغريبة التي يعرضها متجر صنع الباروكات في الأروقة المسقَّفة لإنر تيمبل (مجمع لنقابات المهن القانونية)، حيث كنتُ أتجول في فترة ما بعد ظهيرة يوم قائظ بحثًا عن مكانٍ ظليل وهادئ. وقفتُ أمام نافذة عرض متجر صغير، مُثبتًا عينيَّ بنظرة حالمة على صفٍّ من الباروكات، كنت مستغرقًا في متابعة سلسلة الأفكار الآنفة الذكر حين فاجأني صوت عميق يقول بعذوبة في أذني: «لو كنتُ مكانك لاشتريتُ الباروكة الطويلة.»

استدرت بسرعة وعنف بالغين، ونظرتُ إلى وجه صديقي القديم وزميل الدراسة، جيرفيس، ومن ورائه وَقَفَ مُدرسي السابق، دكتور ثورندايك، يرمُقنا بابتسامة رزينة. رحَّب بي كِلا الرجلين ترحيبًا حارًّا لدرجة أنني شعرتُ بتملُّق شديد، حيث إن ثورندايك كان شخصية عظيمة للغاية، وكان جيرفيس يَسبقني أكاديميًّا بعدة سنوات.

قال ثورندايك: «آمُل أن تأتي لتناول الشاي معنا.» وحين قبلتُ الدعوة بكل سرورٍ أخذني من ذراعي وقادني عبر الفناء في اتجاه وزارة المالية.

سألني قائلًا: «ولكن لماذا كنتَ تنظُر إلى تلك الحُلي الخاصة بالقضاة بنظرةٍ نهمة، يا بيركلي؟ هل تُفكر أن تسير على خُطاي أنا وجيرفيس، وتترك طرف السرير وتتَّجِه إلى نقابة المحامين؟»

هتفتُ قائلًا: «ماذا! هل دخل جيرفيس مجال القانون؟»

أجاب جيرفيس: «باركك الرب، أجل! لقد صرتُ أتطفل على ثورندايك! كما تعلم؛ البراغيث الكبيرة لديها براغيث صغيرة. أنا جزء من الكسر الذي يأتي خلف العلامة العشرية بعد رقمٍ كبير.»

قاطعه ثورندايك قائلًا: «لا تُصدِّقه يا بيركلي. هو العقل المدبر للشركة. أنا أقدم عُنصر الاحترام والقيمة الأخلاقية. ولكنك لم تجب عن سؤالي. ما الذي تفعله هنا في فترة ما بعد الظهيرة في يومٍ صيفي مُحدقًا في نافذة عرض صانع باروكات؟»

«أنا طبيب بديل عن برنارد؛ الطبيب الذي يعمل بعيادة في حارة فيتر.»

قال ثورندايك: «أعرف ذلك، نحن نلتقي به من وقتٍ لآخَر، لقد بدا شاحبًا وهزيلًا جدًّا مُؤخرًا. هل أخذ إجازة؟»

«أجل! لقد ذهب في رحلةٍ إلى جزُر اليونان على متن سفينةٍ تجارية.»

قال جيرفيس: «إذن، أنت مُمارس عام على النطاق المحلي. ظننتُ أنك كنت تبدو جديرًا بالاحترام إلى حدٍّ بعيد.»

أضاف ثورندايك: «واستنادًا إلى أسلوبك لتمضية وقت الفراغ حين التقيناك، العيادة ليست مُجهِدة. أظن أنها محلية الطابع تمامًا!»

أجبت قائلًا: «أجل، يعيش معظم المرضى في الشوارع والأزقة الصغيرة في نطاق دائرة قُطرها نصف ميل من العيادة، ومساكن بعضهم وضيعة جدًّا. أوه! وهذا يُذكرني بصُدفة غريبة للغاية. أظن أنها ستُثير اهتمامك.»

علق ثورندايك: «الحياة عبارة عن صُدَف غريبة. لا أحد يتفاجأ من الصُّدَف سوى نقَّاد الروايات. ولكن عن أي صدفة تتحدث؟»

«إنها ذات صِلة بقضيةٍ ذكرتها لنا في المستشفى قبل عامين، قضية الرجل الذي اختفى في ظروفٍ غامضة جدًّا. هل تتذكَّرها؟ كان اسم الرجل بيلينجهام.»

«عالم الآثار المصرية؟ أجل أتذكَّر هذه القضية جيدًا. ماذا عنها؟»

«أخوه مريض لديَّ. إنه يعيش في شارع نيفيلز مع ابنته، ويبدو أنهما فقيران فقرًا مُدقعًا.»

قال ثورندايك: «حقًّا، هذا مُثير للاهتمام جدًّا. لا بدَّ أن الحياة تعثرت بهما فجأة. إذا أسعفتني الذاكرة، كان الأخ يعيش في منزلٍ رثِّ الحال.»

«أجل، هو كذلك. أرى أنك تتذكَّر كل شيءٍ بخصوص القضية.»

قال جيرفيس: «زميلي العزيز، ثورندايك لا ينسى قضيةً واعدة أبدًا. هو أشبه بجَمَل طبي وقانوني. فهو يبتلِع الحقائق الخام من الجرائد وغيرها من المصادر ثم يجترُّها بهدوء، في أوقات فراغه، ويمضغها في تأنٍّ. إنها عادة عجيبة؛ إذ تظهر قضية على صفحات الجرائد أو في أروقة إحدى المحاكم، فيبتلعها ثورندايك ويستوعِب خيوطها كلها. ثم يخفُت بريقُها وينساها الجميع. وبعد عامٍ أو عامين تظهر مرةً أخرى على الساحة في شكلٍ جديد، وما يُدهشك أنك تجد ثورندايك قد أوضحها وبيَّنها. لقد كان يُفكر بها مليًّا على نحوٍ دَوري في فترات استراحته.»

عقَّب ثورندايك: «كما تُلاحظ يسرُّ صديقي المُتعلم الانغماس في الاستعارات المُتباينة. ولكنَّ كلامه صحيح إلى حدٍّ بعيد، رغم أن كلماته غامضة. يجب أن تُخبرنا بالمزيد عن آل بيلينجهام أثناء تناولنا فنجان شاي.»

أخذنا الحديث إلى مكتب ثورندايك، الكائن في الدور الأول من ٥أ شارع كينجز بينش ووك، وما إن دخلنا الشقة الأنيقة الواسعة ذات الجدران الخشبية، حتى وجدْنا رجلًا مُسنًّا نحيفًا يرتدي زيًّا أسود أنيقًا وقد وضع طقم الشاي على الطاولة. نظرتُ إليه بشيءٍ من الفضول. كان لا يبدو خادمًا، إلا أنَّ زِيَّه الأسود الأنيق، جعل مظهره مُحيرًا للغاية، ففي حين أن وقاره الهادئ ووجهه الذكيَّ الحادَّ كانا يُوحِيان بأنه رجل مِهني من طرازٍ ما، فإن يدَيه الماهِرتَين والبارِعتَين هما يدا ميكانيكي ماهر.

تفحَّص ثورندايك صينية الشاي بعناية ثم نظر إلى خادمه قائلًا: «أراك وضعتَ ثلاثة فناجين يا بولتون. كيف عرفتَ أنني سأجلب معي ضيفًا لتناول الشاي؟»

ابتسم الرجل النحيف ابتسامة رضًا جذابة أظهرت تجاعيد وجهه وهو يشرح قائلًا:

«اعتدتُ النظر من نافذة المُختبر حين تنعطف عند ناصية الشارع يا سيدي.»

قال جيرفيس: «يا للبساطة المُخيِّبة للآمال! كنَّا نأمُل في فكرةٍ غامضة تنطوي على توارُد الخواطر.»

ردَّ بولتون، وهو يتفحص طقم الشاي ليتأكد من عدم نسيان أي شيء، قائلًا: «البساطة هي جوهر الكفاءة، يا سيدي.» وبعد أن قال هذه الحكمة الرائعة اختفى في صمت.

قال ثورندايك بينما كان يصبُّ الشاي: «بالعودة إلى قضية بيلينجهام، هل جمعتَ أي حقائق تخصُّ أطراف القضية — وأعني بالحقائق هنا، تلك التي سيكون من المناسب أن تذكُرها بالطبع؟»

«لقد عرفتُ شيئًا أو شيئَين لا ضَير من تكرارهما؛ على سبيل المثال، عرفتُ أن جودفري بيلينجهام — مريضي — قد فقدَ جميع مُمتلكاته على نحوٍ مفاجئ تمامًا في توقيت الاختفاء نفسه.»

علق ثورندايك قائلًا: «هذا أمر غريب فعلًا. العكس سيكون مفهومًا تمامًا؛ ولكن المرء لا يتخيل بالضبط كيف يمكن أن يحدُث ذلك، ما لم يُوجَد مُخصصات بطريقةٍ ما أو بأخرى.»

«بلى، هذا ما أدهشني، ولكن يبدو أنه يُوجَد بعض السمات الغريبة في هذه القضية، فمن الواضح أن الوضع القانوني يزداد تعقيدًا. فمثلًا ثمَّة وصية أثارت مُشكلات.»

عقَّب ثورندايك قائلًا: «لن يتمكنوا من تنفيذ الوصية دون وجود إما دليل أو قرينة على الوفاة.»

«بالضبط، هذه إحدى الصعوبات. الأخرى هي أنه ثمة خطأ جسيم في صياغة الوصية بحدِّ ذاتها. لا أعرف ماهية هذا الخطأ، ولكني أتوقع سماعه عاجلًا أم آجلًا. بالمناسبة، لقد ذكرتُ الاهتمام الذي أبديتَهُ حيال القضية، وأظنُّ أن بيلينجهام كان يودُّ استشارتك، ولكن الرجل المسكين ليس لديه أموال.»

«هذا أمر مُحرِج بالنسبة إليه إذا كانت الأطراف المَعنية الأخرى لديها أموال. سيكون هناك على الأرجح إجراءات قانونية بشكلٍ ما، ونظرًا لأن القانون لا يضع في اعتباره الفقر، فمن المُرجَّح أن يخسر هو الجلد والسقط. يجب أن يحصل على أي شكلٍ من أشكال النصيحة.»

قلتُ له: «لا أرى كيف يتسنَّى له الحصول عليها.»

قال ثورندايك مؤكدًا: «ولا أنا. لا تُوجَد ملاجئ خيرية للخصوم المُعدمين؛ بل يُفترَض أن أصحاب الموارد فقط هم من لديهم حق اللجوء إلى القانون. بالطبع، إذا كنَّا نعرِف

الرجل والظروف، لعلَّنا نتمكن من مساعدته؛ ولكن كل ما نعرفه هو العكس، ولعلَّه يكون وغدًا مُتشردًا.»

تذكرتُ الحوار الغريب الذي سمعتُه صدفة، وكنتُ أتساءل ما سيكون رأي ثورندايك لو كان مسموحًا لي بتكراره. من الواضح أنَّ الأمر ليس كذلك، لكن لا يُمكنني أن أفعل شيئًا سوى أن أُعطي انطباعاتي.

قلت: «لا يبدو لي أنه كذلك؛ ولكن بالطبع لا أحدَ يعرف يقينًا. لقد أثار إعجابي بصفةٍ شخصية أكثر من الرجل الآخر.»

تساءل ثورندايك: «أي رجلٍ آخر؟»

«كان يُوجَد رجل آخر بالقضية، أليس كذلك؟ لقد نسيتُ اسمه. رأيته في المنزل ولم يرُقني مظهره كثيرًا. أشك أنه يمارس نوعًا من الضغط على بيلينجهام.»

علق جيرفيس قائلًا: «بيركلي يعرِف عن هذا أكثر مما يُخبرنا به. لنلقِ نظرة على التقرير ونعرف من يكون هذا الغريب.» أنزلَ من فوق الرفِّ مُجلدًا كبيرًا من قصاصات الجرائد ووضعَه على الطاولة.

قال وهو يُمرر إصبعه على الفهرس: «كما ترى، يحتفظ ثورندايك بجميع القضايا التي من المُرجح أن تُسفر عن شيء، وأعرف أنه كان لديه توقعات بخصوص هذه القضية. يُخيل إليَّ أنه كان لديه أمل جامح في العثور على رأس الرجل المُختفي في صندوق قمامة أحدهم. ها نحن أولاء؛ اسم الرجل الآخر هو هيرست. يبدو أنه ابن عمٍّ له، وفي منزله كانت آخِر مرة شُوهد فيها الرجل المختفي على قيد الحياة.»

قال ثورندايك حين ألقى نظرةً على التقرير: «إذن، أنت تعتقد أن السيد هيرست مُتورط في تحريك الأمور!»

أجبتُ قائلًا: «هذا انطباعي، رغم أنني لا أعرف شيئًا عن الأمر.»

قال ثورندايك: «حسنًا، إذا كنتَ تعرف ماذا يحدث ولديك الإذن للحديث عنه، فسأكون مُهتمًّا جدًّا بمعرفة تطورات القضية، وإذا كان من المُفيد إبداء رأيٍ غير رسمي بخصوص أي نقطة، فأظن أنه لا ضير من إبدائه.»

قلت: «بالتأكيد، سيكون من المُفيد جدًّا إذا حصلتِ الأطراف الأخرى على نصيحةٍ مهنية.» وبعد بُرهة سألته: «هل أعطيتَ هذه القضية قدرًا كبيرًا من الاهتمام؟»

فكر ثورندايك مليًّا وقال: «كلَّا، لا يُمكنني قول ذلك. تفكرت فيها بحرصٍ بالغ حين ظهرت على صفحات الجرائد لأول مرة، وأتفكر فيها من وقتٍ لآخر منذ ذلك الحين.

إنها عادتي، كما أخبرَك جيرفيس، أنا أستغل أوقات الفراغ (مثل رحلةٍ على متن القطار) في وضع النظريات لتفسير الحقائق الخاصة بمثل هذه القضايا الغامضة حين تَلفتُ انتباهي. أظن أنها عادة مفيدة، فضلًا عن التدريب الذهني والخبرة التي يكتسبها المرء منها، يقع بين يديَّ جزء كبير من هذه القضايا في النهاية، ثم تستعيد الاهتمام السابق بها.»

سألته قائلًا: «هل كوَّنت أي نظرياتٍ تُفسر الحقائق الخاصة بهذه القضية؟»

«أجل، لديَّ عدة نظريات، إنني أُفضِّل إحداها على وجه الخصوص، وأتوقع باهتمامٍ بالغ أنَّ مثل هذه الحقائق قد تُبين لي أي من هذه النظريات هي الصحيحة على الأرجح.»

قال جيرفيس: «لن تستفيد من الضغط عليه يا بيركلي. فهو مُزوَّد بصمام معلوماتٍ يُفتح من الداخل. يمكنك أن تصبَّ فيه بقدْر ما تشاء، ولكن لا تستطيع أن تَخرُج منه بأي شيء.»

ضحك ثورندايك وقال: «صديقي المُتعلم مُحق بوجهٍ عام. كما ترى، ربما يتم استدعائي في أي يومٍ لتقديم المشورة بشأن القضية، وفي تلك الحالة سأشعر بالغباء الشديد لو أنني قدمتُ آرائي بالتفصيل. ولكن يروقني أن أسمع ما استنتجتَهُ أنت وجيرفيس بخصوص القضية ممَّا ورد في الصحف.»

صاح جيرفيس قائلًا: «انتبه، ماذا قلتُ لك؟ إنه يريد أن يمتصَّ عقولنا.»

قلت: «فيما يتعلق بعقلي، لن تُسفِر عملية الامتصاص عن الكثير سوى الفراغ، ومِن ثَم أنا سأستسلم لصالحك. أنت مُحامٍ مُحنك، بينما أنا مُمارس عام بسيط.»

ملأ جيرفيس غليونه بالتبغ بحرصٍ بالغ وأشعله، ثم نفث خيطًا رفيعًا من الدخان في الهواء قائلًا:

«إذا كنتَ تريد أن تعرف ما الذي استنتجتُهُ بخصوص القضية من ذلك التقرير، يمكنني أن أقول لك كلمتين؛ لا شيء. يبدو أن كل طريق ينتهي بحائط سد.»

قال ثورندايك: «أوه، بالله عليك! هذا مجرد تكاسُل. بيركلي يريد أن يشهد استعراضًا لحكمتك الجنائية. ربما يُعاني الاستشاري المُتعلم من تشوش الرؤية — وغالبًا ما يكون كذلك — إلا أنه لا يذكر الحقيقة بصراحة مطلقة؛ وإنما يضعها تحت قناع لفظي لائق. أخبرنا كيف توصَّلتَ إلى استنتاجك. بَيِّن لنا أنك فعلًا قد وازنت الحقائق.»

قال جيرفيس: «حسنًا جدًّا، سأقدم لك تحليلًا بارعًا للقضية؛ لا يقودك إلى شيء.» وواصل النفخ في غليونه لبعض الوقت بشيءٍ من الارتباك، كما أظن، وتعاطفتُ معه تمامًا. في النهاية نفث سحابةً صغيرة وبدأ حديثه:

«بدا الموقف كالتالي: رجل شُوهد يدخل منزلًا مُعينًا واقْتِيد إلى غرفةٍ معينة وتُرك هناك. لم يشاهده أحد يخرج، ولكن حين يدخل أحدهم الغرفة يجدها فارغة؛ ولا يُرى ذلك الرجل مرةً أخرى مُطلقًا، حيًّا أو ميتًا. هذه بداية صعبة إلى حدٍّ كبير.

خطط الشام، ٣ الآن، من الواضح أنه لا بدَّ أن شيئًا من ثلاثة قد حدث. إما أنه بقي في تلك الغرفة، أو على الأقل في ذلك المنزل، حيًّا، أو لا بدَّ أنه مات، لأسبابٍ طبيعية أو غير ذلك، وأُخفِيت جثته؛ أو لا بدَّ أنه غادر المنزل دون أن يلاحظه أحد. لنأخذ الاحتمال الأول؛ هذه الواقعة حدثت قبل عامَين تقريبًا. الآن، لا يمكن أن يبقى على قيد الحياة في المنزل لمدة عامين. لا بدَّ أن تتمَّ ملاحظته. من شأن الخدم مثلًا أن يلاحظوا وجوده عند تنظيف الغرَف.» ١٢٢–١٢٣.

عند هذه النقطة، تدخَّل ثورندايك بابتسامةٍ مُلطِّفة للأجواء إلى مُساعده: «صديقي المُتعلم يتعامل مع المسألة بطيشٍ غير لائق. نحن نقبل الاستنتاج بأن الرجل لم يظلَّ حيًّا في المنزل.»

«تمامًا! إذن، هل ظلَّ فيه ميتًا؟ لا يبدو كذلك. يقول التقرير: بمجرد أن اختفى الرجل، فتش هيرست والخدم المنزل بالكامل، ولكن لم يكن هناك وقت أو فرصة للتخلُّص من الجثة، ولذا فإن الاستنتاج المُحتمل الوحيد هو أن الجثة لم تكن هناك. علاوة على ذلك، إذا قبلنا باحتمالية أنه قُتل، ما الذي سيفترِضه إخفاء الجثة؟ إليك هذا السؤال: «من الذي كان بإمكانه قتله؟» بالتأكيد، ليس الخدم، أما بالنسبة إلى هيرست، حسنًا، نحن لا نعرف ماذا كانت علاقته بالرجل المختفي، أو على الأقل، أنا لا أعرف.»

قال ثورندايك: «ولا أنا كذلك؛ أنا لا أعرف شيئًا خلافًا لما جاء في تقرير الصحف وما قاله بيركلي لنا.»

«إذن، نحن لا نعرف شيئًا. ربما لديه دافع لقتل الرجل أو ربما لا. مربط الفرس هو أنه لا يبدو أنه أُتيحت له الفرصة. حتى إن كنا نفترض أنه استطاع إخفاء الجثة بصفةٍ مؤقتة، لا يزال لُغز التخلُّص النهائي منها قائمًا. لم يكن باستطاعته دفن الجثة في الحديقة مع وجود الخدم من حوله؛ وكذلك لم يكن بإمكانه حرقها. الطريقة المحتملة الوحيدة التي يمكنه بها التخلُّص من الجثة هي تقطيعها إلى أجزاء ودفن الأجزاء المُقطعة

في أماكن مُنعزلة أو إغراقها في البرك والأنهار. ولكن لم يتم العثور على أشلاء كهذه، التي تحولت على الأرجح إلى أشلاء بحلول هذا الوقت، ومِن ثَم لا يُوجَد شيء يدعم هذا الاقتراح؛ بالتأكيد، فكرة القتل، في هذا المنزل على الأقل، تبدو مُستبعَدة من خلال التفتيش الذي تمَّ في لحظة اختفاء الرجل.

هيا، لنستعرض الاحتمال الثالث: هل غادر المنزل دون أن يُلاحظه أحد؟ حسنًا، ليس مُستبعدًا، ولكن سيكون من الغريب القيام بذلك. ربما يكون رجلًا متهورًا أو غريب الأطوار. لا يمكننا أن نجزم بذلك؛ نحن لا نعرف شيئًا عنه. ولكن مرَّ عامان ولم يظهر مُطلقًا، فإذا كان قد غادر المنزل سرًّا فلا بدَّ أنه مُختبئ ولا يزال مُختبئًا حتى الآن. ربما يكون مجنونًا بشكلٍ أو بآخر ليتصرف بتلك الطريقة، أو ربما لا يكون كذلك. ليس لدينا أي معلوماتٍ عن شخصيته.

ثم تأتي التعقيدات الخاصة بحلية الجعران التي عُثِر عليها في حديقة منزل شقيقه بوودفورد. يبدو أن هذا يُبين أنه زار ذلك المنزل في وقتٍ ما. ولكن لا أحد يعترف بأنه رآه هناك؛ وبالتالي، ليس من المؤكد أنه ذهب أولًا إلى منزل شقيقه أم إلى منزل هيرست. إن كان يرتدي الجعران حين وصل إلى المنزل الكائن بحي إلثام، فلا بدَّ أنه غادر المنزل دون أن يُلاحظه أحد وذهب إلى وودفورد، ولكن إن كان لا يرتدي الجعران، فإنه على الأرجح ذهب من وودفورد إلى إلثام، ثم اختفى هناك في النهاية. ولكن لا يُوجَد دليل حتى هذه اللحظة بخصوص ما إذا كان يرتدي الجعران أو لا يرتديه حين رأته خادمة هيرست آخِر مرة على قيد الحياة.

فإذا ذهب إلى منزل شقيقه بعد زيارته إلى هيرست، فسيكون الاختفاء مفهومًا أكثر إذا كنَّا لا نُمانع توجيه أصابع الاتهام بالقتل بصورةٍ عشوائية تمامًا؛ حيث إن التخلص من الجثة سيكون أقلَّ صعوبة في تلك القضية. من الواضح أن لا أحد رآه يدخل المنزل، وإذا كان قد دخله فلا بدَّ أنه دخل من خلال بوابة خلفية مُتصلة بالمكتبة؛ وهي مبنًى مُنفصل يبعُد عن المنزل بمسافة. وفي تلك الحالة، لكان من الممكن لآل بيلينجهام، من الناحية المادية، أن يُخفوه عن الأنظار. يُوجَد مُتَّسع من الوقت للتخلص من الجثة دون ملاحظة أحد — بصفة مؤقتة على أي حال. لم يرَه أحد يدخل المنزل ولم يعرف أحد أنه موجود هناك — لو كان هناك، ولا يبدو أنه أُجرِي تفتيش سواءً في وقت الاختفاء أو بعده. في الواقع، لو كان بالإمكان إثبات أن الرجل المفقود ترك منزل هيرست حيًّا، أو أنه كان يرتدي الجعران حين وصل إلى هناك، لبدت الأمور مُريبة جدًّا بالنسبة إلى بيلينجهام —

ولا بد أن الفتاة كانت ستتورط إن كان أبوها مُتورطًا. ولكن النقطة الجوهرية هي أنه لا يُوجَد دليل على أن الرجل غادر منزل هيرست حيًّا. وإن لم يفعل … ولكن مهلًا! كما قلتُ في البداية، أي منعطف تأخُذه، تجد أنه ينتهي بحارةٍ سد.»

«نهاية خرقاء لتفسيرٍ بارع.» كان هذا تعليق ثورندايك.

قال جيرفيس: «أعرف ذلك، ولكن ماذا سيكون لديك؟ يُوجَد عددٌ كبير من الحلول الممكنة، ولا بدَّ أن واحدًا منها هو الصحيح. ولكن كيف لنا أن نحكم أيها صحيح؟ أحتفظ بهذا إلى أن نعرف شيئًا عن الأطراف المَعنية والأمور المالية وغيرها من العناصر ذات الصِّلة والتي ليس لدَينا بها أي بيانات.»

قال ثورندايك: «هنا أنا لا أتفق معك مُطلقًا. أؤكد أن لدَينا البيانات الكثيرة. أنت تقول إننا ليس بوسعنا تحديد أي من الحلول المُحتملة الكثيرة هو الصحيح؛ ولكني أظن أنك إذا قرأت التقرير بعنايةٍ وتمعُّن، فستجد أن الحقائق التي نعرفها الآن تُشير إلى تفسيرٍ واحد، واحد فقط. ربما لا يكون التفسير الصحيح، ولا أفترض أنه كذلك. ولكننا نتعامل مع الأمر بشكلٍ تخميني، ومن الناحية الأكاديمية، وأنا أؤكد أن بياناتنا تُسفِر عن نتيجةٍ مُحددة. ما رأيك، يا بيركلي؟»

«رأيي أنه حان الوقت لأُغادر؛ الكشوفات المسائية تبدأ في الساعة السادسة والنصف.»

قال ثورندايك: «حسنًا، لن نُعطلك عن أداء واجباتك، بينما برنارد المسكين مُنشغل بجني العنب في جزُر اليونان. ولكن تعالَ وزُرْنا مرةً أخرى. مُرَّ علينا حينما تشاء بعد انتهاء عملك. لن تُعطلنا حتى إن كنَّا مشغولين، ونادرًا جدًّا ما نكون كذلك بعد الساعة الثامنة.»

شكرتُ دكتور ثورندايك من كل قلبي على دعوتِه لي إلى مكتبه واستقباله لي بهذا الكرَم، وغادرت مُتجهًا إلى البيت مُتخذًا شارع ميديل تيمبل لين وشارع إمبانكمينت؛ ولا بدَّ أن أعترف بأنه طريق غير مباشر إلى فيتر، إلا أنَّ حديثنا أعاد اهتمامي بأهل بيت بيلينجهام وجعلني أدخُل في حالةٍ من التفكير العميق.

واستنادًا إلى المحادثة الاستثنائية التي سمعتها مُصادفةً، كان من الواضح أن الأمر يزداد تعقيدًا. ورغم أنني لا أفترض أنَّ هذين الرجُلَين المُحترمَين يشتبِه أحدهما في الآخر بخصوص التخلُّص من الرجل المُختفي؛ فإن كلماتهما العفوية، ونبرة صوتهما الغاضبة، أوضحت أنَّ كلًّا منهما سمح لفكرة الاحتمالات المشئومة أن تدخُل ذهنه؛ وهي حالة

خطيرة قد تتحول بكل سهولةٍ إلى شكوكٍ فعلية. ثم صارت الظروف غامضةً للغاية، حين كوَّنتُ انطباعًا خاصًّا بعد الاستماع إلى تحليل صديقيَّ للأدلة.

وبعيدًا عن المشكلة في حدِّ ذاتها، تطرَّق ذهني، ليس للمرة الأولى خلال البضعة الأيام الأخيرة، إلى الفتاة الجميلة التي بدت في عينيَّ كبيرة الكهنة لمعبدٍ غامض في حارة صغيرة غريبة. يا لها من صورة غريبة تختلف عن هذه الخلفية الغريبة، بأسلوبها الهادئ والرزين والمُستقل ووجهها الشاحِب الحزين والمُرهَق جدًّا، وحاجبَيها الأسودَين المُستقيمَين، وعينَيها الرماديتَين المَهيبتَين، وكأنه تنبُّؤ بشيءٍ غامض ومُبهم. استغرقتُ في أفكاري، يا لها من شخصيةٍ ساحرة بل مُثيرة للإعجاب، بها شيء غامض وكئيب يجذبك ويُنفِّرك في الوقت نفسه.

وهنا تذكرتُ كلمات جيرفيس: «ولا بدَّ أن الفتاة كانت ستتورط إن كان أبوها مُتورطًا.» كانت فكرة مُفزعة، رغم أنها قيلت على نحوٍ تخميني، وقلبي يرفضها، يرفضها بسخطٍ فاجأني للغاية. ورغم ذلك، هذه الصورة للفتاة الحزينة ذات الرداء الأسود التي استحضرَتْها ذاكرتي، هي صورة مرتبطة بفكرة الغموض والمأساة.

الفصل الرابع

تعقيدات قانونية ومُوظفة روتينية

قادتني تأمُّلاتي، بعد أن سلكتُ طريقًا غير مباشر وتأخرتُ عشر دقائق، إلى نهاية حارة فيتر، حيث تحوَّل مسار تفكيري المجرد إلى السلوك اليقِظ اللائق بطبيبٍ مشغول، سِرتُ بخطواتٍ مُسرعة واتجهتُ نحو العيادة عاقدًا حاجبي، كما لو أنني خرجتُ توًّا من حالة قلق. كانت هناك مريضة واحدة فقط في انتظاري، حَيَّتْني بمجرد أن دخلتُ وكسَتْ وجهي ملامح الجمود.

قالت: «ها أنت ذا!»

أجبتها قائلًا: «أنتِ مُحقَّة تمامًا، آنسة أومان. في الواقع، لقد لخصتِ الحالة. ما الذي يمكنني القيام به من أجلكِ بكل سرور؟»

جاء الرد: «لا شيء! لديَّ مُستشارة طبية؛ ولكني جئتُ إليك برسالة من السيد بيلينجهام. تفضل!» ثم زجَّت الظرف بين يدي.

نظرتُ في عجالةٍ إلى الرسالة، وعرفت أن مريضي قضى بضع ليالٍ سيئة ويومًا مُرهقًا للغاية. واختتم رسالته بعبارة: «هل يمكنني الحصول على شيءٍ يجعلني أرتاح مساءً؟»

فكرتُ مليًّا لبضع دقائق. المرء ليس على استعدادٍ لوصف العقاقير المُنومة للمرضى المجهولين؛ ولكن الأرق حالة مُرهقة للغاية. في النهاية، تريثتُ ووصفت جرعةً بسيطة من دواءٍ مُهدِّئ للأعصاب، عاقدًا العزم على زيارته وتحديد ما إذا كان من الضروري اتخاذ تدابير أكثر فعالية.

قلتُ وأنا أعطي لها الزجاجة: «من الأفضل أن يأخُذ جرعةً من هذا حالًا آنسة أومان. وسأزوره في وقتٍ لاحق لأرى كيف حاله.»

ردَّت قائلة: «أعتقد أنه سيسعد برؤيتك؛ حيث إنه يقضي الليلة وحيدًا وفي حالةٍ سيئة للغاية — الآنسة بيلينجهام خرجت — ولكن يجِب أن أُذكِّرك بأنه رجل فقير ويُسدِّد مصاريف احتياجاته. لا بدَّ أن تعذُرني على ذِكري لذلك.»

كان ردِّي: «أنا مُمتن جدًّا على هذا التلميح، يا آنسة أومان. ليس من الضروري أن أراه، ولكن يروقني أن أزورَه وأُدردش معه.»

«أجل، سيُفيده ذلك. لديك نقاط قوة، رغم أن الالتزام بالمواعيد لا يبدو إحداها.» بهذه الملاحظة الأخيرة خرجت الآنسة أومان مُسرعة.

وجدت نفسي في الساعة الثامنة والنصف أصعَد درَج السلَّم الكبير والمُعتم للبيت الكائن في حارة نيفيلز كورت، تتقدَّمني الآنسة أومان التي قادتني إلى الغرفة. كان السيد بيلينجهام، الذي انتهى توًّا من وجبةٍ بسيطة، يجلس مُنحنيًا على كرسيه يُحدق في كآبةٍ إلى قضبان المدفأة الفارغة. ابتهج حين دخلتُ عليه؛ ولكن من الواضح أن حالته المعنوية كانت مُنخفضة جدًّا.

قال: «لم أقصد أن أشُقَّ عليك بعد انتهاء جولتك النهارية؛ رغم أنني سعيد جدًّا برؤيتك.»

«لم تشق عليَّ في شيء. سمعتُ أنك بمفردك، ولذلك مررتُ لقضاء بعض الوقت في الثرثرة معك.»

قال بحرارة: «هذا لُطف منك حقًّا. ولكن أخشى أن تجد صُحبتي مُملة. رجل مشحون بمشاكله المُزعجة جدًّا لا تُرجى صحبته على أي حال.»

قلتُ خشية شعورٍ مفاجئ بأنني أتطفَّل عليه: «لا تسمح لي أن أُزعجك إذا كنتَ تفضل البقاء بمفردك.»

رد: «أوه، أنت لا تُزعجني.» ثم أضاف ضاحكًا: «على الأرجح، الموقف معكوس. في الواقع، لو لم أخشَ أن أُشعِرك بالملل الشديد، لطلبتُ منك أن تُتيح لي الحديث معك عن مَتاعبي.»

قلتُ له: «لن تُشعرني بالملل. من المُثير بوجهٍ عام أن تشارك في تجارب الآخرين بدون إزعاجهم. «أنسب طريقةٍ لدراسة البشرية هي البشر أنفسهم.» بالنسبة إلى طبيبٍ على وجه الخصوص، كما تعلم.»

ضحك السيد بيلينجهام ضحكةً مكتومة وقال: «أنت تجعلني أشعُر وكأني ميكروب. ولكن إذا كنتَ مُهتمًّا بإلقاء نظرةٍ عليَّ من خلال ميكروسكوبك، فسأتقدَّم ببطء نحو

الشريحة لأخضع لفحصك، رغم أن تصرُّفاتي لا تُقدِّم مادة من أجل الدراسات النفسية الخاصة بك. إنه أخي المسكين الذي قلبَ الأحداث رأسًا على عقِب، وأخشى أن أقول إنه من قبره المجهول يُحرِّك خيوط الدُّمى في هذا العرض المسرحي اللعين.»

توقَّفَ لبرهةٍ وحدق بتمعُّن لبعض الوقت في قضبان المدفأة كما لو أنه قد نسيَ وجودي. وفي النهاية، نظر لأعلى واستأنف حديثه:

«إنها قصة غريبة، يا دكتور؛ قصة غريبة جدًّا. أنت تعرف جزءًا منها؛ تعرف منتصف القصة. سأحكي لك من البداية، وحينئذٍ ستعرف بقدْر ما أعرفه أنا، أما بخصوص النهاية، فلا أحد يعرفها. بلا شك، إنها مُدونة في كتاب القدَر، ولكن لم تُقلب الصفحة بعد.

بدأت المتاعب بوفاة والدي. كان قسًّا في الأرياف ذا موارد معقولة جدًّا، أرمل لديه طفلان، أنا وأخي جون. استطاع أن يُرسلنا إلى أوكسفورد، وبعد ذلك التحق جون بوزارة الخارجية بينما تعين عليَّ الالتحاق بالكنيسة. ولكني اكتشفتُ فجأة أن آرائي بخصوص الدين خضعتْ لتغييرٍ جعل من المستحيل الاستمرار في ذلك، وفي تلك الفترة تقريبًا ورث والدي مُمتلكاتٍ كثيرة جدًّا. ونظرًا لأنه عبَّر عن نيته ترك الممتلكات مناصفة بيني أنا وأخي، لم أكن مُضطرًّا إلى اتخاذ أي مهنةٍ لكسب الرزق. كان علم الآثار يُمثل شغف حياتي، وقررتُ أن أُكرِّس نفسي منذ ذلك الحين فصاعدًا لدراستي المُفضلة، وبالمناسبة كنت أتبع تقليدًا عائليًّا؛ حيث إن والدي كان طالبًا مُتحمسًا للتاريخ الشرقي، وجون كما تعلم عالم آثار مصرية شغوف.

ثم مات والدي فجأة، ولم يترُك أي وصية. كان ينوي كتابة وصية؛ ولكنه أخذ يؤجِّل الأمر حتى فات الأوان. ونظرًا لأن جميع الممتلكات كانت على هيئة عقارات، ورثها أخي كلها تقريبًا. وخلافًا لأُمنيات أبي المعروفة، خصَّص لي مبلغًا سنويًّا مقداره خمسمائة جنيه، والذي يُعادل ربع الدخل السنوي. ألححتُ عليه أن يُخصِّص لي مبلغًا إجماليًّا؛ ولكنه رفض ذلك. وبدلًا من ذلك، أصدر تعليماته إلى مُحاميه ليدفع لي المبلغ المُخصَّص على هيئة أقساطٍ رُبع سنوية خلال ما تبقَّى من حياتي، وكان من المفهوم أنه عند وفاته ينبغي أن تنتقل العقارات بالكامل إليَّ، وإذا متُّ أنا أولًا، تنتقل إلى ابنتي، روث. ثم، كما تعرف، اختفى هو فجأةً، وكما تُوحي الظروف بأنه مات، ولا يُوجَد أي دليل على أنه حي، ووجد مُحاميه — ويُدعى السيد جيليكو — نفسه غير قادرٍ على الاستمرار في دفع المُخصَّصات. وعلى الجانب الآخر، ونظرًا لعدم وجود دليل يؤكد وفاة أخي، كان من المستحيل تنفيذ الوصية.»

«تقول إنَّ الظروف تُوحي بأن أخاك تُوفِّي. ما هي هذه الظروف؟»

«بالأساس، الاختفاء المفاجئ والكامل، ولعلك تتذكَّر أن حقيبة السفر خاصته ظلَّت في محطة القطار؛ وثمة ظرف آخَر يُوحي أكثر بوفاة أخي؛ إذ يتلقى أخي معاشًا من وزارة الخارجية، ويذهب لتسلُّمه بصفةٍ شخصية، وإذا كان خارج البلاد، يُقدِّم دليلًا على أنه لا يزال على قيد الحياة حتى تاريخ استحقاقه. وبخصوص هذا الأمر، كان أخي مُنتظمًا للغاية؛ في الواقع، كان معروفًا عنه عدم تخلفه مُطلقًا؛ فإما الذهاب بنفسه أو إرسال الوثائق الضرورية إلى وكيله، السيد جيليكو. ولكن منذ اللحظة التي اختفى فيها على نحوٍ غامض جدًّا وحتى اليوم، لم يسمع أحد عنه شيئًا مُطلقًا.»

قلت: «إنه موقف مُحرج للغاية بالنسبة إليك، ولكن أظن أنه ليس من الصعب كثيرًا الحصول على تصريحٍ من المحكمة لقرينة الوفاة والمُضي قدمًا لإثبات الوصية.»

امتعض وجه السيد بيلينجهام وهو يقول: «أعتقد أنك مُحق، ولكن هذا لا يساعدني كثيرًا؛ فكما ترى، اتخذ السيد جيليكو، بعد انتظاره لفترةٍ معقولة ليظهر أخي مرة أُخرى، خطوةً غريبة جدًّا؛ ولكني أظن أنها في ظل هذه الظروف الخاصة خطوة مناسبة جدًّا؛ استدعاني أنا والطرف الآخر المعني بالموضوع إلى مكتبه وأبلغَنا ببنود الوصية. وتبيَّن أنها بنود استثنائية جدًّا. صُعقتُ حين سمعتها. والشيء المُثير للسخط هو أنني متأكد أن أخي ظن أنه بهذا جعل كلَّ شيءٍ آمنًا وبسيطًا تمامًا.»

قلتُ بشيء من الغموض: «إنهم، بوجهٍ عام، يظنون ذلك.»

قال السيد بيلينجهام: «أعتقد ذلك؛ ولكن جون المسكين أساء التصرُّف بشدة بخصوص وصيته، وأنا على يقين بأن تصرفاته خالفت نواياه تمامًا. كما تلاحظ، نحن عائلة عريقة من لندن. وعلى مدى أجيالٍ وأجيال ما زلنا نشغل المنزل الموجود في ميدان كوين، الذي كان يعيش فيه أخي نظريًّا، ولكنه في الحقيقة كان يحتفظ فيه بمجموعته. ومعظم آل بيلينجهام مدفونون في مقبرة سانت جورج القريبة، رغم أن بعض أفراد العائلة مدفونون في مقابر أخرى بالحي. الآن، أخي — الذي كان أعزب بالمناسبة — كان يحترم بشدةٍ التقاليد العائلية، وذكر في وصيته، بطبيعة الحال، أنه ينبغي دفنه في مقبرة سانت جورج بين أجداده أو، على الأقل، في أحد أماكن الدفن الخاصة بمنطقته المحلية. ولكن بدلًا من التعبير عن الأمنية بكل سهولةٍ وتوجيه القائمين على الوصية نحو تنفيذها، وضع شرطًا يؤثر على تنفيذ الوصية.»

سألته: «يؤثر عليها من أي ناحية؟»

ردَّ بيلينجهام قائلًا: «من ناحيةٍ أساسية جدًّا؛ من ناحية الجزء الأكبر من الممتلكات التي أورثني إيَّاها، أو التي من شأنه أن يُورثها لابنتي روث، إن متُّ قبله. ولكن الوصية خاضعة للشرط الذي ذكرتُه — ألا وهو دفنُه في مكانٍ مُعين — وإذا لم يتحقق هذا الشرط، فإن الجزء الأكبر من المُمتلكات يذهب إلى ابن عمتي؛ جورج هيرست.»

علقتُ قائلًا: «لكن في تلك الحالة، ونظرًا لأنك لا تستطيع العثور على الجثة، لا يستطيع أي منكما الحصول على الممتلكات.»

ردَّ قائلًا: «لستُ واثقًا من هذا. إذا كان أخي قد تُوفِّي، فإنه بالتأكيد لم يُدفن في مقبرة سانت جورج أو في أي مكانٍ من الأماكن الأُخرى المذكورة، وبكل سهولةٍ يمكن إثبات هذه الحقيقة من خلال تقديم الوثائق الرسمية. وبالتالي، ستُسفِر قرينة الوفاة عن تسليم الممتلكات كلها تقريبًا إلى هيرست.»

سألته: «من القائم على تنفيذ الوصية؟»

صاح قائلًا: «أوه! ثمة مُعضلة أخرى؛ يُوجَد وصيَّان؛ الأول هو جيليكو، والثاني هو المستفيد الرئيسي، أنا أو هيرست، استنادًا إلى الظروف. ولكن، كما ترى، لا يستطيع أحد منَّا أن يقوم على تنفيذ الوصية حتى تُقرر المحكمة مَن منَّا هو المستفيد الرئيسي.»

«ولكن من الذي يتقدم بطلب إلى المحكمة؟ أظن أنها مهمة الأوصياء.»

«بالضبط، هذا مأزق يواجهه هيرست. كنَّا نناقش هذا الأمر حين زُرتَني في ذلك اليوم، كان نقاشًا مُحتدمًا للغاية.» ثم أضاف بابتسامةٍ متجهمة: «كما تلاحظ، جيليكو يرفض عمومًا تحريك المسألة وحدَه. يقول إنه لا بدَّ أن يحصل على دعمٍ من الوصي الآخر. ولكن في الوقت الراهن، هيرست ليس الوصي، ولا أنا كذلك. ولكن نحن الاثنان معًا نتشارك في تنفيذ الوصية، نظرًا لأنَّ المهمة مَنوطة بواحدٍ منَّا، على أي حال.»

قلت: «موقف مُعقَّد.»

«هو كذلك، ولقد أثار التعقيد عرْضًا غريبًا جدًّا من جانب هيرست؛ لقد أشار — وأخشى أن أقول على نحوٍ صحيح تمامًا — إلى أنه نظرًا لعدم تنفيذ شروط الدفن، يجب أن تئول إليه الممتلكات، ولذا يقترح ترتيبًا بسيطًا ودقيقًا للغاية، ألا وهو: يتعيَّن عليَّ دعمُه هو وجيليكو في طلبهما لإصدار قرينة الوفاة وتنفيذ الوصية، وفي المقابل يدفع لي مبلغ أربعمائة جنيه سنويًّا مدى الحياة؛ وهذا الترتيب قائم تحت «جميع الاحتمالات».»

«ما الذي يقصده بذلك؟»

قال بيلينجهام، وهو يُحدِّق بي وقد عبس وجهه في غضب: «إنه يعني إذا ظهرت الجثة في أي وقتٍ في المستقبل، بحيث يمكن تنفيذ الشروط الخاصة بالدفن، فإنه سيظلُّ مُحتفظًا بالممتلكات وسيدفع لي مبلغ الأربعمائة جنيه.»

قلت: «الملعون! يبدو أنه يعرف كيف يُبرم صفقةً رابحة.»

«موقفه كالآتي: يستطيع تحمُّل خسارة مبلغ أربعمائة جنيه سنويًّا مدى حياتي إذا لم يتم العثور على الجثة مُطلقًا، وفي حالة العثور عليها، يتعيَّن عليه تحمُّل الربح.»

«وأستنتج أنك رفضتَ هذا العرض!»

«أجل، على نحوٍ قاطع جدًّا، وابنتي توافقني الرأي؛ ولكني لستُ متأكدًا من أنني فعلتُ الصواب. لا بدَّ للمرء أن يفكر مرتين قبل أن يحرق كل سُفنه، حسبما أظن.»

«هل تحدَّثتَ مع السيد جيليكو بخصوص هذه المسألة؟»

«أجل، التقيتُ به اليوم. هو رجل حذِر، ولم يُسدِ لي نصيحةً أو أخرى. ولكني أعتقد أنه استنكر رفضي؛ في الواقع، علق قائلًا بأن عصفورًا في اليد أفضل من عشرةٍ على الشجرة، ولا سيما أن مكان الشجرة غير معروف.»

«هل تعتقد أنه سيُقدِّم الالتماس إلى المحكمة بدون موافقتك؟»

«هو لا يريد ذلك، ولكن أظنُّ أنه إذا ضغط عليه هيرست، فسيضطر إلى ذلك. بالإضافة إلى أن هيرست، باعتباره طرفًا مَعنيًّا، يُمكنه أن يقدم طلبًا مستقلًّا بذاته، وسيفعل ذلك على الأرجح بعد رفضي لعرضه؛ على الأقل هذا رأي جيليكو.»

قلت: «المسألة كلها من أغرب المُعضلات على الإطلاق، لا سيما حين يتذكَّر المرء أن أخاك لديه محامٍ يقدم له المشورة. ألم يُوضح له السيد جيليكو مدى سخافة البنود؟»

«بلى، فعل ذلك. قال لي إنه ألحَّ على أخي لكتابة وصية تصوغ المسألة في شكلٍ مقبول. ولكن جون لم يستمع إليه. المسكين! كان بإمكانه أن يكون عنيدًا جدًّا حين يُريد.»

«هل لا يزال عرض هيرست قائمًا؟»

«كلَّا، بفضل طبعي الحامي رفضتُ الأمر رفضًا باتًّا، وطردتُه مُوبِّخًا إيَّاه. تمنيتُ لو لم أتخذ هذه الخطوة الخاطئة؛ تفاجأت تمامًا حين قدم هيرست العرْض واستشطتُ غضبًا من ذلك. كما تتذكر، شُوهد أخي آخِر مرة على قيد الحياة في منزل هيرست، ولكن إلى هنا، لا يُفترَض بي أن أتحدَّث بهذه الطريقة، ولا يُفترَض بي أن أُزعجك بمشكلاتي اللعينة، بينما جئتَ لإجراء دردشةٍ وديَّة، رغم أنني حذَّرتُك تحذيرًا مُنصفًا، هل تذكُر؟»

«يا إلهي، ولكنَّ الحديث معك مُمتع جدًّا. أنت لا تُدرك مدى اهتمامي بقضيتك.»

ضحك السيد بيلينجهام في شيءٍ من التجهُّم وكرَّر قائلًا: «قضيتي! أنت تتحدَّث كما لو أنني نوع نادر وغريب من المُجرمين المجانين. ورغم ذلك، أنا سعيد بأنك تراني مُسليًا أكثر مما أرى نفسي.»

«لم أقل مُسليًا؛ بل قلتُ مُثيرًا للاهتمام. أنا أنظر إليك باحترامٍ شديد كشخصيةٍ محورية في عملٍ درامي مُثير. ولستُ الشخص الوحيد الذي يراك تحت دائرة هذا الضوء. هل تذكُر حديثي لك عن دكتور ثورندايك؟»

«أجل، بالطبع أذكره.»

«حسنًا، من الغريب أنني التقيتُ به بعد ظهيرة ذلك اليوم، لقد دار بيننا حديث طويل في مكتبه، وجازفتُ بالإشارة إلى أنني تعرفت عليك. هل أخطأت في ذلك؟»

«كلَّا، بالتأكيد. ولماذا لا تُخبره؟ هل تذكَّر قضيتي الملعونة، كما تُطلق عليها؟»

«تمامًا، بكل تفاصيلها. هو مُتحمِّس للغاية، كما تعرف، ومُهتم على نحوٍ استثنائي بسماع كيف تطوَّرت القضية.»

علق السيد بيلينجهام قائلًا: «وأنا كذلك، فعلًا.»

قلت: «وأتساءل عما إذا كنتَ تُمانع أن تُخبره بما أخبرتني به الليلة؛ فهذا من شأنه أن يُثير اهتمامه إلى حدٍّ كبير.»

فكر السيد بيلينجهام لبعض الوقت وعيناه مُثبَّتتان على قضبان المدفأة الفارغة، وعلى الفور، نظر لأعلى وقال ببطء:

«لا أعرف لماذا ينبغي عليَّ. هذا ليس سرًّا؛ ولو كان كذلك، فأنا لا أحتكِره. كلَّا، أخبره، إذا كنتَ تظن أنه مُهتم بالاستماع.»

قلت: «لا داعيَ للخوف من الحديث معه. هو كبئرٍ عميقة يكتم الأسرار؛ وقد تَعني الحقائق بالنسبة إليه أكثر مما تعني لنا. ولعلَّه يستطيع أن يُعطيك نصيحةً مفيدة أو نصيحتَين.»

قال السيد بيلينجهام بسرعةٍ وبغضب شديد: «أوه، لن أستغلَّه للحصول على نصيحة. أنا لستُ من هذا النوع من الرجال الذين يتحايلون من أجل الحصول على نصيحةٍ مهنية مجانية. افهم ذلك يا دكتور.»

قلتُ في عجالة: «أفهم تمامًا. لم يكن هذا ما قصدتُه على الإطلاق. هل عادت الآنسة بيلينجهام؟ لقد سمعتُ الباب الأمامي يُغلق.»

«أجل، لا بدَّ أن هذه ابنتي، على ما أعتقد، ولكن لا تهرُب. أنت لستَ خائفًا منها، أليس كذلك؟» قالها وأنا أُسرع بالتقاط قُبعتي.

أجبت: «لستُ متأكدًا من أنني لا أخافها. إنها شابة مهيبة جدًّا.»

ضحك السيد بيلينجهام ضحكةً خافتة وكتم تثاؤبه، وفي تلك اللحظة دخلت ابنته الغرفة، ورغم فستانها الأسود الرث وحقيبة رثة أكثر تحمِلها، أعتقد أن مظهرها وأسلوبها برَّرا وصفي لها.

قلتُ بينما كانت تصافح يدي بلُطف محسوب: «جئتِ يا آنسة بيلينجهام، لتجدي أباك يتثاءب وأنا أستعدُّ للرحيل. أحيانًا أكون مُفيدًا، كما ترَين. الحوار معي علاج ناجح للأرق.»

ابتسمت الآنسة بيلينجهام وقالت: «أعتقد أنني أجعلك ترحَل.»

أجبتُ بسرعة: «كلَّا، على الإطلاق. لقد أنجزتُ مهمتي، هذا كل ما في الأمر.»

ألحَّ عليَّ السيد بيلينجهام قائلًا: «اجلس لبضع دقائق يا دكتور. ودَعْ روث تُجرب العلاج. ستشعُر بالإهانة إذا غادرتَ بمجرد مجيئها.»

قلت: «حسنًا، لا تدَعْني أُبقيك مُستيقظًا طوال الليل.»

ردَّ بضحكة خافتة قائلًا: «أوه، سأُعلِمك حين أشعر بالنعاس.» وبعد هذا التوضيح جلستُ مرةً أخرى — ليس على غير رغبتي.

وفي هذه اللحظة، دخلَت الآنسة أومان بصينيةٍ صغيرة وعلى وجهها ابتسامة ما كنتُ أظنُّ أنها قادرة عليها.

قالت في تودُّد: «ستتناولين الخبز المحمص ومشروب الكوكا حين يسخنان، يا عزيزتي، أليس كذلك؟»

أجابت الآنسة بيلينجهام قائلة: «بلى، يا فيليس، شكرًا لك. سأذهب لأخلع قُبعتي.» وغادرت الغرفة، تتبعها السيدة العانس التي تُغيِّر أسلوبَها على نحوٍ مذهل.

وعادت على الفور تقريبًا بينما كان السيد بيلينجهام في خِضَم تثاؤبٍ عميق، وجلست لتتناول وجبتَها المُقتصدة، حين أربكني والدُها كثيرًا بملاحظته:

«تأخرتِ الليلة، يا جميلتي. هل تسبَّب الهكسوس في مشكلة؟»

أجابت قائلة: «كلَّا، ولكني ظننتُ أنني قد أنجز أمرهم؛ ولذا، مررتُ على المكتبة بشارع أرموند في طريقي إلى المنزل وأنجزتُ أمرهم.»

«إذن، هم جاهزون للحشو الآن!»

«أجل.» أجابت وقد لاحظتْ عينيَّ المُندهشتَين (لأن حشو الهكسوس ظاهرة مدهشة بلا شك) وضحكتْ بهدوء.

فسَّرت لي قائلة: «يجب ألَّا نتحدث بالألغاز هكذا أمام دكتور بيركلي، وإلا سُخِطنا إلى نصبَينِ من الملح. أبي يتحدث عن عملي.»

سألتها: «هل أنتِ خبيرة تحنيط؟»

بسرعةٍ وضعت الكأس التي رفعتها إلى شفتَيها ودخلت في نوبة ضحكٍ هادئ.

«آسَفُ إن كان والدي قد ضللكَ بمزاحه. سيُكفِّر عن هذا بالشرح.»

قال السيد بيلينجهام: «كما تلاحظ، يا دكتور، روث مُفتشة مكتبية ...»

اعترضت الآنسة بيلينجهام قائلة: «أوه، لا تقُل عني مُفتشة! فهذا يوحي بأنني مُفتشة بقسم الشرطة، بل قُل باحثة.»

«حسنًا، أيتها الباحثة، كما يروق لكِ. إنها تصطاد المصادر والمراجع في المتحف لصالح الكُتَّاب الذين يؤلفون الكتب. إنها تبحث عن كل شيءٍ كُتِب عن موضوعٍ مُعين، وبعد أن تحشو رأسها بالحقائق حتى تصِل إلى حدِّ الانفجار، تذهب إلى عميلها وتتقيَّأ بكل شيءٍ وتحشو رأسه بالمعلومات، وفي النهاية يذهب هو إلى المطبعة ليتقيَّأ.»

قالت ابنته: «يا له من وصفٍ مُثير للغثيان! ورغم ذلك، هذا ما بلغ إليه الأمر. أنا موظفة روتينية بالمكتبة، أجمع الطعام لأُسُود الأدب. هل هذا واضح تمامًا؟»

«تمامًا. ولكن لا أظنُّ أنني فهمتُ موضوع حشو الهكسوس.»

«أوه، لم يقصد حشو الهكسوس بالمعنى الحرفي للكلمة. وإنما حشو رأس الكاتب! هذا كان مجرد غموض في الكلام من جانب أبي. الوضع كالآتي: رئيس شمامسة مُوقَّر يكتب مقالًا عن النبي يوسف ...»

قاطعها السيد بيلينجهام قائلًا: «ولم يكن يعرف شيئًا عنه، وعثر على مُتخصصة بالصدفة، تعرِف كلَّ شيء، ثم تتضايق ...»

قالت الآنسة بيلينجهام: «لا شيء من هذا القبيل. هو يعرف بقدْر ما يتعين على الشمامسة المُوقَّرين معرفته؛ ولكن المتخصص يعرف أكثر. ولذا، كلفني رئيس الشمامسة بجمع المواد المطبوعة التي كُتِبت عن الدولة المصرية في نهاية حُكم الأسرة السابعة عشرة، وهو ما فعلته؛ وغدًا سأذهب وأحشو رأسه، كما وصف والدي، ثم ...»

قاطعها السيد بيلينجهام قائلًا: «ثم، سينطلق رئيس الشمامسة ويُمطر هذه المُتخصصة بوابلٍ من الهكسوس وسقنن رع ورعاع الأسرة السابعة عشرة. يا إلهي، سيكون هناك عراك، أستطيع أن أقول لكِ ذلك.»

عقبت الآنسة بيلينجهام قائلة: «أجل، أتوقع أن يكون هناك مناوشة.» وبالتالي، بعد أن أُغلق الموضوع قامت الآنسة بيلينجهام بهجومٍ حماسي على الخُبز المحمص بينما أنعش والدها نفسه بتثاؤبٍ هائل.

راقبتها بإعجابٍ شديد واهتمام عميق ومتزايد. ورغم شحوبها وعينيها المُرهقتَين ووجهها المُنهَك والمتعب، كانت فتاة جميلة بدرجةٍ بالغة؛ كان في أسلوبها ما يوحي بالعزيمة والقوة والشخصية التي تُميزها عن باقي النساء. كنتُ ألاحظ هذا حين أختلس نظرةً عابرة إليها أو حين أرد على ملاحظة موجهة إليَّ؛ كما لاحظت أيضًا أن حديثها، رغم ما به من نبرة الاكتئاب عمومًا، لم يختفِ منه حسُّ الدعابة والسخرية. كانت شابة يُحيط بها الغموض؛ ولكنها بلا شك مثيرة جدًّا للاهتمام.

وعندما انتهت من وجبتها وضعت الصينية جانبًا، وفتحت الحقيبة الرثة وهي تسألني:

«هل أنت مهتم بالتاريخ المصري؟ نحن مهتمون بالموضوع إلى حدِّ الجنون. يبدو أنه مرض وراثي في العائلة.»

أجبتها قائلًا: «لا أعرف عنه الكثير؛ الأبحاث الطبية تستحوذ على تفكيري بدرجةٍ كبيرة ولا تفسح المجال أمام القراءات العامة.»

قالت: «بالطبع، لا يمكنك أن تتخصص في كل شيء. ولكن إذا كنتَ مُهتمًّا بمعرفة كيف تسير وتيرة عمل موظفة روتينية بالمكتبة، فسأعرض عليك ملاحظاتي.»

قبلتُ العرض بحماس (وأخشى أن أقول إن هذا ليس بدافع التحمُّس الصرف للموضوع)، وأخرجَتْ من الحقيبة أربعة دفاتر ذات أغلفة زرقاء اللون من القطع المتوسط، كل دفتر منها يتناول أسرةً من أربع أُسَرٍ حاكمة؛ من الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة. وبينما كنت أتصفح المُقتطفات المُنمقة والمنظمة التي ملأت هذه الدفاتر، ناقشنا التعقيدات الخاصة بالفترة العصيبة والمُربكة التي تغطيها، وأخذنا نخفض صوتينا تدريجيًّا حين أغلق السيد بيلينجهام عينيه وأمال رأسه على ظهر كرسيه. وكنا قد وصلنا إلى الفترة الحرجة لحكم أبي فيس الثاني حين اخترق شخير مدوٍّ الهدوء الجاد للغرفة، وجعلنا ننطلق في نوبة ضحك صامت.

«أتى الحوار معك بثماره.» قالتها هامسةً لي وأنا التقط قُبعتي خلسة، وسِرنا معًا على أطراف الأصابع إلى الباب وفتحتْه دون أن تُحدث صوتًا. وما إن خرجنا من الغرفة حتى تحرَّرت من أسلوبها المازح وقالت بجدية بالغة:

«كم كان لطيفًا منك أن تأتي وتزوره الليلة. لقد أسديتَ له معروفًا كبيرًا، وأنا مُمتنَّة لك جدًّا. طابت ليلتك!»

صافحتْني بحرارة بالغة، ونزلتُ السُّلم الذي يُصدر صريرًا تغمرني موجة من السعادة التي لا أعرف سببها.

الفصل الخامس

حوض نبات البقلة المائية

كانت عيادة برنارد، كأغلب العيادات الأخرى، عُرضةً لتلك التقلبات التي تتقاذف الممارس العام المكافح؛ بين موجات يأسٍ وأمل متعاقبة. كان العمل فيها عبارة عن نوباتٍ محمومة تتخللها استراحات يسُودها ركود شبه تام. جاءت إحدى هذه الاستراحات في اليوم التالي لزيارتي لنيفلز كورت، وكانت النتيجة أنني وجدت نفسي في الساعة الحادية عشرة والنصف أتساءل: كيف ينبغي عليَّ قضاء باقي اليوم. ولكي أفكر على نحوٍ أفضل في هذه المعضلة الكبيرة، أخذت أتمشى في طريق كورنيش إمبانكميت، ثم وقفت مستندًا على حاجز الجسر، متأملًا المنظر عبر النهر؛ حيث يقف الجسر الحجري الرمادي ذو القناطر، وفي الخلفية كومة خلَّابة من أبراج الحراسة، والأشكال المظللة لكنيسة الدير وسانت ستيفن.

كان مشهدًا لطيفًا، مُريحًا ومُهدئًا للأعصاب، يعكس لمحةً من الحياة وتشوبه لمسة رومانسية حانية، حين مرَّ أسفل مني عبر القنطرة الوسطى للجسر زورق ذو شراع رباعي مُثبت في صارٍ وخلف ذراع الدفة سيدة ترتدي مئزرة بيضاء اللون. وعلى نحوٍ حالم، شاهدتُ الزورق يسير مع التيار المتحرك، ورأيتُ الجزء السفلي من الزورق، يكاد يكون مغمورًا بالماء، وقائدة الزورق الحذرة، والكلب عند المقدمة ينبح على الشاطئ البعيد؛ عند هذه اللحظة تذكرت روث بيلينجهام.

ما الذي يجعل هذه الفتاة الغريبة تترك انطباعًا عميقًا لديَّ؟ كان هذا هو السؤال الذي أطرحه على نفسي، وليست هذه هي المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك. ولا شك في هذه الحقيقة بحدِّ ذاتها. ولكن ما التفسير؟ هل بيئتها المحيطة الغريبة؟ هل مهنتها وعِلمها الغامض إلى حدٍّ ما؟ هل شخصيتها المدهشة وجمالها الاستثنائي؟ أم علاقتها باللغز المثير لاختفاء عمها؟

استنتجتُ أن كل هذا معًا يقدم تفسيرًا. كل شيء مرتبط بها كان استثنائيًّا ولافتًا للنظر؛ ولكن علاوة على هذه الظروف، ثمة قدْر مُعين من التعاطف والانجذاب الشخصي الذي أُدركه بقوة والذي آمُل في سري أن تكون هي على دراية به أيضًا، ولو بالقدر القليل. وعلى أي حال، كنت مُهتمًّا بها كثيرًا؛ ولا شك في هذا إطلاقًا. ورغم قِصر معرفتنا بعضنا ببعض، فقد شغلَت تفكيري كما لم تفعل امرأة من قبل.

تحوَّل تفكيري بسلاسة من روث بيلينجهام إلى القصة الغريبة التي قصها عليَّ والدها. كانت مسألة غريبة، تلك الوصية سيئة الصياغة، بالإضافة إلى اعتراض المحامي المُرتبك في خلفية الأحداث. بدا الأمر تقريبًا كما لو أن هناك شيئًا ما وراء كل هذا، ولا سيما حين تذكرت العرض الغريب جدًّا من جانب السيد هيرست. ولكن هذا خارج حدود قدراتي؛ إنها قضية منوطة بمحامٍ، ولا بدَّ أن تُوكَل إلى محامٍ. وفي تلك الليلة، قررتُ أن أذهب إلى ثورندايك وأحكي له القصة كلها كما حُكيت لي.

ثم حدثت واحدة من تلك المُصادفات التي يتساءل الجميع عن توقيت حدوثها، ولكنها متكررة جدًّا لدرجة أنها صارت متوقعة. ورغم أنني اتخذتُ القرار، فقد لاحظت رجُلين يقتربان من ناحية منطقة بلاكفريرز، وأدركتُ أنهما مُعلمي السابق ومساعده.

قلتُ لهما بينما كانا يقتربان: «كنتُ أفكر فيكما للتو.»

ردَّ جيرفيس قائلًا: «يا له من إطراء بالغ؛ أظن أنك لو ذكرتَ الشياطين لحضرت فورًا.»

قال ثورندايك: «أو لعله كان يذكر نفسه. ولكن لماذا كنت تُفكر فينا، وماذا كانت طبيعة أفكارك؟»

«أفكاري ذات علاقة بقضية بيلينجهام. لقد قضيتُ الليلة الماضية بأكملها في نيفلز كورت.»

«ها! هل تُوجَد أي تطورات جديدة؟»

«أجل، رباه! توجد تطورات جديدة. لقد قدم بيلينجهام لي وصفًا تفصيليًّا كاملًا للوصية؛ وتبدو أنها وثيقة مُثيرة.»

«هل منحك الإذن لتُعيد عليَّ التفاصيل؟»

«أجل، سألته على وجه التحديد إذا كان يسمح لي بذلك، ولم يكن لديه أي اعتراض أيًّا ما كان.»

«عظيم. سنتناول الغداء في سوهو اليوم نظرًا لأن بولتون مشغول جدًّا. تعالَ معنا وشاركنا المائدة وأخبِرنا بقصتك في الطريق. هل هذا يناسبك؟»

كان يناسبني بشكلٍ مثير للإعجاب في ظلِّ الوضع الراهن للعيادة، ولذا قبلت الدعوة بفرحة لا تخفى عن العيان.

قال ثورندايك: «حسنًا جدًّا، دعونا نسِر ببطء ونُنهِ الأمور بسريةٍ قبل أن ندخل وسط حشدٍ من الزحام المحموم.»

تقدَّمنا بتمهُّل على طول الرصيف العريض وبدأت حكايتي. بقدر ما أستطيع التذكر، حكيتُ الظروف التي أدَّت إلى الوضع الحالي الخاص بالممتلكات ثم تطرقتُ إلى الشروط الفعلية الخاصة بالوصية؛ التي استمع إليها صديقاي باهتمام شديد، أخذ ثورندايك يوقفني من آنٍ لآخر ليدوِّن ملاحظة في مُفكرة جيبه.

وعندما انتهيت، صاح جيرفيس: «يا إلهي، لا بدَّ أن الرجل مجنون تمامًا! يبدو أنه بذل قصارى جهده ببراعةٍ شيطانية ليُقوِّض تنفيذ الوصية.»

علق ثورندايك: «هذا ليس مُستغربًا على تاركي الوصايا بوجهٍ عام. الاستثناء هي وصية مباشرة وواضحة تمامًا. ولكن من الصعب أن نحكم حتى نرى الوثيقة الأصلية. أظن أن بيلينجهام ليس لديه نسخة؟»

قلت: «لا أعرف؛ ولكن سأسأله.»

قال ثورندايك: «إذا كان لديه نسخة، أودُّ أن أطلع عليها. الشروط غريبة جدًّا، وكما يقول جيرفيس، مدروسة على نحوٍ مثير للإعجاب لتقويض أمنيات المُوصي في حالة أنه تم تبليغها بشكلٍ صحيح. وعلاوة على ذلك، هي لها تأثير ملحوظ على ظروف الاختفاء. أراهن أنك لاحظتَ ذلك.»

«لاحظتُ أن من مصلحة هيرست إلى حدٍّ كبير عدم العثور على الجثة.»

«أجل، بالتأكيد. ولكن ثمة نقاطًا أخرى ذات أهمية بالغة. إلا أنه سيكون من السابق لأوانه أن نناقش بنود الوصية قبل أن نرى الوثيقة الأصلية أو نسخةً مُصدقًا عليها.»

عقبتُ قائلًا: «إذا كان هناك نسخة، فسأحاول الحصول عليها. ولكن بيلينجهام يخشى كثيرًا أن يتم اتهامه بالحصول على مشورةٍ متخصصة مجانًا.»

قال ثورندايك: «هذا أمر طبيعي بالقدر الكافي، ولا يضر بسمعته. ولكن يجب عليك أن تتغلب على تردُّده بطريقةٍ أو بأخرى. وأتوقع أن تكون قادرًا على ذلك. أنت شاب جدير بالثقة، بقدر ما أتذكر الأيام الخوالي، ويبدو أنك وطَّدتَ علاقتك بالأسرة وصرتَ صديقًا لها.»

قلتُ مفسرًا: «إنهم أشخاص مُثيرون للاهتمام، ومثقفون جدًّا ولديهم نزعة قوية نحو دراسة علم الآثار. يبدو أن هذا يسري في دمائهم.»

قال ثورندايك: «أجل، نزعة أُسَرية، ربما يرجع هذا إلى الاتصالات المباشرة والمحيط العام أكثر من كونه صفة وراثية. إذن، هل راقك جودفري بيلينجهام؟»

«أجل، هو شخص سريع الانفعال على أتفه الأشياء ومُتهور، ولكنه عجوز لطيف ومحبوب إلى حدٍّ بعيد.»

قال جيرفيس: «والابنة، كيف تبدو؟»

«أوه، هي فتاة مثقفة، تعدُّ المصادر والمراجع في المتحف.»

صاح جيرفيس في ازدراء قائلًا: «أها! أعرف هذا النوع؛ أصابع ملطخة بالحبر، نحيفة من كل الجوانب، ذات عوينات.»

ابتلعتُ الطُّعم الواضح والفاضح بسذاجة.

هتفتُ في سخط لأناقض تصوُّر جيرفيس البغيض بالصورة الأصلية الجميلة قائلًا: «أنت مُخطئ تمامًا. هي فتاة بارعة الجمال وأخلاقها تليق بما يجب أن تكون عليه أخلاق امرأة مهذبة. لعلها فظة بعض الشيء، ولكنني مجرد أحد المعارف بالنسبة إليها؛ شخص غريب تقريبًا.»

أصر جيرفيس قائلًا: «ولكني أقصد كيف يبدو مظهرها؟ قصيرة؟ سمينة؟ شقراء؟ قدِّم لنا تفاصيل واضحة.»

راجعت الصورة في ذهني سريعًا، وساعدَني في ذلك تأملاتي الأخيرة.

«طولها حوالي ١٧٠ سنتيمترًا، نحيفة ولكنها ملفوفة القوام، منتصبة القامة في مشيتها، ورشيقة في حركتها؛ ذات شعر أسود مفروق من المنتصف على نحوٍ غير محكم، ومنسدل على نحوٍ جميل بعيدًا عن جبهتها، ذات بشرة شاحبة وصافية، وعينين رماديتين داكنتين، وحاجبين مستقيمين وأنف مستقيم وجميل، وفمٍ صغير، مُكتنز جدًّا، وذقن دائري ... ما الذي تضحك عليه يا جيرفيس بحق السماء؟» فجأة كشف صديقي عن صفِّ أسنانه البراقة، وتوهَّد، كالقط شيشاير، بالدخول في حالةٍ من المرح والتسلية.

قال: «إذا كان يُوجَد نسخة من الوصية، يا ثورندايك، فدعنا نحصل عليها. أظن أنك تتفق معي، أيها المساعد الموقر.»

جاء الرد: «سبق أن قلتُ إنني أضع ثقتي في بيركلي. والآن، دعونا نُنحِّي الموضوعات المهنية جانبًا. ها قد وصلْنا إلى دار الضيافة.»

دفع بابًا زجاجيًّا بسيطًا، وتبِعناه إلى داخل المطعم، حيث كانت الأجواء معبأة برائحة اللحم الشهي مُختلطة بروائح أقل قبولًا للدهون المُقطرة المُدمِّرة للشرايين.

وبعد مرور ساعتين تقريبًا ودَّعت صديقيَّ تحت أشجار الدُّلْب ذات الأوراق الذهبية بشارع كينجز بينش ووك.

قال ثورندايك: «لن أطلب منك المجيء الآن؛ حيث إننا لدينا بعض الحسابات في فترة ما بعد الظهيرة. ولكن تعالَ لزيارتنا في أقرب وقت؛ لا تنتظر نسخة الوصية.»

قال جيرفيس: «كلَّا، مُرَّ علينا مساءً حين تنتهي من عملك، بالطبع ما لم يكن هناك حفل أكثر جاذبية في مكانٍ آخر. أوه، لا يجب أن يتغير لونك هكذا يا صغيري العزيز، لقد كنَّا جميعًا شبابًا ذات يوم؛ حتى ثورندايك نفسه كان شابًّا في فترةٍ تعود إلى ما قبل فترة الأُسَر الحاكمة.»

علق ثورندايك قائلًا: «دعك منه، يا بيركلي. إنه لم يخرُج من البيضة بعد. سيكون أكثر معرفةً حين يصل إلى عمري.»

صاح جيرفيس قائلًا: «متوشلخ جدُّ النبي نوح! أتمنى ألا أُضطرَّ إلى الانتظار آلاف السنين مثله!»

ابتسم ثورندايك ابتسامةً طوعيةً إلى مساعده الذي يتعذَّر كبحه، وصافح يدي بحرارة وتوجَّه إلى المدخل.

ومن شارع تيمبل انطلقتُ جهة الشمال، إلى كلية الجراحين المجاورة، حيث أقضي بضع ساعات مفيدة في فحص «الجثث المحفوظة» وأُنعش ذاكرتي بموضوعاتٍ خاصة بعلم الأمراض وعلم التشريح، متعجبًا من جديد (مثلما يجب أن يتعجب أي خبير بعلم التشريح العملي) من تقنيات التشريح المتقنة على نحوٍ لا يُصدق، وفي سِري أُشيد بمؤسس المجموعة. وأخيرًا دفعتني دقات الساعة مصحوبة برغبة متزايدة لتناول الشاي، وحملتني إلى مشهد عملي غير المُجهد بدرجةٍ كبيرة. كان ذهني لا يزال منشغلًا بمحتويات القضايا والجرار الزجاجية الكبيرة، ولذا وجدتُ نفسي عند منعطف حارة فيتر بدون أدنى فكرةٍ عن كيف قادتني قدماي إلى هناك. ولكن عند تلك النقطة استفقتُ من تأمُّلاتي فجأةً على صوتٍ أجشَّ يرن في أذني.

«اكتشاف رهيب في قرية سيدكوب!»

التفتُّ في غضب — حيث انطلقت صرخة صبيان شوارع لندن، من مسافة قريبة، كانت أشبه في الواقع بصفعةٍ من يدٍ مفتوحة — ولكن الكلام المكتوب على مُلصق أصفر لامع مرفوع أمامي لمعاينته حوَّل غضبي إلى فضول.

«اكتشاف رهيب في حوض نبات البقلة المائية!»

الآن، دع هادمي اللذات يُنكرون الأمر إن استطاعوا؛ ولكنْ ثمة شيء جذَّاب جدًّا في عنوان «اكتشاف رهيب.» إنه يشير إلى مأساة، إلى لغز، إلى مغامرة. إنه يعِدُ بإضفاء العنصر الدرامي المُثير على حياتنا الكئيبة والمُملة، وهو عنصر يمثل الملح الذي يُعطي مذاقًا لوجودنا في الحياة. «في حوض نبات البقلة المائية.» أيضًا! بدا أن الخلفية الريفية تؤكد رهبة الاكتشاف، أيًّا ما كان.

اشتريتُ نسخة من الجريدة، ودسستُها تحت ذراعي، وأسرعت إلى العيادة، مُمنيًا نفسي بوليمةٍ ذهنية من البقلة المائية؛ ولكن ما إن فتحت الباب حتى وجدت نفسي أمام سيدة بدينة تمتلئ بشرتها بالبقع والبثور حيَّتني بأنينٍ عميق. كانت السيدة صاحبة متجر الفحم الموجود في حارة «فلور دي ليس».

قلتُ في عجالة: «مساء الخير، سيدة جابليت. أتمنى ألا تكوني جئتِ لتكشفي على نفسكِ.»

ردَّت وهي تقف وتتبعني بخُطًى كئيبة إلى حجرة الكشف قائلة: «أجل، جئت لذلك.» وما إن أجلستُها على كرسي المريض وجلستُ أنا على المكتب، حتى واصلت حديثها: «إنه داخلي، يا دكتور كما تعلم.»

العبارة كان ينقصها الدقة التشريحية، واستبعدتُ تخصُّص الجلدية وحسب. وبالتالي انتظرتُ توضيحًا وفكرتُ في أحواض نبات البقلة المائية، بينما كانت السيدة جابليت تنظر إليَّ في ترقُّب بعينٍ ضعيفة ودامعة.

أخيرًا قلت: «أها! إنه ... إنه داخلك، أليس كذلك، سيدة جابليت؟»

«أجل، ورأسي.» أضافت بنظرة مُتلفتة من حولها ملأت الغرفة برائحة ذكريات مريرة.

«رأسك يؤلمك، أليس كذلك؟»

ردَّت السيد جابليت: «شيء مزمن! أشعر وكأنه يُفتح ويُغلق، يُفتح ويُغلق، وحين أجلس أشعر كما لو أنه ينبغي عليَّ أن أنهار.»

هذا الوصف الخلَّاب لأحاسيسها — يتناسب تمامًا مع شخصيتها — أعطاني فكرةً عن معاناة السيدة جابليت. وبعد أن قاومتُ دافعًا أحمق لطمأنتها بخصوص درجة مرونة جلد الإنسان، تأملتُ حالتها بمزيدٍ من التفاصيل، متفحصًا بدقة موضوع المرارة، وفي النهاية ودَّعتها، وقد ارتفعت معنوياتها، ومعها زجاجة بها تركيبة دواء؛ زجاجة صودا كام البزموت من مخزون الزجاجات الكبير الخاص ببرنارد. ثم عُدت لقراءة خبر

الاكتشاف الرهيب. ولكن قبل أن أتمكن من فتح الجريدة دخل مريض آخر (هذه المرة صبي «جبهته العريضة والمقوسة» مُصابة بمرض القوباء، من حارة فيتر)، ثم بعده مريض ثالث، ودواليك طوال المساء حتى نسيتُ في النهاية موضوع أحواض نبات البقلة المائية تمامًا. ولم أتذكر الجريدة إلا حين طهَّرتُ نفسي من الكشوفات المسائية بحمَّام المياه الساخنة وتنظيف الأظافر، وكنتُ بصدد الجلوس وتناول عشاء خفيف، وبحثتُ عنها في دُرج مكتب غرفة الكشف، حيث خفيت في عجالةٍ بعيدًا عن الأنظار. ثنيتُها في شكل مناسب، لأضعها في وضع عمودي مستندة إلى إبريق الماء، قرأت التقرير على مهلٍ أثناء تناولي العشاء.

كان هناك تقرير مستفيض. من الواضح أن المراسل الصحفي اعتبره «سبقًا صحفيًّا»، ودعمه رئيس التحرير بمساحة وفيرة وعناوين إخبارية تقشعر لها الأبدان.

اكتشاف رهيب
في حوض نبات بقلة مائية بقرية
سيدكوب!

«اكتشاف مُذهل حدث بعد ظهيرة أمس أثناء عملية تطهير أحواض نبات بقلة مائية بالقرب من قرية سيدكوب الريفية بمقاطعة كينت؛ وهو اكتشاف سيثير الكثير من المتاعب المزعجة بالنسبة إلى الأشخاص الذين اعتادوا تناول هذه النباتات المُنعشة. ولكن قبل الخوض في وصف الظروف الخاصة بالاكتشاف الفعلي، أو الأشياء التي تم العثور عليها — والتي سيأتي ذكرها فورًا وهي عبارة عن أشلاء جثة بشرية مُتحللة، لا أكثر ولا أقل — سيكون من المثير تتبُّع سلسلة الصُّدَف الاستثنائية التي بموجبها تمَّ هذا الاكتشاف.

أحواض النباتات المُشار إليها موجودة في بحيرةٍ صناعية صغيرة يُغذيها جدول نهري صغير يُعدُّ أحد الروافد الكثيرة لنهر كراي. وعمق هذه الأحواض أكبر من الأحواض المعتادة لنبات البقلة المائية، وإلا لكان من المستحيل إخفاء الرفات البشِع تحت سطحها. ورغم استمرار تدفق المياه عبرَها، فإن كميتها ضئيلة. ويتعرج الرافد النهري عبر سلسلة من المروج العشبية، وتُوجَد أحواض النباتات في أحد هذه المروج. وهنا طوال معظم شهور العام تعمل الخراف — ضحايا البشر آكلي اللحوم — على نحوٍ دءوب لتحويل العُشب إلى لحم ضأن. وقبل بضع سنواتٍ مضت، أُصيبت الخراف المُتردِّدة على هذه المروج العشبية

بمرضٍ يُعرف باسم «عنونة الكبد»، وفي هذا السياق علينا أن نستطرد قليلًا في الحديث عن علم الأمراض.

عنونة الكبد هو مرض له خلفيات مثيرة جدًّا. هذا المرض تُسببه دودة مسطحة صغيرة — تُسمى مثقبيات الكبد — تغزو الكبد والقنوات الصفراوية للخراف المُصابة.

السؤال: كيف وصلت هذه الدودة إلى كبد الخراف؟ من هنا تبدأ المغامرة. هيا لنرى!

تبدأ دورة التحوُّل بوضع بيض دودة مثقبيات الكبد في مجرًى مائي ضحل أو مصرف جارٍ عبر الأراضي العشبية. لكل بيضةٍ شيء يشبه الغطاء، ينفتح في الحال ويخرج منه كائن دقيق مُشعر يسبح بعيدًا بحثًا عن نوع معين من الحلزون المائي — يُطلِق علماء الطبيعة على هذا النوع ليمنيا ترانكاتيولا. وإذا وجد هذا الكائن حلزونًا، يشق طريقه داخله، وسرعان ما يبدأ في تكديس الشحم وزيادة طبقاته. ثم، يكوِّن أسرة — ديدان صغيرة لا تُشبهه؛ كائنات صغيرة تُسمى ريديات، والتي بدورها تنجب أُسَرًا من الريديات الصغيرة. هكذا، يستمر الوضع على مدى عدة أجيال؛ ولكن أخيرًا يأتي جيل من الريديات التي بدلًا من أن تُنجب ريديات جديدة، تنتج أسرًا من سلالةٍ مختلفة تمامًا، كائنات ذات رأس كبير وسوط طويل مثل شرغوف دقيق جدًّا، يُطلِق عليه أولو العلم سركاريا. وسرعان ما تشق السركاريا طريقها إلى خارج جسم الحلزون، ثم هنا تنشأ المُضاعفات؛ فمن عادة هذا الحلزون المائي تحديدًا أن يترك الماء من وقتٍ لآخر ويتنزَّه في الحقول؛ وبالتالي، تفرُّ السركاريا من الحلزون لتجد نفسها على العشب حيث تُسقط أسواطها وتثبت نفسها على أطراف العشب. ثم تأتي الخراف الغافلة لتتناول وجبتها الخفيفة، وتجز العشب وتبتلع السركاريا وكل هذه الكائنات الأخرى. ولكن الأخيرة عندما تجد نفسها في معدة الخراف، تشق طريقها مباشرة إلى القنوات الصفراوية، ومنها إلى الكبد. وفي غضون بضعة أسابيع، تنمو إلى ديدان مثقبية يافعة وتبدأ المهمة الخطيرة لإنتاج البيض.

هذه هي المغامرة الباثولوجية لمرض عنونة الكبد. الآن، ما علاقة هذا بالاكتشاف الغامض؟ إليك حلقة الربط. بعد تفشِّي مرض عنونة الكبد المشار إليه أعلاه بين الأغنام، أعطى مالك الأرض، ويُدعى السيد جون بيلينجهام، تعليماته لُمحاميه بإضافة بند في عقد إيجار الأحواض ينصُّ على ضرورة تنظيفها بصفةٍ دورية وفحصها من قبل أحد الخبراء للتأكد من خلوها من حلزونات المياه الضارة. انتهى عقد الإيجار الأخير قبل نحو عامين، ومنذ ذلك الحين لم تتم زراعة الأحواض؛ ولكن من أجل سلامة المروج العشبية المجاورة، اعتُبر من الضروري إجراء المتابعة الدورية المعتادة، وفي أثناء عملية تطهير الأحواض لهذا الغرض، تم الاكتشاف.

بدأت العملية قبل يومين؛ حيث شرعت مجموعة من ثلاثة رجال في استئصال النباتات بطريقة منهجية وجمع الحلزونات المائية الكثيرة لكي يفحصها الخبراء وتحديد ما إذا كان بينها أنواع ضارة أم لا. وكانوا قد طهروا نصف عدد الأحواض تقريبًا، حين اكتشف بعد ظهر أمس أحد الرجال العاملين في أعمق جزءٍ من الأحواض بعضَ العظام أثار مظهرها شكوك الرجل. وعلى الفور، نادى الرجل زملاءه وأزالوا أجزاء النباتات، وسرعان ما كشفت العملية بوضوح عن يدٍ بشرية مدفونة في الطين وسط الجذور. ولحُسن الحظ أنهم تحلَّوا بالحكمة لعدم بعثرة الرفات، ولكنهم أبلغوا الشرطة. وسرعان ما وصل إلى مكان الحادث مُحقق ورقيب، يصحبهما الجراح التابع لقسم الشرطة، واستطاعوا فحص الرفات المدفون حيث وجدوه. ثم أُلقي الضوء على حقيقةٍ غريبة جدًّا؛ إذ لوحظ أن اليد — وهي يد يسرى — المدفونة في الطين ينقصها الإصبع الثالثة. اعتبرت الشرطة هذه الحقيقة ذات أهمية بالغة بخصوص مسألة تحديد هوية الجثة، نظرًا لأن عدد الأشخاص الذين فقدوا الإصبع الثالثة من اليد اليسرى هو حتمًا عدد قليل جدًّا. وبعد إجراء فحصٍ شامل للمكان، جُمعت العظام بحرصٍ ونُقلت إلى المشرحة؛ حيث تنتظر الآن المزيد من الفحوصات.

وفي مقابلة صحفية أجراها مُمثلنا الصحفي مع دكتور براندون، الجراح التابع لقسم الشرطة، أدلى بالتصريحات التالية:

«العظام هي عظام اليد اليسرى لرجلٍ في منتصف العمر أو أكبر، يبلغ طوله ١٧٢ سنتيمترًا. جميع عظام الذراع موجودة، وفيها عظمة الكتف، أو لوحة الكتف، والترقوة، إلا أن العظام الثلاثة للإصبع الثالثة مفقودة.»

سأله مراسلنا الصحفي: «هل هذه عاهة جسدية أم أن الإصبع مبتورة؟»

كان ردُّه: «لقد بُترت الإصبع. لو كانت مفقودة منذ الولادة، لكان عظم السنعي، أو مشط اليد مفقودًا أو مُشوَّهًا؛ في حين أنه موجود وطبيعي جدًّا.»

كان السؤال التالي هو: «كم لبثت العظام بالمياه؟»

«أكثر من عام، حسب ما أظن. هي نظيفة تمامًا؛ ولا يُوجَد أثر للأنسجة اللينة.»

«هل لديك أي نظريات عن كيف وصلت الذراع إلى حيث عُثر عليها؟»

جاء الرد المُتحفظ: «أُفضل ألا أجيب عن هذا السؤال.»

ألحَّ مراسلنا الصحفي: «سؤال آخر من فضلك، مالك الأرض، السيد جون بيلينجهام، أليس هو الرجل الذي اختفى بشكلٍ غامض جدًّا قبل فترةٍ مضت؟»

أجاب دكتور براندون قائلًا: «أظن ذلك.»

«هل يمكن أن تُخبرني ما إذا كان السيد بيلينجهام قد فقد الإصبع الثالثة من يده اليسرى؟»

ردَّ دكتور براندون: «لا يمكنني ذلك.» ثم أضاف مبتسمًا: «من الأفضل أن تسأل الشرطة.»

«إلى هنا تقف القضية في الوقت الراهن. ولكننا نتفهم أن الشرطة تُجري تحقيقات موسعة بخصوص أي رجل مفقود فقد الإصبع الثالثة من يده اليسرى، وإذا كان أحد قرَّائنا يعرف شخصًا بهذه المواصفات، يُرجى التواصل معنا على الفور أو مع السلطات.

ونعتقد أنه لا بدَّ من إجراء تفتيش منهجي عن باقي الرفات».»

وضعتُ الجريدة جانبًا واستغرقت في سلسلةٍ من التأملات. كانت، بالتأكيد، أغرب حادثة على الإطلاق. من الواضح أن الفكرة التي طرأت على ذهن الصحفي تسللت إلى ذهني أيضًا؛ هل من المُحتمل أن يكون هذا الرفات رفات جون بيلينجهام؟ من الواضح أن هذا احتمال قائم، رغم أنني لا أرى سوى حقيقة أنه عُثر على العظام مدفونة في أرضه، رغم أنها بلا شك تُعزز الاقتراح، فإنها على أي حال لا تزيد الاحتمالية. الرابط بين الأمرَين كان محض صدفة ولا توجد صِلة مباشرة حتى الآن.

وكذلك مسألة الإصبع المبتورة. لا توجد أي إشارة إلى هذا التشوُّه في التقرير الأصلي لواقعة اختفاء جون بيلينجهام، رغم أن أمرًا كهذا يصعب إغفاله. ولكن التكهنات لا تُجدي في ظل غياب الحقائق. لا بدَّ أن أزور ثورنديك خلال الأيام القليلة القادمة، وبلا شك، إذا كان هذا الاكتشاف له أي تأثيرات على اختفاء جون بيلينجهام، فلا بدَّ أن أفهم. وبهذه الفكرة، قُمت عن المكتب، ونفَّذت النصيحة المقتبسة من مغامرات «دكتور جونسون»، وانطلقت إلى «تمشيةٍ في شارع فليت» قبل حلول المساء.

الفصل السادس

معلومات إضافية

العلاقة بين الفحم والبطاطس هي علاقة تفكرتُ فيها كثيرًا، دون الوصول إلى أي تفسيرٍ مُرضٍ أكثر من كونهما مُنتجَين يخرجان من باطن الأرض، أي منتجَين ترابيَّين. وتقدم عيادة برنارد أمثلةً عديدة لتلك العلاقة غير المترابطة في حد ذاتها بوجودها إلى جانب متجر السيدة جابليت في حارة فلور دي ليس؛ وهو عبارة عن مغارة مظلمة ومخفية تحت مستوى الشارع بمسافة قدم، مُختبئة أسفل بيتٍ قديم على الجانب الغربي من حارة فيتر؛ بيت خشبي مُتغضِّن من ثلاثة طوابق يترنح بثمالة إلى الخلف بعيدًا عن الطريق وكأنه على وشك الجلوس على فنائه الخلفي.

حين مررتُ أمام هذا المستودع من المنتجات المترابطة في حوالي الساعة العاشرة صباحًا، لاحظتُ في ظلال تلك المغارة شخصًا على هيئة الآنسة أومان. رأتني في اللحظة نفسها، وأشارت لي في حزمٍ بيد تمسك بثمرة كبيرة من البصل الإسباني. اقتربت بابتسامة تظهر الاحترام والتبجيل.

«يا لها من بصلة رائعة يا آنسة أومان! وكم أنتِ كريمة لتقدميها لي ...»

«لم أكن أُقدمها إليك. ربَّاه! أليست أشبه برجل ...»

قاطعتها قائلًا: «ما الذي أشبه برجل؟ إذا كنتِ تقصدين البصلة ...»

ردت بعنف قائلة: «لا أقصد ذلك وأتمنى أن تكفَّ عن هذا الهراء؛ رجل بالغ ويعمل في مهنة خطيرة أيضًا! يجب أن تكون على دراية أفضل.»

قلت بنبرة تأمُّلية: «أعتقد أنه يجب فعلًا.» واستطردتْ قائلة:

«مررتُ على العيادة توًّا.»

«لرؤيتي؟»

«من الذي سآتي من أجله إذن؟ هل تفترض أنني ذهبت لاستشارة التمرجي؟»

«كلَّا بالتأكيد آنسة أومان. إذن أنت لا تثقين في الدكتورة، على أي حال!»

كشرت الآنسة أومان عن أنيابها (وبالمناسبة لديها أنياب بحالة ممتازة جدًّا).

قالت بنبرة مهيبة: «جئتُ بالنيابة عن الآنسة بيلينجهام.»

وعلى الفور اختفى حسُّ الفكاهة من عندي. وقلتُ بقلقٍ مفاجئ أثار ابتسامةً ساخرة من جانب الآنسة أومان: «آمل ألا تكون الآنسة بيلينجهام مريضة.»

ردَّت قائلة: «كلَّا، ليست مريضة، ولكن يدها جُرحت جرحًا سيئًا جدًّا. يدها اليمنى، ولا يمكنها الاستغناء عن استخدامها، فهي ليست رجلًا ضخمًا وفحلًا متنطعًا يمشي متعثرًا؛ لذا، من الأفضل أن تذهب وتضع لها بعض العقاقير عليها.»

وبعد هذه النصيحة، انطلقت الآنسة أومان ناحية اليمين واختفت في غياهب المغارة مثل الساحرة ووكي، بينما أسرعتُ أنا إلى العيادة لأتزوَّد بالمعدات والمواد الضرورية، ومن هناك انطلقت إلى نيفيلز كورت.

أوجزت الخادمة المساعدة للآنسة أومان التي فتحت الباب لي الظروف الحالية بعبارة مُحكمة.

«السيد بيلينجهام في الخارج يا سيدي، ولكن الآنسة بيلينجهام في الداخل.»

وما إن قالت هذا حتى انسحبت إلى المطبخ وصعدتُ الدرج، حيث وجدتُ على رأس الدرج الآنسة بيلينجهام في انتظاري وقد ربطت يدَها اليُمنى بما يشبه قفاز ملاكمة أبيض اللون.

قالت: «سعدتُ بقدومك. لقد ربطتْ فيليس — الآنسة أومان كما تعرفها — يدي، ولكن أودُّ أن ترى ما إذا كانت بخير.»

ذهبنا إلى غرفة الجلوس، حيث وضعتُ أدواتي على الطاولة بينما كنت أستفسر عن تفاصيل الحادثة.

قالت: «من المؤسف جدًّا أن يحدث هذا الآن.» بينما جاهدت لفكِّ واحدة من تلك العقد النسائية الاستثنائية، وبدا وكأنها تتحدى أقصى جهود البراعة البشرية لفكِّها، ورغم ذلك فلهذه العُقَد عادة فريدة لتنحل من نفسها في اللحظات غير المناسبة.

سألتها: «لماذا الآن تحديدًا؟»

«لأن لديَّ بعض الأعمال ذات الأهمية الخاصة التي يجب عليَّ القيام بها. أوكلت لي سيدة مثقفة جدًّا تؤلف كتابًا تاريخيًّا مهمًّا جمْع كل المطبوعات المتعلقة برسائل تل العمارنة، وهي ألواح مكتوبة بالخط المسماري خاصة بأمنحوتب الرابع، كما تعرف.»

قلت بهدوء: «حسنًا، أتوقع أن تكون يدك على خير ما يرام قريبًا.»

«أجل، لكن هذا لن يجدي. يجب أن يتم إنجاز العمل على الفور. يجب أن أُرسل ملاحظاتٍ متكاملة في وقت أقصاه أسبوع من اليوم، وسيكون هذا مُستحيلًا تمامًا. أنا مُحبطة بشدة.»

في هذا الوقت، كنتُ قد فككت الضمادات الكثيرة وكشفت الجرح — كان عبارة عن جرح عميق في راحة اليد تفادى بأعجوبة قطع شريان كبير الحجم. من الواضح أن اليد ستكون عاطلة عن العمل لمدة أسبوع كامل.

قالت: «أظن أنك لا تستطيع معالجتها سريعًا بحيث يُمكنني الكتابة بها؟»

هززت رأسي:

«كلَّا، يا آنسة بيلينجهام. ينبغي أن أضعها في جبيرة. لا يمكننا تحمل المخاطرة بجرح عميق كهذا.»

«إذن، لا بدَّ أن أتنازل عن المهمة، لا أعرف كيف ستُنجِز العميلة هذه المهمة في الوقت المحدد. كما ترى أنا أجيد أدب مصر القديمة على نحوٍ ممتاز؛ في الواقع كنت بصدد تلقي دفعة خاصة من الأموال نظير هذا العمل. ولا بدَّ أنها مهمة مثيرة للاهتمام أيضًا. ورغم ذلك، ما باليد حيلة.»

شرعتُ على نحو منهجي في وضع الضمادات، وفي الوقت نفسه أخذت أفكر مليًّا. كان من الواضح أنها تشعر بخيبة أمل شديدة. فقدان العمل يعني خسارة المال، ولستُ بحاجة لشيء سوى إلقاء نظرة على فستانها الأسود الرث لمعرفة أن هامش السماح بذلك ضئيل جدًّا. ومِن المُحتمل أيضًا أنه يُوجَد بعض الاحتياجات الخاصة التي يجب تلبيتها. بدا أن سلوكها يُوحي بوجود شيء كهذا. وعند هذه اللحظة، جاءتني فكرة رائعة.

قلت: «لست واثقًا من أنه ما باليد حيلة.»

نظرت إليَّ مُستفسرة، فاستطردت قائلًا: «سأتقدَّم بعرض، وسأطلب منكِ أن تُفكري فيه بعقل مُتفتح.»

قالت: «هذا يبدو واعدًا نوعًا ما، ولكن أَعِدُك. ما العرض؟»

«هو كما يلي: عندما كنت طالبًا، اكتسبتُ مهارة مفيدة في كتابة ملاحظات مُختزلة. لست مراسلًا سريعًا، كما تعرفين، ولكن يمكنني تدوين الملاحظات من خلال الإملاء بسرعةٍ معقولة جدًّا.»

«أجل.»

«حسنًا، لديَّ بضع ساعات فراغ كل يوم — عادة تكون فترة ما بعد الظهيرة بأكملها وحتى الساعة السادسة أو السادسة والنصف — وخطر ببالي لو أنك تذهبين إلى المتحف في الصباح، يمكنك أن تجلبي كتبك وتبحثي عن الفقرات (يمكنك أن تفعلي هذا بدون استخدام يدك اليمنى)، ضعي إشارات مرجعية، ثم يمكنني أن أمرَّ عليك بعد الظهيرة ويمكنك أن تقرئي لي الفقرات المختارة، ويمكنني أن أدوِّن ملاحظات مختزلة. ينبغي أن ننجز الكثير في غضون ساعتين بقدْر ما يمكنكِ إنجازه في يومٍ من خلال الكتابة العادية.»

صاحت قائلة: «أوه، هذا كرَم منك، دكتور بيركلي! كرم شديد! بالطبع، لا يمكنني التفكير في شغْل وقت فراغك بتلك الطريقة؛ ولكني أقدِّر كرمك كثيرًا.»

شعرتُ بحزن شديد إثر هذا الرفض القاطع جدًّا، ولكني واصلتُ بوهن:

«أتمنَّى أن تقبلي. ربما يبدو من الوقاحة لشخصٍ غريب نسبيًّا مثلي أن يُقدم مثل هذا العرض لسيدة، ولكن لو كنتِ رجلًا — يمرُّ بمثل هذه الظروف الخاصة — فلسوف أتصرَّف بالطريقة نفسها، ولقبلتِ بطبيعة الحال.»

«أشكُّ في ذلك. على أي حال، لستُ رجلًا. أحيانًا أتمنَّى لو كنتُ كذلك.»

هتفتُ بحماس جعلنا نضحك معًا: «أوه، أنا متأكد من أنكِ أفضل كثيرًا كما أنتِ الآن.» في هذه اللحظة، دخل السيد بيلينجهام الغرفة وهو يحمل عدة كتب كبيرة وجديدة مربوطة بشريط.

هتف بحرارة: «حسنًا، أنا مُتيقن! ثمة أشياء لطيفة تحدث هنا. الدكتور والمريضة يضحكان كأنهما طالبان في مدرسة! ما المزحة، إذن؟»

وضع رزمة الكتب على الطاولة مُحدثًا صوتًا قويًّا واستمع مبتسمًا بينما كنت أوضح مُزحتي اللاواعية.

قال: «الطبيب مُحق تمامًا، أنتِ أفضل كما أنتِ عليه فعلًا يا جميلتي، ولكن الله أعلم أي نوع من الرجال كنتِ ستنتمين إليه. خذي بنصيحته ودعي الأمور على حالها.»

ولَمَّا وجدته في هذه الحالة المزاجية الجيدة، غامرت بتوضيح عرضي إليه لأستعين بدعمه. قابله بموافقةٍ واعية، وحين انتهيتُ التفتَ إلى ابنته.

وسألها: «ما اعتراضك، يا جميلتي؟»

ردت قائلة: «هذا من شأنه أن يرهق دكتور بيركلي بقدرٍ كبير من العمل.»

قلت: «بل سيمنحه قدرًا كبيرًا من المتعة. سيكون كذلك حقًّا.»

قال السيد بيلينجهام: «إذن، ولِمَ لا؟ نحن لا نمانع الالتزام بأوامر الطبيب، أليس كذلك؟»

صاحت بسرعة: «أوه، الأمر ليس كذلك!»

«إذن، اقْبَلِي عرضَه. هو يعني كل كلمة. إنه تصرُّف كريم وسيروق له القيام به، أنا متأكد من ذلك. حسنًا، أيها الطبيب، هي تقبل عرضك، أليس كذلك، يا جميلتي؟»

«أجل، إن كان هذا قولك، فأنا أقبل، وأنا مُمتنَّة كثيرًا.»

جاء قَبولها بابتسامةٍ رقيقة كانت في حدِّ ذاتها ردًّا كبيرًا للجميل. وبعد أن أجرينا الترتيبات اللازمة، هرعتُ في حالة من الرضا التام لإنهاء جولتي الصباحية من العمل وطلبتُ وجبة الغداء مبكرًا.

وحين جئتُ لاصطحابها بعد مرور ساعتين، وجدتها منتظرةً في الحديقة ومعها الحقيبة الرثة، التي حملتُها عنها، وانطلقنا معًا، تُراقبنا في غيرة الآنسة أومان، التي اصطحبتها حتى البوابة.

لم أكن أصدق حظي السعيد وأنا أسير في الحارة وإلى جواري هذه الفتاة الرائعة. بوجودها معي ووجودي معها والسعادة الناتجة عن ذلك تحولت كل الأشياء المحيطة الوضيعة إلى أشياء عظيمة، وحتى الأشياء الأكثر شيوعًا تبدلت إلى أشياء جميلة. فعلى سبيل المثال، كم كان فيتر لين شارعًا مبهجًا بسحرِه الجذاب وزخارف القرون الوسطى! شممتُ رائحة الجو المعبأة بالكرنب، وبدا كأني أتنفس عبير زهور البروق. حتى منطقة هولبورن بدت وكأنها جنات عدن، وبدت الحافلة التي حملتنا غربًا كأنها عربة المجد، والأشخاص الذين يحتشدون بأعداد غفيرة على الأرصفة كانوا يشبهون الأبرار.

الحب شيء أحمق بحكم معايير العمل اليومية، أفكار العاشقين وتصرفاتهم هي حماقة تفوق كل المقاييس. ولكن معايير العمل اليومية هي معايير خاطئة، فكل ما يفعله العقل النفعي هو شَغْل نفسه بمُتع الحياة السطحية والزائلة، وخلفها تلوح الحقيقة العظيمة والأبدية للحب بين الرجل والمرأة. فتغريدة عندليبٍ في ليلة صيفية هادئة، لها مدلول أهم من حِكَم سليمان كلها (الذي، بالمناسبة، كان له باع طويل مع التجارب العاطفية الرقيقة).

فتَّشَنا الحارس الموجود في المقصورة الزجاجية الصغيرة عند مدخل المكتبة وتركَنا نمر، بمباركةٍ صامتة، إلى الردهة، حيث (حينئذٍ سلمتُ عصاي إلى رجل مهيب أصلع الرأس، وفي المقابل أعطاني قرصًا عليه ما يُشبه التعويذة) دخلنا قاعة مُستديرة ضخمة خاصة بقاعة القراءة.

كثيرًا ما تخيَّلت لو أن دُخانًا مهلكًا له خواص المواد الحافظة بشدة — كمادة الفورمالدهايد مثلًا — يمكنه أن يُخيم على أجواء هذا القسم، فإن مجموعة كاملة وشاملة من الكتب وديدانها تستحق الحفاظ عليها، من أجل توعية الأجيال القادمة، باعتبارها مُلحقًا أنثروبولوجيًّا للمجموعة الأساسية الخاصة بالمتحف، كما أنه لا يُوجَد مكان آخر على وجه البسيطة به عددٌ كبير جدًّا من الأشخاص غريبي الأطوار وغير الطبيعيين مُجتمعين في مكان واحد. وثمة سؤال غريب لا بدَّ أنه يطرأ على ذهن العديد من المراقبين؛ ألا وهو: من أين تأتي هذه المخلوقات الغريبة، وإلى أين تذهب حين تعلن دقات الساعة المميزة (المُهيَّأة لتتناسب مع مجال رؤية محبي الاطلاع) وقت الإغلاق؟ الرجل ذو الوجه التراجيدي مثلًا والذي يعقص شعره على هيئة خصلات لولبية تهتز إلى أعلى وأسفل مثل زنبركات لولبية أثناء سيره! أو الرجل القصير المسن الذي يرتدي رداء الكهنة الأسود والقبعة المستديرة السوداء، والذي يحطم أعصابك حين يستدير فجأة ويكشف عن نفسه باعتباره امرأة في منتصف العمر! إلى أين يذهبون؟ لا يراهم أحد مُطلقًا في مكان آخر. هل يتسللون وقت الإغلاق إلى غياهب المتحف ويختبئون حتى الصباح في تابوتٍ حجري أو صناديق المومياوات؟ أم أنهم يزحفون عبر المسافات الموجودة على أرفف الكتب ويقضون الليل خلف المجلدات في أجواءٍ ملائمة لرُقع الجلد والأوراق القديمة؟ من يدري؟ ما أعرفه أنه حين دخلَتْ روث بيلينجهام قاعة القراءة بدت كأنها مخلوق ينتمي لفصيلةٍ مختلفة مقارنة بهؤلاء، مثل رأس أنطونيوس، الذي كان يقف فيما سبق وسط تماثيل بورتريه الأباطرة الرومان (حيث تم نقله منذ ذلك الحين)، بدت وكأنها رأس إلهٍ موضوع وسط معرض صور لامعة لقرود البابون.

سألتها حين وجدنا مقعدًا فارغًا: «ما الذي علينا فعله؟ هل تريدين البحث في الفهرس؟»

«كلَّا، البطاقات في حقيبتي. الكتب تنتظِر في قسم «الكتب المحجوزة».»

وضعتُ قبعتي على الرف المُغطى بالجلد، ثم وضعتْ قفازها عليها — كم بدا هذا أُلفةً ورفقة مبهجة! — استبدلت الأرقام الموجودة على البطاقات، ثم توجهنا نحو مكتب «الكتب المحجوزة» لجمع المجلدات التي تحتوي على المواد اللازمة لعملنا اليوم.

كانت فترة ما بعد الظهيرة فترة باعثة على البهجة. ساعتان ونصف من السعادة الخالصة قضيتهما على ذلك المكتب اللامع المُغطى بالجلد، مُوجِّهًا قلمي الرشيق عبر صفحات دفتر الملاحظة. قدَّمني إلى عالم جديد — عالم اختلط فيه الحب والعلم والألفة الرائعة وعلم الآثار العتيق بأغرب الاكتشافات وأكثرها خيالًا ومتعة أكثر ممَّا يتخيل العقل البشري. وحتى هذه اللحظة، كانت هذه التواريخ المُعاد سردُها بعيدة تمامًا عن إدراكي. لقد سمعت عن أمنحوتب الرابع المُنشق الرائع — على أكثر التقديرات كان مجرد اسم؛ والحيثيون كانوا مجرد عرق أسطوري ليس لهم وطن؛ والألواح المكتوبة بالخط المسماري كانت بالنسبة إلى ذهني مجرد نوع من رقائق أحفورية غريبة تناسب مَعِدة نعامة قادمة من عصور ما قبل التاريخ.

الآن، تغير كل هذا. بينما كنَّا نجلس على كرسيينا المُلتصقين ببعض، همست في أذني المصغية قصة تلك العصور المثيرة — حيث إن الحديث ممنوع منعًا باتًّا في قاعة القراءة والاطلاع. الأجزاء المُفككة رتَّبت نفسها على هيئة مغامرة لها سحر عظيم. العصور المصرية والبابلية والآرامية والحيثية والممفيسية وعصور حماة ومجدو؛ التهمتُها جميعًا لحُسن الحظ، ودوَّنتها، وطلبت المزيد. أحرجت نفسي مرة واحدة فقط. مرَّ علينا قسٌّ مُسن ذو طابع زاهد وقاسٍ، تعلو وجهه نظرة رفضٍ واضحة، وكأنه يُصنفنا بكل وضوحٍ تحت بند العشاق المُتطفلين؛ وحين قارنت التفسير المُحتمل للقس بخصوص الرسائل الهامسة التي تُصب في أُذني بكل رقةٍ وسرية، والواقع الأليم الذي أعيشه، ضحكتُ بصوت عالٍ. ولكن شريكتي في المهمة توقفت لبُرهة، وهي تضع إصبعها على الصفحة مُبتسمة لتوبخني، ثم واصلت الإملاء. كانت فتاةً مجدة في العمل بكل تأكيد.

كانت لحظة تدعوني إلى الفخر، بعد أن ردَّت مُرافقتي على استفساري «حسنًا!» بقولها: «هذا كل شيء.» وأغلقت الكتاب. لقد استخرجنا عصارة ستة مجلدات كبيرة في ساعتين ونصف.

قالت: «لقد أبليتَ على نحوٍ أفضل من وعدك. كنتُ سأستغرق يومين كاملين من العمل الشاق فعلًا لتدوين الملاحظات التي كتبتها منذ أن بدأنا. لا أعرف كيف أشكرك.»

«لستِ بحاجة إلى ذلك. لقد استمتعتُ بوقتي وأصقلتُ مهارتي في تدوين الملاحظات المُختزلة. ما الخطوة التالية؟ سنحتاج إلى بعض الكتب للغد، أليس كذلك؟»

«أجل، لقد أعددتُ قائمة، فإذا كنتَ ستأتي معي إلى مكتب الفهرسة، فسأبحث عن الأرقام وأطلب منك تدوين البطاقات.»

انشغلنا لمدة ربع ساعة أخرى في اختيار دفعة جديدة من المراجع، وبعد أن سلَّمنا المجلدات التي قتلناها بحثًا، سلكنا طريقنا نحو الخروج من قاعة القراءة والاطلاع.

«أي طريق سنسلكه؟» سألتني أثناء مرورنا من البوابة، حيث وقف رجل شرطة ضخم الجثة، وكأنه ملاك حارس لأبواب الجنة (ولكن حمدًا لله! لم يكن يحمل في يده سيفًا من لهبٍ ليمنع الدخول مرة أخرى).

أجبت قائلًا: «سنذهب إلى شارع المتحف، حيث يُوجَد محل ألبان يمكننا أن نحتسي فيه فنجان شاي رائعًا.»

بدت وكأنها بصدد الاعتراض، ولكن انصاعت أخيرًا، وسرعان ما جلسْنا مُتجاورَين على الطاولة الصغيرة ذات السطح الرخامي، واسترجعْنا الموضوع الذي قُمنا بتغطيته أثناء العمل في فترة ما بعد الظهيرة، وناقشنا عدة نقاط مثيرة للاهتمام أثناء تناولنا إبريق شاي مُشترَكًا.

سألتها وهي تناولني فنجان الشاي الثاني: «هل تقومين بهذا النوع من العمل منذ وقتٍ طويل؟»

أجابت قائلة: «من الناحية المهنية، منذ حوالي عامين فقط؛ في الواقع منذ انهيار منزلنا. ولكن قبل ذلك بوقتٍ طويل اعتدتُ زيارة المتحف مع عمي جون — ذلك الذي اختفى بتلك الطريقة الغامضة جدًّا كما تعرف — ومساعدته على البحث في المراجع. كنَّا صديقين حميمين، أنا وهو.»

قلتُ مُستفسرًا: «أظن أنه كان رجلًا مثقفًا جدًّا؟»

«أجل، بطريقةٍ معينة؛ طريقة تليق بأفضل هواة الجمع، كان رجلًا مثقفًا جدًّا بالتأكيد؛ كان يعرف محتويات كل متحف في العالم، طالما أنه ذو صلةٍ بالآثار المصرية، وكان يدرس عينةً تلو الأخرى. وبالتالي، نظرًا لأن علم الآثار المصرية هو علم المتاحف بوجه عام، فهو عالم آثار مُثقف. ولكن كان اهتمامه الحقيقي مُنصبًّا على الأشياء، لا الأحداث. بالطبع، كان يعرف الكثير — الكثير جدًّا — عن التاريخ المصري؛ ولكنه قبل كل شيء من هواة الجمع.»

«إذن ما الذي ستئول إليه مجموعته إذا كان ميتًا حقًّا؟»

«الجزء الأكبر منها سيذهب إلى المتحف البريطاني حسب وصيته، والباقي ترَكه لمُحاميه، السيد جيليكو.»

«للسيد جيليكو! ربَّاه، ما الذي سيفعله السيد جيليكو بالآثار المصرية؟»

«أوه، هو أيضًا عالم آثار مصرية، ومُتحمس جدًّا. لديه مجموعة تماثيل جعران وغيرها من التماثيل الصغيرة التي يمكن الاحتفاظ بها في منزلٍ خاص. لطالما أرى أن حماسه لكل شيءٍ مصري جعله هو وعمي على هذا المستوى من الألفة والحميمية؛ ورغم أنني أومن بأنه محامٍ ممتاز، فإنه بالطبع رجل مُتحفظ وحذِر للغاية.»

«هل هو كذلك؟ لا أحسبه كذلك، بناءً على وصية عمك.»

«أوه، ولكن هذه ليست غلطة السيد جيليكو؛ إنه يؤكد لنا أنه توسَّل إلى عمي لكي يصوغ له وثيقه جديدة بشروط معقولة أكثر، ولكنه يقول إن العم جون كان ثابتًا على موقفه؛ كان رجلًا عنيدًا جدًّا. ويتبرَّأ السيد جيليكو من أي مسئولية بخصوص هذا الشأن، وينفض يديه من المسألة كلها، ويقول إنها وصية شخص مجنون. ومِن ثَم، ألقيتُ عليها نظرةً خاطفة قبل ليلةٍ أو ليلتين مَضتا، حقًّا لا أستطيع أن أتصوَّر كيف يمكن لرجلٍ عاقل كتابة هذا الهراء.»

سألتها بحماسٍ، مُتذكرًا توجيهات ثورندايك الأخيرة: «أنتِ لديكِ نسخة إذن؟»

«أجل، هل تودُّ الاطلاع عليها؟ أعرف أن والدي أخبرك عنها، وهي تستحقُّ القراءة بدافع الفضول المحض.»

أجبتُ قائلًا: «أودُّ كثيرًا أن أطلع صديقي، دكتور ثورندايك عليها؛ حيث قال إنه مُهتم بقراءتها ومعرفة شروطها؛ ولعله يكون من المُفيد إطلاعه عليها والاستماع إلى ما يقوله بخصوصها.»

علقت قائلة: «لا أرى أي اعتراض، ولكنك تعرف ما يخشاه والدي، أقصد ما يُطلِق عليه «تسوُّل النصيحة المجانية».»

«أوه، لا ينبغي أن يقلق بخصوص هذا الأمر. دكتور ثورندايك يريد الاطلاع على الوصية لأنه مهتم بالقضية. هو متحمس، كما تعرفين، ويرى الطلب كخدمةٍ شخصية يؤديها لنفسه.»

«هذا كرم ولطف بالغ منه، وسأشرح الموقف لوالدي. إذا كان على استعدادٍ لعرض نسخة من الوصية على دكتور ثورندايك، فسأرسلها أو أحضرها هذا المساء. هل انتهينا؟»

من المؤسِف أنني اعترفتُ بأننا انتهينا، وحين دفعتُ الحساب المتواضع، انطلقنا مباشرةً عائدَين في انسجام إلى شارع جريت راسل لتجنُّب ضوضاء الشوارع الكبرى وصخبها.

في تلك اللحظة، أثناء سيرنا في الشارع الهادئ والمهيب سألتها قائلًا: «أي نوع من الرجال كان عمك؟» ثم أضفتُ سريعًا: «أتمنَّى ألا تظنيني شخصًا فضوليًّا، ولكن في رأيي، أراه يقدم نموذجًا لفكرة غامضة، معضلة قانونية غير مألوفة.»

ردَّت بنبرةٍ متأمِّلة: «كان عمي جون رجلًا غريبًا جدًّا، عنيدًا جدًّا، قوي العزيمة، ما يُسمِّيه الناس «متسلطًا»، عنيدًا بشكل حازم وغير منطقي.»

قلت: «هذا بالتأكيد الانطباع الذي تُعبر عنه بنود وصيته.»

«أجل، وليست الوصية وحدها. هناك أيضًا المبلغ السخيف الذي خصصه لوالدي. كان هذا ترتيبًا سخيفًا، وظالمًا للغاية أيضًا. كان عليه أن يقسم الممتلكات كما أراد جدي. رغم ذلك، لم يكن كريمًا على أي حال، كانت لديه طريقته الخاصة وحسْب، وطريقته كانت الطريقة الخاطئة عادةً.»

واستطردتْ بعد توقفٍ قصير قائلة: «أتذكر موقفًا غريبًا جدًّا لعناده الشديد ومُكابرته. كانت مسألةً بسيطة، ولكن التصرف كان معهودًا جدًّا منه. كان لديه في مجموعة مُقتنياته خاتم صغير جميل يعود إلى الأسرة الثامنة عشرة. قيل إنه ينتمي إلى الملكة تي، والدة صديقنا أمنحوتب الرابع، ولكني لا أعتقد أن ذلك مُمكن، لأن الرسمة الموجودة عليه كانت رسمة عين أوزيريس، والملكة تي — كما تعرف — كانت تعبد آتون. ورغم ذلك، كان خاتمًا رائعًا جدًّا، كلَّف العم جون، الذي كان لديه ولع غريب بعين أوزيريس الغامضة، صائغًا ماهرًا جدًّا ليصنع نُسختَين طبق الأصل منه، واحدة له وواحدة لي. أراد الصائغ بطبيعة الحال أن يأخُذ مقاسات أصابعنا، ولكن لم يسمح العم جون بهذا؛ لأن الخاتمين من المُقرر أن يكونا نسختين طبق الأصل، والنسخة طبق الأصل لا بدَّ أن تكون في نفس مقاس النسخة الأصلية. يمكنك أن تتخيَّل النتيجة، كان خاتمي واسعًا جدًّا لدرجة أنني لم أستطع الاحتفاظ به في إصبعي، وخاتم العم جون كان ضيقًا جدًّا، فرغم أنه استطاع ارتداءه، فإنه لم يكن قادرًا أبدًا على خلعه. والموقف الوحيد الذي مكنه من ارتدائه هو أن يده اليُسرى كانت أصغر من اليُمنى.»

«إذن، أنتِ لم ترتدِي خاتمك أبدًا؟»

«كلَّا، أردت تعديله ليتناسب مع مقاسي، ولكنه اعترض بشدة، ولذا وضعته جانبًا، ولا زلتُ أحتفظ به في صندوق.»

علقت قائلًا: «لا بدَّ أنه عجوز عنيد بصورةٍ استثنائية.»

«أجل، كان عنيدًا جدًّا. وأزعج والدي بدرجةٍ كبيرة إثر إجراء تعديلاتٍ غير ضرورية في المنزل الموجود في ميدان كوين. نحن لدينا شعور مُعين تجاه ذلك المنزل؛ لقد عاش

فيه أهلنا منذ أن بُني، حين صُمم الميدان لأول مرة في عهد الملكة آن، التي سُمِّي الميدان باسمها. إنه منزل عتيق وعزيز. هل تودُّ أن تراه؟ نحن الآن قريبان منه جدًّا.»

وافقتُ بحماس. وحتى لو كان كوخًا للفحم أو محل أسماكٍ مقلية، لوددتُ زيارته بكلِّ سرور، لكي أطيل من وقت تمشيتنا؛ ولكنني كنت حقًّا مُهتمًّا بهذا المنزل العتيق كجزءٍ من خلفية لغز اختفاء جون بيلينجهام.

عبرنا إلى حارة كوزمو بليس، بصفِّه الغريب من العواميد الحديدية النادرة على شكل مدافع الآن، وما إن اجتزناه حتى توقفنا لبضع دقائق لنُلقي نظرة على الميدان العتيق الهادئ والفخم. كان هناك مجموعة من الصبية يلهون بصخبٍ على صفٍّ من العواميد الحجرية التي تُشكل حارسًا حول المضخة المُحاطة بمصابيح عتيقة؛ وباستثناء ذلك كان المكان مُغلقًا بهدوء مهيب يليق بعمره ومكانته. وبدا سائغًا للغاية في فترة ما بعد ظهيرة هذا اليوم الصيفي، مع أشعة الشمس التي تلمع على أوراق أشجار الدلب المنتشرة وتُضيء القراميد الدافئة اللون لوجهات المنازل. سِرنا ببطءٍ على طول الجانب الغربي المُظلل، وبالقُرب من المنتصف توقفَتْ رفيقتي.

وقالت: «هذا هو المنزل. يبدو الآن كئيبًا ومهجورًا؛ ولكنه كان حتمًا منزلًا يعجُّ بالبهجة في الأيام التي كان يتسنى لأجدادي الوقوف في النوافذ والنظر عبر الساحة المفتوحة للميدان، ومنها إلى حقول المروج ومرتفعات هامبستيد وهاي جيت.»

وقفتْ عند حافة الرصيف تنظر بفضولٍ يشوبه الاشتياق إلى المنزل العتيق؛ تخيلتُ صورة محزنة جدًّا بوجهها المليح ومِشيتها الفخورة، وفستانها الرث وقفازها المُهترئ، تقف على عتبة المنزل الذي عاشت فيه عائلتها على مر الأجيال، والذي كان ينبغي أن يكون مِلكها، والذي كان بصدد أن يئول إلى أيدي الغرباء بعد فترة قصيرة.

نظرتُ إليه باهتمام غريب، متأثرًا بشيء كئيب وبغيض في هيئته؛ كانت النوافذ مُغلقة من القبو وحتى العلية، لا أثر لعلامة تدل على وجود حياة، صامت ومُهمل ومهجور، كان ينفث جوًّا من المأساة. يبدو أنه يرثو سيدَه المفقود بمظهره البالي والمُهمل. كان الباب الضخم داخل الرواق المزخرف الفخم مُغطًّى بالأوساخ، بدا أنه لم يعد قيد الاستخدام تمامًا، مثل مصابيح الكيروسين القديمة أو مطفأة الحريق الصدِئة التي اعتاد الخدم على استخدامها لإخماد مشاعلهم حين تصعد إحدى سيدات بيلينجهام درجات كُرسيها المذهب، أيام الملكة الجميلة آن.

وبذهن واعٍ بعض الشيء ابتعدْنا وعُدنا أدراجنا نحو المنزل من خلال شارع جريت أورموند. كانت رفيقتي مُستغرقة بعمق في الأفكار، تعود لبُرهة إلى ذلك الأسلوب الرزين الذي أثار إعجابي حين التقيتُ بها أول مرة. كنت في حالة من التعاطف المُشفِق، كما لو أن روح الرجل المختفي قد عزمتْ على الانضمام إلى صُحبتنا من المنزل المهيب الصامت.

ورغم ذلك، كانت تمشيةً مُمتعة، وحزنتُ حين وصلنا في النهاية إلى مدخل نيفيلز كورت، ثم توقفت الآنسة بيلينجهام ومدَّت يدَها قائلة:

«إلى اللقاء، وشكرًا جزيلًا على مساعدتك التي لا تُقدَّر بثمن. هلَّا أخذت الحقيبة!»

«كما تُحبين، ولكن يجب أن آخُذ الدفاتر.»

سألتني: «لماذا يجب عليك أخذها؟»

«يا إلهي، ألا يتعيَّن عليَّ أن أنسخ الملاحظات بخطٍّ مُنمق؟»

علا وجهها تعبير ينمُّ عن الصدمة التامة. في الواقع، فوجئتُ تمامًا بأنها نسيت أن تترك يدي.

صاحت قائلة: «يا إلهي! كم أنا غبية! ولكن مُستحيل، دكتور بيركلي! هذا سيستغرق منك ساعات!»

«بلى، هذا من الممكن تمامًا، وسأنجز هذه المهمة، وإلا فلن تكون الملاحظات مفيدة. هل تريدين الحقيبة؟»

«كلَّا، بالطبع، لا. ولكني مُتخوفة جدًّا. أليس من الأفضل أن تتخلَّى عن الفكرة؟»

هتفتُ بنبرة مأساوية وأنا أضغط على يدِها للمرة الأخيرة (حيث أدركتْ فجأة موضعها، وسحبتْها بسرعة جدًّا) قائلًا: «وهذه هي نهاية تعاوننا؟ هل تتخلَّين عن عمل فترة ما بعد الظهيرة بأكملها؟ أنا لا أستطيع بالتأكيد؛ إذن إلى اللقاء غدًا. سأعكف على العمل في غرفة القراءة في أقرب وقتٍ ممكن. من الأفضل أن تأخذي البطاقات. أوه، ولا تنسَي نسخةً من الوصية لدكتور ثورندايك، أليس كذلك؟»

«بلى، إذا وافق والدي، فستحصل عليها هذا المساء؟»

أخذت البطاقات منِّي وشكرتني ثانيةً، واختفت داخل الزقاق.

الفصل السابع

وصية جون بيلينجهام

بالتأكيد بدت المهمة، التي بدأتُها بمرح بالغ، عند التفكير فيها بدمٍ بارد، مُروعة جدًّا، كما قالت الآنسة بيلينجهام. ومن شأن نتيجة العمل المُنتظم لمدة ساعتين ونصف بسرعة مائة كلمة تقريبًا في الدقيقة، أن تستغرق بعض الوقت لكتابتها بخطٍّ منمق؛ وإذا كان يجب تسليم الملاحظات في موعدها صباحًا، فمن الأفضل أن أُسرع بالعمل.

وإذ أدركتُ هذه الحقيقة، لم أضيِّع الوقت، ولكن في غضون خمس دقائق من وصولي إلى العيادة، جلست إلى المكتب ونُسختي أمامي مُنكبًّا على تحويل الحروف المُترامية وغير المُعبرة إلى خطٍّ جيد ومقروء.

لم يكن النشاط بغيضًا مُطلقًا؛ فبالإضافة إلى حقيقة كونه عملًا بدافع الحب، كانت العبارات — التي كنتُ أختارها — مُعطرة بذكرى الهمسات اللطيفة التي جاءت بها إليَّ لأول مرة. ثم إن الأمر في حدِّ ذاته كان مُفعمًا بالاهتمام. حيث إنني اكتسبتُ نظرةً جديدة على الحياة، وعبرتُ عتبة عالمٍ جديد (كانت عتبة عالمها)؛ ومِن ثَم المقاطعات الدورية من المرضى كانت غير مُرحَّبٍ بها على الإطلاق، رغم أنها تعطيني فترات استراحة إجبارية.

مر المساء ببطء دون أي بادرة من زقاق نيفيلز، وبدأتُ أخشى أنَّ شكوك السيد بيلينجهام لا يمكن التغلُّب عليها؛ لا لأنني كنتُ مُهتمًّا جدًّا بنسخة الوصية؛ بل لأنني كنت مُهتمًّا أيضًا بإمكانية الزيارة، مهما كانت زيارةً وجيزة، من جانب صاحبة عملي الجميلة. ومع دقات الساعة السابعة والنصف، فُتح باب العيادة على نحوٍ مفاجئ لتهدأ مخاوفي وتتحطم آمالي في آنٍ واحد. كان القادم هو الآنسة أومان، دخلت مُمسكة بمظروف فولسكاب أزرق تُحيط بها أجواء تُشبه الحرب، كما لو أن مجيئها هو الإنذار الأخير.

قالت: «لقد أحضرت لك هذا من طرف السيد بيلينجهام. يُوجَد رسالة بالداخل.»

سألتها: «هل يُمكنني قراءتها، آنسة أومان؟»

صاحت قائلة: «بوركت يا رجل! وما الذي ستفعله بها غير ذلك؟ أليس هذا هو السبب الذي جُلبت من أجله؟»

افترضتُ أن الأمر كذلك؛ شاكرًا إيَّاها على موافقتها الكريمة، ثم ألقيتُ نظرة سريعة على الرسالة — بضعة سطور تُفوِّضني بعرْض نسخة الوصية على دكتور ثورندايك. وعندما رفعتُ نظري عن الورقة وجدت عينيها مُثبتتَين عليَّ وفيهما تعبير عن النقد أو الرفض بالأحرى.

علقت قائلة: «يبدو أنك تجعل نفسك جديرًا بالقبول لدى جماعةٍ بعَينها.»

«أنا أجعل نفسي جديرًا بالقبول عمومًا؛ إنها طبيعتي.»

قالت مُتذمرة: «ها!»

سألتها: «ألا ترَين أنني مقبول جدًّا؟»

قالت الآنسة أومان: «مداهن!» ثم علقت بابتسامةٍ صفراء على الدفاتر المفتوحة قائلة: «لديك بعض الأعمال للقيام بها؛ تغيير كبير بالنسبة لكَ.»

«تغيير مُبهج، يا آنسة أومان. «لأن الشيطان يجد طريقه في» ... ولكن لا شكَّ أنك على درايةٍ بالأعمال الفلسفية لدكتور واتس؟»

أجابت قائلة: «إذا كنتَ تُشير إلى «الأيدي العاطلة»، فسأقدم لك نصيحة. لا تذر يدك عاطلة لفترةٍ أطول مما هو ضروري حقًّا. لديَّ شكوكي تجاه تلك الجبيرة ... أوه، أنت تعرف ما أقصده.» وقبل أن يتاح لي الرد، استغلت دخول مريضين وخرجت مسرعة من العيادة على نحوٍ مفاجئ مثلما جاءت تمامًا.

كان من المُقرر أن تنتهي الاستشارات المسائية بحلول الساعة الثامنة والنصف؛ الوقت الذي اعتاد فيه أدولفوس إغلاق الباب الخارجي للعيادة بدقة مواعيد مثالية. والليلة لم يكن أدولفوس أقلَّ سرعة من المعتاد، وما إن انتهى من تلك المهمة اليومية الأخيرة، وأخفض إضاءة مصباح العيادة، ونقل الحقيبة، حتى رحل.

وعندما اختفت خطواته المتقهقرة رويدًا رويدًا، وأعلن إغلاق الباب الخارجي رحيله الأخير، جلستُ ومدَّدت نفسي. كان الظرف الذي يحتوي على نسخة الوصية موجودًا على الطاولة، تفكرت فيه متأملًا؛ من المفترض أن يُسلَّم إلى ثورندايك دون تأخير، ونظرًا لأنني لا يمكن أن أثق في خروجه من بين يديَّ، يجب أن أُقدمه بنفسي.

ألقيتُ نظرة على الدفاتر. ساعتان من العمل تقريبًا تركتْ أثرًا كبيرًا على الموضوع الذي كان يتعين عليَّ نسخُه، ولكن ظل جزء كبير من المهمة لم يُنجز بعد. إلا أنني تفكرت،

يُمكنني أن أقضي ساعتين أو أكثر قبل النوم، وسيكون هناك ساعة أو ساعتان فراغ في الصباح. في النهاية، وضعت الدفاتر، وهي مفتوحة كما هي، في دُرج المكتب، ووضعتُ المظروف في جيبي، وانطلقتُ إلى شارع تيمبل.

أعلن الجرس الرقيق لساعة وزارة المالية، بنغماتٍ سرية، الربع الأخير قبل دقات تمام الساعة، بينما كنتُ أقرع «الباب الخشبي» المنيع لمكتب صديقي. لم يأتِ الرد، ولم أرَ أي بصيص ضوءٍ من النوافذ بينما كنت أقترب، وكنت أفكر في إمكانية التوجُّه إلى المختبر الموجود في الطابق التالي، حين سمعتُ وقع خطواتٍ على السُّلم الحجري وأصواتًا مألوفة تُبهج أذني.

قال ثورندايك: «أهلًا، بيركلي! هل تنتظرنا مثل الحوريات على أبواب الجنة؟ بولتون بالأعلى، كما تعرف، يجرب أحد اختراعاته؛ فإذا وجدت المكتب فارغًا، من الأفضل أن تصعد وتدق باب المختبر. إنه دومًا موجود هناك في المساء.»

قلت: «لم أنتظر طويلًا، وكنتُ أفكر توًّا في إيقاظه قبل مجيئك.»

قال ثورندايك وهو يزيد إضاءة المصباح: «كان هذا صحيحًا. ما الأخبار التي جئتَ بها؟ هل أرى مظروفًا أزرق يبرُز من جيبك؟»

«أجل.»

سألني: «هل هذه نسخة من الوصية؟»

أجبته قائلًا: «أجل.» ثم أضفتُ أنني معي الإذن الكامل بعرضها عليه.

صاح جيرفيس قائلًا: «ماذا قلتُ لكَ؟ ألم أُخبرك بأنه سيأتي بنسخةٍ منها، إذا كانت موجودة؟»

قال ثورندايك: «أعترف بأنك مُتميز في التوقعات، ولكن لا حاجة للتفاخُر. هل قرأتَ الوثيقة يا بيركلي؟»

«كلَّا، لم أُخرجها من المظروف.»

«إذن، سيكون الأمر جديدًا بالنسبة لنا جميعًا، وسنرى ما إذا كان يتطابق مع وصفك.»

وضع ثلاثة كراسي مُريحة على مسافة مناسبة من الضوء، علق جيرفيس وهو يراقبه بابتسامة قائلًا:

«الآن، سيستمتع ثورندايك بوقته. بالنسبة إليه، تُعدُّ الوصية الغامضة تمامًا شيئًا جميلًا ومُبهجًا تمامًا؛ خاصةً إذا كانت مرتبطة بمشكلةٍ عويصة بعض الشيء.»

قلت: «لا أعرف أن هذه الوصية غامضة للغاية؛ الضرر يبدو واضحًا للغاية. ولكن، ها هي.» ثم ناولتها إلى ثورندايك.

قال الأخير وهو يُخرج الوثيقة ويلقي نظرة عليها: «أظن أننا يمكننا الاعتماد على هذه النسخة.» ثم أضاف قائلًا: «أوه، أجل، أرى أنها نسخة كتبها جودفري بيلينجهام، مقارنة بالنسخة الأصلية والصحيحة. في تلك الحالة، سأجعلك تقرؤها ببطء، جيرفيس، وسأقوم بعمل نُسخة تقريبية كمرجعٍ لنا. دعونا نرتاح ونُشعل غلاويننا قبل أن نبدأ.»

جاء لنفسه بلوحة كتابة، وحين جلسنا وأشعلنا غلاويننا، فتح جيرفيس الوثيقة، وبتنهيدةٍ افتتاحية بدأ القراءة.

باسم آمون هذه هي الوصية الأخيرة وشهادة منِّي أنا جون بيلينجهام المُقيم في ١٤١ ميدان كوين، أبرشية سانت جورج بلومزبيري، لندن، بمقاطعة ميدلسكس جينتلمان، إنني في الحادي والعشرين من سبتمبر لعام ألف وثمانمائة واثنين وتسعين ميلاديًّا.

(١) أمنح وأُورِّث المحامي آرثر جيليكو المُقيم في ١٨٤ نيو سكوير لينكولنز إين لندن، بمقاطعة ميدلسكس، مجموعة مقتنياتي الكاملة من الأختام وتماثيل الجعران، وتلك الموجودة في خزانتي المؤشَّرة بـ أ، وب، ود، بالإضافة إلى قائمة المحتويات خاصتها ومبلغ مائتي جنيه إسترليني مُعفاة من ضرائب المواريث.

وأمنح وأورث الأوصياء على المتحف البريطاني باقي مجموعة مُقتنياتي من الآثار.

وأمنح وأورِّث ابن عمتي جورج هيرست المقيم في بوبلارز إلثام بمقاطعة كينت مبلغ خمسة آلاف جنيه مُعفاة من ضرائب المواريث، وأمنح أخي جودفري بيلينجهام أو ابنته روث إذا تُوفِّي هو قبلي باقي مُمتلكاتي ومُقتنياتي العينية والشخصية بموجب الشروط الوارد ذكرها فيما يلي:

(٢) تُدفن جثتي مع جثث أجدادي في مدفن الكنيسة التابع لكنيسة وأبرشية الشهيد سانت جورج، إذا لم يكن هذا مُمكنًا، يتم الدفن في أي مقبرة أخرى تابعة لكنيسة أو معبد أو أي مكان آخر مُرخَّص بدفن جثث الموتى في نطاق أبرشية سانت أندرو المُندرجة تحتها أبرشية بارز والشهيد سانت جورج أو سانت جورج بلومزبيري وسانت جايلز في فيلدز. ولكن إذا لم يتم تنفيذ الشروط المذكورة في هذا البند، حينئذٍ:

(٣) أمنح وأورث باقي مُمتلكاتي ومقتنياتي المذكورة إلى ابن عمتي جورج هيرست سالف الذكر، وأنا بموجب هذا أُبطل أي وصايا وملاحق كتبتُها في أي وقتٍ مضى حتى الآن، وأعين آرثر جيليكو المذكور أعلاه ليُنفذ وصيتي بالتعاون مع الوارث والمستفيد

الرئيسي جودفري بيلينجهام سالف الذكر، إذا تم تنفيذ الشروط المذكورة في البند الثاني على أكمل وجه. ولكن في حالة إذا لم يتم تنفيذ الشروط المذكورة في البند الثاني، فسيكون تنفيذ الوصية بالتعاون مع جورج هيرست سالف الذكر.

جون بيلينجهام

ممهور بتوقيع المُوصي جون بيلينجهام بحضورنا في الوقت نفسه بناءً على طلبه وفي حضوره وفي حضور بعضنا البعض نحن المُوقعين أدناه بأسمائنا كشهود.

فريدريك ويلتون، ١٦ ميدفورد روود،
لندن، نورث، موظف
جيمس باربر، ٣٢ وادبيري كريسنت،
لندن، ساوث ويست، موظف

قال جيرفيس وهو يضع الوثيقة بينما كان ثورندايك يُحرر آخر ورقة من لوحة الكتابة: «حسنًا، لقد مرَّ عليَّ عدد كبير من الوصايا الحمقاء، ولكن هذه الوصية ربما تتفوَّق عليها جميعًا. لا أعرف كيف يتسنى تنفيذها على الإطلاق. أحد القائمَين على تنفيذها مجرد فكرة تجريدية؛ الأمر أشبه بمسألة جبر ليس لها حل.»

قال ثورندايك: «أظنُّ أنه يمكن التغلُّب على تلك المعضلة.»

ردَّ جيرفيس بحدة: «لا أرى كيف يمكن ذلك. إذا كانت الجثة موجودة في مكانٍ معين، فإن «أ» هو القائم على تنفيذ الوصية؛ وإذا كانت موجودة في مكان آخر، فإن «ب» هو القائم على تنفيذ الوصية. ولكن نظرًا لأنه لا يمكنك العثور على الجثة، وليس هناك أدنى فكرة عن مكان وجودها، فمن المستحيل إثبات ما إذا كانت موجودة في مكان معين أم لا.»

قال ثورندايك: «أنت تضخم المعضلة يا جيرفيس. وبطبيعة الحال، من الممكن أن تكون الجثة في أي مكان في العالم بأسره، ولكن المكان الذي تقبع فيه إما داخل أو خارج حدود هاتَين الأبرشيتين. وإذا دُفنت داخل حدود أي من هاتين الأبرشيتين، فيجب التأكد من هذه الحقيقة من خلال فحص تصاريح الدفن المُصدَرة منذ التاريخ الذي شُوهد فيه الرجل المُختفي على قيد الحياة لآخِر مرة، ومن خلال مراجعة سجلات هذه الأماكن المحددة للدفن. وأظنُّ أنه إذا لم يُمكنَّا العثور على هذا المدفن داخل حدود هاتين الأبرشيتين، فستأخذ المحكمة بهذه الحقيقة كإثباتٍ بأنه لم يتم الدفن، وبالتالي فإن الجثة

دُفنت في مكانٍ آخر. وهذا الحكم سيجعل جورج هيرست قائمًا على تنفيذ الوصية والوارث لباقي الوصية.»

علق جيرفيس قائلًا: «هذه أخبار سارة لأصدقائك يا بيركلي؛ حيث إننا نكاد نكون مُتأكدين تمامًا من أن الجثة لم تُدفن في أيٍّ من الأماكن المذكورة.»

وافقتُه الرأي وقلت بنبرة كئيبة: «أجل، أظن أنه ليس هناك شك في ذلك. ولكن يا لحماقة الشخص الذي يضع قائمة بكيفية التعامل مع جثته البغيضة! ما الذي يجعل اللعين يهتم بمكان دفن الجثة في الوقت الذي يكون فيه قد انتهى منها؟»

ضحك ثورندايك بصوتٍ خافت قائلًا: «هكذا هم شباب اليوم غير مُوقِّرين لشيء. ولكن تعليقك ليس مُنصفًا يا بيركلي. تدريبنا يجعلنا ماديين، ويجعلنا لا نتعاطف مع أولئك الذين يعيشون على المُعتقدات البدائية والعواطف. لقد أعرب قسٌّ فاضل، حين زار غرفة التشريح خاصتنا، عن دهشته لي من أنَّ الطلاب، الموجودين باستمرار مع رفات الجثث، يستطيعون التفكير في أي شيء آخر سوى يوم القيامة والحياة الآخرة. كان عالِم نفسٍ سيئًا. ليس هناك شيء أكثر كآبة من موضوع غرفة التشريح، وتأمُّل جسم الإنسان أثناء عملية تشريحه إلى أجزاء — أي تحليله إلى وحدات بنيته الأساسية مثل ساعة حائط بالية أو مُحرك قديم في ساعة خردة — بالتأكيد لا يُفضي إلى إدراكٍ حقيقي لعقيدة البعث والنشور.»

«بلى؛ ولكن هذا القلق السخيف إزاء الدفن في مكانٍ مُعين ليس له علاقة بالمعتقد الديني؛ إنما هو مجرد منطق سخيف.»

قال ثورندايك: «إنه منطق، ولكني لا أصفه بالسخافة. هذا الاعتقاد مُنتشر للغاية عبر الزمان والمكان لدرجة أنه علينا أن نحترمه باعتباره شيئًا متأصلًا في الطبيعة البشرية. تأمَّل — مثلما فعل جون بيلينجهام بلا شك — قدماء المصريين، الذين كان لديهم رغبة عارمة في تحقيق الراحة الأبدية للموتى. لاحظ العناء الذي تكبَّدوه لتحقيق ذلك. تأمَّل الهرم الأكبر، أو مقبرة إخناتون الرابع ذات متاهة الممرات المُضللة وغرَف الدفن المغلقة والمَخفية. تأمَّل يعقوب، حُمِل بعد موته مسافة مئات الأميال المُرهقة لكي يرقد إلى جانب آبائه؛ ثم تذكَّر شكسبير ووصيته الرسمية لذريته بأن يستريح في قبره. كلَّا يا بيركلي، ليس بمنطقٍ سخيف. أنا مثلك لا أكترث بما ستئول إليه جثتي حين أنتهي منها، حسبما أشرتَ في عبارتك غير المُوقِّرة؛ ولكني أُدرك القلق الذي يساور البعض بخصوص هذا الأمر باعتباره شعورًا طبيعيًّا لا بدَّ من أخذه على مَحمل الجد.»

قلت: «ولكن رغم ذلك، لو كان الرجل لديه رغبة شديدة في دفن الجثة في مقبرة مُعينة، لربما تعامل مع الأمر بقدْر أكبر من العقلانية.»

أجاب ثورندايك: «هنا أوافقك الرأي تمامًا. لم تتسبَّب الطريقة السخيفة التي صِيغ بها هذا الشرط في المشكلة وحسب، وإنما جعلت الوثيقة برمَّتها ذات أهمية كبيرة في ظل اختفاء المُوصي.»

سأل جيرفيس بحماس: «ما مدى أهميتها؟»

قال ثورندايك: «دعُونا نتأمَّل البنود نقطة بنقطة ولاحظا أن المُوصي استعان بخدمات محامٍ مُحنك للغاية.»

قلت: «ولكن السيد جيليكو استنكر الوصية. في الواقع، هو اعترض بقوة على صيغتها.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «سنضع هذا في الاعتبار أيضًا. والآن، بالعودة إلى ما قد نُطلق عليه البنود الخلافية: الشيء الأول الذي يفاجئنا هو ظُلمها المُنافي للعقل. تركة جودفري مشروطة بدفن جثة المُوصي بشكلٍ مُعين. ولكن هذا الأمر ليس بالضرورة تحت سيطرة جودفري. فربما يُفقد المُوصي في البحر، أو يَلقى حتفه في حريقٍ أو انفجار، أو يُتوفَّى خارج البلاد حيث لا يمكن التعرُّف على قبره. فثمة عدد كبير من الاحتمالات الواردة بالإضافة إلى الاحتمال البعيد الذي حدث وحال دون استعادة الجثة.

لكن حتى إذا استُعيدت الجثة، ثمة صعوبة أخرى؛ أماكن الدفن داخل الأبرشيات مُغلقة جميعًا لعدة سنوات. ومن المُستحيل أن يُعاد فتحها بدون صلاحياتٍ خاصة، وأشك ما إذا كانت مثل هذه الصلاحيات مُعترفًا بها. ومن المُحتمَل أن يُمثل إحراق الجثة صعوبة قائمة، ولكن حتى هذا الاحتمال مشكوك فيه. وعلى أي حال، الأمر ليس تحت سيطرة جودفري بيلينجهام. إذا ثبت استحالة الدفن على النحو المطلوب، فمن المُقرر أن يُحرم من ميراثه.»

هتفتُ قائلًا: «إنه ظُلم بَيِّن وعبثي.»

وافقَني ثورندايك الرأي قائلًا: «هو كذلك، لكن هذا لا شيء مقارنة بالسخافة التي يتسلط عليها الضوء حين نتأمَّل البندين الثاني والثالث بالتفصيل. لاحِظا أن المُوصي رغب على الأرجح في أن يُدفن بمكانٍ مُعين؛ كما أنه رغب في أن يستفيد شقيقه من الوصية. دعونا نتناول النقطة الأولى ونرى كيف ضمِن أن يتم تنفيذ ما رغبه. الآن، إذا قرأنا البندين الثاني والثالث بدقة، نرى أنه جعل تنفيذ أُمنياته أمرًا مُستحيلًا من الناحية العملية؛ إنه

يرغب في أن تُدفن جثته في مكانٍ مُعين وجعل جودفري مسئولًا عن الدفن بهذه الطريقة. ولكنه لم يمنح جودفري أي سلطة أو صلاحية لتنفيذ الشرط، فالأماكن تُمثل عقبات في طريقه لا يمكن التغلُّب عليها. ولن يمتلك جودفري أي سلطة أو صلاحية، إلا إذا صار قائمًا على تنفيذ الوصية، ولن يصير قائمًا على تنفيذ الوصية إلا إذا نفذ الشرط.»

صاح جيرفيس قائلًا: «إنها مُعضلة سخيفة.»

استطرد ثورندايك قائلًا: «أجل، ولكن هذا ليس أسوأ ما في الأمر. اللحظة التي يموت فيها جون بيلينجهام، تظهر جثته؛ وهي مدفونة في الوقت الراهن حيثما مات. ولكن ما لم يكن قد تُوفِّي في أحد أماكن الدفن المذكورة — وهو أمر غير مُرجح لأقصى درجة — فستكون جثته في الوقت الراهن مدفونة في مكانٍ ما غير تلك الأماكن المحددة. وفي تلك الحالة، البند الثاني غير مُستوفًى في الوقت الراهن، وبالتالي يُصبح جورج هيرست تلقائيًّا مشاركًا في تنفيذ الوصية.

ولكن هل سينفذ جورج هيرست شروط البند الثاني؟ لن يفعل ذلك على الأرجح. ولماذا ينبغي عليه أن يفعل؟ الوصية لا تحتوي تعليمات بهذا المعنى. بل المهمة بأكملها تُلقى على عاتق جودفري. ومن جهة أخرى، إذا كان ينبغي عليه تنفيذ البند الثاني، فما الذي سيحدث؟ لن يكون قائمًا على تنفيذ الوصية وسيخسر مبلغ سبعمائة جنيه. ولعلنا نكون مُتيقنين تمامًا بأنه لن يفعل شيئًا من هذا القبيل. ومِن ثَم، عند تأمُّل البندَين، نرى أن أمنيات المُوصي لا يمكن تنفيذها إلا إذا كانت جثته موجودةً في أحد المدافن المذكورة، أو إذا نُقلت جثته بعد الوفاة مباشرةً إلى مشرحةٍ عامة في إحدى الأبرشيات المذكورة. وفي أي ظروف أخرى، من المؤكد نظريًّا أنه سيتم دفنه في مكانٍ آخر غير الذي رغب فيه، وبالتالي لن يحصل شقيقه قطعًا على تقديرٍ مادي أو معنوي.»

قلت: «ما كان جون بيلينجهام لينوي ذلك.»

قال ثورندايك موافقًا رأيي: «قطعًا لا، شروط الوصية تُقدم إثباتًا ضمنيًّا بأنه لم يكن ينوي ذلك. تُلاحظ أنه أورث جورج هيرست خمسمائة جنيه، في حالة تنفيذ البند الثاني؛ ولكنه لم يترك أي شيء لشقيقه في حالة عدم تنفيذ البند الثاني. من الواضح أنه لم يضع هذه الاحتمالية في الحسبان. لقد افترض، كمسألةٍ بديهية، أن شروط البند الثاني سيتم تنفيذها، واعتبر الشروط نفسها مجرد شكليات.»

قال جيرفيس مُعترضًا: «ولكن لا بدَّ أن جيليكو يُدرك خطورة عدم التنفيذ وأبلغ موكله بهذا.»

علق ثورندايك قائلًا: «بالضبط! ثمَّة لغز هنا. نُدرك أنه اعترض بشدة وأن جون بيلينجهام كان عنيدًا. الآن، من المفهوم تمامًا أن الرجل مُتمسك في عنادٍ بأغبى وأحمق تصرف في ممتلكاته، ولكن أن يصر الرجل على صياغة الكلمات بشكلٍ مُعين ثبتَ أنها ستتنافى حتمًا مع رغباته؛ هذا ما أَصِفه بكونه لغزًا يتطلب دراسةً مُتأنية للغاية.»

قال جيرفيس: «لو كان جيليكو طرفًا مَعنيًّا في الأمر، لشكَّ المرء في أنه يُخفي شيئًا بعيدًا عن الأنظار. ولكن صيغة البند الثاني لا تؤثر عليه مُطلقًا.»

قال ثورندايك: «بلى، الشخص المُستفيد من المعضلة هو جورج هيرست. ولكننا نُدرك أنه كان يجهل بنود الوصية، وبالتأكيد ليس هناك ما يُشير إلى أنه مسئول عن ذلك بأي حالٍ من الأحوال.»

قلت: «السؤال العملي هنا هو: ما الذي سيحدث؟ وما الذي يُمكننا القيام به من أجل آل بيلينجهام؟»

ردَّ ثورندايك: «الاحتمال القائم هو أن الخطوة التالية سيقوم بها هيرست؛ حيث إنه الطرف المعني المباشر. على الأرجح سيتقدَّم بالتماسٍ إلى المحكمة لإصدار قرينة الوفاة وتنفيذ الوصية.»

«وما الذي ستفعله المحكمة؟»

ابتسم ثورندايك ابتسامةً جافَّة وقال: «الآن، أنت تطرح لغزًا رائعًا للغاية. قرارات المحكمة متوقفة على خصوصيات بالغة الحساسية لا يستطيع أحد التنبؤ بها. ولكن يمكن للمرء أن يقول إن المحكمة لا تُصدر قرينة الوفاة بسهولة. سيكون هناك تحقيق صارم — وأظن أنه سيكون تحقيقًا بغيضًا قطعًا — والإثبات سيستعرضه القاضي بنزعةٍ قوية نحو اعتبار المُوصي بأنه لا يزال على قيد الحياة. ومن ناحية أخرى، الحقائق المعروفة تُشير بكل وضوح إلى احتمالية وفاته؛ ولو كانت الوصية أقل تعقيدًا، ولو أن جميع الأطراف المعنية أجمعت على تأييد الالتماس، لا أرى السبب وراء احتمالية عدم إصداره. ولكن سيكون من مصلحة جودفري أن يُعارض الالتماس، ما لم يكن في استطاعته أن يُبرهن على أن شروط البند الثاني مُستوفاة — وهو أمر ليس بإمكانه من الناحية الفعلية قطعًا؛ ولعله يكون قادرًا على تقديم أسباب اعتقاد أن جون لا يزال على قيد الحياة. وحتى إن كان غير قادر على القيام بذلك، بقدْر ما هو واضح بأنه كان يفترض أنه المُستفيد الرئيسي، فمن المُرجَّح أن تكون معارضته ذات وزنٍ كبير لدى المحكمة.»

قلتُ متحمسًا: «أوه، فعلًا؟ إذن، هذا يمثل إجراءً غريبًا جدًّا من جانب هيرست. لقد نسيتُ بغباءٍ أن أُخبرك به. لقد حاول التوصُّل إلى اتفاقٍ سري مع جودفري بيلينجهام.»

قال ثورندايك: «أكيد! أي نوع من الاتفاق؟»

«كان عرضه كما يلي: لا بدَّ أن يدعمه جودفري وجيليكو في تقديم الالتماس إلى المحكمة للحصول على قرينة الوفاة وتنفيذ الوصية، وإذا تمَّ قبول الالتماس بنجاح، يدفع هيرست له أربعمائة جنيه سنويًّا مدى الحياة؛ الاتفاق على تحقيق المصلحة في جميع الاحتمالات.»

«ما الذي يقصده بهذا؟»

«إذا اكتُشفت الجثة في أي وقتٍ مستقبلًا، بحيث يمكن تنفيذ شروط البند الثاني، يحتفظ هيرست بالممتلكات ويظلُّ يدفع لجودفري مبلغ أربعمائة جنيه مدى الحياة.»

صاح ثورندايك قائلًا: «مهلًا! هذا عرْض غريب؛ عرض غريب جدًّا فعلًا.»

أضاف جيرفيس قائلًا: «ناهيك عن كونه مُريبًا، لا أتخيل أن المحكمة ستوافق على ذلك الاتفاق البسيط.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «القانون لا يأخذ بعين الاعتبار أي اتفاقاتٍ بسيطة تهدف إلى الالتفاف حول شروط الوصية، رغم أنه لا يُوجَد شيء للاحتجاج عليه بخصوص هذا العرض لو لم يكن هناك إشارة إلى جميع الاحتمالات. إذا كانت الوصية يتعذَّر تنفيذها على نحوٍ ميئوس منه، فليس من المُستنكر أو غير اللائق أن تعقد الأطراف المستفيدة اتفاقاتٍ سِرية فيما بينها قد تبدو ضرورية لتجنُّب الدعاوى عديمة الجدوى والتأخير في تنفيذ الوصية. فعلى سبيل المثال، إذا عرض هيرست دفع أربعمائة جنيه سنويًّا إلى جودفري طالما ظلَّت الجثة مُختفية، بشرط أنه في حالة اكتشافها، ينبغي على جودفري أن يدفع له مبلغًا مُماثلًا مدى الحياة، فليس هناك شيء للتعليق عليه. فإنه سيكون فرصة مقامرة مألوفة. ولكن الإشارة إلى جميع الاحتمالات هي مسألة مختلفة تمامًا. بالطبع، لعل الأمر مجرد طمع زائد، ولكنه يُشير إلى بعض الأفكار الغريبة جدًّا.»

قال جيرفيس: «أجل، هو كذلك. أتساءل ما إذا كان لديه أي سببٍ يجعله يتوقع أنه سيتم العثور على الجثة؟ بالطبع، هذا لا يعني أن لديه سببًا بالفعل. لعله ينتهز الفرصة التي توفرها ظروف فقر الرجل الآخر ليضمَن الجزء الأكبر من الممتلكات مهما حدث. وأقل ما يُقال عن هذا إنه تصرُّفٌ ماكر جدًّا.»

تساءل ثورندايك: «هل أفهم من ذلك أن جودفري رفض العرض؟»

«أجل، رفض، بشكل قاطع جدًّا؛ وأظن أن الرجُلين شرَعا في تبادل الآراء بشأن ظروف الاختفاء بقدْرٍ من الصراحة أكثر من الكياسة.»

قال ثورندايك: «أها، هذا مُثير للشفقة. إذا عُرضت القضية على المحكمة، لا بدَّ أن يكون هناك قدْر كبير من النقاشات المُزعجة وكذلك التعليقات المزعجة أكثر من جانب الصحافة. ولكن إذا بدأت الأطراف نفسها في التعبير عن شكوكها حيال بعضها البعض، لا أحد يعرف كيف سينتهي الأمر.»

قال جيرفيس: «كلَّا، يا إلهي! إذا بدءوا في تبادل الاتهامات بالقتل فيما بينهم، فستزداد الأمور سوءًا بالانتقام. وهذا الطريق سيؤدي في النهاية إلى المحكمة الجنائية المركزية بإنجلترا.»

قال ثورندايك: «يجب أن نمنعهم من القيام بفضيحةٍ لا داعي لها. وربما تكون الفضيحة لا مفرَّ منها، ويجب التحقق من هذا الأمر مُقدمًا. ولكن بالعودة إلى سؤالك يا بيركلي، بخصوص ما يجب فعله. سيتحرك هيرست على الأرجح ليأخذ خطوةً ما في القريب العاجل. هل تعرف ما إذا كان جيليكو سيتحرك معه؟»

«كلَّا، لن يفعل. إنه يرفض أن يتخذ أي خطوة بدون موافقة جودفري — على الأقل هذا ما يقوله في الوقت الراهن. موقفه هو موقف مُحايد تمامًا.»

قال ثورندايك: «هذا حتى الآن مُرضٍ، رغم أنه قد يُغير موقفه حين تُعرض القضية أمام المحكمة. استنتجتُ مما قلته توًّا أن جيليكو من شأنه أن يُفضل تنفيذ الوصية ويلتزم الصمت بخصوص الموضوع برمَّته؛ وهو أمر طبيعي بالدرجة الكافية، لا سيما أنه مُستفيد بموجب الوصية بمبلغ مائتي جنيه ومجموعة مُقتنيات قيمة. وبالتالي، لعلَّنا نفترض ذلك بدرجةٍ مقبولة، حتى وإن كان يحافظ على درجة حيادٍ ظاهرية، فإن تأثيره سيكون في صالح هيرست أكثر من بيلينجهام؛ وبناء عليه ينبغي أن يُنصح بيلينجهام على نحوٍ لائق قطعًا، وحين تُعرَض القضية أمام المحكمة، يتم تمثيله على نحوٍ لائق.»

قلت: «لا يمكنه تحمُّل تكلفة هذا أو ذاك. إنه فقير فقرًا مُدقعًا ولديه عزة نفس كبيرة. لن يقبل مساعدةً احترافية لا يمكنه تسديد ثمنها.»

قال ثورندايك: «أممم، هذا أمر مُربك. ولكن لا يمكننا أن ندع القضية تسير غيابيًّا، إذا جاز لنا التعبير — بمعنى أن تُخفق بسبب الافتقار إلى المساعدة الاحترافية. بالإضافة إلى ذلك، إنها إحدى أكثر القضايا المُمتعة التي قابلتها في حياتي، ولن أقف لأراها تُخفق. هو لا يستطيع الاعتراض على نصيحةٍ عامة بطريقة ودِّية وغير رسمية؛ من أصدقاء المحكمة على حدِّ قول برودريب العجوز؛ ولا شيء يمنعنا من الحثِّ على بدء التحقيقات التمهيدية.»

«وما الطبيعة التي ستكون عليها هذه التحقيقات؟»

«حسنًا، بادئ ذي بدء، علينا أن نُقنع أنفسنا بأن شروط البند الثاني غير مُستوفاة: أي أن جون بيلينجهام لم يتم دفنه داخل حدود الأبرشيات المذكورة. بالطبع، لم يتم دفنه، ولكن يجب علينا ألا نأخذ أي شيءٍ كأمرٍ مُسَلَّم به. وعلينا أيضًا أن نُقنع أنفسنا بأنه ليس على قيد الحياة، ويمكن الوصول إليه. ورغم ذلك، من الممكن تمامًا أن يكون على قيد الحياة، ومُهمتنا هي العثور عليه، إذا كان لا يزال وسط الأحياء. أستطيع أنا وجيرفيس إجراء تحقيقاتنا دون أن نقول أي شيءٍ لبيلينجهام، أخي المُثقف سيبحث في سجل الدفن — ولا تنسَ سجلات حرْق الجثث — في منطقة العاصمة، وسأتولى أنا الأمور الأخرى.»

قلت: «أنت تعتقد حقًّا أن جون بيلينجهام ربما يكون على قيد الحياة؟»

«نظرًا لأنه لم يتم العثور على جثته، فمن الواضح أنه احتمال قائم. أعتقد أنه احتمال بعيد لدرجة كبيرة، ولكن لا بدَّ من التحقيق في هذا الاحتمال البعيد قبل أن نتمكن من استبعاده.»

علقتُ قائلًا: «يبدو أنه تحقيق ميئوس منه إلى حدٍّ ما. كيف تكون البداية في رأيك؟»

«أفكر في البدء من المتحف البريطاني. ربما يستطيع العاملون هناك أن يُلقوا بعض الضوء على تحركاته. أعرف أن هناك بعض عمليات التنقيب المُهمة قيد التنفيذ في هليوبوليس. في الواقع، مدير قسم الآثار المصرية موجود هناك في الوقت الحالي، ودكتور نوربيري الذي يتولى مكانه بشكل مؤقت، هو صديق عزيز لبيلينجهام. لعلِّي أزوره وأحاول اكتشاف ما إذا كان هناك أي شيء شجَّع بيلينجهام على السفر فجأة إلى هليوبوليس، مثلًا. ولعلَّه يستطيع أن يُخبرني ما الذي جعل الرجل المفقود يسافر إلى باريس في تلك الرحلة الأخيرة الغامضة جدًّا. ربما يكون هذا دليلًا مهمًّا. وفي الوقت نفسه، لا بدَّ أن تحاول ببراعةٍ إقناع صديقك، يا بيركلي، بفكرة إطلاعنا على القضية. وأوضِحْ له أنني سأقوم بذلك بالكامل لتوسيع نطاق معرفتي.»

سألته قائلًا: «ولكن ألا يتعيَّن عليك أن تستشير مُحاميًا؟»

«أجل، من الناحية النظرية؛ ولكن على سبيل اللياقة الأدبية فقط. ولكننا سنقوم بالعمل الفعلي كله. لماذا تسأل؟»

«كنت أفكر في أتعاب المحامي، وكنت سأذكُر أن لديَّ مبلغًا صغيرًا خاصًّا بي ...»

«إذن، احتفظ به لنفسك، يا صديقي العزيز؛ ستحتاج إليه عند مُزاولة المهنة. لن تكون هناك صعوبة بخصوص المحامي؛ سأطلب من أحد أصدقائي أن يتصرف بصفةٍ شكلية كخدمة شخصية لي — مارشمونت قد يقبل القضية منَّا يا جيرفيس، أنا متأكد.»

قال جيرفيس: «أجل أو أصدقاء المحكمة على حدِّ قول برودريب العجوز.»

قلت: «هذا لُطف بالغ منكما أن تتطوَّعا بالاهتمام بقضية أصدقائي، وأتمنَّى ألا يتملَّكهما العِناد وعزة النفس بكل حماقة؛ فهذا من شيم الفقراء.»

صاح جيرفيس قائلًا: «سأُخبرك بشيء! لديَّ فكرة نيرة؛ ستُعدُّ لنا عشاءً صغيرًا في دارك وتدعو آل بيلينجهام ليلتَقُوا بنا، ثم سنُقنِع أنا وأنت الرجل العجوز، وسيمارس ثورندايك سلطات الإقناع على الفتاة. هؤلاء الرجال المُتمرِّسون الذين يُعانون من العزوبية المُستعصية والمزمنة، كما تعرف، لا يمكن مقاومتهم نهائيًّا.»

علق ثورندايك قائلًا: «أنت تلاحظ مُساعدي المحترم يتَّهمني بالعزوبية الأبدية.» ثم أضاف: «ولكن اقتراحه جيد جدًّا. بالطبع، يجب ألَّا نمارس أي نوعٍ من الضغط على بيلينجهام لخدمة أغراضنا — هذا ما يرقى إليه الأمر حتى لو لم نقبل الأتعاب — ولكن حديثًا وديًّا على مائدة العشاء، سيُمكننا من طرح الأمر بدقة وعلى نحوٍ مُقنِع أيضًا.»

قلت: «أجل، أرى ذلك، الفكرة أعجبتني كثيرًا. ولكن هذا غير مُمكن لبضعة أيام، لأن لديَّ مهمة تشغل وقت فراغي بالكامل، ومن المُفترض أن أعمل عليها الآن.» أضفتُ العبارة الأخيرة في حالة ذهول مفاجئ من الطريقة التي نسيتُ بها تمضية الوقت في الاهتمام بتحليل ثورندايك للأحداث.

نظر إليَّ صديقاي نظرةً متسائلة، وشعرتُ بضرورة توضيح قصة اليد المصابة ورسائل تلِّ العمارنة؛ وهو ما قمتُ به على نحوٍ خجول جدًّا وبنظرةٍ متوترة مُثبتة على جيرفيس. غير أن الابتسامة العريضة المُتراخية، التي كنتُ أنتظرها، لم تظهر أبدًا؛ بل على العكس، لم يَسمعْني بآذانٍ مصغية واهتمام بالِغ وحسْب؛ بل حين انتهيتُ من حديثي، قال بنبرةٍ دافئة، مستخدمًا كُنيتي القديمة بالمستشفى:

«سأقول لك شيئًا واحدًا يا بولي؛ أنت صديق صالح، ولطالما كنتَ كذلك. أتمنى أن يُقدِّر أصدقاؤك في نيفيلز كورت هذه الحقيقة.»

أجبتُ قائلًا: «هم أكثر امتنانًا مما يتطلَّبه الموقف. ولكن بالعودة إلى هذا السؤال: إلى أي مدًى يُناسبكما هذا الأسبوع؟»

ردَّ ثورندايك بنظرةٍ خاطفة إلى مُساعده قائلًا: «يُناسبني.»

وقال الأخير: «وأنا كذلك. إذن، إذا كان اليوم مناسبًا لآل بيلينجهام، فسنعتبر الأمر محسومًا؛ أما إذا لم يتمكنوا من الحضور، فيجب عليك أن تُرتِّب ليلةً أخرى.»

قلتُ وأنا أقوم من مقعدي ونفضتُ غليوني: «عظيم جدًّا! سأوجِّه دعوةً غدًا. والآن، يجب أن أرحل لأستكمِل العمل بِكدٍّ لتدوين تلك الملاحظات.»

بينما كنت في طريق عودتي إلى المنزل تأمَّلتُ بمرح فكرة استقبال أصدقائي تحت سقف داري (أو بالأحرى دار برنارد)، إن أمكن استدراجُهما خارج نُسكِهما المُنعزِل. في الواقع، كانت الفكرة التي خطرت على بالي، ولكن حالت دونها طباع مُدبرة منزل برنارد. حيث إن السيدة جامر كانت من ربَّات البيوت اللاتي يجعلن أبسط الأمور مُعقَّدة، بالتحضيرات على أعلى وأروع مستوًى. ولكن هذه المرة لن يثنيَني شيء. إن كان من الممكن إغراء ضيوفي بالمجيء إلى داري المُتواضع، فسيكون من السهل تدبير أمر المواد الخام للوليمة من الخارج. استغرقتُ في التفكير في الطرق والموارد على نحوٍ مُبهج حتى وجدتُ نفسي مرةً أخرى أجلس إلى مكتبي، وأمامي مُسوَّدات كثيرة عن وقائع حرب شمال سوريا.

الفصل الثامن

أنشودة المتحف

لم أستطع أن أُحدد ما إذا كانت هذه المهمة قد أحيت فيَّ مهارة مَنسية، أم أن الآنسة بيلينجهام بالغتْ في تقدير حجم العمل الذي يتعيَّن القيام به. ولكن أيًّا ما كان التفسير، ثمة حقيقة بأنه في عصر اليوم الرابع رأيت أن مُهمتنا أوشكت على الانتهاء، ولذا جاهدتُ أن يتبقَّى جزء صغير ليُشكِّل عذرًا من أجل زيارةٍ أخرى لقاعة القراءة.

ورغم قصر فترة تعاوننا، فإنها كانت طويلة بما يكفي لإحداث تغييرٍ كبير في علاقتنا كُلٍّ منَّا بالآخَر. حيث إنه لا تتولَّد صداقة حميمية ومُرضية أكثر من تلك المُتولدة من خلال العمل، وبخاصة علاقة صريحة وسليمة جدًّا بين الرجل والمرأة، على أي حال.

كل يومٍ آتي بكومةٍ من الكتب المؤشَّرة بعلامات في أماكن محددة ودفاتر من القطع الكبير ذات الأغلفة الزرقاء لأجدها جاهزة. كنَّا نعمل كلَّ يوم بثباتٍ في المهمة المخصصة، نُسلِّم الكتب ثم نذهب لنستمتع بتناول أجمل أنواع الشاي في محل الألبان، وبعد ذلك نسير عائدَين إلى المنزل عن طريق ميدان كوين، لنتحدَّث عن خطِّ سَير عمل اليوم، ونتناقش في أحوال العالَم في تلك الأيام السحيقة؛ حين كان الملك إخناتون طيِّبًا وحين كانت رسائل تل العمارنة قيد الكتابة.

كان وقتًا مُمتعًا، مُمتعًا جدًّا، لدرجة أنني حين سلَّمتُ الكتب للمرة الأخيرة تنهَّدتُ عندما فكرتُ أنه قُضي الأمر، وأن المهمة لم تنتهِ وحسْب؛ بل تعافت يدُ مريضتي الجميلة أيضًا؛ حيث أزلتُ عنها هذا الصباح الجبيرة، وقد وضع هذا النهاية للحاجة إلى مُساعدتي.

سألتُها ونحن نخرج من القاعة المركزية قائلًا: «ماذا عسانا أن نفعل؟ الوقت مُبكر جدًّا لتناوُل الشاي. هل نذهب لزيارة بعض المعارض؟»

أجابت: «ولمَ لا؟ لعلَّنا نشاهد بعض الأشياء المُتعلقة بما كنَّا نُنجزه. فعلى سبيل المثال، هناك تمثال لإخناتون بالطابق العلوي في القاعة المصرية الثالثة؛ لعلَّنا نذهب ونُلقي نظرةً عليه.»

وافقتُ بشغفٍ على الاقتراح، ووضعتُ نفسي تحت خبرتها الإرشادية، وبدأنا الرحلة بالمعرض الروماني، ومررنا على صفٍّ طويل من الأباطرة الرومانيين المألوفين جدًّا وذوي المظهر الحديث.

قالت: «لا أعرف.» ثم وقفتْ دقيقة أمام تمثالٍ نصفي تحته مُلصق «تراجان» (ولكن من الواضح أنه صورة بورتريه لفيل ماي)، واستأنفت قائلة: «كيف يَسعني أن أشكرك على كلِّ ما فعلته، ناهيك عن ردِّ الجميل.»

أجبتُ قائلًا: «ليس هناك داعٍ للقيام بأي شيءٍ من الاثنين، لقد استمتعتُ بالعمل معكِ وهذا في حدِّ ذاته مُكافأتي. ولكن ...» ثم أضفتُ قائلًا: «إذا كنتِ تريدين أن تُسدي لي معروفًا كبيرًا، فالأمر رهْن إشارتك.»

«كيف ذلك؟»

«فيما يخصُّ صديقي؛ دكتور ثورندايك. أخبرتُك بأنه كان مُتحمِّسًا. الآن، هو لأسبابٍ ما، مُهتمٌّ جدًّا بكل شيء يخصُّ عمَّك، وعرفت أنه إذا كان هناك فرصة لرفع أي دعاوى قضائية، فسيروق له كثيرًا أن يُراقب القضية بصفةٍ ودية.»

«وماذا تريدني أن أفعل؟»

«أريدك، إذا سنحت الفرصة له لتقديم نصيحة أو مساعدة من أي نوع لوالدك، أن تستغلِّي تأثيرك على والدك لصالح قبولها، لا رفضها، على افتراضٍ دائم بأنه ليس لديك شعور حقيقي يُعارض قيامه بذلك.»

نظرت الآنسة بيلينجهام لي نظرةً متفحصة لبضع دقائق، ثم ضحكت برقَّة.

«إذن المعروف الكبير الذي سأُسديه لك هو أن أُتيح لك أن تُقدِّم لي معروفًا آخَر من خلال صديقك؟»

قلتُ معترضًا: «كلَّا، أنت هنا مُخطئة. هذه ليست صدَقة من جانب دكتور ثورندايك؛ إنه حماس مِهني.»

ابتسمتْ في تشكُّك.

قلت: «أنتِ لا تُصدقين ذلك، ولكن فكِّري في حالاتٍ أُخرى. لماذا ينهض جرَّاح من الفراش في ليلةٍ شتوية ليُجري عمليةً جراحية عاجلة بالمُستشفى؟ ولن يتقاضى أجرًا مقابل ذلك. ألا ترين أنه الإيثار؟»

«أجل، بالطبع. أليس كذلك؟»

«بالتأكيد، لا. لقد قام بذلك لأنها وظيفته، لأن مُهمته هي محاربة المرض والانتصار عليه.»

قالت: «لا أرى فارقًا كبيرًا. إنه عمل يتمُّ بدافع الحبِّ بدلًا من الأجر. ورغم ذلك، سأفعل ما تطلبه إذا سنحت الفرصة؛ ولكني لا أظنُّ أنني رددتُ لك المعروف.»

قلت: «لا أُمانع طالما ستفعلين.» تمشَّينا في صمتٍ لبعض الوقت.

ثم قالت توًّا: «أليس غريبًا، كيف يبدو أن حديثنا يعود دومًا إلى عمِّي؟ أوه، هذا يُذكرني بالأشياء التي منحها لي المتحف في نفس قاعة تمثال إخناتون. هل ترغب في رؤيتها؟»

«بالتأكيد، أودُّ ذلك.»

«إذن، سنذهب ونُلقي نظرةً عليها أولًا.» توقَّفَت، ثم استطردتْ في خجل وبحمرة مُتدرجة قالت: «وأظن أنه ينبغي عليَّ أن أُقدمك إلى صديقٍ عزيز عليَّ جدًّا، بعد إذنك طبعًا.»

قالت هذه الإضافة الأخيرة في عُجالة، بعد أن رأت فيما أظنُّ أنني بدا عليَّ التجهُّم من الاقتراح. وبداخلي كنت أودُّ أن أرسل صديقها إلى الشيطان، لا سيما إذا كان ذكرًا؛ ولكن ظاهريًّا عبَّرتُ عن سعادتي بالتعرُّف على أي شخصٍ شرَّفَتْه بصداقتها. ولكن ما أربَكني أنها ضحكت على نحوٍ غامض، ضحكةً ناعمة جدًّا، خافتة ومُنغَّمة، مثل هديل حمامة مُقدَّسة.

تمشيتُ بجوارها وأنا أُفكر بقليلٍ من القلق في التقدمة الوشيكة؛ هل تم اقتيادي إلى عرين أحد العلماء ذوي الصلة بالمتحف؟ هل سيضيف طرفًا ثالثًا إلى تجمُّعنا الثنائي الصغير، الكامل والودود للغاية، بعد أن كنَّا وحدنا معًا، في هذا العالم المأهول؟ وفوق كل ذلك، هل سيكون شابًّا، وسيهدِم قلاعي الخيالية فوق رأسي؟ نظرتها الخجولة واحمرار خدِّها حين اقترحت التقدمة كانت مؤشرات تُنذر بالسوء، تفكَّرت فيها بكآبة بينما كنا نصعد الدرَج ونمرُّ خلال المدخل. ألقيتُ نظرة خاطفة على رفيقتي، لتُواجهني ابتسامةٌ غامضة جدًّا؛ في تلك اللحظة توقفت أمام نافذة عرضٍ جدارية وواجهتْني.

قالت: «هذا صديقي. دعني أُقدمك إلى أرتميدورس، في أواخر عصر الفيوم. أوه، لا تبتسِم! أنا جادة جدًّا. ألم تسمع مُطلقًا عن الكاثوليكيين الورِعين الذين يعتزُّون بتفانيهم لقديس راحلٍ منذ زمن طويل؟ هذه مشاعري تجاه أرتميدورس، ولو كنتَ تعرف مدى السكينة التي يُنزلها في قلب سيدة وحيدة؛ كم كان صديقًا هادئًا مُتواريًا عن الأنظار بالنسبة إليَّ في أيام عُزلتي ووحدتي، كان دومًا مُستعدًّا بتحية على وجهه اللطيف والرصين، ستُعجَب به لهذا السبب وحدَه. وأُريدك أن تُعجَب به وأن تشاركنا صداقتنا الصامتة. هل أنا سخيفة جدًّا وعاطفية جدًّا؟»

اجتاحتْني موجةٌ من الارتياح، وارتفع مستوى الزئبق في مقياس حرارتي العاطفية إلى أعلى المُستويات بعد أن كاد يستقرَّ في القاع. كم كان لطيفًا منها وحميميًّا أن تتمنَّى مشاركتي هذه الصداقة السرية! وكم كانت فتاة مُعتدَّة جدًّا بنفسها، وكم كانت غريبةً وغامضة لتأتي إلى هنا وتُجري حديثًا صامتًا مع هذا اليوناني الراحل منذ فترةٍ طويلة. ولقد أثر هذا الرثاء فيَّ بعمقٍ وسط فرحة هذه العلاقة الحميمية الوليدة.

سألتني بنبرةٍ يشوبها خيبة الأمل بعد أن عجزتُ عن الرد: «هل تستهزئ بي؟»

أجبتُ في حماس قائلًا: «كلَّا، بالتأكيد لا. أريدك أن تتأكدي من تعاطفي وتقديري لك بدون أي إساءةٍ لك من خلال إبداء المُبالغة، ولا أعرف كيف أُعبر عن ذلك.»

«أوه، لا تهتمَّ بالتعبير، طالما أنك تشعُر. ظننتُ أنك ستفهم.» وابتسمت لي ابتسامةً جعلتني أرتعِد.

وقفنا لبرهةٍ نُحدِّق في صمتٍ بالمومياء — كان هذا صديقها أرتميدورس. لم تكن مومياء عادية؛ مصرية الشكل، ولكنها يونانية المشاعر بالكامل، بألوانٍ زاهية، مُتوافقة مع الحب العنصري للألوان، الذوق الرفيع الذي يُزين الصندوق جعل كلَّ شيءٍ حوله يبدو مُبهرجًا وهمجيًّا. ولكن السمة الأكثر لفتًا للنظر كانت لوحة ساحرة تحتل مكان القناع المُعتاد؛ كانت هذه اللوحة مصدر إلهامٍ بالنسبة إليَّ. فباستثناء أنها مرسومة بالصبغة بدلًا من الزيت، كانت لا تختلف بأي شكلٍ من الأشكال عن الأعمال الحديثة. لم يكن هناك شيءٌ قديم أو عتيق بخصوصها؛ فمن خلال أسلوبها المُتحرِّر في التناول والتصوير المناسب للضوء والظلال، ربما تمَّ رسمُها أمس؛ بالطبع كانت محاطة بإطارٍ ذهبي عادي، وربما تمرُّ عليها مرورَ الكرام في معرض للصور الحديثة.

لاحظت الآنسة بيلينجهام إعجابي وابتسمتْ في استحسان.

وقالت: «إنها لوحة بورتريه صغيرة، أليس كذلك؟ ووجه مليح أيضًا، ملامح رصينة ذات طابع بشري، يعلوه مسحةٌ من الكآبة. ولكن اللوحة ككلٍّ مليئة بالسحر. وقعتُ في حبِّها من المرة الأولى التي رأيتها فيها. إنها يونانية جدًّا!»

«أجل، هي كذلك، رغم وجود الآلهة والرموز المصرية.»

قالت: «بل بالأحرى بسببها، في رأيي. ها نحن أمام الأسلوب اليوناني النموذجي؛ الانتقائية العبقرية المُستنيرة التي تُقدر انسجام أغرب أشكال الفن. هناك أنوبيس يقف بجوار التابوت؛ وهناك تقف إيزيس ونفتيس، وبالأسفل حورس وتاهوتي. ولا نستطيع افتراض أن أرتميدورس كان يعبد أو يؤمن بهؤلاء الآلهة. هي موجودة لأنها عبارة عن زخارف باهرة ومناسبة تمامًا في طبيعتها. المشاعر الحقيقية لأولئك الذين يُحبُّون الراحل تتجلَّى في العبارة المنقوشة.» وأشارت إلى الشريط الموجود أسفل الصداري، حيث كُتب بحروفٍ كبيرة مُذهبة، عبارة من كلمتين: «وداعًا، أرتميدورس.»

قلت: «أجل، إنه عمل مهيب جدًّا وإنساني للغاية.»

وأضافت قائلة: «إنه صادق جدًّا ومليء بالمشاعر الحقيقية. أراه عملًا مؤثرًا على نحوٍ لا يوصف. «أوه أرتميدورس، وداعًا!» هنا السمة الحقيقية للحزن الإنساني، حزن الوداع الأبدي. كم كان هذا رائعًا، أروع من التباهي المُبتذل للمرثيَّات السامية أو تصورنا البائس والمُخادع للفقد قبل اللقاء. لقد رحل عنهم إلى الأبد؛ لعلهم لا ينظرون في وجهه ولا يسمعون صوته؛ أدركوا أنها آخِر مرة يودعونه. أوه، قدر كبير جدًّا من الحب والحزن يتلخَّص في هاتَين الكلمتين البسيطتَين!»

ولم يتكلم أي منَّا لبعض الوقت. لقد غمرني سحر هذا التمثال المؤثر الذي يُجسد الحزن المدفون منذ زمن سحيق، وكنت سعيدًا بالوقوف صامتًا إلى جوار رفيقتي المحبوبة ومُلهمتي، بقدْرٍ من المتعة التأملية، أطياف من المشاعر الإنسانية التي مرَّ عليها قرون كثيرة جدًّا. في تلك اللحظة التفتت إليَّ بابتسامة صادقة وقالت: «أنت كفَّتك ترجح على ميزان الصداقة، ولا ينقصك شيء. لديك موهبة التعاطُف، حتى مع الأوهام العاطفية للنساء.»

ساوَرني شكٌّ بأن عددًا كبيرًا من الرجال من شأنهم أن يكتسبوا هذه القدرة الرائعة في ظل هذه الظروف؛ ولكني امتنعتُ عن قول ذلك. لا طائل من بكاء المرء على قدراته. كنتُ سعيدًا بالقدر الكافي لأنها كوَّنت عني رأيًا جيدًا بكل سهولة، وبعد فترةٍ طويلة حين ابتعدتْ عن الصندوق وعبرتْ إلى الغرفة المجاورة، كان هناك شاب لطيف للغاية في انتظار صحبتها.

«إليك أخناتون أو خنا-تون، كما تكتبها السلطات هنا باللغة الهيروغليفية.» وأشارت إلى جزءٍ من تمثالٍ مُلون مُلصق عليه: «جزء من لوحةٍ حجرية مُلونة عليها صورة بورتريه لأمنحوتب الرابع» توقَّفنا لنُلقي نظرة على صورة رقيقة ومُرهفة للملك العظيم، بجمجمته الكبيرة وذقنه الحاد الغريب وشعاع أتون ينشر أذرُعه الغريبة كما لو أنها تُعانقه.

«لا يجب أن نبقى هنا إذا كنتَ تريد أن تشاهد منحة عمِّي؛ حيث إن هذه القاعة تُغلق في الساعة الرابعة اليوم.» بعد هذه النصيحة تحرَّكَت إلى الطرف الآخر من القاعة، حيث وقفتْ أمام صندوق عرضٍ كبير يحتوي على مومياء ومجموعة كبيرة من الأغراض الأخرى، وُملصق أسود بكتابة بيضاء تُبين المحتويات المتنوعة بشرحٍ مُختصر كما يلي:

> مومياء سبك حتب؛ كاتب الأسرة الثانية والعشرين، بالإضافة إلى الأغراض المكتشفة في المقبرة؛ وهي تشتمل على أربعة أوانٍ كانوبية، التي تُحفَظ فيها الأعضاء الداخلية، وتماثيل الأوشابتي، والمُؤَن والمقتنيات المختلفة التي تخصُّ المُتوفَّى؛ كرسيه المُفضل ومسند رأسه، ولوحة الحبر، منقوش عليها اسمه واسم الملك، أوسركون الأول، الذي عاش في عهده، وغيرها من الأغراض الأخرى الأصغر حجمًا، مُهداة من السيد جون بيلينجهام.

أوضحت الآنسة بيلينجهام قائلة: «لقد وضعوا جميع الأغراض في صندوق عرضٍ واحد ليُوضِّحوا محتويات المقبرة العادية الخاصة بالطبقة الغنية. كما ترى كان المُتوفَّى يتمتع بسبل الراحة العادية؛ المؤن والأثاث ولوحة الحبر التي اعتاد استخدامها في الكتابة على ورق البردي، وطاقم من الخدم لخدمته.»

سألتها: «أين الخدم؟»

أجابت قائلة: «تماثيل الأوشابتي الصغيرة كانوا بمثابة خدَم للميت، كما تعرف، خدَمه في العالم الآخر. كانت فكرة غريبة، أليس كذلك؟ ولكنها كانت فكرة متكاملة ومُتسقة ومنطقية جدًّا، إذا كان المرء مؤمنًا بالمُعتقد الخاص باستمرار الفرد بمعزلٍ عن الجسد.»

قلت: «أجل، وهذه هي الطريقة الوحيدة للحكم على المنظومة الدينية، من خلال اعتبار المعتقدات الرئيسية أمورًا مُسلَّمًا بها. ولكن يا لها من مهمة؛ إحضار كل هذه الأشياء من مصر إلى لندن.»

«إنها تستحق العناء، لأنها مجموعة رائعة وقيِّمة. وهو عمل فريد جدًّا من نوعه. أنت تلاحظ أن تماثيل الأوشابتي والرءوس التي تُشكل سدادات أوانٍ كانوبية تم تشكيلها بدقةٍ بالغة. والمومياء نفسها، في حالة جيدة جدًّا، رغم أن تلك الطبقة من مادة القار في الخلف لم يُحسَن وضعها. ولكن لا بدَّ أن سبك حتب رجل حسن المظهر.»

«القناع الموجود على الوجه هو صورة بورتريه، أليس كذلك؟»

«بلى، في الواقع، هو أكثر من ذلك؛ إنه بدرجةٍ ما الوجه الحقيقي للرجل نفسه. هذه المومياء موضوعة فيما يُطلق عليه غلاف كرتوني، أي صندوق مُصمم على نفس الشكل. والغلاف الكرتوني تم تشكيله على هيئة عددٍ من طبقات الكتان أو البردي المُلتصقة بالصمغ أو الإسمنت، وحين تم تهيئة الصندوق ليتناسب مع المومياء، فإنه تم قوْلَبته على الجسد، بحيث إن الشكل العام للملامح والأطراف كان واضحًا عادة. وبعد أن جفَّ الإسمنت، تم تغطية الصندوق بطبقةٍ رقيقة من الجص وشُكِّل الوجه على نحوٍ كامل أكثر، ثم تم وضع الألوان على الزخارف والنقوش. وبالتالي، أنت ترى في الغلاف الكرتوني، أن الجسد ملفوف كحبَّة جوز في قِشرتها، على عكس الأشكال القديمة التي تُلَف فيها المومياء وتوضع في تابوت خشبي.»

وفي تلك اللحظة، دوَّى في آذاننا صوتٌ مُحتج بلُطف مُعلنًا بنبرة منغمة أنه حان موعد الإغلاق، وفي الوقت نفسه اقترحتُ رغبةً في تناول الشاي الذهابَ إلى محل الألبان المِضياف. وبإجلالٍ مُتروٍّ تجاهلْنا الموظف الذي قادنا عبر صالات العرض، وشققْنا طريقنا إلى المدخل، ونحن لا زلنا مُنغمسَين في الحديث حول أمور الدفن.

كان الوقت مبكرًا جدًّا عن الساعة التي اعتدْنا فيها ترك المتحف، علاوة على أنه آخِر يوم لنا في الوقت الراهن. ونظرًا لأننا تباطأنا في تناول الشاي لدرجة أن صاحبة المحل كانت تُراقبنا بازدراء، وعندما شرعْنا في العودة إلى المنزل في النهاية، سلكنا العديد من الطرُق المختصرة، حتى وجدنا أنفسنا في الساعة السادسة بعيدًا عن وجهتنا وبالقُرب من لينكولن إن فيلدز؛ حيث قطعنا رحلتنا عبر طريقٍ غير مباشر قليلًا يجتاز (بين عدة أماكن أخرى) ميدان راسل وميدان ريد ليون، عبر طريقٍ غريب بالاسم نفسه، بيدفوردرو، وجوكي فيلدز، وزقاق هاند، وجريت تيرنستيل.

وفي الشارع الأخير، لفت انتباهنا مُلصق لامع مُعلق خارج كشك لبيع الجرائد مكتوب عليه عنوان مُفزع:

المزيد من تذكارات المقتول

حدَّقت الآنسة بيلينجهام في المُلصق وارتعدت.

قالت: «فظيع، أليس كذلك؟ هل قرأت عن هذا؟»

أجبت قائلًا: «لم أطالع الجرائد خلال الأيام القليلة الماضية.»

«بالطبع لم تفعل؛ كنتَ مُستعبدًا في العمل على تلك الملاحظات المُرهقة. نحن غالبًا لا نرى الجرائد، على الأقل نحن لا نتسلَّمهما، ولكن الآنسة أومان زوَّدتنا بها خلال اليوم أو اليومين الماضيين. إنها شريرة صغيرة مثالية. إنها يُبهجها الأهوال على اختلاف أنواعها، وكلما كانت أكثر هولًا، كانت أفضل.»

سألتها: «ولكن ما الذي عثروا عليه؟»

«أوه، رفات مخلوق مسكين يبدو أنه قُتل ومُزِّق إلى أشلاء. إنه أمرٌ مُروِّع. يجعلني أرتعد حين أقرؤه، ولا يسعني سوى التفكير في العم جون المسكين. أما بالنسبة إلى والدي، فقد كان منزعجًا للغاية فعلًا.»

«هل هذه هي العظام التي عثروا عليها في حوض نبات البقلة المائية في منطقة سيدكوب؟»

«أجل، ولكنهم وجدوا المزيد منها. لقد كانت الشرطة أكثر نشاطًا. يبدو أنهم كانوا يُجرون بحثًا منهجيًّا، والنتيجة كانت أنهم اكتشفوا عدة أجزاء من الجثة، مُتناثرة في أماكن متفرقة على نطاقٍ واسع جدًّا؛ سيدكوب ولي وسانت ماري كراي؛ وأمس تم الإبلاغ عن العثور على ذراع في إحدى البرك المسماة كوكو بيتس، بالقُرب من منزلنا القديم.»

قلت: «ماذا! في إيسيكس؟»

«أجل، في إيبينج فورست، بالقُرب من وودفورد. أليس من المُخيف التفكير في ذلك الأمر؟ كانت على الأرجح مُخبَّأة حين كنَّا نعيش هناك. أظن أن هذا أرعبَ والدي كثيرًا. حين قرأ هذا شعر بخيبة أملٍ كبيرة لدرجة أنه جمع كومةً كاملة من الجرائد وأطاح بها من النافذة، وتساقطت من على الجدار، واضطُرَّت الآنسة أومان المسكينة أن تُهرع إلى أسفل وتجمعها من الزقاق.»

«هل تظنين أنه يشكُّ في أنها ربما تكون رفات عمك؟»

«أظن ذلك، رغم أنه لم يقل شيئًا بخصوص هذا، وبالطبع، لم أُلمح إليه بأي شيء. نحن دومًا نحتفظ بالفكرة الوهمية فيما بيننا، الخاصة بالاعتقاد بأن العم جون ما يزال على قيد الحياة.»

«ولكنك لا تعتقدين بأنه كذلك، أليس كذلك؟»

«كلَّا، أخشى أن أقول إنني لا أعتقد ذلك؛ وأنا متأكدة تمامًا أن أبي لا يعتقد ذلك أيضًا، ولكنه لا يُحب أن يعترف لي بهذا الأمر.»

«هل تتذكَّرين ماهية العظام التي عُثر عليها؟»

«كلَّا، لا أتذكر. أعرف أن هناك ذراعًا اكتُشفت في كوكو بيتس، وأظن أنَّ عظمة فخذ أُخرجت من بركةٍ ما بالقُرب من سانت ماري كراي. ولكن الآنسة أومان تستطيع أن تُخبرك بخصوص هذا الأمر، إذا كنتَ مُهتمًّا.» وأضافت الآنسة بيلينجهام بابتسامة: «سيُسعدها أن تلتقي بروحٍ تربطها بها صِلة قرابة.»

قلت: «لم أعرف أنني تربطني صلة قرابة بروحٍ شريرة، لا سيما هذه الروح الشريرة حادة الطباع جدًّا.»

قالت الآنسة بيلينجهام بنبرةٍ يشوبها التوسُّل: «أوه، لا تنتقص من قدرها، دكتور بيركلي! هي ليست سيئة الطباع حقًّا؛ وإنما حِدَّتها هذه من الناحية الظاهرية. ما كان ينبغي لي أن أصفها بالشريرة؛ وإنما هي أحلى وأحنُّ قنفذٍ بشري رقيق، والأكثر إيثارًا، يمكنك أن تلتقي به إذا سافرتَ حول العالم بأكمله. هل تعرف أنها تعمل جاهدة على إصلاح فستاني القديم لأنها حريصة جدًّا على أن أبدو أنيقةً في حفلك الصغير للعشاء.»

قلت: «لا بدَّ أن تحرصي على ذلك، على أي حال؛ ولكني أتراجع عن رأيي الصريح بخصوص طباعها، ولا أقصد ذلك حقًّا، كما تعرفين؛ لطالما أحببتُ السيدة الصغيرة.»

«هذا صحيح، والآن هلا أتيتَ وأمضيتَ بضع دقائق مع أبي؟ لا زال الوقت مُبكرًا رغم كل هذه الطرُق المختصرة التي قطعناها.»

قبلتُ على الفور؛ كنتُ أودُّ أن أتحدث مع الآنسة أومان بخصوص موضوع الضيافة، ولا أريد أن أناقش الأمر أمام أصدقائي؛ ومِن ثَم، دخلتُ وثرثرتُ مع السيد بيلينجهام، بالأساس حول العمل الذي قُمنا به في المتحف، حتى حان وقت عودتي إلى العيادة.

وما إن غادرتُ حتى نزلتُ الدرَج ببطء مُتأنٍّ مُحدثًا صوتًا بحذائي بأعلى ما يمكن، على أمل نتيجةٍ مُتوقعة بأنني حين اقتربتُ من باب غرفة الآنسة أومان، انفتح الباب وأخرجت السيدة رأسها.

قالت: «لو كنتُ مكانك لغيَّرتُ حذائي.»

تذكرتُ عبارة «القنفذ البشري الرقيق» وكدتُ أضحك في وجهها.

«متأكد من أنك ستفعلين، آنسة أومان، ولكن كما تُلاحظين، الشاب المسكين لا يستطيع أن يعتني بمظهره.»

قالت بحدَّة: «أنت شاب وقح للغاية.» وبالتالي ابتسمتُ ابتسامةً عريضة، ورمقتني في صمتٍ بنظرة مُهلكة. وفجأةً تذكرتُ مُهمتي وصرتُ جادًّا ومُتزنًا.

قلت: «آنسة أومان، أنا في أمسِّ الحاجة إلى نصيحتك بخصوص أمر مُهم — بالنسبة إليَّ على الأقل.» (ظننتُ أن هذا من المتوقع أن ينطلي عليها. «طُعم النصيحة» — الذي غفل عنه على نحوٍ غريب، إيزاك والتون — مضمون أن يُؤتي ثماره تحت أي ظروف.) وفعلًا لقد انطلى عليها الأمر. هبَّتْ على الفور وابتلعت الطُّعم، سهم نافذ أصاب الهدفَ قطعًا.

سألتْ بنبرةٍ متحمسة: «بخصوص ماذا؟ ولكن لا تقِف هنا حيث يستطيع الجميع أن يسمعوك باستثنائي أنا. ادخل واجلس.»

لم أكن أرغب في مناقشة الأمر هنا، بالإضافة إلى أنه ليس هناك مُتَّسع من الوقت. وبالتالي تظاهرتُ بالغموض.

وقلت: «لا أستطيع يا آنسة أومان. أنا في طريقي إلى العيادة الآن، ولكن إذا سنحت لك الفرصة كي تمري وتمنحيني بضع دقائق من وقت فراغك، فسأكون مُمتنًّا جدًّا إذا فعلتِ. أنا لا أعرف فعلًا كيف أتصرَّف.»

«كلَّا، لا أتوقع ذلك؛ الرجال نادرًا ما يعترفون، ولكنك أفضل من أغلبهم، لأنك حين واجهتَ صعوبات، حكَّمت عقلك لتستشير امرأة. ولكن بخصوص ماذا؟ ربما يجدُر بي أن أفكر في الأمر.»

قلتُ بنبرة مُراوغة: «حسنًا، كما تعرفين، الأمر بسيط، ولكن لا أستطيع أن أجيد … كلَّا، يا إلهي!» وأضفتُ وأنا أنظر إلى ساعة يدي: «يجب أن أُسرع، وإلا تركتُ الحشود تنتظرني.» وما إن قلت هذا حتى أسرعتُ مبتعدًا، تاركًا الفضول يأكلها بكل معنى الكلمة.

الفصل التاسع

زائر من لينكولينز إن

لا يستطيع المرء في سنِّ السادسة والعشرين أن يدَّعي بلوغه مكانة ذوي الخبرة. ورغم ذلك، كانت المعرفة بالطبيعة البشرية التي تراكمَت في تلك الفترة الوجيزة من عمري كافيةً لتجعلني واثقًا من أنني سأستقبل الآنسة أومان في وقتٍ ما أثناء المساء. والظروف أثبتت صحة توقُّعاتي؛ فما إن تجاوزَت عقارب الساعة السابعةَ مساءً بدقيقتين، حتى أعلنت دقَّة تحذيرية على باب العيادة قدومها.

أوضحَتْ، وأنا أمنع نفسي عن الضحك على الصدفة الغريبة، قائلة: «كنتُ أمرُّ بالصدفة وظننتُ أنه ربما يكون من المناسب أن أمرَّ وأسمع ما كنتَ تودُّ أن تسألني عنه.»

جلستْ على كرسي المَرضى ووضعتْ كومةً من الجرائد على المكتب، وهي تُحدق بي في ترقُّب.

قلت: «شكرًا لكِ، آنسة أومان. يَسرُّني جدًّا أن تهتمي بأمري. أشعر بالخجل لأنني تسببتُ في إزعاجك بخصوص مسألة تافهةٍ كهذه.»

نقرتْ بمفاصل أصابعها على المكتب بفارغ الصبر.

وقالت بنبرةٍ لاذعة:

«لا تكترث بإزعاجي. ما ... الذي ... تود ... أن ... تسألني ... عنه؟»

عبَّرت عن الصعوبات التي تُواجهني بخصوص حفل العشاء، وبينما كنتُ أتابع حديثي، علا قسمات وجهها تعبيرٌ بالاشمئزاز وخيبة الأمل.

قالت باقتضاب: «لا أرى الداعي وراء تصرُّفك على نحوٍ غامض جدًّا بخصوص هذا الأمر.»

«لم أقصد أن أكون غامضًا؛ وإنما حرصتُ على عدم إفساد الأمر. من السهل جدًّا إظهار عدم الاهتمام بملذَّات المائدة، ولكن ثمة فضيلة عظيمة في تقديم مأدبة رائعة حقًّا،

ولا سيما حين يكون النمط السائد للحياة اليومية هو مستوى المعيشة المُنخفض ومستوى التفكير الراقي.»

قالت الآنسة أومان: «كلام فظ ولكنه حقيقي جدًّا.»

«حسنًا. الآن، إذا تركتُ الإدارة للسيدة جامر، فإنها على الأرجح ستعدُّ يخنةً إيرلندية ذات رقائق مُتخثرة فوقها طبقات الدهن، وسجق مُشحم لدِن أو شيء من هذا القبيل، وستقلب المنزل رأسًا على عقب حتى تُجهز كل شيء. ولذا فكرتُ في إعداد مائدة أطعمةٍ باردة، وجلب كلِّ شيء من الخارج. ولكني لا أرغب في أن يبدو الأمر وكأني قمتُ بتحضيراتٍ هائلة.»

قالت الآنسة أومان: «لن يظنُّوا أنَّ الطعام هبط من السماء.»

«كلَّا، لا أفترض أنهم سيظنون ذلك. ولكنك تفهمين قصدي. حسنًا، ما المكان الذي تنصحينني بالذهاب إليه للحصول على المواد الخام للمناسبات الاجتماعية؟»

فكَّرت الآنسة أومان مليًّا وجاء قرارها النهائي: «من الأفضل أن تدعني أتسوَّق وأُدير الأمر برمَّته.»

كان هذا ما أردتُه بالضبط، ولذا قبلتُ بامتنان، دون اعتبارٍ لمشاعر السيدة جامر. أعطيتها جُنيهَين، وبعد بعض الاحتجاجات من جانبها على إسرافي، وضعَتْهما في حقيبتها. وهي عملية استغرقت وقتًا نظرًا لأن تلك الحاوية كانت مُحمَّلة بكومة من عينات الأقمشة وأطراف الأشرطة ومشط أزرار من الكتان وخطافات وعروات وكتلة من شمع عسل النحل، وقلم رصاص مقروض، وغيرها من الأغراض البسيطة الأخرى التي نسيتُها، بالإضافة إلى كونها أشبه بنموذجٍ مُصغر لأرشيف الفواتير المُهترئة التي عفا عليها الزمن. وبينما كانت تغلق الحقيبة مُعرِّضةً إيَّاها لخطر داهم مُتمثل في اقتلاع أحزمتها، نظرت إليَّ في صرامةٍ وزمَّت شفتيها.

وعلقَت قائلة: «أنت شاب تحظى بقبولٍ كبير.»

سألتها: «ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك؟»

تابعَت قائلة: «التسكُّع في المتاحف مع شابةٍ جميلة تحت ذريعة أداء مُهمة عمل. عمل، بكل تأكيد! أوه، لقد سمعتُها تتحدَّث مع والدها عن ذلك. هي تظن أنك مُنبهر تمامًا بالمومياوات والقطط المُحنطة وكتل الأحجار وغيرها من النفايات. إنها لا تعرف مدى خداع الرجال.»

اندفعتُ قائلًا: «صدقًا، آنسة أومان.»

ردَّت بعنف قائلة: «أوه، لا تُخاطبني! يمكنني أن أرى كل شيء. لا يمكنك خداعي. يمكنني أن أراك تُحدِّق في تلك الصناديق الزجاجية، حاثًّا إيَّاها على الحديث والاستماع إليها مشدوهًا بفمٍ فاغر وعينٍ جاحظة جالسًا عند قدمَيها. أليس كذلك؟»

قلت: «أنا لا أعرف شيئًا بخصوص الجلوس عند قدمَيها رغم أن هذا سهل الحدوث بسبب الأرضيات الزلِقة اللعينة؛ ولكني قضيتُ وقتًا رائعًا جدًّا، وأنوي أن أذهب مرةً أخرى إذا استطعت. الآنسة بيلينجهام هي أذكى وأبرع امرأة تحدثتُ إليها على الإطلاق.»

كان هذا لغزًا بالنسبة إلى الآنسة أومان، التي كانت تضاهيني بالدرجة نفسها من الإعجاب والولاء. كانت تودُّ أن تُعارضني، ولكن كان هذا أمرًا مُستحيلًا. ولكي تُغطي على هزيمتها سحبت كومةً من الصحف وبدأت تفتحها.

وباغتتني بالسؤال: «ما الذي تعنيه «الاستحالة»؟»

قلت مُتعجبًا: «استحالة!»

«أجل، لقد عثروا على قطعةٍ منها في عظام اكتُشفت في بحيرة سانت ماري كراي، وقطعة أُخرى مشابهة عُثر عليها في أماكن أخرى في إيسيكس. الآن، أود أن أعرف ماذا تعني «الاستحالة».»

قلتُ بعد تفكير عميق: «لا بدَّ أنك تقصدين «الاستعاجة».»

«الصحف تقول «استحالة»، وأظنُّ أنهم يعرفون ما الذي يتحدَّثون عنه. إذا كنت لا تعرف ما هذا، فلا تخجل أن تقول.»

«حسنًا، لا أعرف إذن.»

قالت بنبرةٍ غير منطقية: «في تلك الحالة، حريٌّ بك أن تقرأ الصحف وتكتشِف بنفسك.» ثم أعقبت قائلة: «هل أنت مُولَع بجرائم القتل؟ أنا مُولعة بها إلى أبعدِ حد.»

هتفتُ قائلًا: «لا بدَّ أنك شريرة صغيرة صادمة!»

حدجتْني بنظراتٍ حادة ثم قالت: «سأُكبِّدك العناء لتكون أكثرَ احترامًا في كلامك. ألا تُدرك أنني كبيرةٌ بما يكفي لأكون في مقام والدتك؟»

اعترضتُ بشدة: «مستحيل!»

قالت الآنسة أومان: «بلى، هي حقيقة.»

قلت: «حسنًا، على أي حال. السنُّ ليس المؤهل الوحيد لهذا. بالإضافة إلى أنه قد فات الأوان على قيامك بهذه الوظيفة. الوظيفة ليست شاغرة.»

قذفت الآنسة أومان الصحف على الطاولة ووقفت فجأة.

قالت بحدَّة وهي تهمُّ بالخروج: «حريٌّ بك أن تقرأ الصحف وترى ما إذا كان بإمكانك اكتساب قدرٍ قليل من الوعي. أوه، ولا تنسَ الإصبع!» ثم أضافت بحماس قائلة: «هذا مُثير حقًّا.»

كرَّرتُ كلمتها: «الإصبع؟»

«أجل، لقد عثروا على يدٍ مبتورة الإصبع. الشرطة تظنُّ أنه دليل مهم. لا أعرف ماذا يقصدون؛ ولكن اقرأ التقرير وقل لي ما رأيك.»

وبهذا التعليق انصرفت وخرجت مُسرعة من العيادة، تبعتُها لأودِّعها وداعًا احتفاليًّا على عتبة الباب. رأيتُ قوامها الضئيل يمشي بخُطًى سريعة كعصفورةٍ في اتجاه حارة فيتر، وكنتُ بصدد العودة إلى العيادة، حين جذب انتباهي تحركات رجل عجوز على الجانب المقابل من الشارع. كان رجلًا غريب المظهر، طويل القامة، نحيف القوام، وهزيلًا؛ والطريقة التي يحمل بها رأسه تُوحي للعقلية الطبية أنه يُعاني بوضوح من قِصر النظر ويرتدي نظارة طبية «سميكة». فجأة لَمحني وعبَر الطريق وهو يمدُّ ذقنه إلى الأمام ويوجِّه عينيه الزرقاوين نحوي عبر عدستَي نظارته الطبية.

قال بتحية مهذبة: «أتساءل عما إذا كان بإمكانك مساعدتي. أودُّ أن أزور أحد المعارف، ولكني نسيتُ عنوانه. هو في أحد الأزقة ولكن اسم ذلك الزقاق غاب عن ذهني لدقيقة. اسم صديقي هو بيلينجهام. أفترض أنك ربما تعرفه؟ القاعدة تقول إن الأطباء يعرفون الكثير من الناس.»

«هل تقصد السيد جودفري بيلينجهام؟»

«أها! إذن أنت تعرفه. لم أقصد عبثًا نصيحة الشخص العليم. لا شكَّ أنه أحد مرضاك؟»

«مريض وصديق شخصي. عنوانه ٤٩ نيفيلز كورت.»

«شكرًا لكَ، شكرًا لكَ. أوه، وبما أنك صديق، ربما يمكنك أن تُطلعني على عادات أهل البيت. مجيئي ليس متوقَّعًا ولا أرغب في القيام بزيارة مفاجئة. ما هي عادات السيد بيلينجهام بخصوص وجبة العشاء؟ هل هذا وقتٌ مناسب للزيارة؟»

«بوجهٍ عام، أقوم بزياراتي المسائية بعد ذلك بقليل؛ في حدود الساعة الثامنة والنصف مثلًا؛ سيكونون حينئذٍ قد فرغوا من وجبتهم.»

«أها! الساعة الثامنة والنصف إذن؟ حسنًا، أعتقد أنه من الأفضل أن أتمشَّى حتى ذلك الحين. لا أريد إزعاجهم.»

«هل تودُّ الدخول وتدخين سيجار حتى يأتي موعد زيارتك؟ إذا كنتَ تودُّ ذلك، يُمكنني أن أسير معك وأريك المنزل.»

قال رفيقي الجديد وهو يرمُقني بنظرةٍ فضولية عبر نظارته الطبية: «هذا كرم بالِغ من جانبك. أظنُّ أنني أودُّ الجلوس. التجوُّل في الشوارع هو نشاط مُمل لتمضية الوقت، وليس لديَّ مُتسع من الوقت للعودة إلى مسكني بمنطقة لينكولينز إن.»

قلت وأنا أقوده إلى الغرفة التي خرجت منها الآنسة أومان قبل قليل: «تُرى هل أنت السيد جيليكو؟»

التفت إليَّ بنظارته الطبية وهو يرمقني بنظرةٍ فاحصة ومُتشككة، وسألني قائلًا: «ما الذي جعلك تظن أنني السيد جيليكو؟»

«أوه، لأنك تعيش في لينكولينز إن وحسْب.»

«أها! فهمت. أنا أعيش في منطقة لينكولينز إن؛ والسيد جيليكو يعيش في لينكولينز إن؛ إذن أنا السيد جيليكو. ها! ها! منطق فاسد، ولكنْ استنتاج صحيح. أجل، أنا السيد جيليكو. ما الذي تعرفه عنِّي؟»

«القليل جدًّا، باستثناء أنك كنتَ وكيل أعمال الراحل جون بيلينجهام.»

««الراحل جون بيلينجهام» مرحى! كيف عرفتَ أنه الراحل جون بيلينجهام؟»

«في الواقع، لا أعرف، كل ما فهمته أن هذا هو اعتقادك الخاص.»

«فهمته! حسنًا، ممَّن فهمت ذلك؟ من جودفري بيلينجهام؟ ها! وكيف عرف ما أعتقده؟ لم أخبره بذلك قط؟ من الخطير جدًّا، يا سيدي العزيز، أن تُفشي معتقدات شخصٍ آخر.»

«إذن، أنت تعتقد أن جون بيلينجهام على قيد الحياة!»

«هل أعتقد ذلك فعلًا؟ من قال ذلك؟ لم أقل، كما تعرف.»

«لكن لا بدَّ أنه ميت أو حي.»

قال السيد جيليكو: «أنا أتفق معك هنا. لقد ذكرتَ حقيقة لا يمكن إنكارها.»

أجبته ضاحكًا: «رغم أنها ليست كاشفةً لشيء.»

ردَّ بحسم قائلًا: «الحقائق التي لا يمكن إنكارها عادةً لا تكون كاشفة. هي عُرضة لتكون حقائق عامة جدًّا. في الواقع، أؤكد لك أن حتمية الحقيقة الخاصة بافتراض مُعين تتناسب طرديًّا وبصفة مباشرة مع عموميتها.»

قلت: «أعتقد أن هذا هو الحال.»

«بالتأكيد. خُذ مهنتك مثالًا. افترض أن لدينا مليون شخصٍ طبيعي تحت سن العشرين، يمكنك أن تقول بثقةٍ إن أغلبيتهم سيموتون قبل بلوغ سنٍّ مُعينة، وسيموتون تحت ظروف معينة وبأمراض معينة. ثم خذ شخصًا واحدًا من المليون، ما الذي يمكنك أن تتوقعه بخصوصه؟ لا شيء. لعله يموت غدًا، ولعله يعيش مائتي عام. لعله يموت بنزلة بردٍ تؤثر على دماغه أو بتر إصبع أو السقوط من فوق برج كاتدرائية سانت بول. على وجه التحديد، لا يمكنك توقُّع شيء.»

قلت: «هذا صحيح تمامًا.» ثم أدركتُ أنه تم تشتيت انتباهي عن موضوع جون بيلينجهام، وغامرت بالعودة إلى الموضوع مرة أخرى.

«إنها مسألة غامضة جدًّا؛ أقصد اختفاء جون بيلينجهام.»

سأل جيليكو: «لماذا الغموض؟ الرجال يختفون من وقتٍ إلى آخر، وحين يظهرون مرة أخرى، فإن التفسيرات التي يُقدمونها (ذلك إذا قدَّموها من الأساس) تبدو مقبولة لا أكثر ولا أقل.»

«لكن الظروف كانت غامضة بلا أدنى شك.»

تساءل جيليكو: «أي ظروف؟»

«أقصد الطريقة التي اختفى بها من منزل السيد هيرست.»

«وما الطريقة التي اختفى بها من منزله؟»

«حسنًا، بالطبع، لا أعرف.»

«ولا أنا على وجه التحديد. وبالتالي، لا يمكنني أن أُبين ما إذا كانت الطريقة غامضة أم لا.»

علقتُ بدون انتباه وقلت: «ليس من المؤكد حتى أنه غادر المنزل.»

قال جيليكو: «بالضبط، وإذا كان لم يُغادر، فإنه لا يزال هناك. وإذا كان لا يزال هناك، فإنه لم يختفِ بالمعنى المفهوم. وإذا كان لم يختفِ، فإنه ليس هناك لغز.»

ضحكت من كل قلبي، ولكن ظلَّ السيد جيليكو محافظًا على ملامح مُتبلدة ووقورة وواصَل فحصه إيَّاي عبر نظارته الطبية (التي عاينتها وقدرتُ مقاسها بحوالي سالب خمسة ديوبتر). ثمَّة شيء مُسلٍّ جدًّا بخصوص هذا المحامي الحادِّ الطباع، بشراسته الجافة وحذَرِه الساخر. تحفُّظه البالغ شجعني لأُمطره بوابلٍ من الأسئلة الجديدة، وكلما كانت حمقاء، كان ذلك أفضل.

قلت: «أفترض أنه في ظل هذه الظروف، لن تُساند عرض السيد هيرست لتقديم التماسٍ بافتراض حدوث الوفاة؟»

تساءل قائلًا: «تحت أي ظروف؟»

«كنتُ أشير إلى الشك الذي أعربتَ عنه بخصوص ما إذا كان جون بيلينجهام ميتًا على أي حال.»

قال: «سيدي العزيز، لا أستطيع أن أفهم وجهة نظرك. لو كان من المؤكد أن الرجل على قيد الحياة، لكان من المُستحيل افتراض أنه ميت، ولو كان من المؤكد أنه مَيت، فإن افتراض الوفاة يظل مُستحيلًا أيضًا. لا يمكنك افتراض حقيقةٍ يقينية؛ الشك هو جوهر العملية.»

قلتُ في إصرار: «ولكن، إذا كنتَ تعتقد فعلًا أنه ربما يكون على قيد الحياة، ما كان ينبغي لي أن أظن أنك ستتولَّى مسئولية افتراض وفاته وتوزيع مُمتلكاته.»

قال السيد جيليكو: «لم أتولَّ أي مسئولية. أنا أتصرف وفقًا لقرار المحكمة وليس لديَّ خيار في هذه المسألة.»

«ولكن ربما تُقرر المحكمة أنه ميت ومع ذلك لعلَّه على قيد الحياة.»

«كلَّا البتة. إذا قررت المحكمة أنه على الأرجح ميت، إذن فهو على الأرجح ميت. ولعلَّه على قيد الحياة، حقًّا، في ظل ظرفٍ مادي غير ذي صِلة بالموضوع. ولكن من الناحية القانونية، ولأغراضٍ متعلقة بالوصية، هو ميت. لا شكَّ أنك لا تستطيع إدراك الفارق، أليس كذلك؟»

قلتُ مُعترفًا: «يؤسفني أن أعترف بذلك.»

«أجل، عادة ما لا يُدرك أبناء مِهنتك ذلك الأمر. وهذا ما يجعلهم شهودًا سيِّئين أمام أي محكمة قانونية؛ فوجهة النظر العلمية مُختلفة عن وجهة النظر القانونية اختلافًا جذريًّا. تجد أن رجل العلم يعتمد على معرفته الخاصة وملاحظته وحُكمه على الأمور، ولا يلتفتُ إلى الشهادة. أنت مثلًا يأتيك رجل ويُخبرك بأنه يعاني من العمى في عينٍ واحدة. هل تقبل شهادته؟ لا تقبلها مُطلقًا؛ وإنما تبدأ في فحص بصره باستخدام جهازٍ ذي عدسات ملونة، وتكتشف أنه يستطيع أن يرى جيدًا بكلتا العينين. ومِن ثَم تُقرر أنه لا يعاني من العمى، هذا يعني أنك ترفض شهادته لصالح الحقائق التي تأكدتَ منها.»

«ولكن هذه بالتأكيد طريقة عقلانية للتوصُّل إلى نتيجة.»

«لا شك هي كذلك من وجهة نظر العلم؛ ولكنها ليست كذلك من وجهة نظر القانون. لا بدَّ أن تقرر المحكمة وفقًا للأدلة المعروضة عليها، وهذه الأدلة لها طبيعة الشهادة المشفوعة بقسَم. إذا كان الشاهد على استعدادٍ ليُقسِم على أن الأسوَد هو أبيض بدون تقديم أدلة على العكس، فإن الأدلة المعروضة أمام المحكمة تقول إن الأسود هو أبيض وتُقرر المحكمة وفقًا لذلك. القاضي وهيئة المُحلفين ربما يعتقدون العكس — بمعنى أنه ربما يكون لديهم معرفة خاصة بالعكس — ولكنهم لا بدَّ أن يُقرِّروا وفقًا للأدلة.»

«هل تقصد أن تقول إنه سيكون لدى القاضي ما يُبرر إصدار حُكم يعلم أنه مُنافٍ للحقائق؟ أو لعله يحكُم على رجل يعرف أنه بريء؟»

«قطعًا. هذا يحدُث. ثمة قضية حكم القاضي فيها بإعدام رجلٍ وسمح بتنفيذ الحُكم، رغم أن القاضي رأى رجلًا آخر نفَّذ الجريمة؛ وهذا هو الالتزام بتطبيق الإجراءات إلى حدِّ التحذلُق.»

قلتُ له موافقًا الرأي: «حدث هذا بهدف الثأر، ولكن بالعودة إلى قضية جون بيلينجهام. لنفترض أنه بعد أن تُقرر المحكمة وفاته، يعود إلى قيد الحياة. ماذا بعد؟»

«أها! سيحين دوره ليقدِّم التماس، وبناء على الدليل المعروض أمام المحكمة، ستحكُم بأنه على قيد الحياة على الأرجح.»

«وفي الوقت نفسه ستكون مُمتلكاته قد تم توزيعها؟»

«ستُوزَّع على الأرجح. ولكنك ستلاحظ أن قرينة الوفاة نشأت من إجراءاته الخاصة. فإذا تصرَّف المرء بطريقة مُعينة ليُوحي بأنه ميت، فلا بدَّ أن يتحمَّل العواقب.»

قلت: «أجل، هذا منطقي بالقدْر الكافي.» ثم سألته بعد توقُّفٍ قصير: «هل ثمَّة أي احتمالات مباشرة للشروع في أي إجراءات من هذا النوع؟»

«فهمتُ مما قلتَه توًّا أن السيد هيرست كان يفكر في أخذ إجراءٍ ما من هذا النوع. لا شك أن لديك معلومات من جهاتٍ موثوق فيها.» هذه هي الإجابة التي قدمها السيد جيليكو بملامح جامدة، رامِقًا إيَّاي في ثبات تمثالٍ يرتدي نظارة طبية.

ابتسمتُ ابتسامةً واهنة. كانت عملية استنطاق السيد جيليكو أشبهَ بلعب رياضة الملاكمة مع حيوان النيص، لكونه نموذجًا رائعًا على قوة المقاومة السلبية. ورغم ذلك، صممتُ على بذل المزيد من الجهد، في رأيي، من أجل متعة مشاهدة مناوراته الدفاعية أكثر من التوقع بالخروج منه بشيء. ومن ثم، «فتحت» موضوع «الرفات».

سألته قائلًا: «هل تابعتَ الاكتشافات الرائعة لعظامٍ بشرية، التي ظهرت على صفحات الجرائد؟»

نظر إليَّ نظرةً جامدة لبضع لحظات، ثم ردَّ قائلًا:

«العظام البشرية هي ضمن اختصاصك أكثر من كونها اختصاصي أنا، ولكن طالما أنت تذكُر الموضوع، أظن أنني أتذكَّر قراءة شيءٍ عن مثل هذه الاكتشافات. أعتقد أنها عظام مُتفرقة.»

«أجل، من الواضح أنها أجزاء من جسدٍ مُقطع إلى أشلاء.»

«افترضتُ هذا. كلَّا، لم أتابع الروايات. وكلما تتقدَّم بنا الحياة تنزِع اهتماماتنا إلى الروتين، وروتيني الخاص مُرتبط بقوانين نقل الملكية. وهذه الاكتشافات من شأنها أن تكون أكثر من اهتمامات المحامي الجنائي.»

«أظنُّ أنك ربما ربطتَ بين هذا وبين اختفاء موكلك؟»

«ولماذا ينبغي عليَّ أن أفعل؟ وماذا تكون طبيعة الرابط بينهما؟»

قلت: «حسنًا، إنها عظام رجل ...»

«أجل، وموكلي رجل ذو عظم. بالتأكيد، هذا هو الرابط، رغم أنه ليس مُحددًا أو مميزًا جدًّا. ولكن ربما يخطر على بالك شيءٌ أكثر تحديدًا؟»

أجبتُ قائلًا: «خطر فعلًا؛ بدت لي حقيقة أن بعض العظام اكتُشفت في أرضٍ يمتلكها موكلك ذات أهمية بالغة.»

قال السيد جيليكو: «حقًّا؟» فكَّر مليًّا لبضع لحظات، وهو يُحدق بي في ثباتٍ لبعض الوقت، ثم تابع قائلًا: «لا أستطيع فهمك في هذا الصدد. بل يبدو الأمر بالنسبة إليَّ أن العثور على رفاتٍ بشَري في قطعة أرض مُعينة قد يُثير الشك المبدئي في مالك الأرض أو شاغلها باعتباره الشخص الذي قام بدفنها. ولكن الحالة التي تفترضها هي حالة من شأنها أن تكون مُستحيلة. لا يستطيع المرء أن يدفن أشلاءه المبتورة.»

«كلَّا، بالطبع لا. أنا لا أفترض أنه دفنها بنفسه، ولكن حقيقة أنها مدفونة في أرضه، تجعل ثمة رابط، بطريقةٍ ما، بينه وبين هذه الأشلاء.»

قال السيد جيليكو: «مرة أخرى، لا أستطيع فهمك، ما لم تكن تفترِض أنه من عادة القتَلة الذين يُشوهون الجثث أن يحرصوا على دفن الأشلاء المبتورة في أراضٍ يملكها ضحاياهم. وفي تلك الحالة، أشكُّ في حقائقك. أنا لا أُدرك وجود مثل هذه العادات. علاوة

على ذلك، يبدو أن جزءًا من الجثة فقط دُفن في أرض السيد بيلينجهام، أما الأجزاء المُتبقية فقد نُثرت على مساحةٍ شاسعة. إلى أي مدًى يتَّفق هذا مع فرضيتك؟»

صرَّحت قائلًا: «قطعًا، لا تتَّفِق. ولكن ثمة حقيقة أُخرى أظن أنك ستعترف بكونها أكثر أهمية. الأشلاء الأولى التي تم اكتشافها وُجدت في سيدكوب. وسيدكوب قريبة من إلثام؛ وإلثام المكان الذي شُوهد فيه السيد بيلينجهام على قيد الحياة آخِر مرة.»

«وما أهمية ذلك؟ لماذا تربط الأشلاء بمكانٍ واحد بدلًا من الأماكن الأخرى المختلفة التي وُجدت فيها أجزاء أخرى من الجثة؟»

أجبتُ وأنا أشعر بالارتباك الشديد من هذا السؤال وثيق الصلة بالموضوع قائلًا: «حسنًا، المظاهر تُوحي بأن الشخص الذي دفن هذه الأشلاء بدأ من عند ضاحية إلثام، حيث شُوهد الرجل المفقود.»

هزَّ السيد جيليكو رأسه قائلًا: «يبدو أنك تخلط بين الترتيب الزمني للدفن والترتيب الزمني للاكتشاف. ما الدليل على أن الأشلاء التي عُثر عليها في سيدكوب دُفنت قبل تلك الأشلاء التي عُثر عليها في أماكن أخرى؟»

قلتُ مصرِّحًا: «لا أعرف أنَّ هناك أماكن أخرى.»

قال: «إذن، لا أرى كيف تدعم فرضيتك بأن الفاعل بدأ من ضاحية إلثام.»

وبعد تفكيرٍ في الأمر، كنتُ مضطرًّا للاعتراف بأنه ليس لديَّ ما يدعم نظريتي؛ وبما أني أطلقتُ سهمي الأخير في هذه المسابقة غير المتكافئة، فقد ظننتُ أنه حان الوقت لتغيير الموضوع.

قلت: «زرتُ المتحف البريطاني أمس، وألقيتُ نظرة على الهدية الأخيرة التي قدمها السيد بيلينجهام إلى الأمة. لقد عُرضت المُقتنيات على نحوٍ جيد جدًّا في نافذة عرض رئيسية.»

«أجل، سعدتُ جدًّا بالموقع الذي خصَّصوه للعرض، ولا بدَّ أن صديقي المسكين كان سيسعد بالشيء نفسه. تمنَّيت وأنا ألقي نظرةً على نافذة العرض أن يكون بإمكانه أن يراها. ولعلَّه يفعل على أي حال.»

قلتُ بنبرة مُخلصة، ربما أكثر ممَّا يشيد به المحامي لصالحي: «حتمًا آمُل أنه سيفعل؛ نظرًا لأن عودة جون بيلينجهام من شأنها أن تفرج كربات صديقي جودفري بفعاليةٍ كبيرة.» ثم أضفتُ قائلًا: «أنت مُهتم جدًّا بعلم الآثار المصرية، أليس كذلك؟»

أجاب السيد جيليكو بحيويةٍ أكثر مما كنتُ أظنها مُمكنةً لوجهه الخالي من التعبيرات قائلًا: «مُهتم للغاية؛ إنه موضوع مذهل، أقصد دراسة مثل هذه الحضارة المهيبة، والعودة إلى طور طفولة الجنس البشري، تحفظها الأبدية لكي ندرُس آثارها التي لا تتغير، وكأن الزمن عجز عن تغييرها وأبقاها حتى عصرنا الحالي. كل شيء مرتبط بمصر يزخَر بهيبةٍ مثيرة للإعجاب. ينتشر في ربوعها شعور بدوامٍ واستقرارٍ يتحدَّى الزمن والتغيير. المكان والأشخاص والآثار، على حدٍّ سواء، تبعث في النفس معاني الخلود.»

أدهشتني كثيرًا هذه البلاغة المنهمرة من جانب هذا المحامي المُتحفِّظ في كلامه والجاف في ردوده. ولكن أعجبتُ كثيرًا بهذا الحماس الذي جعله يُظهِر الجانب الإنساني منه، وعزمتُ على متابعة الحديث عن هوايته.

قلت: «أجل، لا بدَّ أن الناس تغيَّروا على مدى قرون.»

«أجل، حدث ذلك. الشعب الذي حاربَ ضدَّ قمبيز لم يكن الجنس نفسه الذي سار إلى مصر قبل خمسة آلاف سنة مضت؛ الأسرة الحاكمة التي نرى صورها على الآثار القديمة؛ ففي تلك القرون الخمسة، لا بدَّ أن دماء الهكسوس والسوريين والإثيوبيين والحيثيين، والله أعلم بعدد السلالات الأخرى، امتزجتْ مع دماء قدماء المصريين. ورغم ذلك، استمرت الحياة القومية دون انقطاع؛ الثقافة القديمة أضافت إلى الشعوب الجديدة، والغرباء المهاجرون صاروا في النهاية مصريين. إنها ظاهرة رائعة. وبالنظر إلى الأمر من منظور وقتنا الحالي، يبدو أنه أشبه بحقبةٍ جيولوجية أكثر من كونها تاريخ حياة أمةٍ واحدة. هل أنت مُهتم بالموضوع من الأساس؟»

«أجل، قطعًا، رغم أنني أجهله تمامًا. الحقيقة أن اهتمامي زاد مُؤخرًا جدًّا. لم أدرك بريق الآثار المصرية إلا مؤخرًا.»

«ربما منذ أن تعرَّفت على الآنسة بيلينجهام!» قال السيد جيليكو تلميحَه هذا بوجهٍ ثابت كتمثالٍ مصري قديم.

أظنُّ أن وجنتيَّ احمرَّتا خجلًا — بالتأكيد شعرتُ بالاستياء من الملاحظة — لأنه واصل حديثه بالنبرة الهادئة نفسها قائلًا: «ألمحتُ إلى هذا لأني أعرف أن لديها اهتمامًا بارعًا بهذا الموضوع. في الواقع هي على دراية واسعة بالموضوع.»

«أجل، يبدو أنها تعرف الكثير عن الآثار المصرية. ولعلِّي أعترف أيضًا بأن تخمينك كان في محله. إنها هي التي أرتني مجموعة مُقتنيات عمِّها.»

قال السيد جيليكو: «كما افترضت، ويا لها من مجموعةٍ مفيدة للغاية، بالمفهوم الدارج؛ مناسبة جدًّا للعرض في مُتحفٍ عام، رغم أنها لا شيء فيها يُثير الاهتمام الاستثنائي بالنسبة إلى الخبراء. أثاث المقبرة ذو نوعية ممتازة والصندوق الكرتوني للمومياء ذو تصميمٍ جيد ومُزخرف بدقة بالِغة.»

«أجل، أظنُّ أنه رائع جدًّا. ولكن هل يمكنك أن تشرح لي لماذا، بعد تكبُّد كل هذا العناء من أجل زخرفته، ينبغي عليهم أن يُشوِّهوه بكل هذه الطبقات من مادة القار؟»

قال السيد جيليكو: «أها! هذا سؤال مُثير للاهتمام حقًّا. ليس من المُستغرَب أن تجد صناديق المومياوات مُلطخة بمادة القار؛ ثمة مومياء لقسيسةٍ موجودة في قاعة العرض المجاورة مُغطاة بالكامل بمادة القار باستثناء قناع الوجه الذهبي. مادة القار هذه وُضعت لغرضٍ مُعين؛ بغرَض طمس النقوش، وبالتالي إخفاء هوية المُتوفَّى عن السارقين ونابشي القبور. وثمة شيء غريب في هذه المومياء الخاصة بسبك حتب. من الواضح، أنه كان هناك نية لمحو النقوش؛ الظهر بأكمله كان مُغطًّى بطبقةٍ سميكة من القار، وكذلك القدمان. بيد أن العاملين بدَوا كأنهم غيَّروا رأيهم وتركوا النقوش والزخارف كما هي. والسبب وراء أنهم عزموا على تغطيتها، والسبب وراء بدئهم ثم تركهم جزءًا فقط منها مُغطًّى، بمثابة لغز. عُثر على المومياء في مقبرتها الأصلية وبحالتها المثالية، بقدْر ما يهمُّ سارقي المقابر. كان بيلينجهام المسكين في حيرةٍ كبيرة حيال التفسير المُحتمل لهذا.»

قلت: «الحديث عن مادة القار ذكرني بسؤالٍ خطر على بالي. كما تعرف هذه المادة يستخدمها عددٌ كبير من الرسَّامين المعاصرين وهي ذات طبيعة خطيرة للغاية؛ أعني أنها تميل لأن تسيل، بدون أي سببٍ واضح، بعد فترة طويلة من جفافها.»

«أجل، أعرف ذلك. أليس هناك قصة عن صورةٍ رسمَها راينولدس باستخدام مادة القار؟ صورة بورتريه لسيدة، على ما أظن. تلدَّنت مادة القار، وسالت إحدى عيني السيدة على وجنتها، واضطرُّوا إلى تعليق الصورة بالمقلوب لتبقى دافئة حتى تعود العين إلى وضعها مرةً أخرى. ولكن ما هو سؤالك؟»

«كنت أتساءل ما إذا كان الفنانون المصريون عرفوا أن مادة القار تسيل بعد هذا الفاصل الزمني الكبير.»

«أجل، أظن أنَّ الأمر كذلك. لقد سمعتُ عن نماذج سالت فيها طبقات القار تحت ظروفٍ معينة وصارت لزجةً للغاية. ولكن، ليرحمني الرب! ها أنا أثرثر معك وأُهدر وقتك، وقد اقتربت الساعة من التاسعة إلا الربع!»

قام ضيفي بسرعة، وكذلك قمت، مُعتذرًا له كثيرًا عن احتجازه، وأقدمتُ على الوفاء بوعدي لإرشاده إلى وجهته. وبينما انطلقنا معًا إلى وجهتنا تلاشى بريق مصر بدرجات، وحين صافح يدي بصلابةٍ عند بوابة منزل آل بيلينجهام، اختفى مرَحُه وحماسه تمامًا، مُتقمِّصًا شخصية المحامي المتحفظ في كلامه، الجاف في ردوده، الصموت والمتشكك بدرجة كبيرة.

الفصل العاشر

الاتفاق الجديد

قدم «المعجمي الشهير» — الوصي الأمين على مسكني المختار — للجيل القادم المُرتعد تعريفًا لفعل الأكل، الذي يمكن تخيُّله كغولٍ يعاني عُسر هضم. «يأكل: يلتهم بالفم» وهذه نظرة صادمة لمثل هذه الوظيفة اللطيفة: إنها نظرة مُتهكمة وفظة ولا يمكن التغاضي عنها بسبب دقتها. لأنه على أي حال هذا ما يعنيه الأكل، إذا كان على المرء أن يُعبر عنه بمثل هذه الوحشية الفظة. ولكن إذا كان «ابتلاع المواد الغذائية» — لندخل تغييرًا معاصرًا على الصيغة القديمة — في حدِّ ذاته هو عملية للوصول إلى إشباع شهوة جسدية، فممَّا لا يمكن إنكاره أن ينشأ عن هذا رابط مقبول إلى حدٍّ كبير بظواهر نفسية أكثر.

وهكذا بينما ينعكس ضوء المصباح، مدعومًا بضوء شموع الزينة، على المائدة الصغيرة الموجودة في حجرة الطابق الأول المطلة على حارة فيتر — وقد أُسدِلت الستائر الآن فقط — كانت المحادثة ودودةً ومبهجة جدًّا في صُحبة الحركة المستمرة للشوك والسكاكين وأصوات تخبُّط الكئوس والصوت المبهج لصبِّ الخمر من القوارير. وفي المقابل، كانت المناسبة لواحدٍ منَّا، على الأقل — أقصد جودفري بيلينجهام — احتفالًا غير مألوف وقد أحدث استمتاعه الصبياني بالمناسبة البسيطة إيحاءاتٍ مثيرة للشفقة تظهر في أوقاتٍ عصيبة، ولم يكن هناك تذمُّر على الرغم من أنها كانت محسوسةً بشكلٍ قوي.

انتقل بنا الحديث من موضوع لآخر، وقد انحسر بشكلٍ أساسي في أمور فنية، ولم يتطرق أبدًا، ولو لدقيقةٍ واحدة، للموضوع الشائك المُتعلق بوصية جون بيلينجهام. لقد انتقل الحديث من هرم سقارة المُدرج وأحجاره المزدانة برسومات زاهية إلى أرضيات كنائس العصور الوسطى، ومن هذا الموضوع إلى المشغولات الخشبية في العصر الإليزابيثي والأواني الخزفية المتبقية من الحضارة الميسينية وحتى الفنون الصناعية للعصر الحجري وحضارة الأزتيك. لقد بدأت أشك أن صديقيَّ القانونيَّين قد انجرفا مع الحديث لدرجة

أنهما نسِيا الغرض السري من اللقاء، فقد وُضِعت الحلوى على المائدة (وضعتْها السيدة جامر بأسلوب شخصٍ أفجَعَه فقدان عائلِه يوزِّع فطائر اللحم في الجنازة) ولا زال الحديث خاليًا من أي إشارة إلى «القضية». ولكن بدا أن كل ما يفعله ثورندايك هو أنه يمارس لعبة الانتظار، فهو يترك الودَّ ليتعمَّق ويزداد خلال الحديث بينما يُراقب الفرصة ليغتنمها. وقد جاءت الفرصة، في الوقت نفسه الذي اختفت فيه السيدة جامر كطيفٍ بصينيةٍ من الأطباق والأكواب.

قال السيد بيلينجهام: «إذن كان لديك زائر الليلة الماضية يا دكتور، أعني صديقي جيليكو. لقد أخبرَنا أنه رآك، وكم هو فضولي بشأنك. فلم أرَ جيليكو فضوليًّا إلى هذا الحدِّ من قبل. ما رأيك فيه؟»

«عجوز ظريف. لقد وجدتُه مُسليًا إلى حدٍّ كبير. لقد سلَّى أحدنا الآخر لفترةٍ طويلة بالأسئلة المتبادلة والإجابات الملتوية؛ لقد كنتُ أُظهر فضولًا شديدًا، وكان يتَّخذ موقفًا دفاعيًّا مُبديًا جهلًا عامًّا. لقد كان لقاءً شديد المراوغة.»

علقَت الآنسة بيلينجهام: «لم يكن في حاجةٍ إلى أن يكون كتومًا إلى هذا الحد، فالعالَم كله سيبتهج بمعرفة شئوننا عما قريب.»

قال ثورندايك: «إنهم إذن يقترحون رفع القضية إلى المحكمة؟»

ردَّ السيد بيلينجهام: «نعم، لقد أتى جيليكو ليُخبرني أن ابن عمي هيرست قد أعطى توجيهات لُحامِيه أن يُقدِّموا الالتماس وليدعُوني للانضمام له. في الواقع لقد جاء ليُسلمني إنذارًا نهائيًّا من هيرست، ولكن لم يكن عليَّ أبدًا أن أُعكر صفو انسجامنا في هذه المناسبة بهذه الخلافات القانونية.»

سأله ثورندايك: «لماذا لا يجب عليك ذلك؟ لماذا يُمنع التحدُّث في موضوع كلُّنا مُهتمون به بشدة؟ أنت لا تُمانع التحدث معنا بشأنه، أليس كذلك؟»

«لا، بالطبع. ولكن ماذا تظن برجلٍ يقاطع طبيبًا في حفل عشاء ليسرد عليه قائمةً من الشكاوى والأمراض؟»

«هذا يعتمد على شكواه، فإذا كان يُعاني من عُسر هضم مزمن ويريد الحديث عن مزايا الأقراص الأرجوانية لدكتور سنافلر للأشخاص كثيري البثور، فإنه سيكون مُملًّا. أما إذا كان يعاني من بعض الأمراض النادرة مثل داء المِثقبيَّات أو ضخامة الأطراف، فسيَسعَد الطبيب بالاستماع إليه.»

سألت الآنسة بيلينجهام: «هل نفهم من ذلك أننا نُمثل مكسبًا نادرًا بالمعنى القانوني؟»

فرد ثورندايك: «بالطبع؛ فقضية جون بيلينجهام تعدُّ قضية فريدة من نوعها في العديد من جوانبها، وسيُتابعها المختصُّون باهتمامٍ كبير بصفة عامة، واختصاصيو الطب الشرعي بصفةٍ خاصة.»

ردَّت الآنسة بيلينجهام: «كم يجب أن يكون هذا الأمر مُفرحًا بالنسبة لنا! فربما اكتسبنا شهرةً أبدية في الكتب والمقالات؛ ومع ذلك لا يتملَّكنا الغرور بسبب أهميتنا.»

قال والدها: «لا، لسنا بحاجة إلى الشهرة مُطلقًا، وكذلك هيرست أيضًا، على ما أظن. هل أخبرك بيركلي بالعرض الذي تقدَّم به؟»

ردَّ ثورندايك: «نعم، وقد استنتجتُ مما قلتَه أنه أعاده ثانية.»

«نعم، لقد أرسل لي جيليكو ليمنحني فرصةً أخرى، ولقد مِلتُ للموافقة، ولكن ابنتي كانت تُعارض بقوةٍ أي مساومة، وربما هي مُحقَّة. على أي حال، هي مُهتمة بالأمر أكثر منِّي.»

سأله ثورندايك: «ماذا كان رأي السيد جيليكو؟»

«أوه لقد كان حريصًا ومُتحفظًا للغاية، ولكنه لم يُخفِ شعوره بأنه يجب أن أكون حكيمًا لأقبل الأمر بدلًا من إحداث إشكاليةٍ كبيرة حول الثروة. فهو بالتأكيد يودُّ لو أوافق لأنه يرغب بالطبع في تسوية الأمر والحصول على إرثه.»

«ولكنك بالتأكيد رفضت؟»

«نعم، بكل تأكيد؛ ولذلك قدَّم هيرست التماسًا بافتراض الوفاة وإثبات الوصية، وسيُسانده جيليكو، فهو يقول إنه ليس أمامه خيار آخر.»

«وأنت؟»

«أعتقد أنني سأطعن في الدعوى، على الرغم من أنني لا أعرف على أي أساسٍ سأفعل ذلك.»

قال ثورندايك: «قبل أن تتخذ خطواتٍ مُحددة، لا بدَّ أن تفكر في الأمر جيدًا. فأنا أفهم من كلامك أنك ليس لديك الكثير من الشكِّ في وفاة أخيك. وإذا كان ميتًا فإن أي فائدة ستعود عليك بناء على الوصية ستكون مشروطةً بافتراض الوفاة السابق أو دليل الوفاة. ولكن ربما استشرتَ أحدًا!»

«لا، لم أفعل. فكما أخبرك صديقنا الطبيب على الأرجح، فإنَّ مواردي — أو انعدامها — لا تُفصح أبدًا عن أنني حصلتُ على أي نصيحة مهنية. وهذا هو السبب وراء حساسيتي في التحدُّث معك بشأن القضية.»

«إذن، أنت تطلُب تسيير القضية بنفسك؟»

«نعم، إذا كان ضروريًّا أن أحضر في المحكمة، وأفترض أنَّ هذا سيحدُث إذا ما طعنتُ في الدعوى.»

فكر ثورندايك لدقائق قليلة، ثم قال في قلقٍ بالغ:

«من الأفضل لك سيد بيلينجهام ألا تحضر في المحكمة بمُفردك لتسيير الدعوى، للعديد من الأسباب؛ أولًا، لا بدَّ أن السيد هيرست سيُوكل مُحاميًا بارعًا، وستجد نفسك غير قادر على مواجهة الأمور المفاجئة للطعن في المحكمة، وسيُناورونك بدهاء، ثم إن هناك قاضيًا ستَمثُل أمامه.»

«ولكن بالتأكيد يمكن أن يعتمد المرء على قاضٍ يتعامل بشكل عادل مع رجل لا يستطيع توفير نفقات محامٍ أو استشاري؟»

«بلا شك، فإن القُضاة كقاعدة عامة يمنحون كل المساعدة والتفهُّم للمدعي الذي لا يُوكِّل مُحاميًا. فالقضاة الإنجليز بشكلٍ عام لديهم عقلية كبيرة وإحساس عميق بمسئولياتهم الكبيرة. ولكن لا يمكنك أن تعتمد على الاحتمالات، فلا بد أن تأخذ في اعتبارك الاستثناءات؛ فالقاضي كان في الأساس مُحاميًا، وربما يأتي إلى موقعه كقاضٍ ببعض الانحيازات المهنية الخاصة بالمُحامين. فإذا وضعتَ في اعتبارك الرخصة السخيفة التي تُمنح للمُحامين في تعاملهم مع الشهود، والموقف العدائي الذي يتبنَّاه بعض القضاة تجاه رجال العلم والطب الذين يُقدمون أدلتهم، فإنك سترى أن العقل القضائي لا يكون عادلًا دائمًا بالدرجة التي يتمنَّاها المرء، خاصة عندما تضع في اعتبارك الامتيازات والحصانات التي توفرها المهنة. ولذلك فحضورك بمفردك لتسيير القضية لا بدَّ أنه سيُسبِّب إرباكًا للمحكمة، فجهلك بالإجراءات والتفاصيل القانونية سيُسبب بعض التأخير، وإذا صادف أنَّ القاضي كان رجلًا مُزعجًا فإنه قد يستاء من هذا التأخير والإرباك، ولا أقول إن ذلك سيؤثر على قراره — فأنا لا أعتقد ذلك — ولكنني مُتأكد أنه من الحِكمة أن نتجنَّب التسبُّب في أي ضِيق للقاضي. وعلاوة على كل ذلك، فإنه من الأفضل أن تكون قادرًا على تتبُّع أي مناورة من جانب مُحامي الخصم والرد عليه، وهذا بالطبع قد لا تقدِر أنت على فعله.»

قال بيلينجهام بابتسامةٍ عابسة: «هذه نصيحة رائعة يا دكتور ثورندايك، ولكنني يؤسفني أنه سيتعيَّن عليَّ أن أقتنص فُرصتي.»

قال ثورندايك: «ليس بالضرورة، سأقدم لك عرضًا بسيطًا، حيث سأطلب منك أن تفكر في الأمر بلا أي تحيُّز كتسويةٍ متبادلة؛ كما ترى، فإن قضيتك ذات أهميةٍ استثنائية، وستُصبح قضيةً مشهورة كما تنبَّأت الآنسة بيلينجهام؛ ونظرًا لأنها تقع داخل نطاق تخصُّصي، فإنه سيكون من الضروري بالنسبة لي أن أُتابع أدقَّ تفاصيلها. والآن من الملائم كثيرًا بالنسبة لي أن أدرسها من داخلها وليس من خارجها، ناهيك عن المجد الذي سيُنسَب إليَّ إذا استطعتُ أن أُسيِّر القضية بنجاح. ولذلك فأنا أطلب منك أن تضع قضيتك بين يديَّ وتجعلني أرى ما يمكن فعله حيالها. أنا أعرف أن هذه طريقة غير تقليدية ليتخذها رجل مِهني مِثلي، ولكنني أعتقد أنها ملائمة في ظل هذه الظروف.»

فكر السيد بيلينجهام في صمتٍ وبعد أن ألقى نظرةً سريعة على ابنته، بدأ يتحدَّث في تردُّدٍ نوعًا ما: «هذا كرم كبير منك دكتور ثورندايك ...»

قاطعه ثورندايك: «عفوًا، الأمر ليس كذلك، فدوافعي التي فسَّرتُها للتوِّ دوافع أنانية ببساطة.»

أطلق السيد بيلينجهام ضحكةً مُتوترة، ونظر ثانيةً إلى ابنته التي، على الرغم من ذلك، كانت تُتابع عملها في تقشير ثمرة كمثرى بهدوء متعمد دون حتى أن ترفع عينَيها. وعندما لم يحصل على أي مساعدة منها قال: «هل تعتقد أن هناك أي احتمالٍ لتكون القضية ناجحة؟»

«أجل، احتمال بعيد، وأخشى أن يكون بعيدًا جدًّا في ظل الظروف الحالية؛ ولكن لو كنتُ أرى أن القضية مؤكدة الخسارة، لنصحتُك بأن تتنحَّى جانبًا وتترك الأحداث تأخذ مجراها.»

«وعلى افتراض أن القضية ستنتهي كما نريد، هل تسمح لي أن أسوِّي أتعابك بالطريقة العادية؟»

أجاب ثورندايك: «لو كان الأمر بيدي، لوافقتُ بكل سرور. ولكن الأمر ليس بيدي. فمَوقفي المهني غير مُواتٍ على الإطلاق بالنسبة لمارسة التقصِّي. ربما تتذكر الشركة المشهورة دودسون آند فوج التي جنت الكثير من الأرباح ولكن القليل من المجد. ولكن لماذا نناقش أُمورًا من هذا النوع لم يأتِ أوانها؟ فإذا حققتُ النجاح لقضيتك، أكون قد قدمتُ مكسبًا كبيرًا لنفسي. فكلٌّ منَّا سيفيد الآخر بشكل متبادل. أرجو الدعم منكِ آنسة بيلينجهام. لقد جلسنا معًا ناهيك عن فطائر الحمام والكعكات الأخرى. ألن تدعميني، وفي الوقت نفسه تُسدين معروفًا للدكتور بيركيلي؟»

«لماذا، هل الدكتور بيركلي مُهتم بقرارنا؟»

«بالطبع، كما ستفهمين عندما أُخبرك أنه حاول بالفعل أن يرشُوَني سرًّا من نقوده الخاصة.»

سألت وهي تنظر إليَّ بتعبيرٍ يُهدِّدني: «هل فعلت؟»

جاوبتُ وأنا أشعر بالحرج الشديد والتوتُّر، وأتمنَّى أن يذهب ثورندايك للجحيم بصراحته هذه: «حسنًا ليس بالضبط، لقد ذكرتُ فقط أن نفقات الـ... المُحامين كما تعرفين وهذا النوع من الأمور ... ولكنك لستِ في حاجة لتوبيخي آنسة بيلينجهام؛ فالدكتور ثورندايك فعل كل ما يلزم فيما يخصُّ ذلك.»

استمرَّت تُحدق فيَّ بينما أسرد أعذاري ثم قالت: «لا لن أفعل، أنا أفكر فقط في أن الفقر له ما يُعوِّضه. لقد كنتَ كريمًا دائمًا معنا، ومن جانبي يجب أن أقبل العرض الكريم الذي قدَّمَه الدكتور ثورندايك بكل امتنانٍ وأشكره على أنه سهَّل علينا الأمر كثيرًا.»

قال السيد بيلينجهام: «حسنًا جدًّا يا عزيزتي، سوف نستمتع بالجانب الحلو من الفقر كما قلتِ — لقد جرَّبنا النوع الآخر من الأشياء بِحُرية كبيرة — وكذلك سنبتهج بقبول هذه اللفتة الكريمة التي قَدَّمتِ بشكلٍ رقيق للغاية.»

قال ثورندايك: «شكرًا لك، لقد أثبتِ لي صحة إيماني بك آنسة بيلينجهام وبتأثير حُسن ضيافة الدكتور بيركلي. وأتفهَّم أنكم تضعون أموركم تحت تصرُّفي؟»

ردَّ السيد بيلينجهام: «بشكلٍ كامل ومع جزيل الشكر، ونحن نوافقك مُسبقًا على أي إجراءٍ تراه أفضل لمصلحتنا.»

قلت: «إذن، لنشربَ نخبَ نجاح القضية. شراب البورت، إذا سمحتِ آنسة بيلينجهام؛ الخمر ليست مُدرجة في مُناسبتنا، ولكنها رائعة؛ فهي وسيلة ملائمة من أجل توطيد الصداقة.» ملأتُ كأسها وعندما انتهيتُ من ملء كئوسنا وقفْنا وشربنا نخبَ هذا الاتفاق الجديد.

قال ثورندايك: «هناك شيء واحد أودُّ قوله قبل أن نُغلق الموضوع في الوقت الحالي: من المُفيد لنا أن نُعين مستشارًا خاصًّا؛ فعندما تتسلَّم إخطارًا رسميًّا من مُحامي السيد هيرست بأن الدعوى قد رُفعت، يمكنك أن تُحيله إلى السيد مارشمونت من جرايز إن، الذي سيُمثِّلك بشكلٍ صوري؛ فهو لن يفعل شيئًا في الواقع، ولكن لا بدَّ أن نحبُك قصة أنَّ هناك مُحاميًا يوجهني. وفي هذه الأثناء وحتى تُعرض القضية أمام المحكمة، أعتقد أنه

من الضروري للغاية ألا يعلم السيد جيليكو أو أي شخصٍ أنني ذو صِلة بالأمر. يجب أن نُبقي هذا الأمر سرًّا قدر استطاعتنا.»

قال السيد بيلينجهام: «سيكون اتفاقنا سرًّا كأسرار القبور. وفي الواقع، سيكون هذا الأمر سهلًا للغاية، لأنه يصادف، وهذا من الصُّدف العجيبة، أنني على معرفةٍ بالفعل بالسيد مارشمونت. لقد مثل ستيفن بلاكمور، بالطبع تذكُرُه، في تلك القضية التي كشفتها على نحوٍ رائع؛ فأنا أعرف عائلة بلاكمور.»

قال ثورندايك: «أتعرفه حقًّا؟ يا له من عالَمٍ صغير. ويا لها من قضية شهيرة! فالتعقيدات والجوانب المتداخلة للقضية جعلتْها مُثيرة للاهتمام على نحوٍ كبير؛ كما أنها كانت مهمةً بالنسبة لي من ناحيةٍ أخرى، لأنها كانت واحدة من أوائل القضايا التي عملتُ فيها مع الدكتور جيرفيس.»

علق جيرفيس قائلًا: «نعم، وكم كنتُ مساعدًا مُفيدًا، على الرغم من أنني اكتشفتُ حقيقةً أو اثنتَين بالصدفة. وبالمناسبة، لقد كانت قضية بلاكمور بها نقاط مشتركة مُعينة مع قضيتك سيد بيلينجهام؛ فقد كان هناك اختفاء وثروة مُتنازَع عليها، كما كان الرجل المُختفي باحثًا وخبير آثار.»

قال ثورندايك: «القضايا في مجالنا تميل إلى أن تحتوي نقاط تشابُه عامة معينة.» وبينما كان يتحدَّث وجَّهَ نظرةً حادة خاطفة لمساعده، وقد فهمتُ مغزاها جزئيًّا عندما غيَّر الموضوع فجأة.

«إن تقارير الصحف حول اختفاء أخيك، يا سيد بيلينجهام، مليئة بالتفاصيل على نحوٍ ملحوظ. حتى إن هناك مخططًا مُفصلًا لمنزلك ومنزل السيد هيرست. هل تعرف مَن أمدَّ الصحف بهذه المعلومات؟»

ردَّ السيد بيلينجهام: «لا، لا أعرف. لم أمنحهم أي تفاصيل؛ فقد جاء لي بعض الصحفيين للحصول على بعض المعلومات، ولكنني طردتُهم، وكذلك فعل هيرست حسب ظني. وبالنسبة لجيليكو فهو شخص كتوم للغاية.»

قال ثورندايك: «حسنًا، فرجال الصحافة لديهم طرُق مُريبة في الحصول على المعلومات، ولكن لا بدَّ أنَّ هناك من منحَهم وصفَ أخيك وهذه المُخططات، ومن المُثير للاهتمام أن نعرف من هو، ولكننا لا نعرفه. والآن، لنُنهِ هذه المواضيع القانونية مع تقديم اعتذارنا على فتحها من البداية.»

فقلت: «وربما علينا أن ننتقل إلى ما نطلق عليها غرفة الجلوس — إنها وكر بيرنارد — ونترك الخادمة لتُنظف هذه البقايا.»

انتقلنا إلى حجرة مُبهجة بالية الأثاث، وعندما قدَّمت السيدة جامر القهوة بخضوعٍ كئيب (كمَنْ يقول: «إذا شربتَ هذا الشيء الذي أعتقد أنه لا بدَّ أن تشربه، فلا تلُمني على العواقب».) أجلستُ السيد بيلينجهام على كرسي بيرنارد المفضل، وهو كرسي مُريح مائل إلى أحد جانبيه، ومقعده منخفض بشدة بشكلٍ يوحي بأن من يستخدِمُه عادةً هو فيل قليل الحركة، وفتحنا البيانو الصغير.

قلت: «أتساءل ما إذا كان يمكن أن تعزف لنا الآنسة بيلينجهام بعضَ المُوسيقى؟»

فأجابت مُبتسمة: «أتساءل ما إذا كانت ستستطيع؟» وأكملت: «هل تعرفون؟ لَم ألمس بيانو منذ عامين تقريبًا! ستكون تجربةً مشوقة بالنسبة لي؛ ولكن إذا فشلتُ فأنتم من سيُعاني. لا بدَّ أن تحسموا أمركم.»

قال السيد بيلينجهام: «رأيي هو: لنُجرِ التجربة. ولن أُكمل الاقتباس لأنه ربما فيه إهانة لبيانو السيد بيرنارد. ولكن قبل أن تبدئي يا روث، هناك شيء آخر يزعجني وأريد أن أتخلص منه حتى لا يعكر صفوي فيما بعد.»

توقَّفَ لبرهةٍ وأنظارنا جميعًا معلقة به في ترقُّب.

قال: «أعتقد، يا دكتور ثورندايك، أنك تقرأ الجرائد؟»

ردَّ ثورندايك: «لا، ولكنني أطَّلع على محتواها لأهدافٍ مهنية بحتة.»

قال السيد بيلينجهام: «إذن، ربما صادفتَ بعض الأخبار عن اكتشاف بقايا جثة بشرية، ومن الواضح أنها أجزاء لجسدٍ مُشوَّه.»

«نعم، لقد صادفَني بعض التقارير ووضعتُها في ملف خاص كمرجعٍ مستقبلي.»

«بالضبط، والآن لم يعُد ضروريًّا بالنسبة لي أن أُخبرك أنَّ هذه البقايا — وهي بقايا مُشوَّهة لشخصٍ مسكين قُتل؛ حيث لا يُوجَد مجال للشك في ذلك — تبدو ذات دلالةٍ كبيرة بالنسبة لي. ستفهم ما أعنيه، وأريد أن أسألك ما إذا ... ما إذا كانت لها دلالة مُماثلة بالنسبة لك؟»

توقَّف ثورندايك لبرهةٍ قبل أن يُجيب وهو يركز عينَيه على الأرض، ونحن جميعًا ننظر إليه في ترقُّب.

ثم تحدَّث بإسهاب: «من الطبيعي جدًّا أن تربط بين هذه البقايا وبين لغز اختفاء أخيك. أودُّ أن أقول إنك مُخطئ في ذلك؛ ولكن حينها سأكون كاذبًا؛ فهناك حقائق مُعينة تُوحي بلا أدنى شكٍّ أن هناك علاقة، وحتى اللحظة الحالية لا تُوجَد حقائق مؤكدة تدلُّ على النقيض.»

تنهَّد السيد بيلينجهام في عُمقٍ وعدل جلسته في ضيق.

قال بصوت منخفض: «هذا أمر فظيع! فظيع! هل تمانع دكتور ثورندايك في إخبارنا كيف يبدو الأمر من وجهة نظرك؛ ما الاحتمالات، المُؤيِّدة والمُعارضة؟»

مرة أخرى فكَّر ثورندايك قليلًا، وقد بدا لي أنه لا يرغب في مناقشة الموضوع. ولكن السؤال طُرح بشكلٍ واضح ومُحدَّد، فأجاب في النهاية:

«في المرحلة الحالية من البحث، ليس من السهل ترجيح الاحتمالات، فالأمر لا يزال مجرد تكهنات، فالعظام التي تم العثور عليها حتى الآن (لأننا نتعامَل مع هيكلٍ عظمي وليس جسدًا) كانت كلها من نوعيةٍ غير مفيدة في تحديد الهوية الشخصية، وهذا في حدِّ ذاته يُعدُّ حقيقة غريبة لافتة للنظر. ولكن الخصائص والأبعاد العامة للعظام تُوحي بأنها لرجلٍ في منتصف العمر وفي نفس طول أخيك، كما أن تاريخ دفن هذه العظام يتوافق مع تاريخ اختفائه.»

فسأل السيد بيلينجهام: «هل تاريخ دفن هذه العظام معروف إذن؟»

«في حالة هذه العظام التي وجدت في سيدكوب يُمكن أن نتوصَّل إلى تاريخ تقريبي. فأحواض زراعة نبات البقلة المائية تم تنظيفها منذ عامين، ومِن ثَم لا يُمكن أن تكون هذه العظام موجودة هناك منذ فترة أطول من ذلك. كما أن حالة العظام تُوحي بأن مدة دفنها هناك لا تقلُّ عن عامين، لأنه لا تُوجَد أي آثار لأنسجةٍ لينة من الجسد. وأنا أتحدث بالطبع من منطلق تقارير الصحف، فليس لي أي معرفة مباشرة بالأمر.»

«هل وُجِد أي جزءٍ مُهم من الجسد؟ فأنا لم أقرأ الصحف، فلقد أحضرت لي صديقتي الصغيرة الآنسة أومان حزمةً كبيرة منها لأقرأها، ولكنني لم أُطق ذلك فألقيتُها كلها من النافذة.»

أعتقد أنني لاحظتُ بريقًا خاطفًا في عينَي ثورندايك، ولكنه أجاب في اهتمامٍ بالغ:

«أعتقد أنني يُمكنني أن أمنحك التفاصيل من الذاكرة، ولكنني غير متأكد من التواريخ. لقد كان الاكتشاف الأصلي في سيدكوب في الخامس عشر من يوليو، ومن الواضح أنه حدث بالصدفة. وكان يتكوَّن من ذراع يسرى كاملة، مقطوع منها الإصبع الثالثة، وتضمُّ عظام الكتف — لوح الكتف وعظمة الترقوة — ويبدو أن هذا الاكتشاف قد جعل سكان المنطقة وخاصة الشباب منهم يبحثون في كل جدولٍ وبركة ماء في المنطقة ...»

قاطعه السيد بيلينجهام: «آكلو لحوم البشر!»

«ونتيجةُ ذلك كانت جزءًا آخَر استُخرِج من بركةٍ قريبة من سانت ماري كراي في كينت، وكان عظمة الفخذ اليمنى. وهناك ثمة دليل يمكن تحديده فيما يتعلق بهذه

العظمة، لأن رأسها كان به بقعة صغيرة من الاستعاجة — وهو جزء مصقول يُشبه سطح البورسلين يحدث في أجزاء العظام التي تكوِّن المفصل عندما تَبلى طبقة الغضروف الطبيعية بفعل مرضٍ ما — وهو ينتج بفعل احتكاك الطبقة غير المَحمية من العظام بطبقةٍ أُخرى غير مَحمية مثلها.»

سأل السيد بيلينجهام: «وكيف يساعد ذلك في التعرُّف على هوية القتيل؟»

أجابه ثورندايك: «سيوضح ذلك أن الفقيد ربما كان يُعاني من التهاب المفاصل الروماتويدي — ويُعرف أيضًا بالنقرس — وأنه ربما كان يُعاني عرَجًا خفيفًا أو آلامًا في الفخذ اليمنى.»

قال السيد بيلينجهام: «أخشى ألَّا يُفيدنا ذلك كثيرًا، فكما تعرِف، جون كان يُعاني من عرجٍ واضح لسببٍ آخر، وهو إصابة قديمة في كاحله الأيسر. وبالنسبة للشكوى من الآلام، فقد كان أخي عجوزًا عفيًّا لا يُظهر أي شكوى من أي نوع. ولكن لا تدعني أقاطعك.»

استطرد ثورندايك قائلًا: «الاكتشاف الثاني كان في منطقة لي وكان على أيدي الشرطة هذه المرة، ويبدو أنهم أظهروا اهتمامًا مفاجئًا بالأمر، ففي أثناء البحث في منطقة غرب كينت استخرجوا من بركةٍ قريبة من لي عظام القدم اليُمنى. ولو أن هذه القدَم كانت اليسرى بدلًا من اليمنى، لكنَّا حصلنا على دليل؛ فكما فهمت منك فإن أخاك كان مُصابًا بكسرٍ في كاحله، وربما يكون هناك آثار لهذه الإصابة في القدم نفسها.»

قال السيد بيلينجهام: «نعم، أعتقد ستكون هناك آثار. فقد عُرف الكسر بأنه كسر بوت.»

«بالضبط. والآن بعد هذا الاكتشاف في لي بدا أن الشرطة قد بدأت بحثًا منهجيًّا في جميع البرك وأي مجرًى مائي صغير حول لندن. وفي الثالث والعشرين من يوليو وجدوا في شوكوبيتس بالقُرب من غابة إيبينج، وهي ليست بعيدة عن وودفورد، عظام الذراع اليُمنى (وكانت تضم عظام الكتف كما حدث من قبل) ما يبدو أنها جزء من الجسد نفسه.»

قال السيد بيلينجهام: «أجل، سمعت بذلك؛ لقد حدث بالقُرب من منزلي القديم. هذا فظيع! فظيع! وقد أعطاني هذا إيحاءً للتفكير في ذلك؛ لقد فكرتُ في أن جون المسكين قد أُوقِف وقُتِل في الطريق عندما كان فعلًا قادمًا لزيارتي. بل أعتقد أنه دخل بالفعل من البوابة الخلفية، في حالة تركها مفتوحة، حيث تُتبِّع وقُتِل هناك. هل تذكُر هذا الجعران الذي سقط من سلسلة ساعته ووجدناه هناك؟ ولكن هل كان واضحًا أن هذه الذراع كانت ذات صِلة بالذراع التي وُجدت في سيدكوب؟»

قال ثورندايك: «تبدو مُتشابهة في الخصائص والأبعاد، وهذا التشابه قد ثبتَ بقوةٍ من خلال اكتشافٍ وقع بعدَها بيومين.»

سأل السيد بيلينجهام في لهفة: «ما هو؟»

«إنه النصف السُّفلي من الجزع الذي أخرجته الشرطة من بركةٍ أكثر عمقًا على حدود الغابة في لوتون، ويُطلق عليها بركة ستيبل. وكانت العظام التي وُجدت هي عظام الحوض، وهي تضمُّ عظمتَي الفخذ وستَّ فقراتٍ من العمود الفقري. ومع اكتشاف هذه العظام، أقامت الشرطة سدًّا على الجدول وجفَّفت البركة، ولكن لم يتم اكتشاف أي عظام أخرى، وكان هذا الأمر غريبًا، لأنه كان يجب أن يُوجَد زوجان من الأضلاع مُرتبطان بالفقرة العلوية؛ الفقرة الظهرية الثانية عشرة. وهذا يطرح بعض الأسئلة الفضولية بشأن الطريقة التي قُطِّعت بها الجثة، ولكن لا بدَّ لي ألَّا أخوض في تفاصيل مُزعجة. المُهم هو أنَّ تجويف مفصل الفخذ اليمنى يُظهر بقعة استعاجة مُماثلة لتلك الموجودة على رأس عظمة الفخذ اليمنى التي وُجدت في سانت ماري كراي. لذلك لا يُوجَد شكٌّ في أن هذه العظام هي أجزاء للجسد نفسه.»

تنهد السيد بيلينجهام قائلًا: «أفهم ذلك.» وأضاف بعد لحظة من التفكير: «الآن السؤال المطروح هو: هل هذه العظام هي بقايا جسد أخي جون؟ ماذا ترى دكتور ثورندايك؟»

«لقد قلتُ إن هذا السؤال لا يمكن إجابته اعتمادًا على الحقائق المتاحة حاليًّا. يمكننا القول فقط بأن هذا مُمكن، وأن بعض الملابسات تؤيد ذلك. ولكن علينا انتظار المزيد من الاكتشافات؛ ففي أي لحظةٍ يمكن أن تكتشِف الشرطة بعض أجزاء من الهيكل العظمي تحسِم هذا السؤال بشكلٍ أو بآخر.»

قال السيد بيلينجهام: «أعتقد أنني لن أفيدك أبدًا فيما يخصُّ التعرُّف على بقايا هذه الجثة؟»

قال ثورندايك: «بل تستطيع في الواقع، وسأطلُب منك أن تساعدني. ما أحتاجه منك هو فعل ذلك: كتابة وصفٍ كامل لأخيك، يتضمَّن كل تفصيلةٍ تعرفها عنه، بالإضافة إلى ذِكر أي مرض أو إصابة كنتَ تعرِف أنه يعاني منها، وأيضًا أسماء، وإذا كان مُمكنًا، عناوين جميع الأطباء والجرَّاحين، وأطباء الأسنان الذين تعامل معهم في أي وقت. وأطباء الأسنان مُهمُّون على نحوٍ خاص؛ فمعلوماتهم شديدة الأهمية إذا ما اكتُشِفت الجمجمة المرتبطة بهذه العظام.»

ارتجف السيد بيلينجهام، وقال:

«هذا صادم، ولكنك بالطبع مُحق. فلا بدَّ أن يكون لديك الحقائق إذا أردتَ تكوين رأي. سأكتُب ما تريده وأرسله إليك سريعًا. والآن بالله عليكم دَعُونا نفيق من هذا الكابوس لبعض الوقت على الأقل! ماذا يُمكنكِ أن تعزفي لنا يا روث من بين مجموعة الدكتور بيرنارد الموسيقية؟»

كانت مجموعة الدكتور بيرنارد تميل إلى الموسيقى شديدة الكلاسيكية، ولكننا انتقَينا من هذه الكومة بعض الأعمال الخفيفة من النوع القديم، وتضم مجموعة موسيقية لمندلسون بعنوان «أغانٍ بلا كلمات» (لإيدر أوهن فورت). واختارت الآنسة بيلينجهام مقطوعةً من هذه المجموعة لتُجرِّب مهارتها؛ حيث كان عزفها يحمل ذوقًا رفيعًا وأداءً معقولًا. كان هذا على الأقل رأي والدها، وبالنسبة لي فقد وجدتُ أن مُنتهى السعادة هو مجرد جلوسي أمامها والنظر إليها، وهي حالة ذهنية لا يمكن أبدًا تعكير صفوِها حتى إن عزفت «الأمواج الفضية» (سيلفري ويفز) أو «صلوات الخادمة» (ذا ميدينز برايز).

ومع هذه الموسيقى البسيطة الدافئة والمُحادَثة المبهجة دائمًا والبارعة أحيانًا، مرَّت سريعًا واحدةٌ من أسعد الليالي في حياتي، لقد مرت سريعًا جدًّا. كانت دقات ساعة سانت دانستان هي الصوت الذي عكر صفو جلستنا؛ حيث انطلق صوتها مُدويًا في الساعة الحادية عشرة بالضبط، عندما بدأ ضيوفي يشكر بعضهم بعضًا، وبذلك حملوا معهم الشمس الساطعة (وأبيها القمر التابع لها) التي أنارت سمائي. مع أنني كنتُ قد أصدرت، بصفتي المهنية، أوامر قضائية بأن يجلس معنا السيد بيلينجهام إلى وقتٍ مُتأخر تحت أي ظرف، والآن بصفتي الاجتماعية، ابتسمت لسماع عبارة «أوامر الطبيب». وكانت هذه عودة حقيرة إلى حالتي البائسة.

عندما غادر السيد بيلينجهام وابنته الآنسة بيلينجهام، كان على ثورندايك وجيرفيس أن يُغادرا أيضًا، ولكن عندما رأيا حالتي البائسة ولأنهما عطوفان وصاحبا قلوبٍ طيبة، فقد اقتنعا أن يمكُثا معي لفترةٍ ويتحمَّلا صُحبتي وأنا أنفُث دخان الغليون لمواساة نفسي.

الفصل الحادي عشر

استعراض الأدلة

علق ثورندايك وهو يُشعل عود ثقاب قائلًا: «إذن فقد بدأت اللعبة، بدأت بتقدُّم حذِر من الجانب الآخر، حذر للغاية ومتردِّد جدًّا.»

فسألته: «لماذا تقول متردِّد جدًّا؟»

«حسنًا، من الواضح أن هيرست — وأنا أعتقد، أن جيليكو أيضًا — حريص على شراء مُعارضة بيلينجهام، وبسعرٍ طويل الأجل، في ظلِّ تلك الظروف. وعندما نفكر في مدى ضآلة ما يمكن أن يُقدمه بيلينجهام مقابل افتراض وفاة شقيقه، يبدو أن هيرست لم يكن لديه الكثير ليقوله من جانبه.»

قال جيرفيس: «لا، لا يمكن أن يكون لديه الكثير من الأوراق الرابحة، وإلا فإنه لن يكون على استعدادٍ لدفع أربعمائة جنيه سنويًّا مقابل نصيب خصمه؛ وهذا بالإضافة إلى أنه يبدو لي أننا ليس لدَينا الكثير من أوراق اللعب.»

قال ثورندايك: «يجب علينا أن ننظُر إلى ما لدَينا من أوراق اللعب، فورقتنا الرابحة في الوقت الحاضر — وهي كما أخشى صغيرة للغاية — هي نية المُوصي الواضحة أن يذهب الجزء الأكبر من الممتلكات إلى أخيه.»

قلت: «أعتقد أنك ستبدأ تحرياتك الآن!»

«قد بدأناها منذ بعض الوقت في الواقع؛ في اليوم التالي لإحضارك الوصية لنا. فحص جيرفيس السجلات وتأكد من أنه لم تحدُث أي عملية دفن باسم جون بيلينجهام منذ اختفائه، وهو ما كنا نتوقعه. واكتشف أيضًا أن شخصًا آخر أجرى تحرياتٍ مُماثلة، وهذا أيضًا ما توقعناه.»

«وماذا عن تحقيقاتك؟»

«لقد أسفرت أغلبها عن نتائج سلبية. لقد وجدتُ أن الطبيب نوربيري، من المتحف البريطاني، ودود للغاية ومتعاون؛ في الواقع، ودود للغاية لدرجة أنني أفكر فيما إذا كنتُ قد لا أتمكن من طلب مساعدته في بعض الأبحاث الخاصة بي، فيما يتعلق بالتغيير الذي يحدُث بمرور الوقت في الخصائص الفيزيائية لبعض المواد.»

قال جيرفيس: «أوه، إنك لم تُخبرني بهذا الأمر.»

«لا؛ لم أبدأ بالفعل في التخطيط لتجاربي حتى الآن، وربما لن تسفر عن أي شيءٍ عندما أقوم بذلك. لقد خطر لي، على الأرجح، أنه بمرور الوقت، قد تحدُث بعض التغييرات الجزيئية في مواد مثل الخشب، والعظام، والفخار، والجص، والمواد العادية الأخرى، وأن هذه التغييرات قد تُغير من قدرتها على توصيل أو نقل الاهتزازات الجزيئية. الآن، وإذا كان هذا هو الحال، فسيكون ذلك حقيقة ذات أهميةٍ كبيرة، من ناحية الطبِّ الشرعي وغير ذلك؛ لأنه سيكون من الممكن تحديد العمر التقريبي لأي جسمٍ ذي تركيبة معروفة عن طريق اختبار تفاعلاته مع الكهرباء والحرارة والضوء والاهتزازات الجزيئية الأخرى. فكَّرتُ في طلب مساعدة الدكتور نوربيري لأن بإمكانه تزويدي بالمواد الخاصة بتجارب مثل هذا العصر العظيم الذي يجِب أن تكون التفاعلات فيه، إن وُجِدت، سهلة الإثبات للغاية. ولكن بالعودة إلى حالتنا، علمتُ منه أن جون بيلينجهام لديه أصدقاء مُعينون في باريس — هواة الجمع ومسئولون بالمتحف — اعتاد زيارتهم لغرَض الدراسة وتبادل العينات. لقد استفسرتُ عن كل ذلك ولم يرَه أحد خلال زيارته الأخيرة. في الحقيقة، لم أكتشف بعدُ أي شخصٍ شاهد بيلينجهام في باريس في هذه الزيارة. لذلك تظل زيارته هناك لغزًا في الوقت الحاضر.»

فقلت: «لا يبدو ذلك الأمر ذا أهمية كبيرة، حيث إنه بلا شك قد عاد من هناك.» ولكن ثورندايك اعترض على ذلك.

وقال: «من المُستحيل تقدير أهمية المجهول.»

فتساءل جيرفيس قائلًا: «حسنًا، كيف تسير الأمور إذن، بناءً على ما لدَينا من الأدلة؟ اختفى جون بيلينجهام في تاريخ معين. هل هناك أي شيء يُوضح طريقة اختفائه؟»

قال ثورندايك: «تُشير الحقائق التي بحوزتنا، وأغلبها استعرَضَته تقارير الصحف، إلى عدة احتمالات بديلة؛ وبالنظر إلى التحقيق القادم — لأنهم، بلا شك، سيتعين عليهم تقديمها إلى المحكمة، إلى حدٍّ ما — قد يكون من المفيد النظر فيها. هناك خمس فرضياتٍ يمكن تصوُّرها.» — عدَّها ثورندايك على أصابعه أثناء تقدُّمه — «أولًا، ربما لا يزال على قيد الحياة؛ ثانيًا، ربما يكون قد مات ودُفن بدون تحديد هويته؛ ثالثًا، ربما يكون قد

قُتل على يد شخصٍ مجهول؛ ورابعًا، ربما يكون قد قُتل على يد هيرست وتم إخفاء جثته؛ وخامسًا، ربما يكون قد قُتل على يد شقيقه. فلنبحث هذه الاحتمالات تباعًا.

أولًا، ربما لا يزال على قيد الحياة. إذا كان الأمر كذلك، فلا بدَّ أنه إما اختفى طواعية، أو فقد ذاكرته فجأةً ولم يتم التعرُّف عليه، أو تم سجنه بتهمةٍ مُلفقة أو غير ذلك. فلنأخذ الحالة الأولى؛ تلك القائلة بالاختفاء الطوعي. من الواضح أن استبعاد هذه الاحتمالية كبير للغاية.»

قلت: «جيليكو لا يعتقد ذلك، فهو يعتقد أن وجود جون بيلينجهام على قيد الحياة أمر وارد، ويقول إنه ليس من الغريب أن يختفي شخص لفترة من الزمن.»

«لماذا إذن يتقدَّم بالتماسٍ بافتراض حدوث الوفاة؟»

«هذا هو ما سألته بشأنه. فقال إن هذا هو ما يجب فعله، وإن المسئولية الكاملة تقع على عاتق المحكمة.»

فقال ثورندايك: «هذا كله هراء؛ فجيليكو هو الوصي على موكله الغائب، وإذا كان يعتقد أن مُوكِّله على قيد الحياة، فمن واجبه الحفاظ على تركته دون المساس بها، وهو يعرف ذلك جيدًا. قد نعتبِر أن جيليكو له نفس رأيي تمامًا: وهو أن جون بيلينجهام قد مات.»

أكدت قائلًا: «ومع ذلك، يختفي الرجال من حينٍ لآخر، ويعودون مرة أخرى بعد سنواتٍ من الغياب.»

«نعم، ولكن ذلك يحدث لسببٍ مُحدَّد؛ إما أنهم متشردون غير مسئولين، يتبعون هذه الطريقة في التملُّص من مسئولياتهم، أو أنهم رجال وقعوا في شبكةٍ من الظروف المقيتة. على سبيل المثال، موظف مدني أو محامٍ أو تاجر يجد نفسه مُرتبطًا مدى الحياة بموقعٍ ومهنة مليئة بالرتابة غير المُحتملة. ربما لديه زوجة سيئة الطباع، على غرار الطريقة المعهودة لنوع مُعين من النساء اللاتي يعتقدن أن أزواجهن مُحاصرين بدون أي فرصة للهروب، فتطلق العِنان لمزاجها، فيتحملها الرجل لسنوات، ولكن في النهاية يُصبح الأمر لا يطاق، ثم يختفي فجأة؛ ولا لوم عليه. ولكن هذه لم تكن حالة بيلينجهام؛ لقد كان أعزبَ ثريًّا يستمتع كثيرًا بحياته، لديه حرية الذهاب إلى حيث يشاء وفعل ما يشاء. لماذا يختفي؟ إنه أمر لا يُصدَّق.

أما فيما يتعلق بفقدانه ذاكرته وبقائه مجهول الهوية، فهذا أمر لا يُصدَّق أيضًا في حالة رجل كان يحمل بطاقات ورسائل تعريف في جيبه، وكانت ملابسه مميزة، وكانت

الشرطة تستفسر عن وجوده في كل مكان. أما بالنسبة لوجوده في السجن، فيُمكننا استبعاد هذا الاحتمال، حيث إن السجين، سواء قبل الإدانة أو بعدها، يكون لديه فرصة كاملة للتواصُل مع أصدقائه.

الاحتمال الثاني، أن يكون قد مات فجأة ودُفِن دون تحديد هويته، وهو احتمال بعيد؛ ولكن، بما أنه من المُحتمل أنه ربما تكون الجثة قد سُرقت، وفُقِدت وسائل تحديد الهوية بهذا الشكل، فإنه يظل احتمالًا يجب أخذه بعين الاعتبار مع كونه بعيدًا.

الفرضية الثالثة، والقائلة بأنه ربما يكون قد قُتل على يد شخصٍ مجهول، في ظل هذه الظروف، فهي ليست بعيدة الاحتمال بقدرٍ كبير؛ ولكن بما أن الشرطة كانت تُراقب المشهد ونُشِر وصف تفصيلي للشخص المفقود في الصحف، فقد ينطوي ذلك على الإخفاء الكامل للجثة، ولكن هذا من شأنه أن يستبعد أكثر أشكال الجريمة احتمالًا؛ السرقة العرضية مع استخدام العنف. لذلك فهو ممكن، لكنه بعيد الاحتمال.

الفرضية الرابعة هي أن بيلينجهام قُتل على يد هيرست. والآن فإن الحقيقة الوحيدة التي تُناقض هذا الرأي هي أن هيرست على ما يبدو لم يكن لديه دافع لارتكاب جريمة القتل. كما أكد لنا جيليكو أنه لا أحد غيره يعرف بنود الوصية، وإذا كان الأمر كذلك — لكن تذكَّرا، ليس لدَينا أي دليل على ذلك — فلن يكون لدى هيرست أي سبب لافتراض أن لديه أي شيء يجنيه بموت ابن عمِّه. وخلاف ذلك، فإن الفرضية لا تُقدِّم أي احتمالات أساسية. شُوهد الرجل آخِر مرة على قيد الحياة في منزل هيرست. شوهد وهو يدخله ولم يرَه أحد يُغادره — ما زلنا نأخذ الحقائق كما ذُكرت في الصحف، وتذكَّرا — يبدو الآن أنه سيستفيد بشكلٍ كبير من وفاة ذلك الرجل.»

قلت مُعترضًا: «ولكنك نسيتَ أنه بمجرد أن فُقِد الرجل، فتَّش عنه هيرست والخدَم في المنزل بأكمله.»

«نعم، فتَّشوا عن ماذا؟»

«ما بكِ؟! عن السيد بيلينجهام بالطبع.»

«بالضبط؛ عن السيد بيلينجهام. هذا هو المقصد، عن رجلٍ حي. الآن كيف تبحث في منزلٍ عن رجل حي؟ أنت تبحث في جميع الغرَف. عندما تبحث في غرفة، فإنه إذا كان هناك، فإنك تراه؛ إذا لم ترَه، فأنت تفترض أنه غير موجود. فأنت لا تنظر تحت الأريكة أو خلف البيانو، ولا تسحَب الأدراج الكبيرة أو تفتح الخزائن. أنت تنظر فقط في الغرف. هذا ما يبدو أن هؤلاء الأشخاص قد فعلوه. ولم يرَوا السيد بيلينجهام. ربما أُخفِيت جثة السيد بيلينجهام بعيدًا عن الأنظار في أي غرفة من الغرف التي بحثوا فيها.»

قال جيرفيس: «هذه فكرة قاتمة. لكنها صحيحة تمامًا. فلا يُوجَد دليل على أن الرجل لم يكن ميتًا في المنزل وقت التفتيش.»

قلت: «ولكن حتى إن كان الأمر كذلك، فقد كانت هناك جثة يجب التخلُّص منها بطريقةٍ ما. الآن كيف يمكن أن يتخلَّص من الجثة دون أن تُلاحَظ؟»

قال ثورندايك: «آه! نحن الآن نتطرَّق إلى نقطة بالغة الأهمية. إذا كان على أي شخصٍ أن يكتب أطروحة عن فن القتل — ليس عرضًا لأدبياتٍ شهيرة مثل أدبيات دي كوينسي، ولكن أطروحة عمل حقيقية — فقد يترك جميع التفاصيل الفنية الأخرى لتعتني بنفسها، إذا كان بإمكانه وصف بعض الخطط العملية حقًّا للتخلص من الجثة. وهذا هو الحال، وهكذا كان دائمًا، العقبة الكبيرة أمام القاتل: التخلص من الجسم؛ جسم الإنسان.» ثم تابع حديثه بينما كان ينظر بعنايةٍ إلى غليونه، تمامًا كما كان يحدُث في أيام تلمذتي، حيث اعتاد النظر إلى طباشير السبورة السوداء، ثم استطرد قائلًا: «شيء رائع للغاية. إنه يمثل مجموعة من الخصائص التي تجعل من الصعب للغاية إخفاءه بشكلٍ دائم. إنه ضخم وذو شكلٍ غريب، ثقيل، غير قابل للاحتراق تمامًا، غير مُستقر كيميائيًّا، وتَحلُّله يُنتِج كمياتٍ كبيرة من الغازات ذات الرائحة النفاذة، ومع ذلك فهو يحتوي على هيكلٍ يمكن التعرف عليه بأعلى درجة من الاستمرارية. ويصعب الحفاظ عليه دون تغيير، ومع ذلك لا يزال تدميره أكثر صعوبة. تتجلى صفة الديمومة الأساسية لجسم الإنسان جيدًا في القضية الكلاسيكية ليوجين آرام؛ لكن المثال الأكثر إثارة للدهشة هو حالة سكنن رع الثالث، أحد آخر ملوك الأسرة المصرية الحاكمة السابعة عشرة. هنا، وبعد مرور أربعة آلاف عام، كان من الممكن تحديد ليس فقط سبب الوفاة وطريقة حدوثها، ولكن كيفية سقوط الملك، وطبيعة السلاح الذي أحدث الجرح المُميت، وحتى وضعية المُعتدي. وتتجلَّى صفة ديمومة الجسد في ظل ظروفٍ أخرى بشكلٍ مُثير للإعجاب في حالة الدكتور باركمان، من بوسطن، الولايات المتحدة الأمريكية، حيث حُدِّدت الهوية فعليًّا عن طريق البقايا التي جُمِعَت من رماد الفرن.»

قال جيرفيس: «إذن، يُمكننا أن نعتبر أن العالَم لم يشهد بعد نهاية جون بيلينجهام.»

أجابه ثورندايك: «أعتقد أننا قد نعتبِر ذلك شبهَ مؤكد. السؤال الوحيد — وهو السؤال المهم للغاية — هو، متى يمكن أن يظهر مرةً أخرى. ربما غدًا أو بعد عدة قرون، وحينها قد تكون جميع نقاط الخلاف المَعنية قد ذهبت في طي النسيان.»

فقلت: «لنفترض على سبيل الجدال، أن هيرست قتله وأن الجثة كانت مخبوءة في المكتب وقت إجراء البحث. كيف كان من الممكن التخلُّص منها؟ لو كنتَ في مكان هيرست، فكيف كنتَ ستُنجز المهمة؟»

ابتسم ثورندايك من صراحة سؤالي.

وقال: «أنت تطلُب منِّي إفادة تجريمية أُدلي بها في حضور شاهد أيضًا. ولكن، في واقع الأمر، لا فائدة من التكهن مُسبقًا؛ يجب علينا إعادة ترتيب موقفٍ وهمي تمامًا، ظروفه غير معروفة لنا، ومن شبه المؤكد أن نُعيد ترتبه بشكلٍ خاطئ. ما قد نفترضه إلى حدٍّ كبير هو أنه لا يوجد شخص عاقل، مهما كان عديم الأخلاق، سيجد نفسه في الوضع الذي تفترضه. القتل عادة ما يكون جريمة بسبب الاندفاع، والقاتل هو شخصٌ لا يتمكن من ضبط النفس. من غير المرجَّح أن يتخذ هؤلاء الأشخاص ترتيباتٍ دقيقة ومُبتكرة للتخلص من جثث ضحاياهم. حتى مُرتكبو جرائم القتل الوحشية التي تم التخطيط لها بدقة شديدة، يبدون كما قلت، مُنهارِين عند تلك المرحلة، إنَّ القاتل لا يُقدِّر الصعوبة التي لا يمكن التغلُّب عليها للتخلص من جثة الإنسان حتى يجد نفسه فجأةً وجهًا لوجهٍ مع الموقف.»

«في الحالة التي تفترضها، يبدو أن الخيار يكمُن بين الدفن في المبنى أو تقطيع الأجزاء وتوزيعها؛ ومن المؤكد أن أيًّا من الطريقتَين ستؤدي إلى الاكتشاف.»

فعلق جيرفيس قائلًا: «كما يتَّضح من البقايا التي تحدثتَ عنها إلى السيد بيلينجهام.»

أجاب ثورندايك: «بالضبط، على الرغم من أنَّنا بالكاد نستطيع تخيُّل مجرمٍ ذكي إلى حدٍّ معقول يتخذ حقل بقلة مائية كمكانٍ للاختباء.»

«لا، لقد كان هذا بالتأكيد خطأً في التقدير. بالمناسبة، اعتقدتُ أنه من الأفضل عدم قول أي شيء أثناء تحدُّثك إلى بيلينجهام، لكنني لاحظتُ أنه أثناء مناقشة إمكانية أن تكون عظام أخيه، لم تُعلِّق على غياب الإصبع الثالثة من اليد اليسرى. أنا متأكد من أنك لم تغفل ذلك، لكن أليست هذه نقطة مهمة؟»

«فيما يتعلق بتحديد الهوية؟ في ظل الظروف الحالية، لا أعتقد ذلك. إذا كان هناك رجل مفقود فقد تلك الإصبع، فسيكون ذلك بالطبع حقيقة مُهمة. لكنني لم أسمع عن أي رجلٍ بهذه المواصفات. أو مرة أخرى، إذا كان هناك أي دليل على بتر الإصبع قبل الموت، فسيكون ذلك في غاية الأهمية. لكن لا يُوجَد مثل هذا الدليل. ربما تكون قد بُتِرت بعد الموت، وهنا تكمن الأهمية الحقيقية لغيابها.»

قال جيرفيس: «لا أفهم ما تعنيه.»

«أعني أنه إذا لم يكن هناك أي بلاغ عن غياب أي رجلٍ مبتور هذه الإصبع بعينها، فالاحتمال هو أنها قد بُترت بعد الموت. ومِن ثَم يظهر السؤال المُثير للاهتمام عن الدافع. لماذا كان يجب بترها؟ يصعب أن يكون قُطعًا عن طريق الخطأ. فماذا تعتقد؟»

قال جيرفيس: «حسنًا، ربما كانت إصبعًا غريبة؛ إصبعًا، على سبيل المثال، بها بعض التشوُّه المميز مثل المفصل المتصلب، والتي سيكون من السهل التعرُّف عليها.»

«نعم، ولكن هذا التفسير يطرح درجة الصعوبة نفسها. فلم يُبلَغ عن غياب أي شخصٍ ذي إصبع مشوَّهة أو متصلبة.»

قطَّب جيرفيس حاجبيه، ونظر إليَّ.

وقال: «لا أرى أي تفسيرٍ آخر بتاتًا. هل ترى أي تفسير آخر، بيركلي؟»

فهززتُ رأسي نافيًا.

قال ثورندايك: «لا تنسَ أي الأصابع هي المفقودة، إنها الإصبع الثالثة من اليد اليسرى.»

فأجابه جيرفيس: «آه، فهمت! إصبع الخاتم. أنت تقصد أنها قد تكون نُزعت من أجل الحصول على خاتمٍ لم يُتمكَّن من خلعه.»

«نعم، لم تكُن هذه هي المرة الأولى من نوعها. فقد قُطعت أصابع من أيادي الجثث — وحتى من الأيادي الحية — من أجل خواتم كانت ضيقة جدًّا بحيث لا يمكن انتزاعها. وحقيقة أنها هي اليد اليسرى تدعم المُقترح؛ وذلك لأنه عندما يكون الخاتم ضيقًا يُفضل ارتداؤه في اليد اليسرى، حيث تكون عادةً أصغر قليلًا من اليد اليمنى. ما خطبُك، يا بيركلي؟»

سطع ضوء مفاجئ بداخلي، وأظنُّ أن ملامح وجهي أفشتْ عن الحقيقة.

صرختُ قائلًا: «أنا أحمق مُرتبك!»

قال جيرفيس: «أوه، لا تقُل ذلك. امنح صديقَيك فرصة.»

«كان يجب عليَّ أن أفهم ذلك منذ وقتٍ طويل وأُخبركما به. كان جون بيلينجهام يرتدي خاتمًا، وكان ضيقًا للغاية، وبمجرد ارتدائه له لم يتمكن من خلعِه مرةً أخرى.»

فسألني ثورندايك: «هل تعرف في أي يدٍ كان يرتديه؟»

«نعم، كان في اليد اليسرى؛ لأن الآنسة بيلينجهام، والتي أخبرتني بشأنه، قالت إنه لم يكن ليتمكن من ارتدائه أبدًا إلَّا لأن يده اليسرى كانت أصغرَ قليلًا في الحجم من يده اليُمنى.»

فقال ثورندايك: «ها هي حقيقة الأمر إذن. مع وجود هذه الحقيقة الجديدة بحوزتنا، فإن غياب الإصبع يوفر نقطة البداية لبعض التكهُّنات المُثيرة للفضول.»

قال جيرفيس: «على سبيل المثال!»

«آه، في ظل هذه الظروف، يجب أن أترككما لمتابعة هذه التكهنات بشكلٍ مُستقل. أنا الآن أتصرَّف نيابة عن السيد بيلينجهام.»

ابتسم جيرفيس وظلَّ صامتًا لفترة، بينما يعيد ملء غليونه بعناية؛ ولكنه استأنف حديثه عندما أشعله.

«بالعودة إلى مسألة الاختفاء، ألا تَعتبِر أن قتل بيلينجهام على يد هيرست أمرًا بعيد الاحتمال؟»

«أوه، لا تتخيل أنني أوجِّه اتهامًا. أنا أفكر في الاحتمالات المختلفة فقط من الناحية النظرية. المنطق نفسه ينطبق على آل بيلينجهام. بشأن ما إذا كان أي منهم قد ارتكب جريمة القتل، فهذه مسألة تتعلق بالطابع الشخصي. أنا بالتأكيد لا أشكُّ في آل بيلينجهام بعد مُقابلتهم، وفيما يتعلق بهيرست، فأنا لا أعرف عنه شيئًا، أو على الأقل هناك القليل جدًّا من الأمور ليست في صالحه.»

فسأل جيرفيس: «هل تعرف أي شيء؟»

قال ثورندايك مُتردِّدًا: «حسنًا، يبدو أنه من غير اللائق التفكير في التفاصيل الصغيرة لماضي الرجل، ومع ذلك يجب التفكير في ذلك. لقد قمت، بالطبع، بإجراء التحقيقات المعتادة بشأن أطراف هذه القضية، وهذا ما سلطوا الضوء عليه:

«هيرست، كما تعلمون، سمسار في البورصة، رجل يتمتع بمكانةٍ جيدة وسمعة طيبة؛ ولكن يبدو أنه ارتكب حماقةً منذ حوالي عشر سنوات، وهذا أقل ما يُقال عن الأمر، والذي كاد أن يُوقعه في صعوبات خطيرة. لقد تكهَّن إلى حدٍّ ما بشكلٍ يفوق إمكانياته، لأنه عندما حدث تقلُّب مفاجئ للسوق أربك جميع تقديراته، واتضح أنه كان يستخدم رأس مال عملائه وسنداتهم. وبدا لفترة من الوقت كما لو كان هناك مشكلة خطيرة؛ ثم، وبشكل غير متوقَّع تمامًا، تمكن من جمع المبلغ اللازم بطريقةٍ ما وتسوية جميع المطالبات. ولم يُعرَف من أين حصل على المال حتى يومنا هذا، وهو ظرف غريب، حيث إنَّ العجز كان أكثر من خمسة آلاف جنيه؛ ولكن الحقيقة المُهمة هي أنه حصل عليها وسدَّد كل ديونه. لذلك لم يكن سوى مُختلس مُحتمل، إن جاز التعبير؛ وغير جدير بالمِصداقية، كما أن المسألة، لا شك، لا يبدو أن لها أي تأثير مباشر على القضية الحالية».»

قال جيرفيس مُتفقًا معه في الرأي: «لا، على الرغم من أنها تجعل المرء يفكر في موقفه باهتمامٍ أكبر مما يمكن أن يفعله.»

قال ثورندايك: «بلا شك. فلا يمكن الاعتماد على سلوك مقامر مُتهور. فهو يخضع لتقلُّبات الحظ التي قد تُجبره على ارتكاب أخطاء أخرى. والعديد من عمليات الاختلاس سبقَها الانغمار في الحظ السيئ في مجال العمل.»

قلتُ وأنا أشعر بعدَم الراحة لذكري أسماء أصدقائي: «بافتراض أن المسئولية عن هذا الاختفاء تقع بين هيرست و... وآل بيلينجهام، فإلى أي جانبٍ ترجح الاحتمالات؟»

أجاب ثورندايك: «يجب أن أقول بلا شكٍّ إنني أرجح جانب هيرست. قضيتنا كالتالي — بناءً على الحقائق المقدمة إلينا: يبدو أن هيرست لم يكن لديه دافع لقتل المتوفَّى (كما سنُسميه)؛ لكن شوهد الرجل وهو يدخل المنزل، ولم يُشاهَد أبدًا وهو يغادره، ولم يُرَ حيًّا بعدها مرةً أخرى. من ناحية أخرى، كان لبيلينجهام دافع، حيث كان يعتقد أنه المُستفيد الرئيسي بموجب الوصية. لكن المتوفَّى لم يُشاهَد في منزله، ولا يُوجَد دليل على أنه ذهب إلى المنزل أو الحي، باستثناء الجعران الذي عُثر عليه هناك. لكن دليل الجعران قد أفسدتْه حقيقة وجود هيرست في المكان عندما وُجِد، وأنه تم العثور عليه في مكانٍ مرَّ عليه هيرست فقط قبل بضع دقائق. إلى أن تُبرَّأ ساحة هيرست، يبدو لي أن وجود الجعران لا يُثبت شيئًا ضدَّ آل بيلينجهام.»

فقلت: «إذن فإنَّ آراءك في القضية تستند بالكامل على الحقائق التي أُعلِن عنها؟»

«نعم، بشكلٍ أساسي. أنا لا أقبل بالضرورة هذه الحقائق تمامًا كما تُعرَض، وقد يكون لديَّ بعض وجهات النظر الخاصة بي بشأن القضية. ولكن إذا كان لديَّ، فأنا لا أشعر بأنني في وضع يسمح لي بمناقشتها. في الوقت الحالي يجب أن يقتصر النقاش على الحقائق والاستنتاجات التي تُقدمها الأطراف المعنية.»

صاح جيرفيس وهو يقف ويرمي غليونه بعيدًا: «هكذا إذن! هذا هو ما يقودك إليه ثورندايك؛ إنه يجعلك تعتقد أنك في غمرة المعرفة حتى يأتي صباح أحد الأيام الجميلة لتستيقظ وتكتشف أنك كنت مجرد شخص دخيل، ومِن ثَم ستندهش بشدة، وكذلك الطرف الآخر أيضًا في هذا الشأن. لكن يجب علينا حقًّا أن نُغادر الآن، أليس كذلك، يا سيدي؟»

أجاب ثورندايك: «أعتقد أنه يجب علينا ذلك.» ثم سأل بينما يرتدي قفازاته: «هل تواصلتَ مع برنارد مؤخرًا؟»

أجبت: «أوه، نعم. لقد كتبتُ إليه في مدينة سميرنا لأقول له إن العيادة تُحقق نجاحًا وإنني سعيدٌ وراضٍ للغاية، وإنه قد يمكث هناك كما يشاء. فكتب لي ليُخبرني أنه سيطيل إجازته إذا أُتيحت له فرصة، لكنه سوف يُخبرني لاحقًا.»

قال جيرفيس: «يا إلهي، لقد كانت ضربة حظٍّ لبرنارد أن تصادَف أن يكون لبيلينجهام مثل هذه الابنة الرائعة — هناك! اسمح لي، أيها الرجل العجوز. تقدَّم وفُز بها — إنها تستحق ذلك، أليس كذلك، يا ثورندايك؟»

أجاب ثورندايك: «الآنسة بيلينجهام سيدة شابة ساحرة للغاية. أنا مُعجَب للغاية بكلٍّ من الأب والابنة، وأنا على ثقة من أننا قد نكون قادرين على تقديم بعض الخدمات لهم.»

وبهذه الكلمات القليلة الرزينة صافحَني ثورندايك، وشاهدتُ صديقيَّ وهما يمضيان في طريقهما حتى اختفت ظلال جسدَيهما الباهتة في ظلام حارة فيتر.

الفصل الثاني عشر

رحلة اكتشاف

مر يومان أو ثلاثة على حفل العشاء الصغير الذي أقمتُه، وكنتُ أقف في غرفة الكشف أنظف قُبعتي استعدادًا لبدء جولتي الصباحية، حين ظهر أدولفوس عند الباب ليُعلن أن ثمةَ رجُلَين في انتظاري بالعيادة. أخبرتُه بأن يُدخلهما، وبعد دقيقة دخل ثورندايك، يصحبه جيرفيس. لاحظتُ أنهما بدوا ضخمَين على نحوٍ استثنائي في تلك الشقة الصغيرة، وبالأخص ثورندايك، ولكن لم يكن لديَّ وقت لدراسة هذه الظاهرة، حيث إنه ما إن صافح الأخير يدي حتى بدأ على الفور يشرح الهدف وراء زيارتهما.

قال: «جئنا لنطلب منك خدمة، يا بيركلي، لنطلب منك أن تقوم لنا بخدمةٍ عظيمة جدًّا لصالح أصدقائك آل بيلينجهام.»

قلت بحرارة: «تعلم أنني سأكون مَسرورًا. ما هي؟»

«سأشرح لك. كما تعرف — أو لعلك لا تعرف — أن الشرطة قد جمعت العظام كلها التي اكتُشِفت وسلَّمتها إلى المشرحة الموجودة في وودفورد، حيث ستفحصها هيئة مُحلفي الطب الشرعي. وها قد صار من الضروري أن يتوفر لي معلومات مؤكدة وموثوق فيها أكثر مما يُمكنني الحصول عليه من الصحف. الطبيعي هو أن أذهب وأُجري الفحص بنفسي؛ ولكنْ ثمة ظروف تجعل من المُستحبِّ جدًّا ألا تتسرَّب أنباء عن مشاركتي في القضية. وبالتالي، لا يمكنني الذهاب بنفسي، وللسبب نفسه، لا يمكنني إرسال جيرفيس. ومن ناحية أُخرى، كما هو مُعلن صراحة بأن الشرطة تعتبر العظام على نحوٍ شبه مؤكد تنتمي إلى جون بيلينجهام، سيكون من الطبيعي تمامًا، باعتبارك طبيب جودفري بيلينجهام أن تذهب وتفحصها بالنيابة عنه.»

قلت: «أودُّ أن أفعل، سأبذل أي شيءٍ في سبيل ذلك؛ ولكن كيف يمكن إدارة الأمر؟ هذا سيعني إجازةً ليوم كامل وترك العيادة.»

قال ثورندايك: «أعتقد أنه يمكن إدارة الأمر، المسألة مهمة فعلًا لسببَين؛ الأول أن التحقيق سيُفتح غدًا، ولا بدَّ أن يُوجَد أحد هناك ليشهد على الدعوى بالنيابة عن جودفري، والسبب الآخر هو أنَّ موكلنا تلقَّى إخطارًا من مُحامي هيرست يفيد بأنه سيتم النظر في الالتماس بالمحكمة الحسبية في غضون بضعة أيام.»

سألته: «أليس هذا مفاجئًا بدرجةٍ كبيرة؟»

«إنه يشير بالتأكيد إلى أن ثمة حركة كبيرة أكبر ممَّا كنا نستطيع فهمها. ولكنك ترى أهمية المسألة. التحقيق سيكون بمثابة بروفة للمحكمة الحسبية، كما أنه من الضروري جدًّا أن تسنح لنا الفرصة لتقييم أمر الإدارة.»

«أجل، فهمت ذلك. ولكن كيف سيتسنَّى لنا إدارة العيادة؟»

«سنبحث عن بديل.»

«من خلال وكيل طبي؟»

قال جيرفيس: «أجل، سيبحث توركيفال عن رجل؛ في الواقع، لقد فعل ذلك. لقد قابلتُه هذا الصباح، لديه رجل ينتظر في البلدة للتفاوض بشأن شراء عيادة، وسيتولَّى المهمة مقابل جنيهَين اثنين. هو رجل جدير بالثقة تمامًا. فقط أعطاني الموافقة، وسأنطلق إلى شارع آدم ستريت وسأستخدِمه على الفور.»

«حسنًا جدًّا. ستُعيِّن نائبًا مؤقتًا، وسأستعد أنا للذهاب إلى وودفورد بمجرد أن يصل.»

قال ثورندايك: «ممتاز! هذا حِمل ثقيل رُفع عن عاتقي. وإن استطعتَ أن تمر هذا المساء وتُدخِّن معنا الغليون، لأمكننا أن نتحدث بخصوص خطة الحملة وأُطلعك على نوعية المعلومات التي نُريدها على وجه الخصوص.»

وَعَدتُ بالمرور على كينجز بينش ووك بعد الساعة الثامنة والنصف بقدر الإمكان، ثم غادر صديقاي، تاركَين إيَّاي لأبدأ جولة زياراتي القليلة بروحٍ معنوية مرتفعة.

من المدهش رؤية الجوانب المختلفة للأمور من وجهات نظر مختلفة؛ ومدى تناسُب تقديراتنا لأحوال الحياة وظروفها. فبالنسبة إلى العامل المدني — بالنسبة إلى الخبَّاز البارع أو الخياط الماهر، مثلًا، الذي يعمل لسنوات وسنوات في مبنًى واحد — يُعد التسكُّع يوم العطلة في منطقة هامبستيد هيث رحلة اكتشافٍ حقيقية، أما بالنسبة إلى البحَّار، فإن المنظر المُتغير للعالم الشاسع بأسرِه ما هو إلا المُعتاد بالنسبة للعمل اليومي.

هكذا، أخذتُ أفكر مليًّا وأنا أتخذ مقعدي في القطار بمحطة ليفربول في اليوم التالي. كان هناك وقت عندما كانت رحلات القطار إلى أطراف غابة إيبينج من شأنها أن تكون

بعيدةً تمامًا عن كونها تجربة مثيرة، أما الآن وبعد حياة الخمول في العالَم الصغير لحارة فيتر، فإنها تُعدُّ مغامرة بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنًى.

إن الخمول الإجباري لرحلات السكك الحديدية مناسب تمامًا للتفكير، كان لديَّ الكثير لأفكر فيه. لقد شهدت الأسابيع الأخيرة الماضية تغييرات بالغة الأهمية من وجهة نظري. فقد ظهرت اهتمامات جديدة، ونشأت صداقات جديدة، والأهم من ذلك كله، تسلل إلى حياتي ذلك التأثير البالغ، الذي كان خيرًا أو شرًّا حسْب حظي أنا، كان من شأنه أن يلوِّن حياتي ويُهيمن عليها حتى نهايتها. تلك الأيام القليلة من العمل المشترك في قاعة القراءة، بالإضافة إلى الاستقبال غير المتكلف بمحل الألبان والتمشيات المُمتعة إلى المنزل عبر شوارع لندن المؤنسة، خلقت عالمًا جديدًا؛ عالمًا كانت فيه الشخصية الحنونة لروث بيلينجهام هي الواقع الوحيد المُهيمن. هكذا، وبينما كنتُ أتكئ في مقعدي بزاوية عربة القطار وفي يدي غليون غير مُشتعل، شغلت ذهني أحداث الماضي القريب بالإضافة إلى الأحداث الإشكالية أكثر للمُستقبل الوشيك لدرجة الإغفال عن المهمة الحالية، ألا وهي فحص البقايا المجمعة في مشرحة وودفورد، وما إن اقترب القطار من ستراتفورد، حتى تسللت روائح مصانع الصابون والروَث العَظمي عبر النافذة المفتوحة (من خلال تداعي الأفكار بصورةٍ طبيعية) وأعادتني مرةً أخرى إلى الهدف من رحلتي.

لم يكن الهدف الدقيق من وراء هذه الرحلة الاستكشافية واضحًا بدرجةٍ كبيرة بالنسبة إليَّ؛ ولكني كنتُ أعرف أنني أتصرف بصفتي وكيل ثورندايك، وافتخرتُ بالفكرة بشدة. ولكن ما الضوء الخاص الذي ستُلقيه تحقيقاتي على قضية بيلينجهام المُعقدة؟ لم يكن لديَّ فكرة مُحددة. وبهدف تحديد خطوات هذا الإجراء في ذهني، أخرجتُ تعليمات ثورندايك المكتوبة من جيبي وقرأتها بعناية. كانت تعليمات كاملة وواضحة، عوَّضت قلة خبرتي بالأمور الطبية والقانونية تعويضًا كافيًا:

(١) لا تُظهر أنك تُجري تحقيقات دقيقة أو تبدي بأي حالٍ من الأحوال ملاحظة مثيرة.

(٢) تأكد ممَّا إذا كانت جميع العظام المأخوذة من كل منطقة موجودة، وإذا لم تكن موجودة، فأي منها ناقص.

(٣) قم بقياس أقصى طول للعظام الأساسية وقارن بين عظام الأضلاع المتقابلة.

(٤) افحص العظام استنادًا إلى السنِّ والجنس والنمو العضلي الخاص بالمُتوفَّى.

(٥) لاحظ وجود أو غياب علامات الإصابة بمرضٍ بنيوي أو مرضٍ مَوضعي للعظام أو هياكل المفاصل، إصابات قديمة أو حديثة وأي اختلافات أُخرى عن الطبيعي أو المعتاد.

(٦) لاحظ وجود أو غياب مادة أديبوسير ومكانها، إن وُجدت.

(٧) لاحظ أي بقايا من الأوتار أو الأربطة أو الأنسجة اللينة الأخرى.

(٨) افحص اليد التي عُثر عليها في قرية سيدكوب بهدف الإجابة عن السؤال ما إذا كانت الإصبع قد بُترت قبل الوفاة أم بعدها.

(٩) قدِّر الفترة المُحتملة لغمر الأشلاء في الماء، ولاحظ أي تغيرات (مثل تلوث معدني أو عضوي) بسبب طبيعة المياه أو الطين.

(١٠) تحقق من الظروف (المباشرة أو غير المباشرة) التي أدَّت إلى اكتشاف العظام وأسماء الأشخاص المُتورِّطين في هذه الظروف.

(١١) دوِّن كل المعلومات كتابةً بأسرع ما يمكن، وضع خططًا وارسم مُخططات على الفور إذا سمحَت الظروف.

(١٢) حافظ على ملامح هادئة ومتبلدة: استمع بانتباهٍ ولكن بدون حماس، اطرح أقل عددٍ ممكن من الأسئلة، تابع أي تحقيقٍ قد يلفتُ انتباهك في المكان.

كانت هذه تعليماتي، بالوضع في الاعتبار أنني بصدَد فحص بضعة عظام جافة، فإنها بدت صعبة للغاية؛ في الواقع، كلما أكثرتُ قراءتها زادت شكوكي في مؤهِّلاتي للقيام بالمهمة.

وحين اقتربتُ من المشرحة، صار من الواضح أن بعضًا من تحذيرات ثورندايك كانت ضروريةً على أي حال. كان المكان تحت مسئولية رقيب شرطة، راقَب دخولي في حالةٍ من الشك والارتياب؛ كان يحوم حول المدخل عشرات الرجال، كان من الواضح أنهم مُراسلون صحفيون، وكأنهم قطيع من الثعالب. أبرزتُ أمر الطبيب الشرعي الذي استخرجه السيد مارشمونت، والذي قرأه الرقيب وظهرُه إلى الحائط، ليمنع رجال الصحافة من النظر من فوق كتفِه.

حظيتْ أوراق اعتمادي بالقبول، وفُتح الباب ودخلتُ منه، يصحبني ثلاثة مُراسلين مغامرين، طردهم الرقيب بسرعةٍ وأغلق الباب مرةً أخرى، وعاد ليُرشدني إلى الداخل ويراقب إجراءاتي باهتمامٍ ذكي ولكنه مُحرج جدًّا.

كانت العظام مُمددة على طاولة كبيرة ومُغطاة بملاءة، أزاحها النقيب ببطء، مُراقبًا وجهي باهتمامٍ شديد أثناء قيامه بذلك ليُلاحظ الانطباع الذي يتركه المشهد عليَّ. تخيَّلتُ

أنه شعر حتمًا بخيبة أملٍ إلى حدٍّ ما بسبب تصرُّفاتي الجامدة؛ فالبقايا لم تُوحِ لي بشيء أكثر مما توحيه مجموعة مُتهالكة جدًّا بالنسبة إلى «طالب علم العظام». أخرج الجرَّاح التابع للشرطة المجموعة بأكملها (كما أخبرَني الرقيب) بترتيبها التشريحي الصحيح؛ ومع ذلك، قمتُ بحصرها بعناية للتأكد من أنه لا يوجد شيء ناقص منها، ومُطابقًا إياها بالقائمة التي أمدَّني بها ثورندايك.

قلتُ في إشارة إلى أن إحدى العظام لم تكن مُدرجة في القائمة: «أرى أنكم عثرتم على عظمة الفخذ اليسرى!»

قال الرقيب: «أجل، ظهرت تلك العظمة مساء أمس في بركةٍ كبيرة تُسمَّى بركة بالدوين في مروج ساندبيت، بالقُرب من غابة ليتل مونك.»

سألته قائلًا: «هل هذا المكان قريب من هنا؟»

جاء الرد: «في الغابة القريبة من طريق لوتون.»

دوَّنت ملاحظة بالواقعة (ألقى الرقيب نظرة عليها كما لو أنه ندم على ذكرها)، ثم حوَّلت انتباهي إلى اعتباراتٍ عامة خاصة بالعظم قبل فحصها بالتفصيل. وكان من شأن إجراء عملية تنظيف كاملة، تحسين حالتها وتسهيل فحصها، حيث إنها كانت على نفس وضعها حين أُخرِجت من أماكن دفنها الخاصة، وكان من الصعب تحديد ما إذا كان لونها الأصفر المائل للحمرة هو صبغة حقيقية أم بسبب ترسيبات على السطح. وعلى كل حال، ونظرًا لأن التأثير عليها جميعًا كان واحدًا، اعتقدتُ أنها سمة مثيرة للاهتمام ودوَّنت ملاحظة بها. إنها تحمل عدة آثار من أماكن بقائها في البرك العديدة التي استُخرِجت منها، ولكن هذه الآثار ساعدتني قليلًا في تحديد المدة التي غُمِرت خلالها في المياه. كانت بالطبع مُغطاة بقشرةٍ من الطين وحشائش صغيرة علقت بها في بعض المواضع؛ إلا أن هذه الوقائع زادت من صعوبة تقدير طول المدة وحسْب.

بعض الآثار كانت بالفعل أكثر إفادة؛ فعلى سبيل المثال، التصقت بعظام كثيرة مجموعات البيض المُجففة الخاصة بحلزون شائع يعيش في البرك، وفي إحدى فجوات لوح الكتف الأيمن (حفرة تحت شوك الكتف) كان يُوجَد مجموعة من الأنابيب الطينية الخاصة بالدود الأحمر الذي يعيش في الأنهار. وفَّرت هذه البقايا دليلًا على مرور فترةٍ طويلة على انغمارها في الماء، ونظرًا لأنها لا يمكن أن تترسَّب على العظام حتى يختفي كل اللحم، فقد قدمت دليلًا على أن بعض الوقت — شهرًا أو شهرين على أي حال — قد مر على حدوث هذا. ومن قبيل الصدفة أيضًا أن توزيعها أظهر المَوضع الذي رقدت فيه

العظام، ورغم أن هذا بدا بلا أهمية في الظروف الحالية، فإني دوَّنتُ ملاحظات دقيقة عن وضع كل جسم ملتصق بالعظام، موضحًا موضعه برسومات تقريبية.

راقبَ الرقيب إجراءاتي بابتسامةٍ متساهلة.

وعلق قائلًا وأنا أُخرج شريط القياس خاصتي: «أنت تقوم بجرد مُحترف يا سيدي، كما لو أنك ستعرضها في المزاد. لا أظنُّ أن بيض الحلزون سيساعد كثيرًا في تحديد الهوية. وكل شيء قد أُنجز بالفعل.»

أجبتُ قائلًا: «لا شك، ولكن مهمتي هي تدوين ملاحظاتٍ مستقلة، ومراجعة الملاحظات الأخرى، عند الضرورة.» شرعت في قياس كل عظمةٍ رئيسية على حدة ومقارنتها بالجوانب المُناظرة. التوافق في الأبعاد والخصائص العامة لزَوج العظام لم يترك مجالًا للشك في أنها كانت أجزاءً لهيكلٍ عظمي واحد، وهو استنتاج أكده الجزء المُصاب بالاستعاجة عند رأس عظمة الفخذ اليمنى والجزء المُناظر في تجويف عظم الورك الأيمن. وعندما انتهيتُ من قياساتي، راجعت السلسلة الكاملة للعظام بالتفصيل، فاحصًا كلًّا منها بأشد الاهتمام لأيٍّ من تلك العلامات التي أشار إليها ثورندايك، دون استخراج شيء سوى الأشياء السلبية المتكررة برتابة. كانت طبيعية على نحو مُحبط ومُخيبة للآمال.

سأل الرقيب بحرص بينما كنتُ أغلق دفتري وأبسط ظهري: «حسنًا يا سيدي، ما الذي تستنتجه منها؟ لمن هذه العظام؟ في رأيك، هل هي عظام السيد بيلينجهام؟»

أجبتُ قائلًا: «سأندم جدًّا على ذِكر لمن تنتمي هذه العظام. كما تلاحظ عظمة واحدة تُشبه الأخرى كثيرًا جدًّا.»

قال موافقًا: «أظن أنها كذلك؛ ولكني أعتقد أنك بكل تلك القياسات وكل تلك الملاحظات، قد توصَّلتَ إلى شيء أكيد.» من الواضح أنه أُصيب بخيبة أمل حيالي؛ وأنا كذلك شعرتُ بخيبة أمل حيال نفسي حين قارنتُ تعليمات ثورندايك المفصلة بالنتيجة الهزيلة لتحقيقاتي. فما الذي آلت إليه اكتشافاتي؟ وإلى أي مدًى تطور التحقيق بناءً على التدوينات المعدودة في دفتري؟

بدا أن العظام كانت عظام رجلٍ ذي نموٍّ عضلي معقول، ولكن غير استثنائي؛ عمره تجاوز الثلاثين عامًا؛ إلا أنني عجزت عن تحديد كم يبلغ من العمر تحديدًا. وقدرتُ طوله بالتقريب خمس أقدام وثماني بوصات؛ إلا أن قياساتي من شأنها أن توفر بياناتٍ لتقديرٍ أكثر دقة يجريه ثورندايك. علاوة على ذلك، لم تكن العظام مُميزة إلى حدٍّ بعيد. لم يكن

هناك أي علامات دالة على الإصابة بمرَضٍ موضعي أو عام، ولا تُوجَد دلائل على إصابات قديمة أو حديثة، ولا انحرافات من أي نوع؛ طبيعية أو معتادة، والبتر تمَّ بعناية بالغة لدرجة أنه لم يحدُث خدش واحد على الأسطح المنفصلة. أما بخصوص مادة الموم (المادة الشمعية أو الصابونية الغريبة المُعتاد وجودها في الجثث التي تتحلل ببطءٍ في الأماكن الرطبة) فلم يكن لها أي أثر، ولم يبقَ من الأنسجة اللينة سوى أثر ضعيف، مثل بقعة من غراء مُجفَّف، لِوترٍ على طرف الكوع الأيمن.

كان الرقيب بصدد أن يُرجع الملاءة، بأسلوب رجل استعراضي انتهى توًّا من عرض، حينئذٍ جاء صوت طرقةٍ حادة على باب المشرحة. انتهى الشرطي من فرد الملاءة بدقة رسمية، وقادني إلى الرواق وأدار المفتاح وسمح بدخول ثلاثة أشخاص، ممسكًا الباب لي بعد دخولهم لكي أخرج. إلا أن مظهر الوافدين جعلني أتباطأ. أحدهم كان شرطيًّا محليًّا، من الواضح أنه في مهمة رسمية؛ والثاني كان عاملًا، في حالة رطبة وموحلة جدًّا، يحمل كيسًا صغيرًا؛ في حين أن الثالث أعتقد أنني شممتُ فيه رائحة زميل مِهني.

ظل الرقيب مُمسكًا الباب مفتوحًا لي.

سألني بنبرةٍ ودودة: «لا شيء يمكنني تقديمه لك، أليس كذلك يا سيدي؟»

سألته مُستفسرًا: «هل هذا هو الجرَّاح التابع للشرطة؟»

ردَّ الوافد الجديد قائلًا: «أجل، أنا الجرَّاح التابع للشرطة. هل تريد أي شيءٍ منِّي؟»

قال الرقيب: «هذا طبيب لديه تصريح من الطبيب الشرعي لفحص البقايا. إنه مُمثل عن أسرة المتوفَّى؛ أقصد أسرة السيد بيلينجهام.» أضاف جملته الأخيرة ردًّا على نظرةٍ مستفسرة من الجرَّاح.

قال الأخير: «فهمت. حسنًا، لقد عثروا على باقي الجذع، وفي ذلك، كما فهمت، الضلوع المفقودة من الجزء الآخر، أليس كذلك يا ديفيس؟»

ردَّ الشرطي قائلًا: «بلى، يا سيدي. المحقق بادجر يقول إن الضلوع كلها هنا، وكذلك جميع عظام الرقبة.»

قلت مُعلقًا: «يبدو أن المُحقق خبير بعلم التشريح.»

ابتسم الرقيب ابتسامةً عريضة وقال: «إنه رجل عليم ببواطن الأمور، إنه السيد بادجر. لقد جاء إلى هنا هذا الصباح في وقتٍ مبكر جدًّا وقضى وقتًا طويلًا في فحص العظام ومقارنتها ببعض الملاحظات المدوَّنة في مفكرة جيبه. أظن أنه لديه شيء بها؛ بيد أنه شديد التكتم حياله.»

وها هنا سكت الرقيب فجأة؛ ربما بعد أن قارن سلوكه بسلوك رئيسه.

قال الجرَّاح التابع للشرطة: «دعونا نفرش هذه العظام الجديدة على الطاولة. أزح الملاءة، ولا تُخرجها كما لو كانت جمرات، بل ناوِلها بحرص.»

أخرج العامل العظام الرطبة والمُوحلة واحدةً تلو الأخرى من الكيس، وبينما كان يضعها على الطاولة، رتَّبها الجرَّاح في مواضعها التقريبية الصحيحة.

وعلق قائلًا: «نُفِّذت هذه المهمة بدقة بالغة، ليست كتقطيعك الأخرق بساطور أو منشار. لقد فُصلت العظام من عند المفاصل على نحوٍ مرتَّب. والشخص الذي قام بذلك لا بدَّ أن لديه قدرًا من المعرفة بعلم التشريح، ما لم يكن جزارًا، وهو بالمناسبة، أمر ليس مُستحيلًا. لقد استخدم سكينَهُ بمهارةٍ استثنائية، وكما تلاحظون أن كل ذراعٍ قد خُلِعت بعظمة الكتف، مثلما يخلع الجزار كتف الضأن. هل هناك عظام أخرى في ذلك الكيس؟»

ردَّ العامل، وهو يمسح يديه بشيء من الحسم في الجزء الخلفي من سرواله، قائلًا: «كلَّا، يا سيدي. هذه كل المجموعة.»

أمعنَ الجراح النظر في العظام وهو يُضفي لمسة أخيرة على ترتيبها، وعلق قائلًا: «المُحقق لديه حق. جميع عظام الرقبة موجودة هنا. غريب جدًّا. ألا تعتقد ذلك؟»

«تقصد أن ...»

«أقصد أنَّ هذا القاتل غريب الأطوار يبدو أنه يتسبب لنفسه في كمية كبيرة جدًّا من المشكلات دون أي دواعٍ يستطيع المرء تكهُّنها. فعلى سبيل المثال، ها هي الفقرات العنقية. لا بدَّ أنه فصلها بحرصٍ عن الجمجمة من عند الفقرة الحاملة (فقرة الأطلسية) بدلًا من قطعها من خلال الرقبة. ثم نأتي إلى الطريقة التي قطع بها الجذع؛ لقد جاء الضلع الثاني عشر بهذه الكتلة، ولكن الفقرة الظهرية الثانية عشرة التي تنتمي إليها كانت مُتصلة بالنصف السُّفلي. تخيَّل العناء الذي تكبده حتمًا ليقوم بذلك، وهذا بدون قطع أو كسر العظام أيضًا. هذا أمر استثنائي؛ بل بالمناسبة هو مُثير للاهتمام جدًّا. تعامل معها بحذَر.»

أمسك بعظام الصدر بلُطف — حيث إنها كانت مُغطَّاة بطين رطب — وناولني إيَّاها مُعلقًا:

«هذا هو الدليل الأكثر تحديدًا لدينا.»

قلت: «تقصد أن اتحاد هذين الجزأين في كتلةٍ واحدة، تربط هذا باعتباره هيكلًا عظميًّا لرجلٍ مُسن؟»

«أجل، هذا هو الاقتراح الواضح، الذي أكده وضع العظام في الغضروف الضلعي. يمكنك أن تُخبر المُحقق، يا ديفيس، بأنني فحصتُ هذه الكومة من العظام وأنها موجودة جميعًا هنا.»

قال الشرطي: «هل تمانع تدوينها، يا سيدي؟ المُحقق بادجر يقول إنه كان يتعين عليَّ تدوين كل شيء.»

أخرج الجرَّاح مفكرة جيب، وبينما كان يختار الورقة المناسبة، سأل: «هل كوَّنتَ رأيًا بخصوص طول المُتوفَّ؟»

«أجل، أعتقد أن طوله كان يبلغ حوالي خمس أقدام وثماني بوصات» (هنا لاحظتُ أن عيني الرقيب مُثبتة عليَّ بنظرةٍ شزراء عليمة).

قال الجرَّاح التابع للشرطة: «قدرت الطول بأنه خمس أقدام وثماني بوصات ونصف، ولكننا سنتأكد حين نرى عظام الساق السُّفلية. أين وُجِدت هذه المجموعة، يا ديفيس؟»

«في بركة على الطريق في لوردز بوشيز يا سيدي، لقد ذهب المُحقق الآن إلى ...»

قاطعه الرقيب قائلًا: «لا يُهم أين ذهب. أجب عن الأسئلة وحسْب وانتبه إلى عملك.»

توبيخ الرقيب نقل إليَّ تلميحًا لم أتوانَ في التصرُّف على أساسه. وبعيدًا عن زميلي المهني الودود، كان من الواضح أن الشرطة كانت تميل للتعامل معي كمُتطفل يجب إبعاده عن «المعرفة» بقدر الإمكان. وبالتالي، شكرتُ زميلي والرقيب على لُطفهما، مُودِّعًا، حتى نلتقي في التحقيق، وغادرتُ وابتعدتُ سريعًا حتى وجدتُ لي موقعًا خفيًّا يمكنني من عنده أن أُبقي باب المشرحة على مَرمى البصر. وبعد مرور بضع دقائق، رأيتُ الشرطي ديفيس يخرج ويبتعد ليسير على الطريق.

رأيتُ هيئته تتضاءل سريعًا حتى ابتعد بقدر المسافة التي رأيتها مُستحبة، ثم بدأتُ أسير وراءه. كان الطريق يقود مباشرة بعيدًا عن القرية، وبعد أقل من نصف ميل كان يُفضي إلى ضواحي الغابة. عند هذه النقطة، أسرعت خطواتي لأقترب بعض الشيء، لينحرف فجأة من الطريق ويتخذ ممرًّا ضيقًا محفوفًا بالأشجار، حيث غاب عن ناظري لبعض الوقت. وما زلتُ أسرع الخُطى حتى رأيته مرة أخرى وهو ينحرف إلى طريق ضيق يُفضي إلى غابة من أشجار الزان ذات شجيرات كثيفة من نبات الإيلكس، تعقَّبته على طولها لعدة دقائق، وتضاءلت المسافة بيننا، حتى وقع فجأة على أُذني صوتٌ إيقاعي مثل خشخشة مضخَّة. وسرعان ما سمعتُ أصوات رجال، ثم قطع الشرطي الطريق إلى داخل الغابة.

في تلك اللحظة، تقدَّمت بمزيدٍ من الحذر، محاولًا تحديد مكان فريق البحث من خلال صوت الخشخشة، وحين انتهيتُ من ذلك اتخذتُ عطفة صغيرة بحيث يمكنني الاقتراب من الاتجاه المعاكس إلى تلك العطفة التي ظهر من عندها الرقيب.

لا يزال ضجيج المضخة يُرشدني، أخيرًا خرجت من فتحة صغيرة بين الأشجار وتوقفت لمراقبة المشهد. كان هناك بركة صغيرة تشغل وسط الفتحة، عرضُها لا يتعدَّى عشرات الياردات، بجوارها وقفتْ عربة بناء. من الواضح أن العربة الصغيرة ذات العجلتين استُخدمت في نقل معدَّاتٍ وضعت على الأرض بجوارها، والتي تتكوَّن من أصيص كبير — أصبحت حينذاك ممتلئة بالماء — ومجرفة وشوكة حشائش ومنخل ومضخة محمولة، والأخيرة مُثبَّت بها خرطوم طويل. كان هناك ثلاثة رجال إلى جوار الشرطي، أحدهم كان يحاول تشغيل مقبض المضخة، بينما كان الآخر ينظر في ورقةٍ سلَّمها الشرطي له توًّا. نظر إلى أعلى بحدة أثناء ظهوري في المشهد ورمقني بنظرة استياء صارخة.

وقال: «مهلًا، يا سيدي! لا يمكنك المجيء إلى هنا.»

وها أنا بعد أن أدركتُ أنني فعلًا موجود هنا، كانت غلطةً واضحة، وغامرت بالإشارة إلى المُغالطة.

«حسنًا، لا يمكنني أن أسمح لك بالبقاء هنا. مُهمتنا ذات طبيعة سرية.»

«أعرف بالضبط ما هي مهمتك، أيها المُحقق بادجر.»

قال وهو يتفحَّصني بابتسامةٍ ماكرة: «أوه، أتعرف حقًّا؟ وأتوقع أنني أعرف ما هي مهمتك أيضًا. ولكن لا يمكننا أن نقبل وجود أمثالك من أهل الصحافة يتلصَّصون علينا في الوقت الحالي، ولذا ارحل وحسب.»

رأيتُ أنه من الأفضل أن أُحرره من الوهم على الفور، وبالتالي، بعد أن أوضحتُ له من أكون، عرضتُ عليه تصريح الطبيب الشرعي، والذي قرأه بانزعاجٍ واضح.

وقال وهو يُعيد لي الورقة: «هذا جيد جدًّا يا سيدي، ولكنه لا يسمح لك بالتجسُّس على إجراءات الشرطة. أي بقايا سنكتشفها سنودعها في المشرحة، حيث يمكنك أن تفحصها كما تشاء؛ ولكن لا يُمكنك البقاء هنا ومُراقبتنا.»

لم يكن لديَّ هدف محدَّد من مراقبة إجراءات المحقق؛ ولكن تلميح الرقيب غير المتحفِّظ أثار فضولي، الذي زاده رغبة السيد بادجر الواضحة في التخلُّص منِّي. علاوة على ذلك، بينما كنَّا نتحدث، توقفت المضخة (الآن صارت الأرضية الموحلة للبركة مكشوفةً بالكامل)، وكان مساعد المُحقق يتعامل مع المجرفة بنفاد صبر.

قلتُ بنبرة مُقنعة: «الآن، وقد أوضحتُ لك الأمر أيها المحقق، هل من الحكمة أن تسمح أن يُقال عنك إنك رفضت مُمثلًا مفوضًا من أفراد الأسرة للتحقُّق من أي تصريحاتٍ قد تُدلي بها فيما بعد؟»

سألني قائلًا: «ما الذي تقصده؟»

«أقصد أنه إذا صادف وعثرتَ على بعض العظام التي ربما تكون جزءًا من جثة السيد بيلينجهام، فتلك الحقيقة من شأنها أن تكون ذات أهمية بالنسبة لأسرته أكثر من أي شخصٍ آخر. تعرف أن ثمة ممتلكات قيمة جدًّا ووصية صعبة التنفيذ جدًّا.»

«لا أعرف ذلك، ولا أرى علاقة ذلك بالموقف الآن.» (ولا أنا كذلك) «ولكن بما أنك أوضحتَ الغرض من الوجود أثناء البحث، فلا يمكنني الرفض رفضًا باتًّا. عليك ألا تعترض طريقنا وحسب، هذا كل ما في الأمر.»

وعند سماع هذا القرار، أمسك مساعده، الذي بدا أشبه بضابطٍ يرتدي ملابس مدنية، بمجرفته ونزل إلى الوحل الذي يُمثل قاع البركة، وأخذ ينحني ويُحدِّق النظر وسط كُتَل من الحشائش التي تشابكت معًا بسبب انحسار المياه. راقبه المُحقق في توتر، مُحذرًا إيَّاه من وقتٍ إلى آخر بأن «ينتبه حيثما يطأ.» ترك العامل المضخة ورفعها من عند حافة الوحل، ونظرتُ أنا والشرطي من عند موقعنا الخاص. ظل البحث بلا جدوى لبعض الوقت. وما إن انحنى المُنقِّب وأمسك بما تبين أنه قطعة من الخشب المُتحلل، اكتُشِفت بقايا طائر زرياب نفق منذ فترة طويلة، وفُحص ثم استُبعد. فجأة انحنى الرجل بجانب بركةٍ صغيرة تُركت في إحدى التجاويف الأكثر عمقًا، وحدَّق باهتمام في الوحل، ثم نهض واقفًا.

صاح قائلًا: «ثمة شيء هنا أشبه بعظمةٍ يا سيدي.»

قال المُحقق: «لا تنبشه إذن. حرِّك مجرفتك مباشرة في الوحل حيثما رأيته وضعْه في الغربال.»

اتبع الرجل هذه التعليمات، وبينما كان مُتجهًا نحو الشاطئ بكومةٍ كبيرة من الوحل اللزج على مجرفته، انكببْنا جميعًا على الغربال، الذي أخذه المُحقق ورفعه فوق الأصيص، آمرًا الشرطي والعامل أن «يمدَّا يد العون»، بمعنى أن يلتفُّوا حول الأصيص ويحجباني تمامًا بقدر الإمكان. وبالفعل، قاما بذلك بكفاءةٍ عالية وبمساعدة منه، وحين وُضِعت كمية من الوحل في الغربال، انحنى الرجال الأربعة عليه وكادوا أن يحجبوه عن الأنظار؛ واستطعتُ من خلال مدِّ عنقي أولًا من جهة ثم من الجهة الأخرى أن أُلقي نظرة خاطفة عليه، ولاحظتُ أنه يذوب تدريجيًّا أثناء هزِّ الغربال المغمور في الماء، جيئةً وذهابًا.

وفي التوِّ رفع المحقق الغربال من المياه وانحنى فوقه عن قرب أكثر ليفحص محتوياته. ولم يسفر الفحص عن نتائج حاسمة من الناحية الظاهرية؛ حيث صاحبه مجموعة من الهمهمات المُريبة جدًّا.

وأخيرًا، وقف الضابط والتفتَ إليَّ بابتسامة ودودة ولكنها ماكرة، ورفع الغربال أمامي لأتفحَّصه.

وقال: «أتودُّ أن ترى ماذا وجدنا أيها الطبيب؟»

شكرتُه ووقفت عند الغربال لأُلقي نظرة. كان يحتوي على خليطٍ من بقايا الأغصان الميتة، وحطام أوراق الشجر، وأعشاب ضارة، وقواقع مُستنقعات، وأصداف ميتة، ومحار المياه العذبة التي يتوقع المرء أن يستخرجها من وحل مستنقع قديم؛ ولكن بالإضافة إلى هذا، كانت هناك ثلاث عظام صغيرة أدهشتني من الوهلة الأولى حتى عرفتُ ماهيتها.

نظر إليَّ المحقق مُستفهمًا وقال: «ها؟»

أجبت قائلًا: «أجل، مُثير للاهتمام جدًّا.»

«أظن أنها عظام بشرية، ها؟»

أجبت: «حريٌّ بي أن أقول إنها كذلك بلا شك.»

قال المحقق: «الآن، هل يمكنك أن تُخمِّن من تخصُّه عظام الأصابع هذه؟»

كتمتُ ابتسامة عريضة (لأنني كنت أتوقع هذا السؤال) وأجبته قائلًا:

«يمكنني أن أُخمِّن وأقول إنها ليست أصابع. وإنما هي عظام إصبع القدم اليُسرى.»

فغَر المُحقق فاهُ من فرط الدهشة.

وغمغم قائلًا: «اللعنة! ظننتُ أنها تبدو سمينةً بعض الشيء.»

قلت: «أظنُّ أنك إذا توغَّلت في الوحل إلى قرب المكان الذي عثرتَ فيه على هذه العظام، فستجد باقي القدم.»

في الحال، تقدم الرجل الذي يرتدي ملابس مدنية ليتصرَّف بناءً على مُقترحي، وأخذ معه الغربال ليوفر الوقت. وكما هو متوقع، وبعد ملء الغربال مرَّتين بالوحل من قاع المُستنقع، ظهر إلى النور هيكل القدم بأكمله.

قال المُحقِّق حين قمتُ بفحص العظام ووجدتها جميعها كاملة: «أظن أنك سعيد الآن.»

أجبتُ قائلًا: «لا بدَّ أن أصبح أكثر سعادة إذا عرفتُ ما الذي كنتَ تبحث عنه في هذه البركة. لم تكن تبحث عن القدم، أليس كذلك؟»

ردَّ قائلًا: «كنتُ أبحث عن أي شيء ربما أجده. ولعلِّي أواصل البحث حتى نجد الجثة بأكملها. ولعلِّي أفتش جميع الجداول المائية والبرك حول هذا المكان، باستثناء بحيرة كونوت ووتر. لعلِّي أتركها لتكون الملاذ الأخير، نظرًا لأنها تتطلَّب إنزال معدات الجرف من زورق وهذا غير مرجَّح بالنسبة للبرك الأصغر حجمًا. ربما يكون الرأس هناك؛ فهي أعمق من البحيرات الأخرى.»

لقد خطر على بالي الآن بعد أن عرفتُ كل ما هو من المرجَّح لي أن أعرفه، وهو ما كان قليلًا بما يكفي، أنه حان لي الوقت لأترك المُحقق يتابع إجراءات البحث دون الشعور بالحرَج من وجودي. ومِن ثَم، شكرته على مساعدته وغادرتُ من الطريق الذي جئتُ منه.

ولكن بينما تتبعتُ خطواتي على طول الطريق الوارف الظلال، تفكرتُ بعُمق في إجراءات الضابط. لقد أسفرت فحوصاتي لليد المشوهة عن استنتاجٍ مفاده أن الإصبع بُترت بعد الوفاة أو بعدها بوقتٍ قصير، ولكن المرجَّح أكثر أن هذا حدث بعد الوفاة. ولقد توصَّل أحدهم بكل وضوحٍ إلى نفس الاستنتاج، وقد عبَّر عن رأيه أمام المُحقق بادجر؛ نظرًا لأنه من الواضح أن الرجل مُتحمس جدًّا بخصوص الإصبع المفقودة. ولكن لماذا يبحث عنها هنا في حين أن اليد عُثر عليها في منطقة سيدكوب؟ وما الذي يتوقَّع معرفته حين يعثر عليها؟ ليس هناك شيء مُميز بخصوص الإصبع، أو على الأقل، عظام الإصبع؛ وهدف إجراءات البحث الحالية هو تحديد هوية الشخص صاحب هذه البقايا من العظام. ثمة شيء غامض يُحيط بالقضية، شيء يُوحي بأن المحقق بادجر بحوزته معلومات سرية. ولكن ما نوعية المعلومات التي قد تكون في حوزته؟ ومن أين حصل عليها؟ كانت هذه أسئلة لم أستطع أن أجد الإجابة عنها، وأخذتُ أفكر فيها بلا جدوى حتى وصلتُ إلى النزل المتواضع حيث من المُقرَّر أن يُجرى التحقيق، وحيث اعتزمت أن أقوي نفسي بوجبة غداء متواضعة استعدادًا لحضور التحقيق.

الفصل الثالث عشر

تحقيق الطبيب الشرعي

قد تكون إجراءات تلك المؤسسة العريقة البارعة، محكمة الطب الشرعي، عرضة للإضرار بهيبتها بسبب البيئة غير القضائية التي تُعقَد فيها. كان من المُقرر إجراء التحقيق الحالي في غرفةٍ طويلة ملحقة بالنُّزُل، والمُخصَّصة عادة للتجمُّعات ذات الطابع الودي، كما تشهد مختلف مبانيه المُلحقة.

ثم، اتَّجهت إلى مكان التحقيق بعد غداءٍ مطول وبعض التأمُّل أثناء تدخين الغليون، وكوني أول من وصل — بعد أن أدَّت هيئة المُحلفين اليمين واتجهت إلى مشرحة الجثث لمشاهدة الرفات — قضيتُ الوقت في التفكير في عادات الموجودين المُعتادين في الغرفة على ضوء الأشياء التي تحتويها. عُلِّقت لوحة تنشين مُثبت بها سهم أو سهمان على نهاية الحائط لجذب الكثير من شجعان القرية لاختبار مهاراتهم، كما كانت هناك علامات محفورة على مائدةٍ مصنوعة من خشب البلُّوط تدلُّ على ممارستهم لعبة إلقاء العُملة المعدنية؛ وصندوق مفتوح كبير مملوء بشَعرٍ مستعار أبيض اللون وأردية ملونة ورماح خشبية وسيوف وشارات المُلك، مَطلية على نحوٍ فظ بالورق المذهب، من الواضح أنها مُرتبطة بالحفلات الصبيانية للمؤسَّسة الأخوية أوردر أوف درودز.

لقد استنفدتُ اهتمامي بهذه الآثار ونقلت انتباهي إلى معرض الصور عندما توافد بقية الحضور والشهود. وعندها جلستُ مُسرعًا على الكرسي المريح الوحيد بجانب المقعد الموضوع على رأس المنضدة، ويُفترض أنه مُخصَّص للطبيب الشرعي؛ وبالكاد فعلتُ ذلك عندما دخل الأخير برفقة هيئة المُحلفين. بعدهم مباشرة جاء الرقيب، والمحقق بادجر، ورجل أو اثنان من الرجال المرتدين ملابس مدنية، وأخيرًا أحد الجراحين.

جلس الطبيب الشرعي على مقعده على رأس الطاولة وفتح دفتره، وجلست هيئة المُحلفين على دِكَّتَين على جانبٍ واحد من الطاولة الطويلة.

نظرتُ بشيء من الاهتمام إلى «الرجال الطيبين والصادقين» الاثني عشر. كانوا مجموعة يُمثلون التجار البريطانيين، هادئين، يقظين، ومَهيبين إلى حدٍّ ما؛ لكن ما جذب انتباهي للغاية هو رجل ضئيل البنية برأسٍ كبير جدًّا وشعْر كثيف مُنتصب، وقدرت، بعد إلقاء نظرةٍ على وجهه الذكي والمشاكس، والركبتين اللامِعتين لسرواله، أنه إسكافي القرية. جلس بين رئيس العمال عريض المنكبين، الذي كان يُشبه الحداد، ورجل عنيد ذي وجه مُشرب بالحمرة يوحي سمتُه العام من السِّمنة الشديدة بمهنته كجزار.

بدأ الطبيب الشرعي حديثه قائلًا: «التحقيق، أيها السادة، الذي نبدؤه الآن يتعلق بسؤالين. الأول هو سؤال الهوية: من كان هذا الشخص الذي رأينا جثته للتو؟ والثاني هو: كيف ومتى وبأي طريقةٍ مات؟ سنتناول موضوع الهوية أولًا ثم نبدأ بالظروف التي اكتُشفت فيها الجثة.»

هنا وقف الإسكافي ورفع يدًا شديدة القذارة.

فقال: «أطلب نقطة نظام، سيدي الرئيس.» نظر إليه المُحلفون الآخرون بفضولٍ ويؤسفني أن أقول إن بعضهم، ابتسم ابتسامةً عريضة. فتابع قائلًا: «لقد أشرتَ يا سيدي إلى الجثة التي شاهدناها للتو. وأودُّ أن أُشير إلى أننا لم نرَ جثة، بل شاهدنا مجموعةً من العظام.»

فأجابه الطبيب الشرعي: «سوف نُشير لها على أنها رفات، إن كنتَ تُفضِّل ذلك.»

فكان ردُّه: «أفضل ذلك بالفعل.» ثم جلس المُعترض.

«جيد جدًّا.» ثم عاد الطبيب الشرعي، وبدأ في استدعاء الشهود، وكان أولهم العامل الذي اكتشف العظام في حوض نبات البقلة المائية.

سأل الطبيب الشرعي الشاهد عندما أخبره بقصة الاكتشاف: «هل تعرف كم من الوقت مضى منذ أن نُظِّف حوض نبات البقلة آخِر مرة؟»

«نُظِّف بأوامر من السيد تابر قبل أن يتخلَّى عنه مباشرة. سيكون ذلك أفضل قليلًا مما كان عليه منذ عامين. في شهر مايو كان الأمر كذلك. ساعدتُ في تنظيفه. لقد عملتُ في هذا المكان نفسه، ولم يكن هناك أي عظام حينها.»

نظر الطبيب الشرعي إلى هيئة المُحلفين ثم سألهم: «هل لديكم أي أسئلة أيها السادة؟»

وجَّه الإسكافي نظرةً عابسة مُخيفة إلى الشاهد وسأل:

«هل كنتَ تبحث عن عظام عندما عثرت على هذا الرفات؟»

صاح الشاهد: «أنا! ولماذا ينبغي أن أبحث عن العظام؟»

قال الإسكافي بصرامة: «لا تتهرَّب. أجب عن السؤال: نعم أم لا.»

«لا، بالطبع لم أكن كذلك.»

هزَّ المحلف رأسه الكبير على نحوٍ مُريب كما لو أنه يُشير إلى أنه سيتغاضى عن الأمر هذه المرة، ولكن يجب ألا يحدث ذلك مرة أخرى؛ واستمرَّ استجواب الشهود، دون إثارة أي شيءٍ جديد بالنسبة لي أو إثارة أي أمرٍ آخر، حتى وصف الرقيب العثور على الذراع اليُمنى في عشِّ طائر الوقواق.

سأل الطبيب الشرعي: «هل كان هذا الاكتشاف مُصادفة؟»

«لا. لقد تلقَّينا تعليماتٍ من شرطة سكوتلانديارد بالبحث في أي بحيرة مُحتملة في هذا الحي.»

امتنع الطبيب الشرعي بتكتُّم عن استثارة هذه المسألة أكثر من ذلك، لكن من الواضح أن صديقي الإسكافي كان في حالة تأهُّب، وتوقعتُ إجراء استجواب سريع للسيد بادجر عندما جاء دوره. كان للمُحقق الرأي نفسه على ما يبدو، لأنني رأيته يُلقي نظرةً تنمُّ عن الحقد الدفين الظاهر على تلميذ سانت كريسبين الشديد التحري. في الواقع، جاء دوره بعد ذلك، ووقف شعْر الإسكافي من شعوره بفرحةٍ مُروِّعة.

كان العثور على النصف السفلي من الجذع في بحيرة ستابل في لوتون إنجازًا للمُحقق نفسه، لكنه لم يكن متفاخرًا بذلك. وأشار إلى أن هذا الاكتشاف يتبع بشكل طبيعي الاكتشاف السابق في عش طائر الوقواق.

سأل الإسكافي: «هل كانت لديك أي معلومات سِرية دفعتك للبحث في هذا الحي بالتحديد؟»

أجاب بادجر: «لم تكن لدينا معلومات سرية على الإطلاق.»

تابع المُحلف، مُشيرًا ببعض الأدلة الجنائية وسبابة قذرة للغاية نحو المُحقق قائلًا: «الآن سأوضح لك الأمر. هذا الرفات عُثِر عليه في سيدكوب، وهذا الرفات عُثِر عليه في سانت ماري كراي، وهذا الرفات في لي. وجميع هذه الأماكن تُوجَد في كينت. ألا يتَّضح أن ذلك يجعل من الضروري علينا التوجه مباشرة إلى غابة إيبينج، الموجودة بإسيكس، والبحث عن هذه العظام والعثور عليها؟»

أجاب بادجر: «كنا نقوم ببحثٍ منهجي لجميع الأماكن المُحتملة.»

قال الإسكافي بابتسامةٍ شرسة: «بالضبط، هذه هي وجهة نظري وحسب. فأنا أقول، أليس من المُضحك أنه بعد العثور على الرفات في كِنت على بعد عشرين ميلًا من هنا، ومع وجود نهر التيمز بينهما، تعين عليك المجيء إلى هنا للبحث عن العظام والذهاب مباشرة إلى بحيرة ستابل، حيث تصادَف وجودها، وتجِدها فعلًا؟»

أجاب بادجر بحدة: «كان يمكن أن يكون الأمر مُضحكًا أكثر، لو ذهبنا مباشرة إلى مكان لم يتصادف أن تُوجَد فيه، ووجدناها.»

ظهرت ضحكات مُمتنَّة من أحد عشر رجلًا صالحًا وصادقًا، وابتسم الإسكافي ابتسامةً عريضة؛ ولكن قبل أن يفكر في ردٍّ مناسب، قام الطبيب الشرعي بالتدخُّل.

وقال: «السؤال ليس جوهريًّا للغاية، ويجب ألا نُحرج الشرطة بالتحقيقات غير الضرورية.»

قال الإسكافي: «في اعتقادي أنه كان يعلم بوجودها هناك طوال الوقت.»

قال الطبيب الشرعي: «أقرَّ الشاهد أنه ليست لديه معلومات سرية.» وشرع في أخذ بقية أدلة المُحقق، التي يُراقبها المحلف الناقد عن كثب.

قُدِّم تقرير العثور على الرفات بالكامل، واستُدعِي جرَّاح الشرطة وأدَّى القسم؛ قام أعضاء هيئة المُحلفين ببسط أظهرهم إلى الوراء في جوٍّ من الترقُّب، وقلبتُ صفحةً من دفتر ملاحظاتي.

سأل الطبيب الشرعي: «هل فحصت العظام، محل نقاش هذا التحقيق، الموجودة حاليًّا في المشرحة؟»

«نعم فعلت.»

«هل يمكن أن تُخبرنا بما لاحظته؟»

«اكتشفتُ أن العظام هي عظام بشرية، وهي في رأيي جميع أجزاء الشخص نفسه. إنها تُشكل هيكلًا عظميًّا مُكتملًا باستثناء الجمجمة، والإصبع الثالثة من اليد اليسرى، وعظام الركبة والساق؛ أعني العظام بين الرُّكبتَين والكاحِلين.»

«هل هناك ما يُفسر غياب الإصبع المفقودة؟»

«لا. ليس هناك تشوُّه ولا دليل على بترِها خلال حياته. في رأيي بُتِرَت بعد الموت.»

«هل يمكنك أن تُعطينا أي وصفٍ للمُتوفَّى؟»

«يجب أن أقول إنها عظام رجل مُسن، ربما تجاوز الستين من عمره، يبلغ طوله حوالي خمس أقدام وثماني بوصاتٍ ونصف، وهي عظام قوية إلى حدٍّ ما، مليئة بالعضلات

بشكلٍ نسبي، ومحفوظة جيدًا. لا تُوجَد علامات على المرض باستثناء بعض النقرس الروماتيزمي القديم لِمفصل الورك الأيمن.»

«هل يمكنك تكوين رأي عن سبب الوفاة؟»

«لا، لا تُوجَد علامات وقوع عنف أو إصابات. لكن سيكون كذلك من المُستحيل تكوين أي رأي حول سبب الوفاة حتى نرى الجمجمة.»

«هل لاحظتَ أي شيء آخر مُهم؟»

«نعم، لقد أدهشني وضوح المعرفة والمهارة التشريحية من قِبَل الشخص الذي قطع أعضاء الجسد. وثبتَتْ معرفته بعلم التشريح من خلال حقيقة أن الجثة قد قُسِّمت إلى مناطق تشريحية مُحدَّدة. على سبيل المثال، فإن عظام الرقبة مُكتملة وتشمل المفصل العلوي للعمود الفقري المعروف باسم الفقرة الحاملة (الأطلسية)؛ في حين أن الشخص الذي ليس لديه معرفة تشريحية من المُحتمل أن يخلع الرأس عن طريق قطع الرقبة. ثم فُصِلت الذراعان باستخدام عظام الكتف (أو لوح الكتف) والترقوة (أو عظمة الترقوة) مُتصلة، تمامًا مثلما يحدُث عند بتر الذراع للتشريح.

تظهر المهارة من خلال الطريقة الدقيقة التي قُطِّع بها. لم تُختَرَق الأجزاء بخشونة، ولكن فُصِلَت بمهارةٍ من المفاصل لدرجة أنني لم أكتشف خدشًا أو علامةً واحدة للسكين على أيٍّ من العظام.»

«هل يمكنك اقتراح أي فئةٍ من الأشخاص من المُحتمل أن تمتلك المعرفة والمهارة التي تُشير إليها؟»

«بالطبع، هذه المهارة يمتلكها جرَّاح أو طالب طب، وربما جزَّار.»

«هل تعتقد أن الشخص الذي قطع أعضاء هذه الجثة ربما كان جرَّاحًا أو طالبًا في الطب؟»

«نعم، أو جزَّارًا. شخص ما اعتاد تقطيع الجُثَث وماهر باستخدام السكين.»

هنا هبَّ الإسكافي واقفًا على قدميه.

قال: «إنني أقف، سيدي الرئيس، للاحتجاج على البيان الذي أُدلِي به حالًا.»

سأله الطبيب الشرعي: «أي بيان؟»

تابع الإسكافي بلهجة خطابية: «على الاتهامات الواردة، والتي أُلقِيَت على مهنةٍ مُحترمة.»

قال الطبيب الشرعي: «أنا لا أفهمك.»

«لقد ألمح الدكتور سمرز إلى أن جريمة القتل هذه قد ارتكبها جزَّار. الآن، عامل في تلك المهنة المُحترمة يجلس ضمن هيئة المُحلفين ...»

صاح الجزار: «دعْني وشأني.»

أصرَّ الإسكافي قائلًا: «لن أتركك وحدك. أنا أرغب ...»

«أوه، اخرس، بوب!» كان هذا هو صوت رئيس العمال، الذي مد، في اللحظة نفسها، يده الضخمة المُشعرة التي أمسك بها طرف معطف الإسكافي وأعاده إلى وضعية الجلوس بضربةٍ هزَّت الغرفة.

لكن السيد بوب، رغم جلوسه، لم يسكت. وقال: «أرغب في تسجيل احتجاجي.»

قال الطبيب الشرعي: «لا أستطيع أن أفعل ذلك، ولا يُمكنني السماح لك بمقاطعة الشهود.»

قال السيد بوب: «إنني أعمل لصالح صديقي هنا وأعضاء المهنة المحترمة ...»

لكن هنا انقلب الجزار عليه بوحشية، وهمس بصوتٍ أجش:

«اسمع، بوب؛ لديك الكثير مما يلعق به القط ...»

احتجَّ الطبيب الشرعي بشدة قائلًا: «أيها السادة! أيها السادة! لا يمكنني السماح بهذا السلوك غير اللائق. إنكم تتناسَون جدية الموقف وموضع المسئولية المنوطة بكم. يجب أن أُصرَّ على سلوكٍ أكثر تهذيبًا ولياقة.»

ساد صمتٌ عميق، وفي خضمِّه اختتم الجزار بنفس الهمس الأجش:

«... يلعق به كفوفه.»

رمقه الطبيب الشرعي بنظرةٍ انتقادية، والتفت إلى الشاهد واستأنف التحقيق.

«هل لك أن تُخبرنا، أيها الطبيب، كم من الوقت مضى على وفاة الراحل؟»

«أظن أنه ما لا يقل عن ثمانية عشر شهرًا، بل ربما أكثر من ذلك. ولكن يستحيل تحديد تلك الفترة المزيدة عن طريق الفحص وحدَه. العظام نظيفة تمامًا — أي نظيفة من جميع الأنسجة اللينة — وستظل إلى حدٍّ كبير على حالتها الحالية سنوات عديدة.»

«أدلة الرجل الذي عثر على الرفات في حوض البقلة المائية تُشير إلى أنه يستحيل وجودها هناك لأكثر من عامين. في رأيك، هل تتفق العوامل الظاهرية مع هذا الرأي؟»

«نعم، تمامًا.»

«هناك نقطة أخرى، أيها الطبيب؛ نقطة مهمة للغاية؛ هل تجد أي شيء في أيٍّ من العظام، أو جميعها معًا، مما يُمكِّنك من تحديد أنها عظام فردٍ مُعين؟»

أجاب الدكتور سمرز: «لا. لم أجد أيَّ خصوصية يمكن أن توفر وسيلةً لتحديد الهوية الشخصية.»

قال الطبيب الشرعي: «الوصف الذي عُرِض علينا لشخصٍ مفقود هو رجل يبلغ من العمر تسعةً وخمسين عامًا، يبلغ طوله خمس أقدام وثماني بوصات، يتمتع بصحةٍ جيدة، وبنية متينة جدًّا وعريضة إلى حدٍّ ما، ولديه كسر بوت قديم في الكاحل الأيسر. هل الرفات الذي فحصته يتفق مع هذا الوصف؟»

«نعم، بقدْر ما يكون الاتفاق مُمكنًا، ليس هناك أي خلاف.»

«قد يكون رفات ذلك الشخص؟»

«ربما، لكن لا يُوجَد أي دليل إيجابي على ذلك. قد ينطبق الوصف على نسبةٍ كبيرة من الرجال المُسنِّين، باستثناء ما يتعلق بالكسر.»

«ألم تجد أي علاماتٍ لِمثل هذا الكسر؟»

«لا. يؤثر كسْر بوت على العظمة المُسمَّاة بالشظية. هذه هي إحدى العظام التي لم يُعثَر عليها بعد، لذلك لا يُوجَد دليل على هذه النقطة. كانت القدم اليسرى طبيعية تمامًا، ولكن ربما كانت كذلك على أي حال، إلا إذا كان الكسر قد أدَّى إلى تشوُّهٍ كبير.»

«لقد قدرتَ أن طول الميت يزيد بنصف بوصة عن طول الشخص المفقود. فهل هذا يُمثل خلافًا؟»

«لا، تقديري مجرد تقدير تقريبي فقط. نظرًا لأن الذراعَين مُكتملتان والساقين ليستا كذلك، فقد أسستُ حساباتي على العرض بين الذراعين. لكن قياس عظام الفخذ يُعطي نفس النتيجة. طول الفخذ قدمٌ واحدة وسبع بوصات وخمسة أثمان.»

«إذن ربما لم يكن طول المُتوفَّى أكثر من خمس أقدام وثماني بوصات؟»

«هذا صحيح، من خمس أقدام وثماني بوصات إلى خمس أقدام وتسع بوصات.»

«شكرًا لك. أعتقد أن هذا كل ما نريد أن نطرحه عليك أيها الطبيب؛ ما لم ترغب هيئة المُحلفين في طرح أي أسئلة.»

ألقى نظرةً مُضطربة على تلك الهيئة الموقرة، وعلى الفور فإن بوب الذي لا يمكن منعه استغلَّ الموقف.

قال الإسكافي: «بالنسبة لهذه الإصبع المفقودة، تقول إنها بُترت بعد الموت؟»

«هذا هو رأيي.»

«الآن، هل يمكنك أن تُخبرنا لماذا بُترت؟»

«لا، لا أستطيع.»

«أوه، هيا يا دكتور سمرز، يجب أن تكون قد كوَّنتَ رأيًا بشأن هذا الموضوع.»

وهنا تدخل الطبيب الشرعي قائلًا: «لا يهتم الطبيب إلا بالأدلة القائمة على الفحص الفعلي للرفات. وأي آراء أو تخمينات شخصية ربما يكون قد شكَّلها لا تعدُّ دليلًا، ويجب ألا يُسأل عنها.»

اعترض بوب وقال: «لكن يا سيدي، نريد أن نعرف سبب بتر هذه الإصبع. لا يمكن خلعها بدون سبب. هل لي أن أسأل، سيدي، إذا كان لدى الشخص المفقود أي شيءٍ غريب يتعلق بتلك الإصبع؟»

أجاب الطبيب الشرعي: «لا يرِد في الوصف المكتوب أي شيء بهذا المعنى.»

قال بوب: «ربما، يمكن للمُحقق بادجر أن يُخبرنا.»

قال الطبيب الشرعي: «أعتقد أنه من الأفضل ألا نوجِّه إلى الشرطة الكثير من الأسئلة. فسيُخبروننا بأي شيءٍ يرغبون في نشره على الملأ.»

صاح الإسكافي قائلًا: «أوه، حسنًا جدًّا. إذا كان الأمر يتعلق بالتكتم، فليس لديَّ المزيد لأقوله؛ أنا فقط لا أرى كيف سنصل إلى حُكم إذا لم تكن الحقائق أمامنا.»

بعد استجواب جميع الشهود الآن، شرع الطبيب الشرعي في تلخيص ما قيل ومُخاطبة هيئة المحلفين.

«أيها السادة، لقد سمعتم الأدلة من عدة شهود، وستُدركون أنها لا تُمكِّننا من الإجابة عن أيٍّ من الأسئلة التي تشكل موضوع هذا التحقيق؛ فنحن نعلم الآن أن المتوفَّى كان رجلًا مُسنًّا، يبلغ من العمر حوالي ستين سنة، وطوله حوالي خمس أقدام وثماني بوصات إلى تسع؛ وأن وفاته حدثت منذ فترةٍ تتراوح بين ثمانية عشر شهرًا إلى عامين. هذا كل ما نعرفه. من الطريقة التي تعامل بها الجسد يمكننا تشكيل التخمينات فيما يتعلق بظروف وفاته. ولكن ليس لدينا معرفة فعلية. لا نعرف من هو المُتوفَّى أو كيف حدثت الوفاة. وبالتالي، سيكون من الضروري تأجيل هذا التحقيق حتى تتوفَّر حقائق جديدة، وعندما يحدُث ذلك، ستتلقَّون إشعارًا واجبًا يفيد بضرورة حضوركم.»

حلَّ ضجيج الكراسي المتحركة محلَّ صمت قاعة المحكمة، ثم بدأ حديث حماسي نهضت أثناءه وشققتُ طريقي للخروج إلى الشارع. وعند الباب التقيتُ بالطبيب سمرز، الذي كانت عربته ذات العجلتين تنتظِر بالقُرب.

فسألني: «هل ستعود إلى المدينة الآن؟»

أجبت: «نعم، بمجرد أن أستطيع اللحاق بالقطار.»

«إذا قفزتَ إلى عربتي، فسوف أوصلك في الوقت المناسب. سيفوتك إذا مشيت.»

قبلتُ عرضه بامتنان، وبعد دقيقةٍ واحدة كانت العربة تدور بخفة على الطريق إلى المحطة.

قال الطبيب سمرز: «هذا الشيطان الصغير الغريب، ذلك الرجل المدعو بوب، ذو شخصية غريبة؛ اشتراكي، مناصر للعمال، مُحرض، غريب الأطوار؛ كل تلك الصفات اللازمة لمشاجرة كلامية.»

أجبت: «نعم، هذا ما أشار إليه مظهره. لا بدَّ أن الطبيب الشرعي يحاول الحصول على نذْلٍ مشاكس مثل هذا في هيئة مُحلفين.»

ضحك سمرز قائلًا: «لا أعرف. لقد قدم عنصرًا فكاهيًّا. وبعد ذلك ستعلم، هؤلاء الرفاق لهم استخداماتهم؛ فبعض أسئلته كانت وثيقة الصلة بالموضوع.»

«لذا بدا أن بادجر يفكر.»

ضحك سمرز وقال: «نعم، يا للعجب! بادجر لم يُحبه على الإطلاق، وأظن أن المُحقق المبجَّل كان يُبحر في اتجاه الريح في إجاباته.»

«هل تعتقد أن لديه بالفعل بعض المعلومات السرية؟»

«يعتمد على ما تعنيه بكلمة «معلومات»؛ فالشرطة ليست هيئة للمضاربة أو التخمين. لن تتحمَّل كل هذه المشكلات ما لم يكن لديها نصيحة قيمة من شخصٍ ما. كيف حال السيد والآنسة بيلينجهام؟ كنت أعرفهما عندما كانا يعيشان هنا.»

كنت أفكر في إجابةٍ رصينة عن هذا السؤال عندما وصلنا إلى ساحة المحطة. وفي نفس اللحظة، دخل القطار إلى الرصيف، ومع مُصافحته بسرعةٍ شكرتُه على عجَل، وقفزت من العربة وانطلقت إلى المحطة.

خلال الرحلة البطيئة إلى المنزل، قرأتُ ملاحظاتي وسعيتُ إلى استخلاص بعض الحقائق من الحقائق التي حدَّدوها بخلاف تلك الظاهرة على السطح، ولكن دون نجاحٍ كبير. ثم بدأتُ في تخمين ما قد يُفكر فيه ثورندايك بشأن الأدلة في التحقيق، وما إذا كان سيُصبح راضيًا عن المعلومات التي جمعتُها. استمرت هذه التكهنات، مع بعض الاستطرادات من حينٍ لآخر، حتى وصلتُ إلى شارع تيمبل وصعدت الدرَج بشغفٍ مُتجهًا إلى شقة صديقيَّ.

ولكن كانت هناك خيبة أمل بانتظاري؛ كان المكان فارغًا باستثناء بولتون، الذي ظهر عند باب المُختبر في مئزره الأبيض، وفي يديه زوج من الملاقط الدقيقة ذات الرأس المسطح.

فأوضح قائلًا: «كان على الطبيب أن يذهب إلى بريستول للتشاور بشأن حالةٍ طارئة، وذهب الدكتور جيرفيس معه. سيكونان في الخارج لمدة يومٍ أو يومين، كما أتوقع، لكن الطبيب ترك هذه الرسالة لك.»

أخذ رسالة من الرف، حيث كانت موضوعةً بشكل واضح على الحافة، وسلَّمها لي. كانت ملاحظةً قصيرة من ثورندايك يعتذر فيها عن رحيله المفاجئ ويطلب مني أن أُعطي بولتون ملاحظاتي مع أي تعليقاتٍ كان عليَّ أن أُدلي بها.

وأضاف: «سوف تكون مُهتمًّا بمعرفة أن الالتماس سيُستَمع إليه في المحكمة الحسبية بعد غد. لن أحضر بالطبع، ولا جيرفيس أيضًا؛ لذلك أودُّ أن تحضر أنت وأن تبقى مُتيقظًا لأي شيء قد يحدُث أثناء جلسة الاستماع، والذي قد لا يظهر في الملاحظات التي سيُطلَب من كاتب مارشمونت تدوينها. لقد استعنت بالدكتور باين للوقوف بجانبك ومساعدتك في هذه الجلسة، حتى تتمكن من حضور المحكمة بضميرٍ يقِظ.»

كان هذا مُمتعًا للغاية ومُكفِّرًا تمامًا عن خيبة الأمل البسيطة. وبامتنانٍ عميق للثقة التي منحها لي ثورندايك، وضعتُ الرسالة في جيبي، وسلمتُ ملاحظاتي إلى بولتون، وتمنيتُ له «أمسية سعيدة»، وذهبت إلى حارة فيتر.

الفصل الرابع عشر

أمام المحكمة الحسبية

كانت المحكمة الحسبية تُغلفها أجواء من الهدوء المتكلَّف حين دخلتها مع الآنسة بيلينجهام ووالدها. من الواضح أن الجمهور الفضولي العريض لم يكن على علمٍ بالدعوى التي أوشكت إقامتها، أو لم يُدرك ارتباطها بـ «قضية البقايا المشوَّهة» الحساسة؛ ولكن المُحامين والصحفيين، الأكثر اطلاعًا، قد تجمعوا بقدْرٍ من الثبات، وملأت همهمات حواراتهم الأجواء مثل طنين آلة الأرغن الذي يسبق عقد القداس في الكاتدرائية.

وحين دخلنا، قام رجل عجوز مليح الوجه وأتى لاستقبالنا، مُصافحًا يد السيد بيلينجهام بحرارةٍ ومُلقيًا التحية على الآنسة بيلينجهام بانحناءةٍ مهذَّبة.

«هذا هو السيد مارشمونت يا دكتور.» قالها الأول مُقدمًا إيَّاي، وبعد أن شكرَني المحامي على المتاعِب التي واجهتها أثناء حضور التحقيق، قادنا إلى دكَّة، كان على أقصى طرفٍ منها يجلس رجل عرفتُ أنه السيد هيرست.

عرَّفه السيد بيلينجهام في اللحظة نفسها ورمقَه بنظرةٍ غاضبة.

صاح بصوتٍ مسموع بكل وضوح: «أرى ذلك الوغد موجودًا هنا! ويتظاهر وكأنه لا يراني، لأنه يخجل من أن ينظر في وجهي، ولكن ...»

هتف المحامي المفزوع قائلًا: «صَهْ! صَهْ! أستاذي العزيز. لا ينبغي أن نتحدَّث بهذا الأسلوب، وخاصة في هذا المكان. اسمح لي أن أتوسَّل إليك ... أتوسل إليك سيطِرْ على مشاعرك، لا تُدلِ بتصريحاتٍ طائشة؛ في الواقع لا تُدلِ بأي تصريحات بتاتًا.» أضاف جملته الأخيرة بقناعةٍ راسخة بأن أي تصريحات قد يُدلي بها السيد بيلينجهام من شأنها أن تكون طائشة.

ردَّ السيد بيلينجهام بنبرةٍ نادمة: «سامحني يا مارشمونت، سأتمالك نفسي؛ سأكون حذرًا للغاية. لن أنظر ناحيته مرة أخرى، لأنني إذا فعلت، فسأذهب إليه على الأرجح وأكسر أنفه.»

ولا يبدو أنَّ هذا النوع من الحذَر لاقى استحسان السيد مارشمونت، حيث إنه حرص على أن أجلس أنا والآنسة بيلينجهام على أقصى طرفٍ من مُوكله، وبالتالي يعزله بكفاءة عن غريمه.

سأل السيد بيلينجهام: «من الشخص ذو الأنف الطويل الذي يتحدَّث إليه جيليكو؟»

«هذا هو السيد لورام، المحامي العام، محامي السيد هيرست، والرجل ذو الوجه البهيج الجالس إلى جواره هو مُحامينا، السيد هيث، رجل كفؤ و…» هنا همس السيد مارشمونت من خلف يده قائلًا: «مُوجَّه تمامًا بتعليمات من دكتور ثورندايك.»

في هذه اللحظة، دخل القاضي وجلس على مقعده، وتقدم الحاجب بسرعةٍ كبيرة ليحلف في هيئة المُحلفين، وبالتدريج استقرت المحكمة على حالةٍ من الهدوء المعتاد الذي استمر طوال الدعوى، باستثناء حين تهتز الأبواب المتأرجحة الصاخبة عند مرور موظفٍ أو مراسل مُتعجل.

كان القاضي رجلًا عجوزًا ذا مظهرٍ مُتفرد بعض الشيء، له وجه قصير جدًّا وفم طويل جدًّا، وهذه السمات — بالإضافة إلى عينين كبيرتين ومُنتفختين (يبقيهما مُغلقتين عادةً) — أوحتْ بتشابُهٍ أكيد بينه وبين الضفدع؛ كما أنه كان لديه خدعة غريبة تليق بالضفادع تتمثل في تسطيح جفنَيه — كما لو أنه بصدد ابتلاع خنفساء كبيرة — وهو الدليل العاطفي الوحيد الخارجي والمرئي الذي يُظهره.

وبمجرد أن انتهت هيئة المُحلفين من أداء القسَم، وقف السيد لورام لعرض القضية؛ حينئذٍ مال مُوكله إلى الوراء في مقعده وأغلق عينَيه، كما لو أنه يعدُّ نفسه لعمليةٍ مؤلِمة.

أوضح السيد لورام قائلًا: «الدعوى الحالية تتعلق بالاختفاء الغامض للسيد جون بيلينجهام، المُقيم في ١٤١ ميدان كوين، بلومزبيري، والذي حدث قبل عامين، أو على وجه التحديد، في الثالث والعشرين من نوفمبر، لعام ألف وتسعمائة واثنين. ومنذ ذلك التاريخ، لا يُعرَف شيء عن السيد بيلينجهام، ونظرًا لوجود أسبابٍ جوهرية مُحددة للاعتقاد بموته، يتقدَّم المُستفيد الرئيسي من وصيته، السيد جورج هيرست، إلى المحكمة بالتماسٍ بافتراض وفاة الموصي وإثبات صحة الوصية. ونظرًا لأن الوقت الذي انقضى على آخِر مرة شُوهِد فيها الموصي على قيد الحياة هو عامان فقط، فإن الالتماس قائم على ظروف الاختفاء، التي تتَّسِم بالتفرُّد الشديد من عدة جوانب، ربما أبرزها هو كون الاختفاء مفاجئًا وتامًّا.»

هنا قال القاضي بصوت ثابت وهامس: «ربما كان من المدهش أكثر لو أن الموصي اختفى على نحوٍ تدريجي وغير كامل.»

أقر السيد لورام قائلًا: «لا شك يا سيدي، ولكن المقصد هو أنَّ الموصي، الذي كانت عاداته مألوفة ومنتظمة دائمًا، اختفى في التاريخ المذكور دون أن يُجري أيًّا من الترتيبات المعتادة لإدارة شئونه، ومنذ ذلك الحين لم يرَه أو يتواصل معه أحد.»

وبهذه الديباجة، شرع السيد لورام في سرد الأحداث المرتبطة بواقعة اختفاء جون بيلينجهام، والتي كانت متطابقة إلى حدٍّ كبير مع ما قرأته في الصحف؛ وبمجرد أن عرَض الحقائق الواقعية أمام هيئة المُحلفين، واصل مناقشة دلالتها المُحتملة.

وسأل: «الآن، ما الاستنتاج الذي تُوحي به هذه السلسلة الغريبة، بل الأكثر غموضًا، من الأحداث بالنسبة إلى شخصٍ ذكي من شأنه أن يفكر فيها بنزاهة؟ ها نحن لدينا رجل خرَج من منزل ابن عمته أو شقيقه، حسبما يقتضيه الحال، وعلى الفور، وفي لمح البصر، يختفي من فوق وجه الأرض. ما التفسير؟ هل كان يُخطط، بدون إخطار أو تلميح عن نيته، أن يستقلَّ قطارًا إلى ميناءٍ ما، ومن هناك يسافر إلى بلادٍ بعيدة، تاركًا شئونه بلا رعاية وتاركًا أصدقاءه يُخمنون مكانه بلا جدوى؟ هل هو مُختبئ الآن بالخارج، أو حتى داخل أرض الوطن، غير مبالٍ بسلامة مُمتلكاته القيِّمة وراحة بال أصدقائه؟ أم أنَّ الموت غيَّبَه فجأة من خلال الإصابة بمرضٍ أو بسبب وقوع حادث أو على الأرجح على يدِ مجرم مجهول؟ دعونا نفكر في الاحتمالات.

هل يمكن أن يختفي عن عمدٍ من جانبه؟ ولمَ لا؟ ربما يُطرح هذا السؤال. الرجال يختفون من آنٍ لآخر بلا شك، ليُكتشفوا بالصدفة أو يُعاودون الظهور طواعية بعد مرور سنوات، ويجدون أسماءهم قد نُسيت وأماكنهم شغلها وافدون جدد. أجل، ولكن دائمًا يُوجَد سبب ما لهذا النوع من الاختفاء، حتى إن كان سببًا سيئًا؛ خلافات أسرية تجعل الحياة مُتعبة، صعوبات مالية تجعل الحياة سلسلة من المخاوف، نُفور من ظروف مُعينة وأجواء مُحيطة يبدو أنه لا مهرب منها، قلق ملازم وميول للتشرُّد، وهلمَّ جرًّا.

هل ينطبق أي من هذه التفسيرات على القضية الحالية؟ كلَّا، لا ينطبق أي منها. الخلافات الأسرية — على الأقل تلك القادرة على التسبُّب في تعاسة دائمة — تتعلق حصريًّا بالزواج، ولكن المُوصي كان أعزب بلا أي أعباءٍ تُذكر. كما يمكن استبعاد الصعوبات المالية أيضًا؛ كان الموصي، في الواقع، يعيش في ظروفٍ ميسورة وموسرة. كان نمط حياته مقبولًا

فيما يبدو ومليئًا بالاهتمامات والأنشطة، وكان يتمتع بكامل الحرية في التغيير إذا أراد ذلك. كان مُعتادًا على السفر، ويمكنه أن يفعل ذلك دون التخفِّي سرًّا. ولقد بلغ سنًّا لا تبدو فيها التغييرات الجذرية مُرحبًا بها. كان رجلًا له عادات ثابتة ومُنتظمة، وكان انضباطه نابعًا من اختياره، وليس بسبب الإكراه أو الضرورة. وحين شاهده أصدقاؤه لآخِر مرة، كما سأثبت، كان في طريقه إلى وجهةٍ مُحددة مُعربًا عن نيته للعودة لأهدافٍ وضعها بنفسه. وبالفعل عاد ثم اختفى، تاركًا هذه الأهداف دون أن يُنجزها.

وإذا خلصنا إلى أنه اختفى طواعيةً وأنه الآن مُختبئ، فنحن نعتمد رأيًا يخالف كل هذه الحقائق الخطيرة. ومن ناحية أخرى، إذا خلصنا إلى أنه تُوفِّي فجأة، أو أنه قُتل في حادث أو بأي شكلٍ آخر، فنحن نعتمد رأيًا لا ينطوي على أي احتمالات مُستبعدة بالأساس، وهو يتوافق تمامًا مع الحقائق المعروفة؛ الحقائق التي ستُثبَت بشهادة الشهود الذين سأطلبهم. والافتراض بأن المُوصي ميت ليس مُرجَّحًا أكثر من افتراض أنه على قيد الحياة وحسب؛ بل إني أقترح ذلك باعتباره التفسير المنطقي الوحيد لظروف اختفائه.

ولكن هذا ليس كل شيء؛ فافتراض الوفاة الناشئ حتمًا من الطريقة الغامضة والمفاجئة التي اختفى بها الموصي، ثبت مؤخرًا أنها وفاة مؤكدة وقاطعة بشكل حاسم. ففي الخامس عشر من يوليو الماضي اكتُشفت في منطقة سيدكوب بقايا ذراع بشرية — ذراع يسرى أيها السادة — الإصبع الثالثة من يدِها أو إصبع الخاتم تحديدًا مفقودة. والطبيب الذي فحص الذراع سيُخبركم بأن الإصبع بُترت إما بعد الوفاة أو قبلها مباشرة؛ وشهادته ستُثبت على نحوٍ حاسم أن الذراع لا بدَّ أنها دُفنت في مكان اكتشافها في نفس توقيت اختفاء المُوصي. ومنذ ذلك الاكتشاف الأول، خرجت إلى النور أجزاء أخرى لنفس الجثة المُشوهة؛ ومن الغريب والمهم أن جميعها عُثر عليه في نطاق حي إلثام أو وودفورد. وستتذكرون، أيها السادة، أن حي إلثام أو وودفورد هما آخِر مكانين شُوهِد فيهما الموصي على قيد الحياة.

الآن، لاحظوا اكتمال الصدفة. هذا الرفات البشري، كما سيخبركم الآن الخبير الطبي المُتمرِّس الذي فحصه فحصًا شاملًا، هو رفات رجل يبلغ من العمر حوالي ستين عامًا، ويبلغ طوله حوالي خمس أقدام وثماني بوصات، ذي كتلة عضلية معقولة ومتينة جدًّا، وصحة جيدة فيما يبدو، وبنية جسدية قوية إلى حدٍّ ما. وسيُخبركم شاهد آخر بأن الرجل المفقود يبلغ من العمر حوالي ستين عامًا، ويبلغ طوله حوالي خمس أقدام وثماني بوصات، ذو كتلة عضلية معقولة ومتينة جدًّا، وصحة جيدة فيما يبدو، وبنية جسدية

قوية إلى حدٍّ ما. وثمة حقيقة أخرى مُهمة ومُذهلة أكثر؛ اعتاد الموصي أن يرتدي خاتمًا في إصبعه الثالثة من يده اليسرى، وهي الإصبع المفقودة من البقايا التي عُثر عليها، خاتمًا مميزًا جدًّا، كان مُحكمًا للغاية لدرجة أنه لم يكن قادرًا على خلعه بمجرَّد أن ارتداه؛ إنه خاتم، أيها السادة، ذو نمطٍ مُميز بحيث لو أنه عُثر عليه مع الجثة لتحدَّدت على الفور هوية الرفات. باختصار أيها السادة، البقايا التي عُثر عليها هي بقايا رجل يُشبه المُوصي بالضبط؛ لا تختلف عن مواصفاته في أي جانبٍ مهما كان، وتُظهر تشوهًا يُوحي بمحاولة إخفاء وسيلةٍ مميزة لتحديد الهوية التي يُظهرها بلا شك؛ ودُفنت في مخابئها المختلفة في نفس توقيت اختفاء الموصي. وبناءً عليه، عندما تسمعون هذه الحقائق المُثبتة بشهادة الشهود الأكْفاء والمُحلفين، بالإضافة إلى الحقائق المُتعلقة بالاختفاء، سأطلب منكم حُكمًا وفقًا لتلك الأدلة.»

جلس السيد لورام، وعدل من وضع النظارة الأنفية، وألقى نظرة سريعة على مُذكرته بينما كان حاجب المحكمة يُلقِّن القسَم للشاهد الأول.

كان هذا السيد جيليكو، الذي صعد إلى المنصة وسدَّد نظرة صاعقة إلى القاضي فاقد الوعي (فيما يبدو). وبعد الإجراءات التمهيدية المُعتادة، شرع السيد لورام في استجوابه.

«أظن أنك كنتَ محامي الموصي ووكيله السري؟»

«كنت، ولا زلت.»

«منذ متى وأنت تعرفه؟»

«سبعة وعشرين عامًا.»

«من واقع تجربتك معه، هل تقول إنه شخص من المُرجَّح أن يختفي فجأةً وطوعًا ليتوقف عن التواصل مع أصدقائه؟»

«كلَّا.»

«هلَّا أعطيتَ أسبابك الخاصة لذلك الرأي!»

«هذا التصرُّف من جانب الموصي من شأنه أن يكون مُخالفًا تمامًا لعاداته وشخصيته، على حدِّ علمي بها. كان اعتياديًّا وجادًّا للغاية في تعاملاته معي. فحين كان يسافر خارج البلاد، كان يُطلعني دائمًا على مكان وجوده، أو إذا كان من المُحتمل أن تقطع سبل التواصل معه، كان يُعلمني دومًا مُقدَّمًا. كانت إحدى مهامي هي استلام معاش يأخذه من وزارة الخارجية، ولم يسبق له، في أي مناسبة، قبل اختفائه، أن تخلَّف عن تسليمي الوثائق الضرورية لهذا المعاش في موعده.»

«على حدِّ علمك، هل كان لديه أي أسباب للرغبة في الاختفاء؟»

«كلَّا.»

«متى وأين كانت آخِر مرة رأيتَه فيها على قيد الحياة؟»

«في الساعة السادسة مساءً، يوم الرابع عشر من أكتوبر، عام ألف وتسعمائة واثنين، في ١٤١ ميدان كوين، بلومزبيري.»

«هلَّا أخبرتَنا بما حدث في تلك المناسبة.»

«زارَني المُوصي في مكتبي في الثالثة والربع، وطلب مني أن آتي معه إلى منزله لمقابلة دكتور نوربيري. رافقتُه إلى ١٤١ ميدان كوين، وبعد فترةٍ قصيرة وصل دكتور نوربيري ليُلقي نظرة على بعض الآثار القديمة التي كان المُوصي ينوي منحها إلى المتحف البريطاني. كانت المنحة عبارة عن مومياء وأربعة أوانٍ كانوبية وقِطَع أخرى من أثاث المقبرة أوصى المُوصي أن تُعرَض في نافذةٍ واحدة وبالحالة المعروضة عليها الآن. ومن بين هذه الأغراض، كانت المومياء هي الوحيدة الجاهزة للمُعاينة. ولم يصِل أثاث المقبرة إلى إنجلترا بعد؛ ولكن كان مُتوقَّعًا وصوله في غضون أسبوع. قَبِل دكتور نوربيري المنحة نيابة عن المتحف؛ ولكنه لم يتمكن من اقتناء الأغراض إلا بعد أن قام بالتواصُل مع المدير وحصل على تصريحه الرسمي؛ ومِن ثَم، أعطاني المُوصي تعليماتٍ مُحدَّدة بخصوص تسليم المنحة، نظرًا لأنه كان سيُغادر إنجلترا في تلك الليلة.»

«هل هذه التعليمات ذات صِلة بموضوع هذا التحقيق؟»

«أظنُّ أنها كذلك. الموصي كان مسافرًا إلى باريس، وربما من هناك إلى فيينا. وأمرَني بتسلُّم أثاث المقبرة وتفريغه بمجرد وصوله، وتخزينه مع المومياء في غرفةٍ خاصة، حيث كان من المُقرَّر أن تظلَّ هناك لمدة ثلاثة أسابيع. وإذا عاد خلال ذلك الوقت، كان من المُقرر أن يُسلمها بنفسه إلى سلطات المتحف التي يحقُّ لها امتلاك مجموعة المقتنيات ونقلها بما يتراءى لها. ومن منطلق هذه التعليمات، استنتجتُ أن الموصي لم يكن واثقًا من طول فترة غيابه عن إنجلترا ومدة رحلته.»

«هل ذكر بالضبط إلى أين ذهب؟»

«كلَّا، قال إنه سيذهب إلى باريس وربما إلى فيينا، ولكنه لم يعطِ أي تفاصيل ولم أسأل عن أيٍّ منها.»

«هل تعرف في الحقيقة إلى أين ذهب؟»

«كلَّا، لقد ترك المنزل في الساعة السادسة مرتديًا مِعطفًا طويلًا وثقيلًا وحاملًا معه حقيبة سفر ومظلة. ودَّعته عند الباب ورأيته يبتعد كما لو أنه ذاهبٌ نحو طريق ساوثامبتون رو. ليس لديَّ أدنى عِلم إلى أين ذهب، ولم أرَه مرة أخرى مطلقًا.»

«ألم يكن معه أمتعة أخرى بخلاف حقيبة السفر؟»

«لا أعلم، ولكن لا أظن ذلك. اعتاد السفر بالضروريات فقط، وكان يشتري أي شيء آخَر يريده في الطريق.»

«ألم يقل شيئًا للخدَم بخصوص تاريخ عودته المُحتمَل؟»

«لم يكن هناك خدم باستثناء مُشرف المنزل. لم يكن المنزل مُستخدمًا لأغراضٍ سكنية. كان المُوصي يبيت ويتناول وجباته في ناديه، رغم أنه كان يحتفظ بملابسه في المنزل.»

«هل تلقَّيتَ منه أي رسائل بعد أن رحل؟»

«كلَّا، لم أتواصل معه مرةً أخرى بأي شكلٍ من الأشكال. انتظرتُ لمدة ثلاثة أسابيع كما طلب مني، ثم أخطرت سلطات المتحف بأن المجموعة جاهزة لنقلها. وبعد مرور خمسة أيام، جاء دكتور نوربيري وتسلَّمها بصفة رسمية ونُقِلت إلى المتحف على الفور.»

«متى جاءتك أخبار عن المُوصي بعد ذلك؟»

«في الثالث والعشرين من نوفمبر التالي، في الساعة السابعة والربع مساءً، جاء السيد جورج هيرست إلى شقتي، الواقعة فوق مكتبي وأبلغني أن المُوصي زاره في منزله أثناء غيابه، واقتيد إلى غرفة المكتب لينتظره. وعند عودته — عودة السيد هيرست — وجد أن المُوصي قد اختفى بدون عِلم الخدم برحيله المقصود، ودون أن يراه أحد وهو يُغادر المنزل. رأى السيد هيرست أن هذا أمرٌ مُهم جدًّا لدرجة أنه أسرع إلى المدينة ليُبلغني، كما أنني رأيت أنه ظرف مُهم، لا سيما أنني لم أتلقَّ أي رسالة من الموصي، وكِلانا قرَّر أنه من المستحسن أن نُعلم شقيق الموصي، جودفري، بما حدث.

وبالتالي، أسرعتُ أنا والسيد هيرست بأقصى ما يمكن إلى محطة ليفربول ستريت واستقللنا القطار الأول المتاح والمتجه إلى وودفورد، حيث كان السيد جودفري بيلينجهام يسكن آنذاك. وصلْنا إلى منزله في الساعة التاسعة إلا خمس دقائق، وأخبرَتنا الخادمة أنه ليس موجودًا بالمنزل، ولكن ابنته موجودة في المكتبة، وهي مبنًى منفصل موجود في الحديقة. أوقدت الخادمة مصباحًا وقادتنا عبر الحديقة إلى المكتبة، حيث وجدنا السيد جودفري بيلينجهام والآنسة بيلينجهام. وقد جاء السيد جودفرى توًّا ودخل عبر البوابة

الخلفية، والتي لها جرسٌ يرن داخل المكتبة. أبلغ السيد هيرست السيد جودفري بما حدث، ثم غادرْنا المكتبة لنتوجَّه إلى المنزل. وعلى بُعد بضع خطواتٍ من المكتبة، لاحظتُ على ضوء المصباح، الذي كان يحمله السيد جودفري، جسمًا صغيرًا مُلقًى على العشب. أشرتُ إليه فالتقطه، وحينئذٍ أدركنا جميعًا أنه جعران كان المُوصي معتادًا على ارتدائه في سلسلة ساعته. كان مُثبتًا بسلكٍ ذهبي يمرُّ خلال فتحة التعليق وحلقة ذهبية. كان كلٌّ من السلك والحلقة في موضعهما، ولكن الحلقة مكسورة. توجَّهنا إلى المنزل وسألنا الخدَم عن الزائرين؛ ولكن لم يرَ أي منهم المُوصي، واتفقوا جميعًا أنه لم يأتِ أي زائرين إلى المنزل خلال فترة ما بعد الظهيرة أو المساء. وأوضح السيد جودفري والآنسة بيلينجهام أنهما لم يرَيا المُوصي أو يعرفا أخباره، ولم يكونا على علمٍ بعودته إلى إنجلترا. ونظرًا لأن الظروف كانت مُقلقة إلى حدٍّ ما، تواصلت، في صباح اليوم التالي، مع الشرطة، وطلبتُ منهم إجراء تحقيقات، وهو ما فعلوه، ونتج عنها العثور على حقيبة سفرٍ تحمل الحروف الأولى «جيه بي» في حجرة المعاطف بمحطة تشيرينج كروس. استطعتُ التعرُّف على حقيبة السفر بأنها الحقيبة التي رأيتُ الموصي يحملها من ميدان كوين. واستطعتُ أيضًا التعرُّف على بعض المحتويات. قابلتُ موظف حجرة المعاطف الذي أخبرني بأن الحقيبة أودعت في الثالث والعشرين في حدود الساعة ٤:١٥ مساءً. ولكنه لم يتذكَّر الشخص الذي أودعها. وظلَّت في حوزة شركة السكك الحديدية لمدَّة ثلاثة أشهر دون أن يطلبها أحد، ثم سُلِّمْتُ إيَّاها.»

«هل كان هناك أي علامات أو ملصقات تُشير إلى الطريق الذي قُطع أثناء السفر؟»

«لم يكن هناك أي مُلصقات عليها أو علامات أخرى بخلاف الحروف الأولى «ج. ب».»

«هل تعلم سنَّ المُتوفَّى؟»

«أجل. كان يبلغ من العمر تسعةً وخمسين عامًا في الحادي عشر من أكتوبر، عام ألف وتسعمائة واثنين.»

«هل يمكنك أن تُخبرنا كم كان يبلُغ طوله؟»

«أجل، كان خمس أقدام وثماني بوصات بالضبط.»

«ما نوعية الحالة الصحية التي كان يتمتع بها؟»

«على حدِّ علمي، كانت صحته جيدة. ليس لديَّ علم ما إذا كان يُعاني من أي أمراض. أنا أحكم فقط من منطلق مظهره الخارجي، الذي كان مظهر رجلٍ سليم.»

«هل يمكنك أن تصفه بكونه مُحافظًا على صحته أم لا؟»

«يُمكنني أن أصفه برجلٍ محافظ على صحته بالنسبة إلى عمره.»

«كيف تصِف بِنيته؟»

«أصفه بكونه عريضًا ومتين البنية نوعًا ما، ذا كتلة عضلية معقولة، رغم أنها ليست استثنائية.»

سجل السيد لورام ملاحظة سريعة بهذه الإجابة ثم قال:

«لقد أخبرتَنا سيد جيليكو بأنك تعرف المُوصي معرفة وثيقة لمدة سبعةٍ وعشرين عامًا. الآن، ألم تلاحظ قطُّ أنه كان مُعتادًا على ارتداء أي خواتم في أصابعه؟»

«كان يرتدي في الإصبع الثالثة من يده اليسرى نسخةً من خاتم عليه شعار عين أوزيريس. كان هذا هو الخاتم الوحيد الذي يرتديه، على حدِّ علمي.»

«هل كان يرتديه باستمرار؟»

«أجل، بحكم الضرورة، لأنه كان صغيرًا جدًّا عليه، وبمجرد أن حُشِر في إصبعه لم يستطع أن يخلعه مرةً أُخرى.»

كانت هذه خلاصة شهادة السيد جيليكو، وفي نهايتها ألقى الشاهد نظرةً مُستفهمة على محامي السيد بيلينجهام. إلا أن السيد هيث ظلَّ جالسًا، مُتأمِّلًا باهتمامٍ الملاحظات التي سجلها توًّا، ليجد أنه ليس هناك حاجة إلى الاستجواب المضاد. نزل السيد جيليكو من فوق المنصة. اتكأتُ إلى الخلف في مقعدي، ثم أدرتُ رأسي لألحظ الآنسة بيلينجهام مُستغرقة في تفكيرٍ عميق.

سألتها: «ما رأيك في هذا؟»

أجابت قائلة: «تبدو مُكتملة وحاسمة للغاية.» ثم همهمتْ بتنهيدةٍ قائلة: «عمِّي جون المسكين! كم يبدو من المزعج أن تتحدَّث عنه بدمٍ بارد وبهذه الطريقة العملية، باعتباره «المُوصي»، كما لو أنه لم يكن سوى عددٍ من الأعداد الجبرية.»

أجبتها قائلًا: «في رأيي، ليس هناك مجالٌ للعواطف فيما يخصُّ دعاوى المحكمة الحسبية.» وافقتني الرأي ثم تساءلت: «من هذه السيدة؟»

«هذه السيدة» كانت شابة متأنقة صعدت توًّا على منصة الشهود وكانت تؤدي القسَم الآن. وبعد انتهاء الإجراءات التمهيدية، أجابت على سؤال الآنسة بيلينجهام والسيد لورام بقولها إن اسمَها أوجستينا جويندولين دوبس، وإنها كانت خادمة السيد جورج هيرست في «ذا بوبلارز»، إلثام.

سألها السيد لورام: «أظن أن السيد هيرست يعيش بمفرده، أليس كذلك؟»

قالت الآنسة دوبس: «لا أعرف ماذا تقصد بهذا.» إلا أن المحامي أوضح: «أقصد أنه رجل غير متزوج؟»

احتجَّت الشاهدة بنبرةٍ انتقادية: «حسنًا، وماذا في هذا؟»

«أنا أوجِّه لكِ سؤالًا.»

قالت الشاهدة بحدة: «أعلم ذلك، وأقول إنه لا يحقُّ لك مثل هذه التلميحات لشابَّةٍ محترمة حين يكون هناك مُدبرة منزل وخادمة مطبخ تعيشان في المنزل، وهو يبلغ من العمر ما يكفي ليكون والدي ...»

هنا استوى جفنا سيادة القاضي من أثر الاندهاش، وقاطعها السيد لورام قائلًا: «أنا لم أُلِّح إلى شيء. كل ما هنالك أنني سألتُ ما إذا كان ربُّ عملك، السيد هيرست رجلًا أعزب أم لا؟»

قالت الشاهدة في عبوس: «لم أسأله قط.»

«من فضلك، أجيبِي عن السؤال؛ بنعم أو لا.»

«كيف يُمكنني أن أجيب عن سؤالك؟ لعله يكون متزوجًا ولعلَّه لا يكون. كيف أعرف؟ لستُ محققًا خاصًا.»

سدد السيد لورام نظرةً مذهولة إلى الشاهدة، وفي فترة الصمت التي أعقبت ذلك جاء صوت المُدَّعي من فوق المنصة:

«هل هذه النقطة جوهرية؟»

ردَّ السيد لورام قائلًا: «بالتأكيد يا سيدي.»

«إذن، أرى أنك ستستجوب السيد هيرست، ربما من الأفضل أن تطرح عليه السؤال. هو يعرف على الأرجح.»

أحنى السيد لورام رأسه، وعاد القاضي إلى حالة الغيبوبة المُعتادة منه، والتفت إلى الشاهدة المُنتصِرة:

«هل تتذكرين أي شيء مُهم في اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر السنة قبل الماضية؟»

«أجل، زار السيد جون بيلينجهام منزلنا.»

«وكيف عرفتِ أنه السيد جون بيلينجهام؟»

«لم أعرف؛ ولكنه عرَّف نفسه، وأظنه يعرِف.»

«متى وصل؟»

«الساعة الخامسة والثلث مساءً.»

«ثم ماذا حدث؟»

«أخبرته أن السيد هيرست لم يصِل إلى المنزل بعدُ، فقال إنه سينتظره في غرفة المكتب ليكتُب بعض الخطابات؛ أدخلته إلى غرفة المكتب وأغلقتُ الباب.»

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«لا شيء، وصل السيد هيرست المنزل في موعده المعتاد — الساعة السادسة إلا الربع — ودخل بعد أن فتح الباب بمفتاحه. وتوجَّه مباشرة إلى غرفة المكتب حيث ظننتُ أن السيد بيلينجهام لا يزال هناك، ولذا لم ألاحظ، ولكني أعددتُ المائدة لفردين. وفي الساعة السادسة، دخل السيد هيرست إلى غرفة الطعام — فهو يتناول الشاي في المدينة ويتغدَّى الساعة السادسة — وحين رأى أن المائدة قد أُعدَّت لفردَين سأل عن السبب. قلتُ له إن السيد بيلينجهام ينتظر حتى تناول الغداء.

قال: «السيد بيلينجهام! لم أكن أعرف أنه هنا. لماذا لم تُخبريني؟» قلت: «ظننتُ أنك كنت معه، يا سيدي. لقد أدخلته إلى غرفة المكتب.» قال: «حسنًا، لم يكن موجودًا حين دخلت. وهو ليس هناك الآن. لعله ينتظر في غرفة الاستقبال.» ومِن ثَم ذهب وبحَث في غرفة الاستقبال، ولكنه لم يكن موجودًا. ثم قال السيد هيرست إنه يظن أن السيد بيلينجهام قد سئم من الانتظار ورحل؛ ولكني أخبرته أنني متأكدة تمامًا من أنه لم يفعل، لأنني كنتُ أراقب المكان طوال الوقت. ثم سألني ما إذا كان السيد بيلينجهام بمُفرده أم أن ابنته معه، فقلت إنه لم يكن السيد بيلينجهام على الإطلاق وإنما السيد جون بيلينجهام، ثم تفاجأ أكثر من أي وقتٍ مضى. قلتُ له إنه من الأفضل أن نُفتش المنزل لنتأكد مما إذا كان موجودًا أم لا، فقال السيد هيرست إنه سيأتي معي، ومِن ثَم ذهبنا جميعًا للبحث في المنزل وتفتيش جميع الغرف، ولكن لم نجد أي أثر للسيد بيلينجهام في أيٍّ منها. ثم شعر السيد هيرست بالتوتُّر والانزعاج، وبعد أن تناول في عُجالة القليل من الغداء، ركض للحاق بقطار الساعة السادسة والنصف المُتجه إلى البلدة.»

«أنتِ تقولين إنه لا يمكن للسيد بيلينجهام أن يُغادر المنزل لأنكِ كنتِ تراقبين المكان طوال الوقت. أين كنتِ أثناء مراقبتك للمكان.»

«كنتُ في المطبخ. ويمكنني أن أرى البوابة الأمامية من نافذة المطبخ.»

«تقولين إنكِ أعددتِ المائدة لفردَين. أين أعددتِها؟»

«في غرفة الطعام طبعًا.»

«هل يمكنك رؤية البوابة الأمامية من غرفة الطعام؟»

«كلَّا، ولكن يمكنني أن أرى باب غرفة المكتب. غرفة المكتب في مقابل غرفة الطعام.»

«هل يجب عليكِ صعود الدرَج لتذهبي من المطبخ إلى غرفة الطعام؟»

«أجل، بالطبع يتعيَّن ذلك!»

«إذن، ألا يُحتمل أن يكون السيد بيلينجهام قد غادر المنزل أثناء نزولك من الطابق العلوي؟»

«كلَّا، لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك.»

«ولمَ لا؟»

«لأن هذا من المستحيل.»

«ولماذا هو مُستحيل؟»

«لأنه لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك.»

«أنا أفترض أن السيد بيلينجهام قد غادر المنزل في هدوءٍ بينما كنتِ في الطابق العلوي؟»

«كلَّا، لم يفعل.»

«كيف عرفتِ أنه لم يفعل؟»

«أنا متأكدة تمامًا أنه لم يفعل.»

«ولكن كيف يمكنك التأكد؟»

«لأنني لا بدَّ أن أراه لو فعل.»

«ولكن أقصد حين كنتِ على الدرج.»

«كان في غرفة المكتب حين كنتُ على الدرَج.»

«كيف تعرفين أنه كان موجودًا في غرفة المكتب؟»

«لأنني أدخلته إلى هناك ولم يخرُج منها.»

صمت السيد لورام لبرهةٍ وأخذ نفَسًا عميقًا، استوى جفنا القاضي.

استأنف المُحامي في ضجر قائلًا: «هل تُوجَد بوابة جانبية للمبنى؟»

«أجل. تؤدي إلى حارةٍ ضيقة بجانب المنزل.»

«ويُوجَد نافذة فرنسية في غرفة المكتب، أليس كذلك؟»

«بلى، إنها تطلُّ على قطعة أرضٍ عُشبية صغيرة في مقابل البوابة الجانبية.»

«والنافذة والبوابة كلتاهما مزوَّدتان بمزاليج، هل من الممكن أن يخرُج السيد بيلينجهام منهما إلى الحارة؟»

«كل من النافذة والبوابة مزوَّدتان بالمزاليج من الداخل. ويمكنه أن يخرج بتلك الطريقة ولكنه لم يفعل قطعًا.»

«ولمَ لا؟»

«حسنًا، لن يتسلل أي رجل نبيل بتلك الطريقة الخفية كلص.»

«هل تأكدتِ من أن النافذة الفرنسية كانت مُغلقة ومُوصدة بعد اختفاء السيد بيلينجهام؟»

«ألقيتُ نظرة عليها حين كنَّا نغلق المنزل في الليل. كانت مُغلقة وموصدة من الداخل.»

«والبوابة الجانبية؟»

«كانت تلك البوابة مُغلقة وموصدة بالمزلاج. عليك أن تَصفِق البوابة لتُثبِّت المزلاج، ومِن ثَم لا يستطيع أحد الخروج من البوابة دون أن يُسمَع.»

عند هذه النقطة انتهى الاستجواب الرئيسي، وجلس السيد لورام مُتنفسًا الصعداء بصوتٍ مسموع. كانت الآنسة دوبس بصدد النزول من فوق منصة الشهود حين هبَّ السيد هيث واقفًا ليستجوبها مرةً أُخرى.

«هل رأيتِ السيد بيلينجهام بوضوح؟»

«جيد جدًّا. كان الجو مُظلمًا في الخارج، ولكن مصباح الرواق كان مضاءً.»

«من فضلك، انظري إلى هذا ...» هنا جسم صغير مُرِّر أمام الشاهدة. «هذه حلية صغيرة يُقال إن السيد بيلينجهام كان يُعلقها في عليقة ساعته. هل تستطيعين تذكُّر ما إذا كان يرتديها حين زار المنزل؟»

«كلَّا. لم يكن يرتديها.»

«أنتِ متأكدة من ذلك؟»

«متأكدة تمامًا.»

«شكرًا لكِ. والآن، أودُّ أن أسألكِ عن التفتيش الذي ذكرته. قلتِ إنك بحثتِ في أرجاء المنزل كافة. هل دخلتِ غرفة المكتب؟»

«كلَّا، على الأقل حتى ذهب السيد هيرست إلى لندن.»

«وحين دخلتِ، كانت النافذة موصدة؟»

«أجل.»

«هل يمكن أن تُوصَد من الخارج؟»

«كلَّا، لا يُوجد مقبض من الخارج.»

«ما الأثاث الموجود في غرفة المكتبة؟»

«تُوجَد طاولة كتابة، وكرسي دوَّار، وكرسيَّان مُريحان، وخزانتان كبيرتان للكتب، وخزانة ملابس يحتفظ فيها السيد هيرست بمعاطفه وقبعاته.»

«هل خزانة الملابس موصدة؟»

«أجل.»

«هل كانت مُغلقة حين دخلتِ الغرفة؟»

«لا أعرف قطعًا. لا أذهب لأتحرَّى عن الدواليب والخزانات.»

«ما الأثاث الموجود في غرفة الاستقبال؟»

«خزانة، وستة كراسٍ أو سبعة، وأريكة جلدية، وبيانو، وطاولة فضية، وطاولة تقديم أو طاولتان.»

«هل البيانو كبير أم قائم؟»

«البيانو كبير وقائم.»

«في أي موضع يقف؟»

«يقف في زاويةٍ قريبة من النافذة.»

«هل تُوجَد مساحة كافية وراءه لاختباء رجل؟»

تفاجأت الآنسة دوبس من السؤال ولم تُخفِ ذلك. قالت ضاحكة: «أوه، أجل، تُوجَد مساحة كافية ليختبئ رجل وراءه.»

«حين فتشتِ غرفة الاستقبال، هل ألقيتِ نظرة وراء البيانو؟»

قالت الآنسة دوبس بنبرة تهكُّمية: «كلَّا، لم أفعل.»

«هل فتشتِ أسفل الأريكة؟»

«كلَّا بالتأكيد!»

«ماذا فعلتِ إذن؟»

«فتحنا الباب وألقينا نظرةً على الغرفة. نحن لا نبحث عن قطةٍ أو قرد؛ نحن نبحث عن رجلٍ في منتصف العمر.»

«وهل من هذا أستنتج أنكِ فتشتِ باقي المنزل بطريقةٍ مُماثلة؟»

«طبعًا! ألقينا نظرةً على الغُرَف، ولكننا لم نُفتِّش أسفل الأسِرَّة أو الخزانات.»

«هل جميع الغرف الموجودة في المنزل مُستخدَمة للمعيشة أو النوم؟»

«كلَّا، تُوجَد غرفة واحدة في الطابق الثاني تُستخدَم للتخزين وغرفة المُهملات، وواحدة في الطابق الأول يستخدمها السيد هيرست لتخزين الأشياء التي لا يستخدمها.»

«هل ألقيتِ نظرة على تلك الغرف حين فتشتِ المنزل؟»

«كلَّا.»

«هل ألقيتِ نظرة عليها منذ ذلك الحين؟»

«دخلتُ غرفة التخزين منذ ذلك الحين، ولكني لم أدخل الغرفة الأخرى. فهي غالبًا تكون موصدة.»

عند هذه النقطة تسطَّح جفنا سيادة القاضي على نحوٍ باعث على التشاؤم، ولكن اختفت هذه الأعراض بمجرد أن جلس السيد هيث وأشار إلى أنه ليس لديه المزيد من الأسئلة.

وهمَّت الآنسة دوبس بالنزول من فوق منصة الشهود، حين قفز السيد لورام كعفريت العلبة.

قال: «لقد أدليتِ ببعض التصريحات بخصوص الجعران الذي اعتاد السيد بيلينجهام أن يرتديه مُعلقًا في عليقة ساعته. تقولين إنه لم يكن يرتديه حين زار منزل السيد هيرست في الثالث والعشرين من نوفمبر، عام ألف وتسعمائة واثنين. هل أنتِ متأكدة من ذلك تمامًا؟»

«متأكدة تمامًا.»

«يجب أن أطلب منك تَوخِّي الحذر الشديد بشأن تصريحك بخصوص هذه النقطة. السؤال في غاية الأهمية. هل تُقسِمين على أن الجعران لم يكن يتدلَّى من غطاء ساعته؟»

«أجل، أقسِم على ذلك.»

«هل لاحظتِ عليقة الساعة على وجه التحديد؟»

«كلَّا، لم ألاحظها على وجه التحديد.»

«إذن، ما الذي يجعلك متأكدة من أن الجعران لم يكن مُعلقًا فيها؟»

«مُستحيل أن يكون كذلك.»

«ولماذا يستحيل ذلك؟»

«لأنه لو كان كذلك، لكنتُ لاحظته.»

«ما نوعية عليقة الساعة التي كان يرتديها السيد بيلينجهام؟»

«أوه، عليقة ساعة من النوع العادي.»

«أقصد هل كانت سلسلةً أم شريطًا أم حزامًا؟»

«أظن أنها سلسلة — أو ربما شريط — أو لعلَّه حزام.»

استوى جفنا سيادة القاضي، ولكنه لم يُبدِ أي علامات أخرى وواصل السيد لورام قائلًا:

«هل لا حظتِ أم لم تُلاحظي نوعية عليقة الساعة التي كان يرتديها السيد بيلينجهام؟»

«لم ألاحظ. ولِمَ ينبغي أن أفعل؟ ليس من شأني.»

«ورغم ذلك، أنتِ متأكدة تمامًا من الجعران؟»

«أجل، متأكدة تمامًا.»

«إذن، أنت لاحظتِ ذلك؟»

«كلَّا، لم ألاحظ. وكيف ألاحظها وهي لم تكن موجودة؟»

توقف السيد لورام ونظر إلى الشاهدة عاجزًا؛ وتصاعدت ضحكة مكبوتة من هيئة المحكمة، وتساءل الصوت الواهن من فوق المنصة:

«هل أنت غير قادرة تمامًا عن الردِّ بإجابة مباشرة؟»

كان رد الآنسة دوبس الوحيد هو أنها انفجرت في البكاء؛ حينئذٍ جلس السيد لورام فجأةً وتوقف عن الاستجواب.

أخلت الآنسة دوبس منصة الشهود وبعدها صعد كلٌّ من دكتور نوربيري، والسيد هيرست، وموظف حجرة المعاطف، ولم يدلِ أي منهم بحقائق جديدة، وإنما أكدوا التصريحات التي أدلى بها السيد جيليكو وخادمة المنزل وحسب. ثم جاء العامل الذي اكتشف العظام في منطقة سيدكوب، والذي كرَّر دليل الإثبات الذي قدمه في التحقيق، مُبينًا أن البقايا لا يمكن أن تكون مدفونة في حوض البقلة المائية لأكثر من عامين. وفي النهاية، تم استدعاء دكتور سمرز، وبعد أن قدم وصفًا موجزًا للعظام التي فحصها، سأله السيد لورام:

«هل سمعت الوصف الذي أدلى به السيد جيليكو عن الموصي؟»

«أجل سمعت.»

«هل الوصف ينطبق على الشخص الذي قمتَ بفحص رفاته؟»

«بوجهٍ عام.»

«يجب أن أطلب منك إجابة مباشرة؛ بنعم أو لا. هل ينطبق؟»

«أجل، ولكن حريٌّ بي أن أقول إن تقديري لطول المُتوفَّى هو مجرد تقدير تقريبي.»

«تمامًا. ومن منطلق فحصك لهذا الرفات ووصف السيد جيليكو، هل من الممكن أن يكون هذا الرفات رفات الموصي، السيد جون بيلينجهام؟»

«أجل، ربما يكون.»

جلس السيد لورام بعد أن حصل على هذا الاعتراف، وعلى الفور وقف السيد هيث ليستجوب الشاهد.

«عندما فحصتَ هذا الرفات، دكتور سمرز، هل اكتشفتَ أي سمات فردية تمكنك من تحديد هويته باعتباره رفات شخصٍ بعينه أكثر من كونه رفات شخصٍ آخر بنفس الحجم والسن والأبعاد؟»

«كلَّا. لم أجد شيئًا من شأنه أن يحدد الرفات باعتباره رفات شخصٍ مُعين.»

ونظرًا لأن السيد هيث لم يطرح أي أسئلة أخرى، انصرف الشاهد، وأخبر السيد لورام هيئة المحكمة أن هذه هي دعوته. أومأ القاضي برأسه، على نحوٍ ناعس، ثم وقف السيد هيث ليخاطب هيئة المحكمة بالنيابة عن المُدَّعى عليه. لم تكن خطبة طويلة، ولم تكن ثرية بأي استعراض لأساليب بلاغية مزخرفة؛ وإنما كانت مقتصرة فقط على دحْض الحجج المُقدَّمة من جانب محامي المدعي.

وبعد أن أشار في إيجازٍ إلى أن مدة الغياب كانت قصيرة على نحوٍ أكثر من اللازم للتقدم بناءً عليها بالتماس لافتراض حدوث الوفاة، استطرد السيد هيث قائلًا:

«بالتالي، فإن الدعوى تستند على تقديم دليل من جانب شخص نقي السريرة. ويؤكد صديقي الخبير أن المُوصي قد مات على الأرجح، وعليه أن يُثبت ما يؤكده. الآن، هل فعل ذلك؟ أؤكد أنه لم يفعل. لقد جادل بقوةٍ بالغة وبراعة شديدة بأن المُوصي، باعتباره رجلًا أعزب، رجلًا وحيدًا بلا زوجة أو ولد، وبلا عائل أو مُعيل، وبلا أي منصب عام أو خاص، أو أي رابط، أو مسئولية، أو أي ظروف أخرى تُقيد من حريته، ليس لديه أي سبب أو دافع للاختفاء. هذه هي حجة صديقي الخبير، ولقد قدمها ببراعةٍ ومهارة بالغة لدرجة أنه لم يفلح في إثبات دعواه وحسب، وإنما بالغ في إثباتها أيضًا. فإذا كان صحيحًا، كما جادل صديقي الخبير باستحقاقٍ بالغ، أن رجلًا متحررًا من أي شكلٍ من الالتزامات، أليس صحيحًا أنه ليس لديه أي سبب للاختفاء؟ لقد جادل صديقي بأن المُوصي كان له مطلق الحرية ليذهب أينما يحلو له وقتما يحلو له وكيفما يحلو له؛ وبالتالي لم يكن هناك حاجة تدعوه إلى الفرار. وكان ردِّي: إذا كان لديه مُطلق الحرية ليذهب حيثما ووقتما وكيفما يحلو له، لماذا نستغرب من استخدامه لحريته؟ يُشير صديقي الخبير إلى أن المُوصي لم يُخطر أحدًا بنيته للرحيل ولم يُعرِّف أحدًا بمكان وجوده؛ إلا أنني أتساءل: من الذي ينبغي أن يُخطره؟ لم يكن مسئولًا عن أحد، لم يكن هناك أحد يعتمد عليه؛

حضوره أو غيابه لم يشغل أحدًا سوى نفسه. وإذا اقتضت الظروف فجأة سفرَه إلى الخارج، لماذا ينبغي عليه ألا يُسافر؟ أقول إنه ليس هناك سبب مهما كان.

لقد قال صديقي الخبير إن الموصي سافر تاركًا شئونه بلا رعاية. الآن، أيها السادة، أتساءل ما إذا كان بالإمكان أن يُقال هذا بإنصاف عن رجل شئونه، مثلما هي الحال لسنواتٍ عديدة، في يد وكيلٍ كفء بدرجةٍ عالية وجدير بالثقة تمامًا، وعلى دراية بها أفضل من المُوصي نفسه؟ قطعًا لا يمكن ذلك.

لنختتم هذا الجزء من الحجة: أؤكد أن ظروف الاختفاء المزعوم للمُوصي لا تُقدِّم شيئًا خارجًا عن المألوف. المُوصي هو رجل صاحب إمكانياتٍ وافرة، بلا أي مسئوليات تُقيد تحركاته، وكان مُعتاد السفر دائمًا، وإلى مناطق بعيدة ونائية غالبًا. الحقيقة المجردة هي أنَّ غيابه لوقتٍ أطول من المُعتاد إلى حدٍّ ما لا يوفر أساسًا أيًّا ما كان للدعوى القاسية بافتراض الوفاة والاستيلاء على مُمتلكاته.

وبالرجوع إلى الرفات البشري الذي ذُكر فيما يخصُّ القضية، لست بحاجة إلى قول الكثير. لقد فشلت محاولة الربط بينها وبين المُوصي تمامًا. أنتم أنفسكم سمعتم دكتور سمرز يقول بعد أداء القَسَم إنه لا يمكن تحديد هويته باعتباره رفات شخص مُعين. وهذا من شأنه استبعادها. ويجب أن أعلق على نقطةٍ فريدة للغاية أثارها محامي المُدَّعي الخبير، ألا وهي:

يُشير صديقي الخبير إلى أن هذا الرفات اكتُشف بالقرب من منطقة إلثام وودفورد، وأن آخِر مرةٍ شوهد فيها المُوصي على قيد الحياة في واحدٍ من هذين المكانين. ولسببٍ ما اعتُبر هذا حقيقةً في غاية الأهمية. ولكني لا أتفق معه في الرأي؛ فإذا كانت آخر مرة شوهد فيها المُوصي على قيد الحياة في وودفورد واكتُشف الرفات في ووفورد، أو إذا كان قد اختفى من إلثام، واكتُشف الرفات في إلثام، لاكتسب هذا الأمر قدرًا من الأهمية. إلا أنه ربما شُوهِد في واحدٍ من هذين المكانين، بينما اكتُشف الرفات في كِلا المكانين. مرة أخرى يبدو أن صديقي الخبير بالَغ في الإثبات أكثر مما ينبغي.

لكن لست بحاجة إلى شغل وقتكم أكثر من ذلك. وأكرر أنه لكي نُبرر افتراض وفاة الموصي، سيكون من الضروري وجود دليلٍ واضح وإيجابي. ولم يُقدَّم مثل هذا الدليل. وبناءً على ذلك، بافتراض أن المُوصي قد يعود في أي وقتٍ ويحق له أن يجد مُمتلكاته كاملة، فأطلُب منكم إصدار حُكم سيؤمِّن له العدالة المُعتادة.»

وفي ختام حديث السيد هيث، فتح القاضي عينيه، كما لو أنه استيقظ من قيلولة مُنعشة؛ كانت عيناه تشعَّان بالذكاء والدهاء على نحوٍ استثنائي، حين يُنحِّي الجفنين

المُعبرين جانبًا كما ينبغي. شرع في قراءة جزءٍ من الوصية وبعض الملاحظات — على نحوٍ أشبه بمعجزةٍ؛ بإغلاق عينيه — ثم شرع في استعراض الأدلة وحجج المُحاميَين طلبًا لتوجيهات هيئة المُحلفين.

وقال: «قبل النظر في الأدلة التي سمعتموها، أيها السادة، يجدُر بي أن أقول بضع كلماتٍ بخصوص الجوانب العامة للقضية التي تشغل اهتمامنا.

إذا سافر شخص ما إلى الخارج أو اختفى من منزله وأماكن وجوده المعتادة وغاب لفترة طويلة، تُرفع دعوى بافتراض الوفاة بعد انقضاء سبع سنواتٍ على التاريخ الذي شُوهد فيه لآخِر مرة؛ بمعنى أن الاختفاء الكامل لشخصٍ لمدة سبع سنوات يُقدِّم دليلًا افتراضيًّا بأن الشخص المذكور قد مات؛ ويمكن أن يُنحَّى الافتراض جانبًا من خلال تقديم دليلٍ بأنه كان على قيد الحياة خلال فترة السبع السنوات. ولكن من ناحيةٍ أخرى، إذا سُعي لافتراض وفاة شخصٍ تغيب لفترة أقصر من سبع سنوات، فمن الضروري تقديم دليل يزيد من احتمال وفاة الشخص المذكور بدرجةٍ كبيرة. بالطبع، تتضمَّن الدعوى فرضيةً على النقيض من الدليل الفعلي؛ إلا أن الدليل في مثل هذه القضية لا بدَّ أن يخلق اعتقادًا قويًّا جدًّا بأن الوفاة قد حدثت؛ ولستُ بحاجة إلى قول إنه كلما كانت فترة التغيب أقصر، لا بدَّ أن يكون الدليل أكثر إقناعًا.

وفي هذه القضية، تغيَّب المُوصي، جون بيلينجهام، لفترةٍ أقل من عامين. وهذه فترة قصيرة نسبيًّا، وفي حدِّ ذاتها لا تُبرر إقامة دعوى افتراض الوفاة. ورغم ذلك، افتُرض حدوث الوفاة في قضيةٍ كانت الفترة فيها أقصر من ذلك واستُرِدَّ مبلغ التأمين؛ ولكن في تلك الحالة كان الدليل الذي يدعم الاعتقاد بحدوث الوفاة وجيهًا بدرجةٍ استثنائية.

كان المُوصي في هذه القضية ربان سفينة، واختفاؤه كان مُصاحبًا لاختفاء السفينة وطاقم السفينة بأكملِه في رحلةٍ بحرية من لندن إلى مرسيليا. وفقدان السفينة وطاقمها كان التفسير المنطقي الوحيد للاختفاء، ومع غياب الدليل الفعلي، قدَّمت الحقائق دليلًا مُقنعًا بوفاة جميع الأشخاص الذين كانوا على متنها. أذكر هذه القضية كمثالٍ توضيحي. أنتم لا تتعاملون مع احتمالاتٍ تخمينية. أنتم تُمعنون النظر في دعوى قضائية خطيرة جدًّا، ويجب أن تكونوا واثقين جدًّا من دافعكم. تأمَّلوا ما هو مطلوب منكم القيام به.

صاحِب الالتماس يلتمس افتراض وفاة المُوصي لكي يتسنَّى توزيع ممتلكات المُوصي على المُستفيدين بموجب الوصية. والموافقة على هذا الالتماس تُحمِّلنا المسئولية في أخطر صورها. فحُكم غير مدروس قد يُلحق ظلمًا خطيرًا بالموصي، ظلمًا لا يمكن التراجُع عنه

أبدًا. ومِن ثَم، لزامًا عليكم موازنة الأدلة بأكبر قدرٍ من الحرص، للتوصُّل لحُكم مبني على التمعُّن الشديد في جميع الحقائق.

تنقسِم الأدلة التي سمعتموها إلى جزأين؛ جزء متعلق بظروف اختفاء الموصي، والآخر متعلق ببعض الرفات البشري. وفيما يتعلق بالجزء الأخير، لا يسعني سوى الإعراب عن دهشتي وأسفي لعدم تأجيل الدعوى حتى الانتهاء من استجواب الطبيب الشرعي، والسماح لكم بمعاينة الأدلة. ضعوا في الاعتبار أن دكتور سمرز قال بصراحةٍ إنه لا يمكن تحديد هوية الرفات وأنه خاص بشخصٍ معين؛ إلا أن المُوصي والمتوفَّى مجهول الهوية لديهما نقاط تَشابه كثيرة لدرجة أنه يُحتمل أن يكونا الشخص نفسه.

وفيما يخصُّ ظروف الاختفاء، لقد سمعتم أدلة السيد جيليكو التي تفيد بأن المُوصي لم يسبق له السفر إلى الخارج دون إخطاره بوجهته المُحتملة. ولكن بالنظر إلى الأهمية التي قد تعيرونها إلى هذا التصريح، ضعوا في الاعتبار أنه حين سافر المُوصي إلى باريس بعد مُقابلته مع دكتور نوربيري، لم يُخطر السيد جيليكو بأي معلوماتٍ بخصوص وجهته المحددة، وعنوانه في باريس، أو التاريخ الدقيق لعودته، ولم يتمكن السيد جيليكو من إخبارنا أين ذهب الموصي أو ماذا كان نشاطه. في الواقع، كان السيد جيليكو يجهل تمامًا خطَّ سير الموصي أو التحقُّق من مكان وجوده.

والأدلة التي قدمتها الخادمة، دوبس، والسيد هيرست كانت مُحيرة جدًّا. يبدو أن الموصي جاء إلى المنزل، وحين بحثوا عنه فيما بعد لم يجدوه. وأظهرت عملية تفتيش المكان أنه لم يكن في المنزل، ومِن ثَم يبدو أنه غادر المنزل حتمًا؛ ولكن نظرًا لأنه لم يُعلم أحدًا بنيته المغادرة، بدا أنه عبَّر عن نيته في البقاء لمقابلة السيد هيرست، وتصرفه في المغادرة خِفية بدا غريبًا بعض الشيء؛ وبالتالي، فالنقطة التي يجب أن تضعوها في الاعتبار، هي ما إذا كان الشخص القادر على مغادرة المنزل بهذا الأسلوب المُتخفِّي الغريب، دون إخطار الخدم، قادرًا على مغادرة أماكن وجوده المعتادة بنفس الأسلوب المُتخفِّي الغريب دون إخطار أصدقائه، أو إخطارهم فيما بعدُ بأماكن وجوده.

إذن، ثمة سؤالان، أيها السادة، لا بدَّ أن تطرحوهما على أنفسكم قبل إصدار الحكم: الأول: هل ظروف اختفاء الموصي وغيابه المُستمر يتعارض مع عاداته وسماته الشخصية المعروفة عنه؟ والثاني هو: هل ثمة أي وقائع تؤكد وفاة الموصي؟ سلوا أنفسكم هذين السؤالين، أيها السادة، فالإجابة عنهما، في ضوء الأدلة التي سمعتموها، ستُرشدكم إلى الحُكم.»

وبعد أن انتهى القاضي من التعليمات المذكورة آنفًا، شرع في قراءة الوصية بإمعانٍ وبأسلوب مِهني، وفي هذه الأثناء قاطعه الإعلان من رئيس هيئة المُحلفين بأنه اتُّفِق على حُكم.

جلس القاضي ونظر إلى منصَّة المُحلفين، وحين قال رئيس هيئة المحلفين «لم نجد سببًا كافيًا لافتراض وفاة الموصي، جون بيلينجهام.» أومأ برأسه موافقًا. كان من الواضح أن هذا رأيه أيضًا، كما حرص على التعبير عنه حين أخبر السيد لورام رفض المحكمة الموافقة على الالتماس المُقدَّم.

جعلني الحُكم أشعر بارتياحٍ كبير، وأظن أن الشعور نفسه ساور الآنسة بيلينجهام؛ وبالأخص والدها، الذي وقف وخرج على الفور من المحكمة بأسلوبٍ مهذب وهو عاجز عن إخفاء ابتسامة النصر، حتى لا يراه هيرست المُحبط. تبعته أنا وابنته، وبينما كنَّا نغادر المحكمة، قالت مُبتسمة:

«إذن، إملاقنا ليس مُطلقًا على أي حال. لا يزال أمامنا فرصة وسط كل هذه المآزق، وربما لا يزال هناك فرصة أمام العم جون العجوز المسكين أيضًا.»

الفصل الخامس عشر

أدلَّة ظرفية

في صباح اليوم التالي لجلسة الاستماع رآني أنطلِق في جولتي بروح معنوية جيدة أكثر من المُعتادة. كانت الجولة نفسها قصيرة، لأن قائمتي تضمنت اثنين فقط من المرضى الذين يعانون من أمراضٍ مزمنة، وربما ساهم هذا في نظرتي المبهجة إلى الحياة. لكن كانت هناك أسباب أخرى؛ فقد جاء حكم المحكمة كتأجيلٍ غير متوقع، وعلى الأقل، تأجَّل تدمير آمال أصدقائي. ثم علمتُ أن ثورندايك عاد من بريستول وتمنَّيتُ أن أطمئن عليه. وأخيرًا، وافقت الآنسة بيلينجهام على قضاء ظُهر هذا اليوم معي، نتجوَّل في صالات العرض بالمتحف البريطاني.

كنتُ قد صرفت مريضيَّ في الساعة الحادية عشرة إلا الربع، وبعد ثلاث دقائق كنت أتقدَّم على طريق ميتري كورت، وكُلي حماس لسماع ما قد يقوله ثورندايك فيما يتعلق بمُلاحظاتي بشأن التحقيق. كان «الباب» مفتوحًا عندما وصلتُ إلى مكتبه، وأجاب مُعلمي بنفسه على طرقي الخفيف على الحلقة النحاسية الصغيرة للباب الداخلي.

قال وهو يُصافحني بلطف: «كم هو لُطف منك، بيركلي، أن تبحث عني في وقتٍ مُبكر. أنا وحدي، أتصفح فقط تقرير أدلة قضية أمس.»

وضع لي مقعدًا مريحًا، وجمع حزمةً من الأوراق المطبوعة، ووضعها جانبًا على الطاولة.

فسألته: «هل تفاجأت من الحكم؟»

فأجابني: «لا. سنتان هي فترة غياب قصيرة؛ ومع ذلك، ربما كان من السهل أن تسير الأمور على غير هذا النحو. أنا مرتاح للغاية. تمنحنا هذه المهلة الوقت لإجراء تحقيقاتنا دون تسرُّع لا داعي له.»

ثم سألته: «هل وجدت لملاحظاتي أي فائدة؟»

«لقد قام هيث بذلك. فقد سلَّمها بولتون إليه، وكانت ثمينة بالنسبة له لاستجوابه الشهود. لم أرَها بعد؛ في الواقع، لقد استرددتُها منه للتو. دعنا نستعرضها معًا الآن.»

فتح درجًا وأخذ منه دفتر ملاحظاتي، وجلس، وبدأ في قراءة ملاحظاتي باهتمامٍ شديد، بينما كنتُ أقف ونظرت بخجلٍ من فوق كتفه. وعندما نظر في الصفحة التي تحتوي على رسوماتي الخاصة بالذراع التي عُثر عليها في سيدكوب، والتي تُظهر توزيع بيض الحلزون على العظام، توقَّف لبرهةٍ بابتسامة باهتة جعلتني أشعر بالسخونة واحمرار وجهي.

فقلت: «هذه الرسومات تبدو مُبتذلة للغاية، لكن كان عليَّ أن أدوِّن شيئًا في دفتر ملاحظاتي.»

«ألم تُعلق أي أهمية على الحقائق التي توضحها؟»

«لا. كانت بُقَع البيض موجودة، لذلك دوَّنت هذه الحقيقة. وهذا كل شيء.»

«أهنئك، يا بيركلي. لا يُوجَد شخص واحد من بين عشرين شخصًا كان لديه الحسُّ لتدوين ملاحظةٍ دقيقة لما يعتبره حقيقةً غير مهمة أو غير ذات صلة؛ والمحقق الذي يلاحظ فقط تلك الأشياء التي تبدو مُهمة هو بالفعل شخص عديم الفائدة تمامًا. فهو لا يمنح نفسه أي مادةٍ لإعادة النظر فيها. لكنك لا تقصد أن بُقَع البيض وقنوات الديدان هذه لم تبدُ لك ذات أهمية على الإطلاق؟»

«أوه، بالطبع، فهي تُظهر الموضع الذي دُفنت فيه العظام.»

«بالضبط. كانت الذراع موضوعة، وممدودة بالكامل، والجزء الظهري موضوع إلى الأعلى. لكننا نعرف أيضًا من بُقَع البيض هذه أن اليد قد انفصلت عن الذراع قبل إلقائها في البركة؛ وهناك شيء مُميز جدًّا في ذلك.»

انحنيتُ على كتفه وحدقتُ في رسوماتي، مندهشًا من السرعة التي أعاد بها ترتيب أجزاء الطرف من رسوماتي التقريبية للعظام الفردية.

فقلت: «ومع ذلك، لا أفهم كيف توصلت إلى ذلك.»

«حسنًا، انظر إلى رسوماتك. توجَد بقَع البيض على سطح الجزء الظهري للكتف، وعظام العضد، وعظام الذراع الأمامية. ولكنك أظهرتَ هنا ستةً من عظام اليد: عظام المشط، عظام العَجُز، وثلاث سُلاميات؛ وجميعها بها بقع بيض على سطح راحة اليد. لذلك كان كفُّ اليد موضوعًا بحيث يتَّجِه لأعلى.»

«ربما كانت اليد تُعاني من الكَب.»

«إذا كنت تقصد الكَب بخصوص الذراع، فهذا مُستحيل، لأن موضع بُقع البيض يُظهر بوضوح أن عظام الذراع كانت في وضع البسط. وبالتالي فإن السطح الظهري للذراع والسطح الراحي لليد على التوالي موجه لأعلى، وهو أمر يستحيل تشريحيًّا طالما أن اليد مُتصلة بالذراع.»

«ولكن ألا يمكن أن تكون اليد قد انفصلت بعد إلقائها بالبركة ببعض الوقت؟»

«لا. لا يمكن فصلها حتى تتحلل الأربطة، وإذا تم فصلها بعد تحلُّل الأجزاء الرخوة، فإن العظام كانت ستتفتت. لكن بقع البيض كلها على سطح راحة الكف، مما يدلُّ على أن العظام كانت لا تزال في مواضعها الطبيعية النسبية. لا، يا بيركلي، لقد أُلقِيت تلك اليد في البركة بشكلٍ مُنفصلٍ عن الذراع.»

فسألته: «ولكن لماذا يجب أن يكون الأمر كذلك؟»

«آه، هناك مشكلة صغيرة جدًّا عليك وضعها في الاعتبار. وفي الوقت نفسه، اسمح لي أن أُخبرك بأن رحلتك الاستكشافية قد حقَّقت نجاحًا باهرًا. أنت مُراقب ممتاز. خطؤك الوحيد هو أنك عندما تدوِّن بعض الحقائق لا يبدو أنك تُقدِّر أهميتها تمامًا، وهي مجرد مسألة قلة خبرة. أما بالنسبة للحقائق التي جمعتها، فللعديد منها أهمية قصوى.»

قلت: «أنا سعيد لأنك راضٍ، على الرغم من أنني لا أرى أنني قد اكتشفتُ الكثير باستثناء بَيض هذا الحلزون؛ ولا يبدو أنه أحدث تقدمًا كبيرًا في الأمور.»

«الحقيقة المؤكدة، يا بيركلي، هي شيء ثمين مُحدد. ربما نجد حاليًّا جزءًا صغيرًا من الأُحجية المعقدة يتناسب مع حقيقة اليد المبتورة. ولكن، أخبرني، ألم تجد شيئًا غير مُتوقَّع أو مثيرًا بشأن هذه العظام؛ من حيث عددها وحالتها، على سبيل المثال؟»

«حسنًا، رأيتُ أنه من الغريب بعض الشيء العثور على لوح الكتف والترقوة. حريٌّ بي أن أتوقع منه بتر الذراع من عند مِفصل الكتف.»

قال ثورندايك: «نعم. وكذلك كان حريٌّ بي توقُّع الشيء نفسه؛ فهذا ما تمَّ في كل حالات البتر التي أعرفها. بالنسبة لشخصٍ عادي، يبدو أن الذراع تتصل بالجذع عند مفصل الكتف، وهذا هو المكان الذي سيبتره منه بشكلٍ طبيعي. فما هو التفسير الذي تُرجِّحه لهذا الوضع غير المعتاد لبتر الذراع؟»

سألته وأنا أتذكَّر ملاحظة دكتور سمرز: «هل تعتقد أن الجاني ربما يكون جزَّارًا؟ فهذه هي الطريقة التي يتم بها نزع كتف الضأن.»

فأجابني ثورندايك قائلًا: «لا. فالجزَّار يترك عظام اللوح مع الكتف من لحم الضأن لغرَض مُحدد، ألا وهو نزع كمية مُعينة من اللحم. وذلك أيضًا، لأن الخروف ليس لديه ترقوة، فهي أسهل طريقةٍ لفصل الأطراف. ولكن أعتقد أن الجزَّار سيجد نفسه يواجه صعوباتٍ إذا حاول بتر ذراع إنسانٍ بهذه الطريقة. ستكون الترقوة سمةً جديدة وذات طبيعة مُحيرة بالنسبة إليه. هذا إلى جانب أن الجزَّار لا يتعامل بلُطف شديد مع ما يقوم بتقطيعه؛ فإذا أراد أن يُقسِّم مفصلًا، فإنه يقطعه فحسْب ولن يكلف نفسه عناء تجنب ترك أي علاماتٍ على العظام. لكنك تلاحظ هنا أنه لا يُوجَد خدش أو جرح واحد على أيٍّ من العظام، ولا حتى مكان بتر الإصبع. الآن، إذا كنت قد أعددت عظامًا لمتحفٍ من قبل، كما فعلتُ أنا، فسوف تتذكَّر العناية القصوى اللازمة لفكِّ المفاصل لتجنُّب تشويه الأطراف المفصلية للعظام بالجروح والخدوش.»

«إذن، هل تعتقد أن الشخص الذي بتر أعضاء هذه الجثة لا بدَّ أن لديه بعض المعرفة والمهارة التشريحية؟»

«هذا ما اقتُرِح بالفعل. لم يكن اقتراحي.»

«إذن، أستنتج من ذلك أنك لا توافق على هذا الرأي؟»

ابتسم ثورندايك، ثم قال: «يؤسفني أن أكون غامضًا جدًّا، بيركلي، لكنك تفهم أنني لا أستطيع الإدلاء بتصريحات. ومع ذلك، أحاول أن أقودك إلى استخلاص استنتاجاتٍ مُعينة من الحقائق التي لديك.»

فسألته: «إذا قمتُ بالاستنتاجات الصحيحة، فهل ستُخبرني؟»

أجابني بنفس الابتسامة الهادئة: «لن يكون ذلك ضروريًّا؛ فعندما تضع أجزاء الأحجية معًا، فلن تحتاج إلى أحدٍ ليخبرك أنك فعلت ذلك.»

كان الأمر مُثيرًا للغاية. فكرتُ في المشكلة على نحوٍ شديد العبوس، الأمر الذي أضحك ثورندايك على الفور.

قلتُ باستفاضة: «يبدو لي أن هوية الرفات هي السؤال الأساسي وهي مسألة حقيقية. لا يبدو أن هناك فائدة من التخمين بشأنها.»

«بالضبط. إما أن هذه العظام هي رفات جون بيلينجهام أو أنها ليست كذلك. لن يكون هناك شك في هذا الموضوع عندما يتم تجميع العظام كلها — إن وُجِدت. ومن المُحتمل أن تُلقي تسوية هذه المسألة الضوء على سؤالٍ إضافي: من الذي دفنها في الأماكن التي وُجِدت فيها؟ ولكن بالعودة إلى ملاحظاتك، ألم تفهم أي شيء من حالة العظام الأخرى؟ من الحالة الكاملة لفقرات العنق مثلًا؟»

«حسنًا، رأيتُ أنه من الغريب جدًّا أن يتكبد شخص عناء فصل الفقرة الحاملة (الأطلسية) عن الجمجمة. لا بدَّ أنه كان ماهرًا جدًّا في استخدام المشرط ليقوم بذلك بطريقةٍ نظيفة كما فعل؛ ولكن لا أفهم لماذا كان يجب عليه أن يُنجز المهمة بأكثر الطرُق إزعاجًا.»

«إذن، فقد لاحظتَ اتِّساق الطريقة. لقد فصل الرأس عن العمود الفقري، بدلًا من قطع العمود الفقري على طول امتداده إلى أسفل، كما قد يفعل مُعظم الأشخاص؛ لقد نزع الذراعين بحزام الكتف بالكامل، بدلًا من بترها ببساطة من مفصل الكتف. حتى في الفخذين تظهر نفس السمة الخاصة؛ لأنه في أيٍّ من الحالتين لم يُعثَر على رضفة الركبة مع عظم الفخذ، على الرغم من أنه بُحِث عنها. الآن الطريقة الواضحة لتقسيم الساق هي قطع الرباط الرضفي، تاركًا رضفة الركبة مُتصلة بالفخذ. ولكن في هذه الحالة، يبدو أن رضفة الركبة قد تُركت مُتصلة بالساق. هل يمكنك توضيح سبب اعتماد هذا الشخص لهذه الطريقة غير العادية والشاقة إلى حدٍّ ما؟ هل يمكنك اقتراح دافع لهذا الإجراء، أم يمكنك التفكير في أي ظروفٍ قد تدفع الشخص إلى تفضيل اتباع هذه الطريقة؟»

«يبدو كما لو أنه أراد، لسببٍ ما، تقطيع الجسم إلى مناطق تشريحية مُحددة.»

ضحك ثورندايك ثم قال: «أنت لا تقدِّم هذا الاقتراح كتفسير، أليس كذلك؟ لأنه سيتطلب شرحًا أكثر من المشكلة الأصلية. وهذا حتى ليس صحيحًا. من الناحية التشريحية، فإن رضفة الركبة مُتصلة بالفخذ، لا الساق. إنه عظم سمسماني ينتمي إلى عضلات الفخذ؛ ومع ذلك، فقد تُرِكَ متصلًا بالساق على ما يبدو في هذه الحالة. لا، يا بيركلي، هذه الفكرة مُستحيلة. لم يكن الجرَّاح المجهول يُعدُّ هيكلًا عظميًّا كعينةٍ للمتحف؛ بل كان يُقطع جسدًا إلى أجزاء ذات أحجامٍ مناسبة بغرَض نقلها إلى بِرَك مُختلفة. والآن، ما الظروف التي ربما دفعته إلى تقطيعها بهذه الطريقة الغريبة؟»

«يؤسفني أنه ليس لديَّ أي اقتراح لأقدمه. هل لديك؟»

دخل ثورندايك فجأةً في حالة من الغموض، ثم قال: «أعتقد أنه من الممكن تصور مثل هذه الظروف، ويمكنك أنت كذلك، على الأرجح، إذا أعدتَ التفكير في الأمر.»

فسألته: «هل استنتجتَ أي شيء مُهم من الدلائل المقدمة في التحقيق؟»

أجابني: «من الصعب الجزم بذلك. ولكن تستند جميع استنتاجاتي في هذه القضية إلى ما يُعد فعليًّا دليلًا ظرفيًّا. ليس لديَّ حقيقة واحدة يُمكنني القول بأنها لا تقبل غير تفسير واحد. ومع ذلك، يجب أن نتذكر أنه حتى أكثر الحقائق غير الحاسمة، إذا تضاعفت بشكل كافٍ، فسوف تؤدي إلى نتيجة حاسمة للغاية. وكومة الأدلة الصغيرة الخاصة بي

تزداد، دليلًا تلوَ الآخر؛ لكن يجب ألا نجلس هنا نتحدَّث في هذه الساعة من اليوم؛ يجب أن أتشاور مع مارشمونت وأنت تقول إنَّ لديك موعدًا في وقتٍ مُبكر بعد الظهيرة. يُمكننا السير معًا حتى شارع فليت.»

بعد دقيقةٍ أو دقيقتين، ذهب كلٌّ منَّا في طريقه، فذهب ثورندايك نحو شارع لومبارد وأنا إلى حارة فيتر، مُدركَين تمامًا لتلك الأحداث القادمة التي يكتنفها الغموض المُثير.

كانت هناك رسالة واحدة فقط بانتظاري، وعندما أحضرها أدولفوس (وسط أبخرةٍ نتنة تصاعدت من الطابق السُّفلي، مُنذرة بوجود سمك موسى المقلي)، وضعت سماعة الطبيب في جيبي وانطلقتُ إلى زقاق جَنباودر، حيث يوجد المسكن الأرستقراطي لمريضي، لأشقَّ طريقي ببهجةٍ وسط الطرق المألوفة في ميدان جوف، مُتأمِّلًا بسرور الحسَّ الأدبي المُثير الذي يسود هذه المناطق المجهولة. حيث يبدو أن شبح مؤلف رواية راسيلاس لا يزال يطارد مشاهد أعماله الهائلة بمرح صاخبٍ ولكنه عفوي في الوقت نفسه. وكل شارع وكل حارة تهمس بالكتب وتأليف الكتب؛ أشكال الحروف المطبوعة، عربات يدفعها صبية ملطخون بالحبر، تُحيي المارة عند المنعطفات الغريبة؛ أكوام من ألواح القش، أو لفَّات أو بالات من الورق، أو براميل حبر الطباعة أو بكرات الطباعة، تقف على الرصيف خارج المداخل المُظلمة؛ نوافذ الطابق السُّفلي تُعطي لمحات عن كهوف هادين المُستأجرة من قبل جحافل من فطاحلة الطباعة؛ والهواء مشحون بأزيز المكبس ورائحة الصمغ والمعجون والزيت. الحي بأكمله يعمل في نشاط الطباعة والتجليد؛ وحتى مريضي اتَّضح أنه يعمل في شحذ آلة قصٍّ وتشذيب الورق ذات المقصلة — مهنة قاسية وجامحة تتعارَض بشكل غريب مع مظهره غير المؤذي وسمته الوديع.

لقد قضيت وقتًا جيدًا في مكان زيارتي، على الرغم من العوائق التي يواجهها سمك موسى المقلي وعمَّال شحذ آلات القص والتشذيب غير الصالحين؛ لكن، لأنَّ الوقت كان مُبكرًا، كانت الآنسة بيلينجهام تنتظر بالفعل في الحديقة — كانت تملأ وعاءً بالورود — استعدادًا للخروج.

فقالت، بينما كنَّا نتجه نحو حارة فيتر، «تمامًا مثلما اعتدنا في الماضي، لنذهب إلى المتحف معًا. هذا يُذكرني بألواح تلِّ العمارنة وكل لفتاتك اللطيفة والإيثارية. أعتقد أننا سنتمشَّى إلى هناك اليوم؟»

أجبتها: «بالتأكيد. لن أشارك رفقتك مع البشر العاديين الذين يركبون الحافلات العامة. سيكون ذلك مجرد إهدار خاطئ للفرصة. علاوة على ذلك، من الأفضل أن نمشي.»

«نعم، إنه كذلك؛ وصخب الشوارع يجعل المرء أكثر تقديرًا لهدوء المتحف. ما الذي سنشاهده عندما نصل إلى هناك؟»

أجبتها: «يجب أن تُقرِّري أنتِ ذلك. فأنتِ تعرفين مجموعة المُقتنيات أفضل بكثيرٍ مما أعرف.»

تأمَّلتْ قليلًا ثم قالت: «حسنًا، إذن، أتساءل ما الذي ترغب في رؤيته؛ أو بعبارة أخرى، ما الذي أرغب في أن تراه. الفخار الإنجليزي القديم رائع إلى حدٍّ ما، خاصة أدوات فولهام. أعتقد أنني أُفضل أن أصحبك لترى ذلك.»

فكَّرَت بعض الوقت، وبعد ذلك، بمجرد وصولنا إلى بوابة حانة ستابل، توقَفَتْ ونظرَتْ بعناية في طريق جرايز إن.

«لقد اهتممتَ كثيرًا بـ «قضيتنا» كما يُسميها الدكتور ثورندايك. هل ترغب في رؤية فناء الكنيسة حيث تمنَّى العم جون أن يُدفن؟ إنه بعيد قليلًا عن طريقنا، لكننا لسنا في عجلةٍ من أمرنا، أليس كذلك؟»

بالتأكيد، لم أكن على عجلةٍ من أمري. فأي حياد عن المسار قد يُطيل مسيرتنا مُرَحَّب به، وفيما يتعلق بالمكان، يا إلهي، كانت كل الأماكن سيان بالنسبة إليَّ لو كانت هي بجانبي فقط. إلى جانب ذلك، كانت فكرة رؤية فناء الكنيسة حقًّا موضع اهتمام، لأنه كان بلا شك السبب المُثير للفقرة الثانية المزعجة من الوصية. وفقًا لذلك، أعربتُ عن رغبتي في زيارتها، وعبرنا إلى مدخل طريق جرايز إن.

سألتني بينما نترك خلفنا الطريق القذر: «هل حاولتَ يومًا أن تتخيل أماكن مألوفة كيف كانت تبدو قبل بضع مئاتٍ من السنين؟»

أجبتها: «نعم، ووجدت ذلك صعبًا للغاية. على المرء أن يصنع المواد اللازمة لإعادة الإعمار، ومِن ثَم سيظل الجانب الحالي من المكان يفرض نفسه. لكن بعض الأماكن أسهل في إعادة إنشائها أكثر من غيرها.»

قالت: «هذا ما اكتشفته، الآن، على سبيل المثال، من السهل جدًّا إعادة بناء هولبورن، على الرغم من أنني أجرؤ على القول بأن الشكل التخيُّلي لا يُشبه إلى حدٍّ ما الشكل الأصلي. ولكن هناك أجزاء مُتبقية، مثل ستابل إن والجزء الأمامي من جرايز إن؛ وبعد ذلك يُمكننا رؤية مطبوعات من العصر الأوسط القديم وبعض الحانات، بحيث يكون لدى المرء بعض المواد التي تساعد في تخيُّله. ولكن هذا الطريق الذي نسير فيه دائمًا يُحيرني. يبدو قديمًا جدًّا ومع ذلك، فإن أغلبه جديد لدرجة أنني أجد أنه من المُستحيل تكوين صورةٍ مُرضية

عن مظهره، على سبيل المثال، عندما كان السير روجر دي كوفرلي يتجوَّل في طريق جرايز إن، أو أبعد من ذلك، عندما كان فرانسيس بيكون لديه شقة في المكان.»

قلت: «أتخيل أن هذا الجزء من الصعوبة يكمُن في الطابع المختلط للحي. هنا من ناحية، أعتقد أن هناك جرايز إن القديم، الذي لم يتغير كثيرًا منذ عصر بيكون؛ فلا تزال شقته موجودة ومتاحة للزيارة، وهناك عند البوابة؛ على جانب كليركينويل، يُوجَد حي كثيف وقذر إلى حدٍّ ما تأسَّس في منطقةٍ ريفية جزئيًّا بسِمات مُتسرِّبة تمامًا من هذا العصر. وأماكن مثل «باجنجي ويلز» و«هوكلي في هول» لم يكن بها الكثير من المباني التي كان من المُحتمل أن تبقى صامدة؛ وفي غياب النماذج الباقية، لن يكون هناك مجال كبير للخيال.»

قالت: «أنا أجرؤ على القول إنك على حق. من المؤكد أن ضاحية كليركينويل القديمة تقدم صورة مشوشة للغاية بالنسبة لي؛ بينما في حالة شارع قديم مثل شارع جريت أورموند على سبيل المثال، يتعين على المرء فقط أن يجرف المباني الحديثة ويستعيض عنها بالمنازل القديمة الرائعة مثل القلة المتبقية، حفر الطريق والأرصفة ووضع أحجار مرصوفة، ووضع بعض الأعمدة الخشبية، وتعليق مصباح أو مصباحين من الزيت، ويكتمل التحوُّل. وهو تحوُّل رائع للغاية.»

«رائع للغاية، وهو بالمناسبة، فكرة مُحزنة، لأننا يجب أن نقوم بعمل أفضل من أسلافنا؛ في حين أن ما نقوم به في الواقع هو هدم المباني القديمة، وتكسير المداخل، والأروقة، والألواح، والأرفف في متاحفنا، ثم نضع مكانها شيئًا رخيصًا ومفيدًا وغير مُثير على الإطلاق.»

نظرتْ رفيقتي إليَّ وضحكت بهدوء، ثم قالت: «بالنسبة لشاب مُبتهج بطبيعته ومسرور دائمًا، فأنت مُتشائم للغاية. ويبدو أن عباءة إرميا الباكي — إذا كان قد ارتدى واحدة — قد سقطت عليك، ولكن دون الإضرار بروحك الطيبة على الأقل فيما يخصُّ الأمور المعمارية.»

فقلت: «لديَّ الكثير لأكون ممتنًّا له، ألا تصحبني سيدة جميلة إلى المتحف؟ ألن تُبقيَني مع صناديق المومياوات وتريحني بالأواني الفخارية؟»

صحَّحتْ قولي قائلة: «أواني الفخار». ثم عندما التقينا مجموعة من النساء الجميلات يخرُجن من شارع جانبي، قالت: «أعتقد أن هؤلاء طالبات كلية الطب.»

«نعم، وهن في طريقهن إلى مستشفى رويال فري. لاحظي رزانة سلوكهن الجاد وقارني بينه وبين رعونة الطلاب الذكور.»

أجابتني قائلة: «كنتُ أفعل ذلك، وأتساءل لماذا عادة ما تكون النساء العاملات أكثر جدية من الرجال.»

اقترحتُ قائلًا: «ربما، إنها مسألة اختيار. نوع خاص من النساء ينجذب إلى المِهن، في حين أن على كل رجلٍ أن يكسب رزقه بطبيعة الحال.»

«نعم، أجرؤ على القول بأن هذا هو التفسير. هذا هو ما تحوَّلنا إليه.»

مررْنا بشارع هيثكوت، وفي نهايته كانت هناك بوابة مفتوحة تعطي مدخلًا إلى أحد المقابر المهجورة والمتغيرة التي ستلاقيها في بعض الأحياء القديمة في لندن؛ حيث ينزوي الموتى المحرومون في الزوايا لإفساح المجال للأحياء. كان العديد من شواهد القبور لا يزال قائمًا، والبعض الآخر، الذي تم تهجيره لإفساح المجال للمشي والمقاعد الإسفلتية، يتراكم حول الجدران التي تُظهِر نقوشًا أصبحت بلا معنًى بسبب إزالتها. لقد كان مكانًا ممتعًا بدرجة كافية بعد ظهر هذا اليوم الصيفي، على عكس الشوارع الضيقة التي أتينا منها، على الرغم من أن حشائشها كانت باهتة وصفراء مع اختلاط صوت تغريد الطيور على الأشجار مع أصوات الأطفال في المدرسة الداخلية البشعة، الذين كانوا يلعبون حول المقاعد والمقابر القليلة المُتبقية.

قلت: «لذلك هذا هو آخر مكان للراحة لآل بيلينجهام.»

«نعم؛ ولسنا الأشخاص المميزين الوحيدين الذين يستريحون في هذا المكان. دُفنت هنا ابنة شخص لا يقلُّ عن ريتشارد كروموبل؛ القبر لا يزال قائمًا، لكن ربما كنتَ هنا من قبل وتعرف ذلك.»

«لا أعتقد أنني جئتُ إلى هنا من قبل؛ ومع ذلك هناك شيء ما في المكان يبدو مألوفًا.» نظرتُ حولي، وأخذت أعتصر ذهني بحثًا عن مفتاح للأحاسيس الخافتة التي أثارها المكان؛ حتى، فجأة، رأيتُ مجموعة من المباني البعيدة ناحية الغرب، مُحاطة بجدار تعلوه تعريشة خشبية.

ثم صحت قائلًا: «نعم بالطبع! أذكر المكان الآن. لم أذهب إلى هذا الجزء من قبل، ولكن داخل هذا السياج الذي يليه، والذي يفتح في نهاية شارع هنريتا، كانت هناك وربما لا تزال، على حدِّ علمي، مدرسة التشريح، التي حضرتُ فيها في سنتي الأولى؛ في الواقع، أجريتُ أول تشريح لي هناك.»

قالت الآنسة بيلينجهام: «كان هناك نوع من الملاءمة المُرعبة في موقع المدرسة. كان من الممكن أن يكون الأمر مريحًا حقًّا في أيام سارقي الجُثث. كان من الممكن أن تصل المواد خاصتك إلى باب منزلك. هل كانت مدرسة كبيرة؟»

«كان الحضور مُتنوعًا وفقًا للوقت من العام. أحيانًا كنتُ أعمل هناك بمفردي تمامًا. كنت أسمح لنفسي بالدخول بمفتاح ورفع الجثة التي أعمل عليها من نوعٍ من خزان الجثث عن طريق سلسلة رافعة. لقد كان عملًا بشعًا. ليس لديكِ فكرة عن مدى فظاعة الجسد الذي كنت أنظر إليه بعينيَّ غير المعتادة على ذلك، حيث إنه يرتفع ببطء من الخزان. كان مثل مشهد القيامة الذي نشاهده على بعض شواهد القبور القديمة، حيث يظهر الميت وهو يرتفع من التابوت بينما يسقط الهيكل العظمي، مهزومًا بسهمِه المحطم وانهيار تاجِه.

أتذكَّر أيضًا أن الذي كان يقوم بعرض الجثث كان يرتدي مئزرًا أزرق، مما خلق نوعًا من الانطباع عن دكان جزَّار آكلي لحوم البشر. لكنني أخشى أن أصدمك.»

«لا، أنت لا تصدمني. فكل مهنة لها جوانبها غير اللائقة، والتي يجب ألا يراها الدُّخلاء. فكِّر في استوديو النحات، والنحَّات نفسه عندما يقوم بعمل نموذج شخصية كبيرة أو مجموعة شخصيات من الطين. فإذا حكمتَ عليه من مظهره فقد تعتقد أنه عامل بناء أو عامل تنظيف الطرق. هذا هو القبر الذي كنتُ أخبرك عنه.»

توقفنا أمام شاهد القبر الحجري البسيط، الذي تعرَّض للتقلبات الجوية وأبلاه الدهر، ولكنه ظل في حالة جيدة بسبب أيادي بعض الأشخاص الورعين، وقرأنا النقش، مُشيرًا بفخر متواضع، إلى أن آنا، الابنة السادسة لريتشارد كرومويل، «الوصية» ترقد هنا. لقد كان نصبًا بسيطًا ومألوفًا بدرجة كافية، مع قسوة العصر الزاهد الذي ينتمي إليه. لكنه مع ذلك، أعاد الذهن إلى تلك الأوقات المُثيرة التي كان لا بدَّ من أن أشباح حارة «جرايز إن» قد تردَّدت مع قعقعة الأسلحة والرجال المسلحين؛ عندما كانت ساحة الاستراحة الجرداء هذه عبارة عن فناء ريفي للكنيسة، يقف وسط الحقول الخضراء والأسيجة، وكان المواطنون الذين يقودون خيولهم إلى لندن عبر الطريق يتوقفون للنظر في البوابة الخشبية.

نظرت الآنسة بيلينجهام إليَّ بعمق وأنا أقف مُفكرًا، وعلقت قائلة: «أعتقد أنك وأنا لدينا العديد من العادات الذهنية المشتركة.»

نظرتُ مستفسرًا، وتابعَتْ هي: «لقد لاحظتُ أن شاهدًا قديمًا يبدو وكأنه يجعلك تتأمل. وهذا هو ما يفعله بي أيضًا. فعندما أنظر إلى نصبٍ تذكاري قديم، وخاصة شاهد القبر القديم، أجد نفسي تقريبًا دون وعي أتتبَّع السنوات لأصل إلى التاريخ المكتوب على الحجر. لماذا تعتقد ذلك؟ لماذا يجب أن يكون النصب مُحفزًا للخيال؟ ولماذا يجب أن يكون شاهد القبر المشترك أكثر من أي شيءٍ آخر؟»

أجبتُ متأملًا: «أفترض أن النصب التذكاري لساحة الكنيسة هو شيء شخصي غريب، ويتعلق بطريقة غريبة بعصر مُعين. والظروف التي لم تمسَسْها السنوات الماضية بينما تغير كل شيءٍ حوله، هي ما تساعد الخيال على تغطية هذا الفاصل الزمني. كما أن شاهد القبر المشترك، النصب التذكاري لبعض المُزارعين أو العمال الذين ماتوا وذهبوا والذين عاشوا وماتوا في القرية القريبة، لا يزال أكثر حميميةً وإيحاءً. المنحوتات الطفولية الريفية لبنَّائي القرية والشِّعر الركيك لمدير مدرسة القرية يُعيدان الزمان والمكان وظروف الحياة بشكل أكثر زهوًا ووضوحًا من النقوش الأكثر علمية والإثراء الفني للآثار ذات المزاعم الأكبر. ولكن أين شواهد قبور عائلتك؟»

«إنها هناك في تلك الزاوية البعيدة. هناك شخص ذكي، ولكن في غير محله، يبدو أنه ينسخ المرثيات. أتمنى أن يرحل. أريد أن أريها لك.»

لاحظتُ الآن، ولأول مرة، أن هناك شخصًا يتعامل مع دفتر ملاحظاتٍ في يده، في إجراء مسح دقيق لمجموعة من شواهد القبور القديمة. من الواضح أنه كان يصنع نسخة من النقوش، لأنه لم يكن يدقق باهتمام في الكتابة على وجه الحجَر فحسب، بل كان يساعد نفسه مرارًا وتكرارًا على رؤيتها من خلال تمرير أصابعه على الحروف البالية.

قالت الآنسة بيلينجهام: «هذا هو شاهد قبر جدي الذي ينسخه الآن.» وبينما كانت تتحدث، استدار الرجل وألقى نظرةً فاحصة علينا بعينَين حادَّتَين مُتحمستين.

ثم بدا الاندهاش جليًا على وجوهنا في الوقت نفسه، إذ إن المحقق كان السيد جيليكو!

الفصل السادس عشر

وداعًا، أرتيميدورس!

من المستحيل أن نعرف ما إذا كان قد تفاجأ السيد جيليكو برؤيتنا أم لا. فكان استغلال ملامحه (التي تخدم الأغراض العادية للوجه، من حيث احتوائها على الأعضاء الرئيسية ذات الحواس الخاصة، بالإضافة إلى مداخل إلى الجهاز الهضمي والجهاز التنفسي)، كوسيلة للتعبير عن المشاعر، باء بالفشل التام. وبالنسبة لقارئ الأفكار، ربما تكون مُفيدة بنفس قدر إفادة منحوتة وجهٍ على مقبض المظلة؛ ولعلها مقارنة يقترحها قدْر معين من التشابه مع مثل هذا الشيء. فتقدَّم، مُمسكًا دفتر ملاحظاته وقلَمِه، وبعد أن حيَّانا بانحناءة مُتيبسة وقبعة قديمة مزخرفة، صافحَنا وانتظرَنا حتى نتحدَّث.

قالت الآنسة بيلينجهام: «يا له من لقاء سعيد غير متوقع، سيد جيليكو.»

فأجابها: «يسرُّني جدًّا أن تقولي ذلك.»

«ويا لها من صدفة؛ أن نأتي جميعًا إلى هنا في اليوم نفسه.»

فأكد قائلًا: «بالتأكيد صدفة، وإذا تصادف أننا لم نحضر جميعًا — وهو ما يحدُث كثيرًا — فهذه أيضًا ستكون صدفة.»

فقالت: «أعتقد ذلك، ولكني آمُل ألَّا نكون قد قاطعناك.»

«أشكركِ، كلَّا. لقد انتهيتُ لتوِّي عندما أسعدني الحظ بلقائكما.»

فقلت: «أعتقد أنك كنتَ تدوِّن بعض الملاحظات عن القضية.» لقد كان ذلك سؤالًا وجيهًا، طُرح بخبثٍ من أجل مجرد متعة سماعه يتهرَّب منه.

فقال مُكررًا: «القضية؟ ربما تُشير إلى قضية آل ستيفن ضد مجلس الأبرشية؟»

قالت الآنسة بيلينجهام بحدة شديدة، رغم ظهور ابتسامة مُريبة وخافتة على زوايا فمها: «أعتقد أن دكتور بيركلي كان يُشير إلى قضية وصية عمي.»

قال السيد جيليكو: «حقًّا، هناك قضية، هل تُوجَد دعوى؟»

«أقصد الإجراءات التي أقامها السيد هيرست.»

«أوه، ولكن هذا كان مجرد التماسٍ إلى المحكمة، وعلاوة على ذلك، انتهى الأمر وقد فُرغ منه. على الأقل، كما فهمت. بالطبع، أنا أتحدَّث وكلامي خاضع للتصويب؛ فأنا لا أمثل السيد هيرست، كما يسعدكما أن تتذكَّرا.» ثم تابع، بعد فترة توقف قصيرة قائلًا: «في واقع الأمر، لقد كنتُ فقط أنعش ذاكرتي فيما يتعلق بصياغة النقوش على هذه الأحجار، ولا سيما تلك الخاصة بجدك، فرانسيس بيلينجهام. خطر لي أنه إذا تبيَّن من خلال إثبات هيئة المُحلفين أن عمك قد تُوفي، فسيكون من اللائق والرائع أن يتم وضع نصبٍ تذكاري هنا. ولكن، نظرًا لأن المقبرة مُغلقة، فقد يكون هناك بعض الصعوبة بشأن بناء نصب تذكاري جديد، في حين أنه لا يُوجَد مشكلة على الأرجح في إضافة نقشٍ إلى نصبٍ موجود بالفعل. ومن هنا جاءت هذه الفحوصات. لأنه إذا كانت النقوش على حجر جدك قد نصَّت على أن «هنا يرقد جسد فرانسيس بيلينجهام.» فمن الواضح أنه من غير المناسب إضافة «وأيضًا جون بيلينجهام، ابن المذكور أعلاه.» لحُسن الحظ، تمَّت صياغة النقش بشكلٍ أكثر تكتمًا، حيث سجل فقط حقيقة أن هذا النصب «مُخصَّص لذكرى فرانسيس المذكور»، ولا يلزم نفسه بمكان وجود الرفات. لكن ربما أكون أنا من قاطعكما.»

أجابت الآنسة بيلينجهام: «كلَّا، على الإطلاق. لقد كنَّا في طريقنا إلى المتحف البريطاني وجئنا إلى هنا في طريقنا إليه.» (ولكن ذلك لم يكن حقيقيًّا على الإطلاق، حيث إنه كان يُقاطعني بشكلٍ لا يُحتمل).

فقال السيد جيليكو: «أها، ويتصادف الآن أيضًا أنني ذاهب إلى المتحف البريطاني للقاء الدكتور نوربيري. أفترض أن تلك صدفة أخرى؟»

أجابته الآنسة بيلينجهام: «بالتأكيد هي كذلك.» ثم سألته: «هل سنسير معًا؟» وأجابها العجوز المُتحفظ بما أثار ضيقي: «أجل.»

عدنا إلى طريق جرايز إن، حيث كان هناك الآن مُتسع لنا للمشي جنبًا إلى جنب، شرعتُ في تعويض نفسي عن رفقة المحامي غير المُرحَّب بها من خلال إعادة المحادثة إلى موضوع الرجل المفقود.

«سيد جيليكو، هل كان هناك أي شيء في الحالة الصحية للسيد جون بيلينجهام يُرجِّح أنه قد يموت فجأة؟»

نظر لي المحامي في ريبة للحظات ثم علق قائلًا:

«يبدو أنك مُهتم كثيرًا بجون بيلينجهام وشئونه.»

«أنا كذلك فعلًا. فأصدقائي قلقون للغاية بشأنه، والقضية نفسها هي أكثر من مجرد مصلحةٍ مشتركة من وجهة نظر مهنية.»

«وما المغزى من هذا السؤال بالذات؟»

فقلت: «إنه واضح بالتأكيد. فإذا كان من المعروف أن رجلًا مفقودًا قد عانى من علةٍ ما، مثل أمراض القلب، أو تمدد الأوعية الدموية، أو انسداد الشرايين، والتي يحتمل أن تؤدي إلى موتٍ مفاجئ، فستكون هذه الحقيقة بالتأكيد مهمة للغاية للإجابة عن السؤال حول ما إذا كان على الأرجح ميتًا أو ما زال على قيد الحياة.»

قال السيد جيليكو: «لا شكَّ أنك على حق. لديَّ بعض المعلومات الطبية البسيطة، ولكن لا شك أنك مُحق. وبالنسبة للسؤال نفسه، فإنني محامي السيد بيلينجهام ولستُ طبيبه. وبالتالي فإن حالته الصحية ليست من اختصاصي. ولكنك سمعتَ شهادتي في المحكمة التي مفادها أن المُوصي بدا متمتعًا بصحة جيدة، حسب ملاحظتي غير المدروسة. وليس بإمكاني قول أي شيء آخر.»

قالت الآنسة بيلينجهام: «إذا كان السؤال على هذا القدر من الأهمية، فإنني أتساءل: لماذا لم يُستَدعى طبيبه لتحديد ذلك بوضوح. أما انطباعي فهو أنه كان رجلًا قويًّا يتمتع بصحة جيدة. وبالتأكيد قد شُفي سريعًا وبشكلٍ تام بعد الحادث.»

فسألتها: «أي حادثٍ تقصدين؟»

«أوه، ألم يُخبرك والدي؟ لقد وقع الحادث في أثناء إقامته معنا. انزلق من الرصيف وكُسِرت إحدى عظام كاحله الأيسر — كسر على اسم شخص ما.»

«كسر بوت؟»

«أجل، كان هذا هو الاسم، كسر بوت، وكُسرت عظام رضفة رُكبتيه كلتيهما أيضًا. كان على السير مورجان بينيت إجراء عملية جراحية، وإلا كان سيظل معوقًا مدى الحياة. كما هي الحال، كان على وشك ذلك في أسابيع قليلة، وبدا أنه لم يكن شيئًا سيئًا باستثناء ضعفٍ طفيف في الكاحل الأيسر.»

فسألتها: «هل كان يمكنه الصعود إلى الطابق العلوي؟»

«نعم، وكان يلعب الجولف ويركب الدراجة.»

«هل أنت متأكدة أنه قد كُسرت عظام رضفة كلتا الركبتين؟»

«بالتأكيد. أتذكر أنه قد قيل إنها إصابة غير شائعة، وأن السيد مورجان كان سعيدًا للغاية لأنه أجراها.»

«هذا يبدو تشهيرًا إلى حدٍّ ما؛ لكني أتوقع أنه كان سعيدًا بنتيجة العملية. قد يكون الأمر كذلك.»

في هذه اللحظة ساد الحديث فترة هدوء قصيرة، وحتى حين كنت أحاول التفكير في سؤالٍ مُحير للسيد جيليكو، انتهز الرجل الفرصة لتغيير الموضوع.

فسألنا: «هل ستذهبان إلى القاعات المصرية؟»

أجابت الآنسة بيلينجهام: «لا، سنذهب لمشاهدة أواني الفخار.»

«القديمة أم الحديثة؟»

«في الوقت الحالي فإن أواني فولهام هي اهتمامنا الرئيسي، وهي تعود إلى القرن السابع عشر. لا أعرف إن كنتَ تعتبر ذلك قديمًا أم حديثًا.»

قال السيد جيليكو «ولا أنا كذلك. فالقِدَم والحداثة هما مصطلحان ليس لهما دلالة ثابتة. فهما نسبيَّان بشكلٍ بحت ويجب تحديد تطبيقهما في حالة مُعينة بمقياس متدرج. بالنسبة إلى جامع الأثاث، يعتبر كرسي تيودور أو صندوق يعقوب قديمًا؛ أما بالنسبة لمهندسٍ معماري، فإنه يعتبر فترتهما حديثة، وبينما تُعد كنيسة القرن الحادي عشر قديمة؛ لكن بالنسبة لعالِم المصريات، الذي اعتاد على بقايا العصور القديمة المتنوِّعة، فكِلاهما نتاج عصور حديثة يفصلها فترات زمنية ضئيلة.» ثم أضاف وهو يفكر في الأمر: «وأنا أرجح أنه بالنسبة للجيولوجي، فإن آثار الفجر المبكر جدًّا للتاريخ البشري تتعلق فقط بالفترة الأخيرة. إن مفهوم الوقت، مثل جميع المفاهيم الأخرى، نسبي.»

قلت له: «يبدو أنك تلميذ هربرت سبنسر.»

أجاب مُعترضًا: «أنا تلميذ آرثر جيليكو يا سيدي.» وأنا صدَّقته.

بحلول الوقت الذي وصلْنا فيه إلى المتحف، أصبح لطيفًا إلى حدٍّ كبير؛ وإن كان أقل إمتاعًا في هذا الإطار، فقد كان أكثر إفادةً وتسلية لدرجةٍ جعلتني أمتنع عن مضايقته، وسمحتُ له بمناقشة موضوعه المُفضَّل دون عوائق، خاصة أن رفيقتي استمعت إليه باهتمام كبير. ولم يتنازل عن الاستحواذ على اهتمامنا عندما دخلنا القاعة الكبرى، وتبِعنا بخضوع، وهو يقطع الطريق مُتجاوزًا ثيران نينوى المُجنحة والتماثيل العظيمة الجالسة، حتى وجدنا أنفسنا تقريبًا دون أي إرادةٍ منَّا، في القاعة العلوية وسط صناديق المومياوات المبهرجة التي شهدت ولادة صداقتي مع روث بيلينجهام.

قال السيد جيليكو: «قبل أن أترككما، أودُّ أن أريكما تلك المومياء التي كنا نتناقش حولها في الليلة الماضية؛ تلك، كما تتذكَّرين، التي قدَّمها صديقي، جون بيلينجهام، إلى

المتحف قبل اختفائه بقليل. النقطة التي ذكرتها ليست سوى نقطة تافهة، لكنها قد تُصبح موضع اهتمامٍ فيما بعد، إذا لاح في الأفق أي تفسير مقبول.» ثم قادنا على طول القاعة حتى وصلنا إلى الصندوق الذي يحتوي على هدية جون بيلينجهام، حيث توقف وحدَّق في المومياء بتأمُّلٍ حانٍ من خبير.

قال: «طلاء القار هو ما كنَّا نناقشه، يا آنسة بيلينجهام. بالتأكيد قد رأيتِ ذلك.»

أجابت «نعم. إنه تشويه مُروِّع، أليس كذلك؟»

«من الناحية الجمالية، يجب أن نشعر بالأسى، إلا أن ذلك يضيف فائدة تأمُّلية مُعينة للعينة. بالتأكيد لقد لاحظتِ أن الطلاء الأسود يترك الزخرفة الرئيسية والنقش كله على حالهما، وهو بالضبط الجزء الذي يتوقع المرء أن يتم تغطيته؛ في حين أن القدمين والظهر، اللذين ربما لا يحملان كتابة، مُتقشران بشدة. إذا انحنيتِ، يمكنك أن ترَي أن طبقة القار قد دُهِنت بحرية في الأربطة الخلفية، حيث لا تخدم أي غرض، لدرجة أن السلاسل مُضمنة.» ثم انحنى أثناء حديثه، وألقى نظرة فضوليَّة إلى مُؤخِّرة المومياء، حيث كان مرئيًّا بين الدعامات.

سألت الآنسة بيلينجهام: «هل لدى الدكتور نوربيري أي تفسير يقدمه؟»

أجابها السيد جيليكو: «لا شيء على الإطلاق، ومع ذلك فهو يرى الأمر على أنه لغز مُحير مثلي تمامًا. ولكنه يعتقد أننا قد نحصل على بعض المقترحات من المدير عند عودته. فكما تعلمان لديه سلطة كبيرة، كما أنه مُنقب ذو خبرة عظيمة أيضًا. ولكن يجب عليَّ ألَّا أظل أتحدث هنا عن مثل تلك الأمور وأمنعكما من رؤية أواني الفخار. ربما أكون قد أطلتُ البقاء بالفعل، فإذا كان الأمر كذلك فأنا أطلب المعذرة، وسوف أتمنى لكما الآن قضاء فترة ظهيرة ممتعة.» ثم صافحنا بيديه بشدة بعد أن عاد مرة أخرى إلى جموده الخشبي المعتاد، وتوجَّه نحو مكتب أمين المتحف.

قالت الآنسة بيلينجهام، بينما يختفي السيد جيليكو عبر الباب في نهاية القاعة: «يا له من رجل غريب. أو قد يمكنني القول كائن غريب، حيث من الصعب عليَّ التفكير فيه كإنسان. فلم أقابل من قبلُ أي إنسان مثله أبدًا.»

اتفقت معها قائلًا: «إنه بالتأكيد شخص عجوز غريب الأطوار وخطير.»

«نعم! ولكنْ هناك شيء أكثر من ذلك. إنه عديم التأثر تمامًا، بعيد جدًّا، فهو بعيد عن جميع الاهتمامات الدنيوية. إنه يتحرك بين الرجال والنساء العاديين، ولكن كمجرد شيء موجود، متفرج غير متأثر بأفعالهم، مُحايد تمامًا وموضوعي.»

«نعم؛ إنه مستقل بذاته بشكل مذهل؛ في الواقع، يبدو وكأنه، كما قلتِ، يروح ذهابًا وإيابًا بين الرجال، مُحاطًا بنوع من الهالة الشريرة الخاصة به، مثل شبح مارلي. لكنه يتَّسِم بالحيوية والإنسانية بما فيه الكفاية بمجرد التطرُّق إلى موضوع الآثار المصرية.»

«صحيح أنه حيوي، لكنه ليس بشريًّا. إنه دائمًا، بالنسبة لي، ليس إنسانًا على الإطلاق. حتى عندما يكون مُهتمًّا للغاية، ومتحمسًا، فهو مجرد تجسيد للمعرفة. كان يجب أن تزوده الطبيعة برأس منجل مثل تاهوتي؛ ثم كان سيبدو على ما هو عليه.»

قلت: «كان سيترك إحساسًا نادرًا في لينكولنز إن كان لديه.» ثم ضحك كِلانا بحرارة على الصورة الخيالية لتاهوتي جيليكو، ذي المنقار النحيف والمرتفع، وهو يمارس عمله في لينكولنز إن ومحاكم العدل الملكية.

اقتربنا من مومياء أرتيميدورس بينما نتحدَّث دون أن نشعُر، والآن توقفَتْ رفيقتي أمام الصندوق وعيناها الرماديتان اللتان تنحنيان حالِمتَين على الوجه الذي ينظر إلينا. شاهدتها بإعجاب شديد. كم بدتْ ساحرةً وهي تقف ووجهها اللطيف العابس الذي تحوَّل بجديةٍ إلى موضوع عاطفتها الغامضة! كم هو ليِّن ومفعم بالكرامة والجمال الأنثوي! وفجأة أدركتُ أن تغييرًا كبيرًا قد طرأ عليها منذ يوم لقائنا الأول. لقد بدت أصغر سنًّا وأكثر طفولة وأكثر رقة. ففي البداية كانت تبدو أكبر منِّي بكثير. امرأة حزينة الوجه، مُرهقة، جادة، غامضة، كئيبة إلى حدٍّ كبير، ذات روح دعابة مريرة وساخرة وباردة. أما الآن فهي رقيقة وحلوة. يشوبها بعض الجدية، هذا صحيح، لكنها صريحة وسخية ومحبوبة للغاية.

هل يعود هذا التغيير إلى صداقتنا؟ وبينما سألتُ نفسي هذا السؤال، كان قلبي يثِبُ من مكانه بأملٍ جديد. كنت أتوق إلى أن أُخبرها بما تعنيه لي، وكل ما كنتُ أتمناه أن يكون كل منَّا للآخر في السنوات المقبلة.

وأخيرًا تجرَّأتُ على اقتحام تأمُّلها.

«ما الذي تفكرين فيه بكل هذه الجدية، يا سيدتي الجميلة؟»

استدارت بسرعةٍ بابتسامة مُشرقة وعينين متلألئتين نظرَتا إليَّ مباشرة. ثم قالت: «كنتُ أتساءل إذا كان يشعر بالغيرة من صديقي الجديد. لكن يا لي من طفلة أتحدَّث بهذا الهراء!»

ثم ضحكتْ بهدوءٍ وسعادة بمسحةٍ جميلة من الخجل.

فسألتها: «ولماذا عليه أن يغار؟»

«حسنًا، كما ترى، من قبل أن نكونَ صديقين، كان قد استحوذ عليَّ بالكامل لنفسه. لم يكن لديَّ صديق من قبل — باستثناء والدي — ولم يكن لديَّ صديق مُقرب على الإطلاق. وكنت وحيدة جدًّا في تلك الأيام، بعد الأزمة التي حلَّت علينا. أنا بطبيعتي شخصية انعزالية، لكني ما زلتُ مجرد فتاة؛ أنا لست فيلسوفة. لذلك عندما شعرت بالوحدة الشديدة، كنتُ آتي إلى هنا وألقي نظرةً على أرتيميدورس وأعتقد أنه يعرف كل الحزن الذي يمرُّ بي في حياتي ويتعاطف معي. كان الأمر سخيفًا للغاية، أعلم ذلك، ولكن مع هذا، كان ذلك بمثابة راحةٍ حقيقية بالنسبة لي.»

«لم يكن الأمر سخيفًا منك على الإطلاق. لا بدَّ أنه كان رجلًا صالحًا، ورجلًا لطيفًا، وسيم الملامح، وفاز بحب أولئك الذين عرفوه، كما يقول هذا النصب التذكاري الجميل؛ وكان من الحكمة والذكاء منك لتلطيف مرارة حياتك بعطر هذا الحبِّ الإنساني الذي يزهر في التراب بعد زوال قرون. لا، لم تكوني سخيفة، وأرتيميدورس لا يغار من صديقك الجديد.»

«هل أنتَ واثق من ذلك؟» كانت لا تزال تبتسِم وهي تطرح هذا السؤال، لكن نظرتها كانت ناعمة — شبه رقيقة — وكانت هناك نبرة قلق غريبة في صوتها.

«بالتأكيد. أنا أمنحك كل تأكيدي بثقة.»

ضحكتْ بمرحٍ ثم قالت: «ثم إنني راضية، لأنني واثقة أنك تعرف ذلك. ولكنْ ثمة خبير في توارد الخواطر يمكنه التواصل والشعور عن بعد بقوة والذي يتمكن من قراءة الأفكار حتى ولو كانت لمومياء. رفيق رائع حقًّا. ولكن أخبرني كيف عرفت ذلك.»

«أنا أعلم لأنه هو مَن منحني صداقتك. ألا تذكرين ذلك؟»

أجابت برقة: «نعم، أذكر ذلك. عندما كنتَ متعاطفًا جدًّا مع رغباتي الحمقاء شعرت أننا صديقان حقًّا.»

«وأنا أيضًا أذكر، عندما أسررتِ لي بخيالك الجميل عن رغباتك، شكرتُك على صداقتك، واعتززتُ بها كثيرًا، وما زلتُ أقدرها، أكثر من أي شيءٍ على وجه الأرض.»

نظرت إليَّ بسرعةٍ ولكن بنظرة يبدو عليها التوتر، ثم أبعدت عينيها. ثم، وبعد لحظاتٍ قليلة من الصمت المُحرج، وكأنها تودُّ إعادة حديثنا إلى مستوًى أقل عاطفية، قالت:

«هل تلاحظ الطريقة الغريبة التي يقسم بها هذا النصب التذكاري نفسه إلى قِسمَين؟»

سألتها دون أن أُبدي اهتمامًا للتغيُّر المفاجئ: «ماذا تقصدين؟»

«أعني أن جزءًا منه مُزخرف بحت وجزءًا مُعبر أو عاطفي. تلاحظ أن التصميم العام ومخطط الزخرفة، على الرغم من كونه يونانيًّا حقًّا، يتبع التقاليد المصرية بشكل صارم. ولكن الصورة تعد بالطريقة اليونانية إلى أبعد حد، وعندما وصلوا إلى هذا الوداع المُثير للشفقة، كان لا بدَّ من التحدُّث بلغتهم الخاصة، وكتابتها بأحرفهم المألوفة.»

«نعم. لقد لاحظتُ ذلك وأعجبت بالذوق الذي أبقوا به النقوش غير واضحة حتى لا يتعارض ذلك مع الزخارف. كان من الممكن أن يُفسد النقش الدخيل بالأحرف اليونانية اتساق المُخطط بأكمله.»

«وافقتْ دون وعيٍ منها وكأنها كانت تفكر بشيء آخر: «نعم، كان سيُفسده.» ومرة أخرى حدقت بتمعن في المومياء. نظرتُ إليها باهتمام شديد، فلاحظتُ أبعاد خدِّها الجميل، والكتل الناعمة من الشعر التي ابتعدت برشاقة شديدة عن جبينها، ورأيتُ أنها أجمل مخلوق وطئ الأرض. وفجأة نظرتْ إليَّ بتأمُّل.

قالت: «أتساءل ما الذي جعلني أُخبرك عن أرتيميدورس. لقد كان نوعًا من التخيُّل سخيفًا وطفوليًّا، ولم أكن لأخبر أي شخصٍ آخر في العالم؛ ولا حتى والدي. كيف عرفتُ أنك ستتعاطف وتتفهَّم؟»

طرحت السؤال بكل بساطةٍ وعيناها الرماديتان الجادَّتان تنظُران إلى عينيَّ. وجاءت الإجابة في ومضة، مع دقات قلبي.

همستُ بشغف: «سأخبرك كيف عرفتِ يا روث. كان ذلك لأنني أحببتُك أكثر ممَّا أحبَّك أي شخصٍ آخر في هذا العالم، ولقد شعرتِ بحُبي في قلبك وسمَّيتِهِ تعاطفًا.»

توقَّفت لفترة قصيرة، لأن وجهها قد احمرَّ خجلًا ثم أصبحت شاحبة. وها هي الآن تنظر إليَّ بعنف، أو برُعب إلى حدٍّ كبير.

صرخت نادمًا: «هل صدمتك يا عزيزتي روث؟ هل تسرَّعتُ في الحديث؟ إذا كان الأمر كذلك، فسامحيني. لكن كان عليَّ أن أخبرك. لقد كان قلبي يتمزَّق من حُبك لا أعرف منذ متى. أعتقد أنني أحببتُك من اليوم الأول الذي التقينا فيه. ربما لم يكن عليَّ أن أصرح بذلك بعد، لكن يا عزيزتي روث، إذا كنتِ فقط تدرين كم أنتِ فتاة جميلة، فلن تلوميني.»

قالت بصوتٍ هامس: «أنا لا ألومُك. إنني ألوم نفسي. لقد كنتُ صديقة سيئة لك، أنت الشخص المُخلص والمُحب لي. يجب ألَّا أسمح بحدوث هذا. لأنه لا يمكن أن يكون، بول؛ لا أستطيع أن أقول ما تُريدني أن أقول. لا يُمكننا أبدًا أن نكون إلا مجرد صديقين.»

بدا الأمر وكأن يدًا باردةً تقبض على قلبي؛ خوف رهيب لأنني فقدتُ كل ما كنتُ أهتم به، كل ما كان يجعل الحياة مرغوبًا فيها.

سألتها: «لماذا لا يمكننا؟ هل تقصدين أن الله قد أنعم على رجلٍ آخر؟»

أجابت على عجلٍ وبسخط تقريبًا: «لا، لا، بالطبع لا أقصد ذلك.»

«إذن كل ما هنالك أنك لم تُحبيني بعد. بالطبع لم تُحبيني. لماذا عليكِ أن تُحبيني؟ لكنكِ ستفعلين، يا عزيزتي، يومًا ما. وسأنتظر بصبرٍ حتى يأتي ذلك اليوم ولن أزعجك بالتوسُّلات. سأنتظرك كما انتظر يعقوب راحيل؛ وكما بدت له السنوات الطويلة كبضعة أيامٍ بسبب الحُب الذي حملَه لها، سيكون الأمر كذلك بالنسبة لي، إذا كنتِ فقط لن تُبعديني تمامًا بدون أمل.»

كانت تنظر إلى الأسفل، بوجهٍ شاحب، مع تصلُّب شفتَيها كما لو كانت تُعاني من ألمٍ جسدي. ثم همست قائلة: «أنت لا تفهم. لا يمكن أن يكون، لا يمكن أن يكون أبدًا. هناك شيء يجعله مُستحيلًا الآن ودائمًا. لا أستطيع أن أخبرك أكثر من ذلك.»

ناشدتُها يائسًا: «لكن، يا عزيزتي روث، أليس من الوارد أن يُصبح ذلك ممكنًا في يوم من الأيام؟ ألا يمكن تحقيق ذلك؟ يمكنني الانتظار، لكن لا يُمكنني الاستسلام. ألا تُوجَد فرصة لإزالة هذه العقبة مهما كانت؟»

«يؤسِفني أن أقول لك إنها فرصة ضئيلة للغاية. لا تكاد تُذكر. لا، يا بول؛ إنه أمر ميئوس منه، ولا يُمكنني تحمُّل الحديث عنه. دعني أذهب الآن. دعنا نقول وداعًا هنا ولن يرى أحدنا الآخر بعد الآن. ربما نكون صديقين مرة أخرى في يوم من الأيام؛ عندما تُسامحني.»

صحتُ قائلًا: ««أسامحك، يا أعزَّ صديقة!» لا يُوجَد شيء أسامحك عليه. ونحن أصدقاء يا روث. مهما حدث، فأنت أعز صديقة لي على وجه الأرض، أو يمكن أن أحصل عليها على الإطلاق.»

قالت بصوتٍ خافت: «شكرًا لك يا بول. أنت لطيف جدًّا معي. لكن دعني أذهب من فضلك. يجب أن أكون بمفردي.»

مدَّت يدها مُرتجفة، وعندما أخذتُها بين يدي، صُدِمت لرؤية كيف بدت مُضطربة ومُتعَبة.

توسَّلتُ إليها قائلًا: «ألا يمكنني أن آتي معك يا عزيزتي؟»

صرخت بلهفة: «لا لا! يجب أن أذهب وحدي. أريد أن أكون وحدي. وداعًا.»

«قبل أن أتركِكِ يا روث — إذا كان عليكِ أن ترحلي — يجب أن أحصل على وعدٍ قاطع منك.»

التقت عيناها الرماديتان الحزينتان بعينيَّ وارتجفت شفتاها بسؤالٍ غير معلن.

فتابعت قائلًا: «يجب أن تعديني إذا رُفع هذا الحاجز الذي يفصل بيننا، فسوف تُخبرينني على الفور. تذكَّري أنني أحبكِ دائمًا، وأنني أنتظركِ دائمًا على هذا الجانب من القبر.»

كانت أنفاسها لاهثةً بنحيبٍ سريع وضغطتْ على يدي.

ثم همست قائلة: «نعم، أعدك، وداعًا.»

ثم ضغطتْ على يدي مرةً أخرى وذهبت؛ وبينما كنتُ أحملق في المدخل الفارغ الذي مرَّت من خلاله، لمحتُ انعكاس صورتها في زجاج على درجات السلم، حيث توقفت للحظةٍ لمسح عينيها. شعرت، بطريقةٍ ما، أنه من غير اللائق أن أتابعها بعيني، وأبعدتُ رأسي بسرعة؛ ومع ذلك، كنتُ مدركًا لشعورٍ أناني بالرضا في التعاطف اللطيف الذي يعنيه حُزنها.

ولكن الآن بعد أن ذهبت، انتابني إحساس رهيب بالأسى. الآن فقط، من خلال وعيي بالخسارة التي لا يمكن تعويضها، بدأتُ أدرك معنى شغف الحُب الذي سُرِق من حياتي فجأة. كيف له أن يمنح بريقًا للحاضر وينشر البهجة على المستقبل الباهت؛ كيف تلاقت عليه كل الملذَّات والرغبات والآمال والطموحات كبؤرة تركيز؛ كيف برز على أنه الحقيقة العظيمة التي بدت وراءها ظروف الحياة الأخرى كخلفية، مُتلألئة، نصف مرئية، غير مادية وغير واقعية. والآن ذهب؛ ضاع، كما بدا، فيما وراء الأمل، وما بقي لي سوى الإطار الفارغ الذي اختفت منه الصورة.

ليس لديَّ أدنى فكرة عن المدة التي وقفتُ فيها ثابتًا في المكان الذي تركتني فيه، مُحاطًا بوعيٍ مُمل بالألم، مُنغمسًا في تخيُّلٍ شبه مُخدَّر. تطايرت الأحداث الأخيرة في ذهني، مثل الحلم؛ مهماتنا السعيدة في قاعة القراءة؛ زيارتنا الأولى للمتحف. وهذا اليوم الذي بدأ بشكلٍ مُشرق وبهذا الوعد. جاءت أشباح السعادة المُختفية واحدةً تلو الأخرى وذهبت. كان الزوَّار من حينٍ لآخر يتجولون في القاعة — لكن صالات العرض كانت فارغة في الغالب ذلك اليوم — يحدقون بفضول في وجودي الثابت، ثم يمضون في طريقهم. ولا يزال الألم الباهت الذي لا يُطاق مستمرًا في صدري، هو الوعي الحي الوحيد الذي تُرِك لي.

والآن، رفعتُ عينيَّ لتلتَقِيا بعينَي مَن باللوحة. نظر إليَّ الوجه اللطيف المتأمِّل للمستوطن اليوناني القديم، بحُزن وكأنه سيمنحني الراحة؛ وكأنه يُخبرني أنه هو أيضًا كان يعرف الحزن عندما كان يعيش حياته في مدينة الفيوم المُشمسة. ويبدو أن العزاء اللطيف، مثل الرائحة الباهتة لأوراق الورد القديمة، يزفر من ذلك الوجه الودود الذي حضر ولادة سعادتي كما رآها تذبُل وتتلاشى. استدرتُ أخيرًا بوداعٍ صامت. وعندما نظرتُ إلى الوراء، بدا أنه يَحثُّني على الإسراع في طريقي مع وداعٍ لطيف.

الفصل السابع عشر

إصبع الاتهام

أثناء جولاتي، بعد مغادرة المتحف، في ذلك اليوم الأسود والكئيب، لم يكن لديَّ سوى ذكرياتٍ متشائمة. ولكن كان لا بد لي أن أقطع مسافة كبيرة جدًّا، نظرًا لأنه يفصلني عن موعد العودة إلى العيادة ساعة أو ساعتان، ولذا قضيتُ الفترة الفاصلة في التجول سريعًا عبر الشوارع والميادين، غير مُنتبه لما يحدث حولي، مركزًا فقط على سوء حظي في الوقت الحالي، ومدفوعًا بحافز طبيعي لبذل مجهودٍ بدَني على أمل العثور على الراحة. فالإجهاد الذهني، إذا جاز لنا التعبير، يُولِّد تيارًا مُستحِثًّا للاضطراب البدني؛ بموجب ترتيبٍ رحيم قد تتحول الزيادة الخطيرة في الإثارة العاطفية إلى طاقة مُحرِّكة، وبالتالي يمكن التخلص منها بأمان. ويقوم الجهاز المُحرِّك مقام صمام الأمان للجانب البدني؛ بحيث إذا عمل المُحرِّك لفترةٍ من الوقت، ومع بدء الإجهاد البدني تعود قراءة مقياس الضغط العاطفي إلى أرقامها المعتادة.

كانت هذه هي حالتي. في البداية، لم أكن واعيًا بأي شيءٍ وإنما خيَّم عليَّ شعور تام بالفجيعة، وتحطمت كلُّ آمالي. ولكن، بالتدريج، بينما كنتُ أشق طريقي وسط الحشود المتحركة، صِرت في حالةٍ ذهنية أفضل وأجدر. فعلى أي حال، لم أفقد شيئًا كنتُ قد امتلكته من قبل. لا تزال روث كل ما كانت تُمثله بالنسبة إليَّ، بل ربما أكثر؛ وحتى إن كانت هذه هدية ثرية من الأمس، فلماذا لا تكون كذلك اليوم؟ وكيف سيكون ظلمًا لها إذا تعين عليَّ التفكير باستمرار والحزن على خيبة أملٍ لم تكن غلطتها ولم يكن لها حل؟ ومِن ثَم، فكرتُ في نفسي بتعقل، وبهذا فإنه بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه إلى حارة فيتر، كان شعوري بالاكتئاب قد وصل إلى معدلاتٍ يمكن التحكم فيها تمامًا وأخذت قرارًا بالعودة إلى الوضع السابق في أقرب وقتٍ مُمكن.

وفي حوالي الساعة الثامنة، بينما كنتُ أجلس بمفردي في غرفة الكشف، أُقنع نفسي في حزنٍ شديد أنني أصبحت الآن مُستسلمًا تمامًا لما هو حتمي، أحضر لي أدولفوس طردًا مرفقًا بإخطار، وحين رأيتُ الخط المكتوب عليه دق قلبي بسرعةٍ بالغة لدرجة أنني ارتبكتُ كثيرًا حتى وقع وصل الاستلام. وبمجرد أن خرج أدولفوس (بازدراء واضح للتوقيع المُهتز) فتحت الطرد على الفور، وبينما كنتُ أُخرج خطابًا وقعَتْ علبة صغيرة على الطاولة.

كان الخطاب مختصرًا للغاية، وقرأته بنهمٍ مرارًا وتكرارًا بلهفة رجل مَدينٍ يقرأ أمر إرجاء الحُكم عليه:

عزيزي بول

سامحني لأنني تركتك فجأة بعد ظهر هذا اليوم، وتركتكَ في حالةٍ من التعاسة أيضًا. لقد صرتَ الآن في حالةٍ أكثر عقلانية ومنطقية، ولذا أرسل لك تحياتي وأتوسَّل إليك ألا تحزن على ما لا يمكن أن يحدُث قطعًا. الأمر مُستحيل تمامًا، صديقي العزيز، وأتوسَّل إليك، بقدْر ما تهتمُّ بأمري، ألا تتحدَّث عن ذلك مرةً أخرى أبدًا؛ ولا تجعلني أشعر أبدًا بأنني أستطيع أن أبخل عليك بالشيء اليسير بينما تُعطيني أنت الكثير. ولذا، لا تحاول أن تُقابلني لبعض الوقت. سأفتقد زياراتك، وكذلك سيفتقدها والدي، الذي يُكنُّ لك الإعجاب الشديد؛ ولكن حريٌّ بنا ألا نلتقي حتى يتسنَّى لنا استعادة علاقاتنا القديمة؛ إذا كان ذلك مُمكنًا.

أرسل إليك هدية تذكارية صغيرة في حالة إذا فرَّقتنا دروب الحياة. إنه الخاتم الذي أخبرتك عنه؛ الخاتم الذي أهداه لي عمي. لعلك تستطيع أن ترتديه نظرًا لأن يدك صغيرة، ولكن على أي حال احتفِظ به كذكرى لصداقتنا. الشعار الموجود عليه هو عين أوزيريس، وهو شعار غامض أكنُّ له عاطفة خُرافية، كما كان عمي المسكين يكنُّ له، والذي كان يرسمه بوشمٍ أحمر على صدره. فهو يُصوِّر قاضي الموت العظيم الذي ينظر إلى البشر ليتأكد من أن العدالة تتحقَّق والحقيقة تسود. أستودعك أوزيريس العظيم، ليحفظك بعينه، ويحرس سعادتك في غياب.

صديقتكَ المُحبة

روث

كان خطابًا لطيفًا، في رأيي، حتى إن كان يحمل القليل من العزاء؛ إلا أنه كان هادئًا ومتحفظًا مثل صاحبته، وبه نبرة ودودة. وضعتُه جانبًا في النهاية، وأخرجتُ الخاتم من العلبة، وفحصته في ولع. ورغم كونه مجرد نسخة، فإنه كان يحمل سِحرَ وحسَّ القطعة الأثرية الأصلية، والأهم من كل هذا، كان مُعبئًا بروح مانحة الهدية. كان أنيقًا ورقيقًا، مُزخرفًا بالفضة والذهب، ومُرصَّعًا بالنحاس، لم أكن لأستعيض عنه بماسة كوة نور؛ وحين وضعته في إصبعي كانت العين الصغيرة ذات الطلاء الأزرق تنظُر إليَّ على نحوٍ ودود ومؤنس لدرجة أنني شعرت بسحر خرافات العالم القديم يستحوذ عليَّ أنا أيضًا.

لم يأتِ مريض واحد هذا المساء، وهو ما كان جيدًا بالنسبة إليَّ (وكذلك بالنسبة إلى المرضى)، إذ تمكنتُ على الفور من الردِّ بكتابة خطاب طويل؛ ولكنني سأوفر على القارئ — الذي طالت مُعاناته معي — عناء قراءته باستثناء فقرته الختامية:

> والآن، يا عزيزتي، سأقول كلمتي؛ ولقد قلتها مرةً واحدة، ولن أنبس ببنت شفة عن هذا الموضوع مرة أخرى (وفي الواقع لم أحرك شفة الآن) حتى يتغير الزمان. وإن لم يتغير أبدًا. وإذا مرَّ الوقت، وجاء الوقت المناسب، فسنجلس معًا، بشَعرٍ يغزوه المشيب، وأنف مُجعدة، نسند ذقنينا على عكازينا ونتمتم ونثرثر في حُبٍّ حول الأشياء التي كان من شأنها أن تحدُث لو كان أوزيريس العظيم عظيمًا بقدْر التوقعات. وسأظل راضيًا، لأن صداقتك يا روث أفضل من حُبِّ أي امرأةٍ أخرى. إذن، كما ترين، أنا مُتقبل عقوبتي وأواجه الزمن بابتسامة — اعذريني على هذه الاستعارة المجازية — وأَعِدك بإخلاصٍ أن أفعل ما تُريدينه ولن أزعجك مرةً أخرى قط.
>
> صديقك المُخلص والمحب
>
> بول

كتبتُ العنوان على الخطاب ولصقتُ طابع البريد، ثم بتكشيرةٍ كالحة فرضتُها على نفسي (لا على أدولفوس) وكأنها ابتسامة مرحة، خرجتُ ووضعتُ الخطاب في صندوق البريد، وبعد ذلك شغلت نفسي بدندنة أنشودة نونك ديميتيس مؤكدًا لنفسي أن الموضوع أُغلق تمامًا الآن.

وعلى الرغم من هذا التأكيد المُريح، كنتُ على مدى الأيام التالية شابًّا بائسًا للغاية. من الجيد أن تُدوَّن هذه المشكلات باعتبارها من نوعية المشكلات العاطفية التافهة. ولكنها

ليست من هذا القبيل. فحين يجد رجل ذو طبيعة جادة بالأساس امرأةً واحدة في هذا العالم تفي بأسمى مُثل الأنوثة، امرأة واحدة من عشرة آلاف، يمنحها كل ما يملك من حبٍّ وتبجيل، ثم تُحطَّم كل آماله فجأة، ليس بفاجعة هينة. هكذا رأيتُ الأمر. استسلمتُ للواقع المرير، وأخذ يطاردني شبح الاحتمالات ليلًا ونهارًا، ولذا قضيتُ وقت فراغي هائمًا على وجهي في الشوارع، محاولًا طرد الفكرة بلا جدوى. شعرتُ باضطرابٍ بالغ، وحين تسلمتُ خطابًا من ديك برنارد معلنًا وصوله إلى جزر ماديرا، في طريق عودته إلى الوطن، تنفَّستُ الصعداء. لم يكن لديَّ أي خطط للمستقبل؛ ولكني كنتُ أتوق للتخلص من الروتين المزعج للعيادة؛ أن يكون لي مُطلق الحرية للذهاب والمجيء كيفما ووقتما أشاء.

وذات مساء، بينما كنتُ أجلس لأتناول وجبة العشاء الوحيدة بشهية ضعيفة، انتابني شعور مفاجئ بالوحدة. الرغبة، التي شعرت بها حتى هذه اللحظة، في أن أكون وحيدًا مع تأمُّلاتي البائسة، أفسحت المجال أمام الحنين للرفقة البشرية. وتلك الرفقة التي أتوق لها بشدة صارت ممنوعة، ويجب أن ألتزم برغبات سيدتي؛ ولكن كان هناك صديقاي في شارع تيمبل. لقد مرَّ أكثر من أسبوع منذ أن التقيتُ بهما؛ في الواقع لم ألتقِ بهما منذ صبيحة أتعس يومٍ في حياتي. لعلهما يتساءلان عما حلَّ بي. نهضتُ عن الطاولة، وملأت غليوني بكمية صغيرة من التبغ، وانطلقت إلى شارع كينجز بينش ووك.

بينما كنتُ أقترب من مدخل بناية ٥أ بالشارع في جُنح الليل، قابلت ثورندايك بنفسه وهو يحمل مقعدين قابلين للطيِّ ومصباح قراءة وكتابًا.

صاح قائلًا: «يا إلهي، بيركلي! أهذا أنت؟ كنَّا نتساءل ماذا حلَّ بك.»

قلت: «لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ آخر مرة اطمأننتُ فيها عليك.»

أخذ يُدقق بي باهتمامٍ على ضوء مصباح المدخل، ثم قال: «يبدو أن حارة فيتر لا تتفق معك، تمامًا، يا بني. تبدو نحيفًا وشاحبًا جدًّا.»

«حسنًا، لقد أوشكتُ على الانتهاء من المهمة. سيعود برنارد في غضون عشرة أيام تقريبًا. سترسو سفينته على جزر ماديرا للتزوُّد بالفحم وحمل بعض البضائع، ثم سيعود إلى الوطن. إلى أين ستذهب بهذين المقعدين؟»

«سأجلس عند نهاية الشارع بجانب السور. الجو هناك أكثر برودةً من الداخل. إذا انتظرتَ لدقيقة، فسأذهب وأحضر مقعدًا آخر لجيرفيس، رغم أنه لن يعود قبل فترة قصيرة.» صعد الدرج، وعلى الفور عاد بمقعدٍ ثالث، وحملنا أغراضنا حتى وصلْنا إلى زاويةٍ هادئة من الشارع.

قال حين وضع المقاعد وعلق المصباح على السور: «إذن، لقد انتهت فترة عبوديتك. هل ثمة أخبار أخرى؟»

«كلَّا. هل لديك أنت أي أخبار؟»

«يؤسفني أن أخبرك بأنه ليس لديَّ. فجميع تحرياتي أسفرت عن نتائج سلبية. بالطبع، ثمة مجموعة مهمة من الأدلة، وجميعها تُشير إلى اتجاهٍ واحد. ولكني غير مُستعد لاتخاذ خطوة حاسمة دون وجود شيء مُحدَّد أكثر. أنا منتظر أي إثباتٍ أو شيء من هذا القبيل على أفكاري بخصوص الموضوع؛ منتظر بعض الأدلة الجديدة.»

«لم أعرف أنه كانت هناك أي أدلة.»

قال ثورندايك: «ألم تعرف؟ ولكنك تعرف بقدْر ما أعرف أنا. أنت لديك جميع الحقائق المهمة؛ ولكن من الواضح أنك لم تجمعها وتستخلص معناها. لو كنتَ فعلت ذلك، لكنتَ وجدتها ذات أهمية بالغة.»

«يجدُر بي ألَّا أسأل عن أهميتها، هل تتفق معي؟»

«لا، لا أظن ذلك. عندما أعمل على قضية، لا أذكر تخميناتي لأي شخص — ولا حتى جيرفيس. إذن، يمكنني أن أقول بكل ثقةٍ إنه ليس هناك أي تسريبات. لا تظن أنني لا أثق بك. تذكَّر أن أفكاري هي ملك لعميلي، وأساس الاستراتيجية هو إبقاء العدو في الظلام.»

«نعم، أتفهَّم ذلك. بالطبع، ما كان ينبغي لي أن أسأل.»

قال ثورندايك بابتسامة: «لا ينبغي عليك أن تسأل؛ بل ينبغي عليك أن تضع الحقائق معًا وتُجادل بها بنفسك.»

وبينما كنَّا نتحدث، لاحظتُ أن ثورندايك يحدق بي مستفسرًا من وقتٍ لآخر. وبعد فترة من الصمت، سألني فجأة:

«هل هنالك خطب ما، بيركلي؟ هل أنت قلق بشأن أمور أصدقائك؟»

«كلَّا، ليس هذا على وجه التحديد؛ رغم أن الفُرَص التي تنتظرهم لا تبدو مشرقةً للغاية.»

قال: «وربما ليست سيئة كما تبدو. ولكنني أخشى أن هناك شيئًا يزعجك. تبدو أن روحك المرحة قد اختفت.» سكتَ لبرهة، ثم أضاف قائلًا: «لا أريد التطفُّل على شئونك الخاصة، ولكني أستطيع أن أساعدك بالنصيحة أو غيرها، تذكَّر أننا صديقان حميمان وأنك خليفتي على الصعيد الأكاديمي.»

وبصورةٍ فطرية، وبالتحفظ المعتاد للرجال، بدأتُ أُنكر في همهمةٍ وكلام غير واضح؛ ثم توقفت. على أي حال، لماذا لا أثق به؟ لقد كان رجلًا صالحًا وحكيمًا، مُفعمًا بالتعاطف

الإنساني، على حدٍّ علمي، رغم غموضه وتحفُّظه الشديد بخصوص قدراته المهنية. وكنتُ في أمسِّ الحاجة إلى صديقٍ في الوقت الراهن.

بدأتُ أقول في خجل: «أخشى ألَّا تسمح المسألة بمساعدةٍ كبيرة؛ فإنَّ هذا ليس من نوعية الأشياء التي يجب أن أقلقك بالحديث عنها …»

«إذا كانت كافية لتجعلك حزينًا، يا صديقي العزيز، فهي كافية لتسترعي اهتمامًا جادًّا من جانب صديقك؛ ولذا إذا كنت لا تمانع إخباري …»

قلت: «بالطبع، لا أمانع يا سيدي!»

«إذن، هات ما عندك، ولا تُناديني بسيدي؛ نحن أخوان وزميلان الآن.»

وما إن تشجَّعتُ حتى قصصتُ قصتي الرومانسية القصيرة؛ في البداية بخجلٍ وبعبارات مُتقطعة؛ ولكن بمزيدٍ من الحرية والثقة فيما بعد. لقد استمع باهتمامٍ بالغ، وطرح سؤالًا مرةً أو مرتين حين صار سردي مُفككًا بعض الشيء. وبعد أن انتهيتُ، وضع يده في رفقٍ على ذراعي.

«حظُّك سيئ، يا بيركلي. لا غرو أنك في حالةٍ بائسة. ولا يسعني التعبير عن أسفي بالكلام.»

قلت: «شكرًا لك. إنه لَلُطف بالِغ منك أن تستمع بصبرٍ شديد، ولكن عار عليَّ أن أزعجك بمشكلاتي العاطفية.»

«حسنًا، يا بيركلي، أنت لا تعتقد هذا، وآمُل ألا تعتقد أنني كذلك أيضًا. لا بدَّ أننا علماء سيئون وأطباء على أسوأ مستوى إذا كنَّا سنستخفُّ بأهمية ذلك الجانب الذي يُمثل أهم شواغل الطبيعة. وتتمثل الحقيقة البيولوجية الأبرز على الإطلاق في الأهمية العظيمة للجنس؛ فنحن إذن نعاني من الصمَمِ والعمى إذا كنَّا لا نسمعها ولا نراها في كل شيءٍ حي حين نُلقي نظرة فاحصة على العالم؛ حين نسمع تغريد العصافير في الربيع، أو حين نتأمَّل زنابق الحقل. ومثلما هو حال الإنسان بالنسبة إلى الكائنات الأدنى، يكون الحُب بين البشر مجرد مظاهر انعكاسية للجنس. وسأدَّعي، وأعرف أنك ستتفق معي، أن حُب رجلٍ جاد وجدير بالاحترام لامرأة تستحقُّه هو الشأن الأهم بين جميع الشئون البشرية. إنه أساس الحياة الاجتماعية، وفشله يشكل كارثةً خطيرة، ليس فقط بالنسبة إلى أولئك الذين ربما فسدَت حياتهم بسببه؛ وإنما بالنسبة إلى المجتمع ككل.»

وافقته الرأي قائلًا: «إنها مسألة خطيرة بما يكفي بالنسبة إلى الأطراف المَعنية، ولكن هذا ليس سببًا يدعوهم إلى إزعاج أصدقائهم.»

«ولكنهم لا يفعلون. ينبغي أن يساعد الأصدقاء بعضهم بعضًا ويعتبرونه امتيازًا ممنوحًا لهم.»

«أوه، يجب ألا أمانع القدوم إليك طلبًا للمساعدة، بعدما عرفتك. ولكن لا أحد يستطيع أن يساعد شخصًا بائسًا في قضية كهذه، وبالتأكيد ليس فقيهًا طبيًّا.»

قال معترضًا: «أوه، هيا، يا بيركلي! لا تبالغ في بخس قيمتنا. فأحقر المخلوقات لها فوائدها، حتى النملة الصغيرة، كما يُخبرنا إزاك والتون. يا إلهي، لقد تلقيتُ مساعدة كبيرة من هاوي جمع الطوابع. ثم فكِّر في آلة الحرْق ودودة الأرض والذبابة الزرقاء. كل هذه الكائنات الحقيرة تلعب دورَها في مخطط الطبيعة؛ وهل ينبغي لنا أن نحطَّ من قيمة الفقيه الطبي؟»

ضحكتُ في شجنٍ على مفارقة أستاذي اللطيفة.

وقلت: «ما أقصده أنه لا يُوجَد شيء يجب القيام به سوى الانتظار، وربما إلى الأبد. لا أعرف لماذا هي غير قادرة على الزواج مني، ولا يجب عليَّ أن أسألها. لا يمكن أن تكون متزوجة بالفعل.»

«بالتأكيد لا، لقد أخبرتك صراحةً بأنه ليست على علاقة عاطفية برجلٍ آخر.»

«بالضبط. ولا أستطيع التفكير في أي سببٍ آخر وجيه، باستثناء أنها لا تهتمُّ بأمري بالدرجة الكافية. وهذا من شأنه أن يكون سببًا وجيهًا تمامًا، ولكن هذا لن يكون سوى سببٍ مؤقت، ليست العقبة التي لا يمكن التغلب عليها التي تفترِض وجودها، لا سيما أننا نتجاوب معًا على نحوٍ جيد. أتمنى ألا يكون الأمر مُتعلقًا بالتردُّد النسائي الأحمق اللعين. ولا أرى كيف يمكن أن يكون كذلك؛ ولكن أحيانًا تكون النساء مُعقَّدات وعنيدات على نحوٍ مُخيف للغاية.»

قال ثورندايك: «لا أفهم لماذا ينبغي أن نبحث عن دافعٍ شاذٍّ على نحوٍ منحرف بينما يوجد أمامنا تفسير منطقي تمامًا.»

قلت: «هل يُوجَد فعلًا؟ أنا لا أرى تفسيرًا.»

«أنت بطبيعة الحال تَغفُل عن بعض الظروف التي تؤثر على الآنسة بيلينجهام؛ ولكني لا أفترض أنها فشلت في استيعاب مقصدها. هل تدرك حقيقة موقفها؟ أقصد بخصوص اختفاء عمِّها؟»

«لا أظنُّ أنني أفهمك تمامًا.»

«حسنًا، لا فائدة من طمس الحقائق. الموقف كالتالي: إن كان جون بيلينجهام قد ذهب إلى منزل أخيه في وودفورد، فمن شبه المؤكد أنه ذهب إلى هناك بعد زيارته إلى هيرست. تذكَّر أنني قلتُ إن كان قد ذهب، وأنا لا أقول إنني أعتقد أنه فعل ذلك. بيد أنه ذُكر أنه ذهب فيما يبدو إلى هناك؛ ولكن إذا كان قد ذهب فعلًا، فإنه لم يُرَ حيًّا فيما بعد. الآن، لم يدخل من الباب الأمامي. ولم يرَه أحد يدخل المنزل. ولكن تُوجَد بوابة خلفية، كان جون بيلينجهام يعرفها، ولها جرس يرن داخل المكتبة. وستتذكَّر أنه حين جاء هيرست وجيليكو للزيارة، كان السيد بيلينجهام قد دخل للتو. وقبل هذا الوقت، كانت الآنسة بيلينجهام وحدَها في المكتبة؛ بعبارةٍ أخرى، كانت وحدَها في المكتبة في الوقت نفسه الذي قيل إن جون بيلينجهام زاره فيه. هذا هو الموقف، يا بيركلي. لم يُذكَر شيء حتى الآن. ولكن، عاجلًا أو آجلًا، إذا عُثر على جون بيلينجهام، حيًّا أو ميتًا، سيُفتَح التحقيق. ومن المؤكد أن هيرست، دفاعًا عن نفسه، سيستغل أي حقائق قد تدرأ عنه الشكوك وتُوجهها نحو شخص آخر. والشخص الآخر سيكون الآنسة بيلينجهام.»

جلستُ لبضع دقائق مشلولًا من الرُّعب بالمعنى الحرفي للكلمة. ثم أفسح شعوري بالرعب المجال أمام شعوري بالسخط وشرعتُ قائلًا: «ولكن اللعنة! أستميحك عذرًا، ولكن هل يمكن لأي شخصٍ لديه الجرأة الجهنمية للتلميح بأن تلك الشابة اللطيفة والمُثقفة قتلت عمَّها؟»

«هذا ما سيُلمح إليه، إن لم يُؤكد بوضوح؛ وهي تعلم ذلك. وبما أن الوضع على ذاك النحو، فهل من الصعب أن نفهم السبب الذي يجعلها ترفُض السماح لك بالارتباط بها علانية؟ المخاطرة بالزج باسمك المحترم وسط الإجراءات البغيضة الخاصة بمحاكم الشرطة أو المحكمة الجنائية المركزية. وربما إكسابه سمعةً سيئة بغيضة.»

«أوه، يا إلهي! بالله عليك! هذا فظيع جدًّا! لا يعني هذا أنني سأهتمُّ بأمري. سأكون فخورًا بمشاركتها عذاب الفضيحة، إن كان لا بدَّ من ذلك؛ ولكن ما يُغضبني هو انتهاك الحرمات والتجديف عليها ولو حتى بالتفكير فيها من هذا المنطلق.»

قال ثورندايك: «أجل، أنا أفهمك وأتعاطف معك. وبالطبع، أشاركك غضبك المُبرَّر تجاه المسألة البغيضة. ولذا، لا ينبغي عليك أن تعتبرني قاسيًا لتوضيح الأمر بهذه الطريقة.»

«أوافقك الرأي. لقد عرضتَ عليَّ الخطر الذي لم ألاحظه بسبب حماقتي الكافية. ولكن يبدو أنك تُلمح لأن هذا الموقف البغيض قد فُرض عن عَمد.»

«بالتأكيد أُلمح لذلك! هذه ليست مسألة صدفة. أما الظواهر فتُشير إلى الوقائع الحقيقية — وأنا متأكد من أنها كذلك — وإما أنها مُختلقة بغرض التوصُّل إلى استنتاجاتٍ

خاطئة. ولكن الظروف تُقنعني بأن ثمة مؤامرة متعمدة؛ وأنا أنتظر — بفارغ الصبر، بقدْر ما أستطيع أن أقول — لأضع يدي على الوغد الذي فعل هذا.»

سألته: «وما الذي تنتظره؟»

أجاب: «أنتظر ما لا مفرَّ منه؛ الخطوة الخاطئة التي يأخذها أعتى المُجرمين لا محالة. في الوقت الراهن، هو مُتخفٍّ عن الأنظار؛ ولكنه الآن سيأخذ خطوة، وحينئذٍ سأوقع به.»

«ولكن لعلَّه يظلُّ مُختفيًا عن الأنظار. ما الذي ستفعله حينها؟»

«أجل، هذا هو الخطر. ربما يتعين علينا التعامل مع المجرم المثالي الذي يعرف جيدًا متى يترك الأمور على حالها. لم ألتقِ به قط، ورغم ذلك، ربما يكون موجودًا.»

«ومِن ثَم، علينا أن نقف مكتوفي الأيدي ونشاهد أصدقاءنا يغرقون.»

قال ثورندايك: «ربما.» ثم انغمس كلٌّ منَّا في تفكيرٍ كئيب وصامت.

كان المكان آمنًا وهادئًا، كما يليق بمنطقةٍ نائية في لندن. الصيحات المتقطعة من القطارات والبواخر البعيدة تُنذر بالحياة النابضة بالنشاط على طول منطقة البركة المزدحمة. انطلقتْ همهمة خافتة من حركة المرور من الشوارع الموجودة خارج الضواحي، وجاءت الأصوات الصاخبة لبائعي الجرائد في جوقة متواصلة من ناحية شارع كارمليت. كانت الأصوات بعيدةً جدًّا بحيث لا تكون مزعجة من الناحية المادية، إلا أن الصيحات المتحمسة، خفتت نظرًا لأنها كانت على مسافةٍ بعيدة، حفزت النخاع في عظامي، كانت مُوحية بشكل رهيب بتلك الاحتمالات المستقبلية التي ألمح إليها ثورندايك. بدَت وكأنها أشبه بظلالٍ مشئومة تُنذر بالمصائب القادمة.

لعلَّها استدعت سلسلة الأفكار نفسها في عقل ثورندايك، حيث علَّق على الفور قائلًا:

«بائعو الصحف الليلة بالخارج أشبه بطائر شؤم. لقد حدث شيء غير معتاد؛ كارثة عامَّة أو خاصة، على الأرجح، وهذه الغيلان الصاخبة تتغذَّى على البقايا. رجال الصحافة يتشابهون كثيرًا مع الطيور الآكلة للجِيَف التي تحوم فوق ساحة المعركة.»

مرة أخرى ساد الصمت والتفكير. ثم، بعد فترة قصيرة، سألته:

«هل يمكنني المساعدة بأي شكلٍ من الأشكال في هذا التحقيق الخاص بك؟»

أجاب ثورندايك: «هذا بالضبط ما كنتُ أسأله لنفسي. سيكون من الصواب واللائق أن تفعل ذلك، وأعتقد أنك ربما تفعل.»

سألته مُتلهفًا: «كيف؟»

«لا يُمكنني الارتجال؛ ولكن جيرفيس سيرحل لقضاء إجازته لأول مرة تقريبًا، سوف يذهب في مهمة فعلية الليلة. هناك القليل جدًّا من العمل؛ العطلة الطويلة تقترب منَّا،

ويمكنني الاستغناء عنه. ولكن إذا كنتَ ترغب في القدوم إلى هنا لتحلَّ محلَّه، فستكون مفيدًا جدًّا بالنسبة إليَّ؛ وإذا كان هناك أي شيء يجب القيام به في قضية بيلينجهام، فأنا متأكد أن حماسَك سيُعوِّض أي نقصٍ في الخبرة.»

قلت: «لا أستطيع أن أحلَّ محلَّ جيرفيس، ولكن إذا سمحتَ لي أن أساعدك بأي طريقةٍ فسيكون هذا كرمًا بالغًا منك. وأُفضِّل أن أنظف حذاءك بدلًا من استبعادي تمامًا.»

«عظيم جدًّا. دعنا نتَّفق أنك ستأتي إلى هنا بمجرد أن تنتهي من أمر برنارد. يمكنك أن تأخذ غرفة جيرفيس، والتي لا يستخدمها عادةً هذه الأيام، وأعرف أنك ستكون سعيدًا هنا أكثر من أي مكانٍ آخر. والآن، سأعطيك مفتاح المزلاج كذلك. لديَّ نسخة إضافية في المنزل، واعلمْ أن شقَّتي ملكك أيضًا منذ هذه اللحظة.»

سلَّمني مفتاح المزلاج وشكرته بحرارةٍ من كل قلبي، لأنني شعرت بيقينٍ أن الاقتراح ليس بسبب أي فائدة قد أمثلها له؛ وإنما تم لراحة بالي. وكدتُ أن أنتهي من حديثي حين لفتَ انتباهي صوتُ خطواتٍ مسرعة على الطريق المعبَّد.

قال ثورندايك: «ها هو جيرفيس. سنُخبره بأن هناك طبيبًا مؤقتًا مُستعدًّا ليحلَّ محله حين يرغب في الحصول على إجازة.» أضاء المصباح عبر الطريق، وبعد مرور بضع دقائق كان مُساعده يمشي بخطواتٍ سريعة ويتأبَّط رزمة من الصحف.

وأذهلني أن جيرفيس رمقَني بنظرةٍ غريبة قليلًا حين تعرَّف عليَّ في الضوء الخافت؛ كان سلوكه مُتكلفًا بعض الشيء، كما لو أن حضوري كان مصدرًا للإحراج. استمع إلى تصريح ثورندايك بخصوص ترتيبنا الجديد بدون إبداء قدْرٍ كبير من الحماس وبدون تعليقاته المُضحكة المعتادة. ومرة أخرى لاحظتُ أنه يرمُقني بنظرة سريعة، جزء منها فضولي وجزء منها مُرتبك، ومُربكة تمامًا بالنسبة إليَّ.

قال بعدما شرح ثورندايك الموقف: «لا بأس. أظنُّ أنك ستجد بيركلي ذا فائدةٍ مثلي، وعلى أي حال، سيكون حاله أفضل هنا من بقائه مع برنارد.» كان يتحدَّث برزانةٍ غير معهودة منه، وكان في نبرة صوته توتُّر جذب انتباهي وكذلك انتباه ثورندايك، حيث نظر إليه الأخير بفضول، رغم أنه لم يُبدِ أي تعليق. وبعد فترة صمتٍ قصيرة، سأله: «ما الأخبار التي أتى بها أخي الخبير؟ ثمة صيحات قوية بين البرابرة الغرباء وأرى رزمةً من الصحف تحت إبط صديقي الخبير. هل حدث أي شيء على وجه الخصوص؟»

بدا جيرفيس قلقًا أكثر من أي وقتٍ آخر. وأجاب بتردُّدٍ: «حسنًا، أجل. لقد حدث شيء ما. إليك هذا! لا داعي إلى اللفِّ والدوران؛ لعلَّ بيركلي يعرفها منِّي كما سيعرفها من

هؤلاء البؤساء الصارخين في الخارج.» أخرج صحيفتَين من رزمته وسلمني واحدةً بصمتٍ وسلَّم الأخرى إلى ثورندايك.

أزعجني سلوك جيرفيس المشئوم، بما يكفي، بقدرٍ كبير. فتحت الصحيفة بفزَعٍ لا يُوصَف. ولكن بمخاوفي المجهولة، والتي قد تزايدت مع الموقف، وحين رأيتُ تلك الصرخات متبلورةً على هيئة سطور العناوين والحروف الكبيرة، شعرتُ بالغثيان والدوار من الخوف.

كانت الفقرة قصيرة، وقرأتها في أقل من دقيقة.

الإصبع المفقودة.
اكتشاف مُثير في وودفورد.

تُوصِّل إلى حلٍّ جزئي ومشئوم للغاية للغز الذي أحاط ببقايا الجثة البشرية المشوَّهة، التي عُثر على أجزاء منها في مناطق مُتفرقة في كينت وإسيكس. لطالما شكَّت الشرطة، طوال هذا الوقت، بأن تلك البقايا هي بقايا السيد جون بيلينجهام الذي اختفى في ظلِّ ظروفٍ يشوبها الشك والغموض قبل عامين. الآن، ليس هناك أي شك بخصوص الموضوع، حيث عُثر على الإصبع المفقودة من اليد، التي عُثر عليها في منطقة سيدكوب، في قاع بئرٍ مهجورة بالإضافة إلى خاتم، تُعُرِّف عليه باعتباره خاتمًا اعتاد السيد جون بيلينجهام على ارتدائه.

كان المنزل الذي وُجِد البئر في حديقته ملكًا للرجل المقتول، وكان أخوه السيد جودفري بيلينجهام يشغله طوال فترة اختفائه؛ بيد أنَّ الأخير تركه بعد فترةٍ وجيزة، وظلَّ فارغًا منذ ذلك الحين. ومؤخرًا وُضِع قيد التجديدات، وظلَّ هكذا حتى أُفرِغت البئر ونُظِّفت. ويبدو أن المُحقق؛ المفتش بادجر، الذي كان يُفتش الحيَّ بحثًا عن المزيد من البقايا، سمع عن تفريغ البئر ونزل في دلوٍ كبير لفحص القاع، حيث عثر على ثلاث عظام وخاتم.

ومِن ثَم، حُدِّدت هوية الجثة دون أدنى شك، والسؤال القائم هو، من الذي قتل جون بيلينجهام؟ ولعلكم تتذكَّرون أنه عُثِر على حلية، فيما يبدو أنها كانت مكسورةً من سلسلة الساعة، في حديقة هذا المنزل في اليوم الذي اختفى فيه، ولم يرَه أحد على قيد الحياة مرةً أخرى قط. ما الذي ستُبينه هذه الحقائق المهمة؟»

كان هذا كل ما في الأمر؛ ولكنه كان كافيًا. أسقطتُ الصحيفة على الأرض ونظرت خلسة إلى جيرفيس، الذي جلس يُحدِّق في كآبة إلى مقدمة حذائه. كان الأمر مُروِّعًا! كان

أمرًا لا يُصدقه عقل! كانت الضربة ساحقةً جدًّا لدرجة أنها تركت قُدراتي في حالةٍ من الخدر، وبدا أنني عاجز عن التفكير بشكلٍ واضح لبعض الوقت.

أفقتُ على صوت ثورندايك، بنبرة هادئة وعملية ورصينة:

«بالطبع، الأمور ستتَّضح بمرور الوقت! وفي غضون ذلك، يجب أن نتحلَّى بالحذَر. لا تنزعج أكثر من اللازم، يا بيركلي. عُد إلى المنزل، وتناول جرعةً كافية من البروميد بالإضافة إلى مشروبٍ كحولي وخذ قسطًا من النوم. أخشى أن تكون هذه صدمة لك.»

قمتُ من فوق الكرسي وكأني في حلمٍ ومددتُ يدي إلى ثورندايك؛ وحتى على الضوء الخافت وفي حالتي المضطربة لاحظتُ أن وجهه تعلوه نظرةٌ لم أرَها من قبل؛ نظرة على قناع جرانيتي لمصيرٍ محتوم وكئيب ومُروِّع.

سار صديقاي معي حتى البوابة عند أول حارة إنر تيمبل، وبينما كنَّا نقترب من المدخل باغتنا ظهور شخص غريب مرَّ علينا سريعًا عند الحارة. وعلى ضوء وهج المصباح خارج كوخ الحارس، نظر إلينا بسرعةٍ من فوق كتفه، ومرَّ علينا سريعًا دون أن يتوقَّف أو يُحيِّنا. كان تعرُّفي عليه مفاجأةً كئيبة لم أتفهمها حينها ولم أتفهمها حتى الآن. كان ذلك الشخص هو السيد جيليكو.

صافحتُ أصدقائي مرةً أخرى وسرتُ في طريقي إلى شارع فليت، ولكن بمجرد أن تخطيتُ البوابة توجهت فورًا إلى شارع نيفيلز. ما الذي كان يجول بخاطري لا أعرف؛ كل ما عرفته أن غريزة الحماية قادتني إلى هناك حيث تبيتُ سيدتي غير واعيةٍ بالتهديد البشِع الذي يتربَّص بها. وعند مدخل الشارع، وقف رجل طويل القامة قوي البنية يتسكع عند الحائط، بدا أنه ينظر إليَّ في فضولٍ أثناء مروري؛ إلا أنني لم أكد ألاحظه ومضيتُ قدمًا نحو الشارع الضيق. توقفتُ عند البوابة المتهالكة للمنزل، حاولت النظر إلى النوافذ من فوق الحائط بقدْر ما يُمكنني. كانت النوافذ جميعها مظلمة. فسكان البيت جميعهم كانوا نيامًا. شعرتُ بالارتياح على نحوٍ غامض حيال ذلك، وسرتُ إلى شارع نيو ستريت من عند نهاية الشارع ونظرت. هناك أيضًا كان يتسكع رجل طويل القامة وضخم الجثة، وبينما كان يتفحَّص وجهي استدرتُ ودخلتُ الشارع مرة أخرى، وعدتُ من حيث أتيت. وحين وصلت مرةً أخرى إلى بوابة المنزل، توقفتُ لألقي نظرة على النوافذ مرة أخرى، وحين استدرتُ رأيت الرجل الذي لاحظته آخِر مرة ورائي مباشرة. وفي لحظة إدراك مُفزعة، فهمت الأمر. هذان الرجُلان هما رجال شرطة في زيٍّ مدني.

وفي لحظة، أعماني الغضب، وتملكني شعور مُتهوِّر يدفعني إلى الاشتباك مع هذا المتطفل المُزعج للانتقام من هذا الشخص بسبب حضوره المُزعج. ولحُسن الحظ أن هذا

الشعور كان وقتيًّا، وعدتُ إلى صوابي دون الاشتباك معه. ولكن ظهور هذين الشرطيين فرض شعورًا بالخطر على اللحظة الحالية، لتفرض بذلك حقيقة مُروعة. تصبَّبتْ جبهتي عرقًا باردًا من الرُّعب وشعرتُ بصفير في أذني بينما كنتُ أسير بخطواتٍ مضطربة إلى حارة فيتر.

الفصل الثامن عشر

جون بيلينجهام

كانت الأيام القليلة التالية كابوسية يكتنِفها الشعور بالرعب والكآبة. بالطبع، رفضتُ الانصياع لحُكم النفي والإقصاء الذي أصدرته روث عليَّ. فأنا، على الأقل، كنتُ صديقها ووقت الخطر لا بدَّ أن أكون بجوارها. وضمنيًّا أدركَتْ هي الحقيقة — وهذا لحُسن حظِّ الفتاة المسكينة! — وسمحَتْ لي بالوجود بأريحية أكثر في المنزل.

لم يكن هناك حاجة للتستُّر على الموقف. كان الصبية بائعو الجرائد يهتفون بالأخبار ذهابًا وإيابًا على طول شارع فليت من الصباح حتى المساء؛ والمُلصقات المُحطِّمة للأعصاب تنتشر وسط الحشود المُحدقة؛ والصحف تتناقل «التفاصيل الصادمة».

صحيح أنه لم تُوجَّه اتهامات مباشرة؛ لكن التقارير الأصلية لحادثة الاختفاء أُعيد نشرُها بالإضافة إلى هذه التعليقات التي جعلتني أَصرُّ بأسناني من الغضب.

وقسوة تلك الأيام ستظلُّ حاضرةً في ذاكرتي إلى يوم وفاتي. فلا يُمكنني أن أنسى الفزع الذي أثقلني، والقلق الرهيب والخوف الذي تملك قلبي أثناء تفحُّصي خفيةً المُلصقات بالشوارع. وحتى المُحققون البائسون، الذين كانوا يطوفون خلسة حول مداخل شارع نيفيلز، اعتادت عيناي على رؤيتهم كتجسيدٍ للخطر الفظيع الذي يُحدق بسيدتي العزيزة، فعلى الأقل وجودهم يُخبرني بأن الضربة لم تأتِ بعد. بالطبع، بعد فترة من الوقت، اعتدنا تبادل نظرات المعرفة المتبادلة، وأظنُّ أنه بدا عليهم الشعور بالأسى حيالها وحيالي، ولا تروق لهم مُهمتهم بدرجةٍ كبيرة. بالطبع، قضيتُ معظم وقت فراغي في المنزل القديم، رغم أنني كنتُ أشعر هناك بغصةٍ في قلبي أكثر من أي مكانٍ آخر، وحاولت — يؤسفني أن أقول دون نجاحٍ كبير— الحفاظ على سلوكٍ مبتهج وواثق، مُلقيًا نكاتي البسيطة كما

عهدتُ في الماضي، ومحاولًا مشاكسة الآنسة أومان. إلا أن المحاولة الأخيرة باءت بفشل ذريع؛ وحين انهارت فجأة في سيلٍ من الدموع الغزيرة على نحوٍ هيستري، توقفتُ عن المحاولة ولم أكرِّرها ثانية.

خيَّم على المنزل القديم حالة من الكآبة المُخيفة. كانت الآنسة أومان المسكينة تتسلل في صمت صعودًا وهبوطًا على الدرج القديم بعينين ذابلتين وذقن مُرتعش، أو كانت تستغرق في التفكير العميق بغرفتها بعريضةٍ برلمانية (تطلب، إذا كنتُ أتذكر بحق، تحديد موعدٍ مع قاضية تتعامل مع قضايا الطلاق والمشكلات الزوجية) موضوعة على طاولتها في انتظار توقيعاتٍ لن تأتي أبدًا. انغمس السيد بيلينجهام، الذي تأرجحت حالته النفسية بين الغضب الشديد والذعر المُطلق في البداية، سريعًا في حالة من الانهيار العصبي التي شهدتُها بفزع كبير. في الواقع، كان الشخص الوحيد المتمالك نفسه بين أهل البيت كلهم هي روث، رغم أنها لم تستطع إخفاء الحزن والقلق والترقُّب والخطر الداهم. لم يتغير سلوكها؛ أو بالأحرى ينبغي أن أقول؛ إنها عادت لسيرتها الأولى حين تعرفتُ عليها أول مرة؛ هادئة ومُتحفظة وصموتة، ونبرة دعابة لاذعة ظاهرة في تعاملها بلطفٍ لا يتغير. حين اجتمعتُ أنا وهي وحدنا، تلاشى تحفُّظها وصارت تتعامل برقةٍ ولطف. ولكن كان الألم يعتصر قلبي حين أنظر إليها، وألاحظ كيف أنها تزداد نحافةً وشحوبًا، يومًا بعد يوم، وأرى وجنتَيها تزدادان ذبولًا؛ وأنظر في عينيها الرماديتين المهيبتين، الحزينتين والكئيبتين رغم شجاعتها وتحديها للقدَر.

كانت فترةً عصيبة، وطوال هذه الفترة طاردتني باستمرارٍ جميع الأسئلة المفزعة: متى ستأتي الضربة؟ ما الذي تنتظره الشرطة؟ ومتى ستأتي ضربتها، وما الذي يتعين على ثورندايك أن يقوله؟

هكذا، استمر الحال لمدة أربعة أيام مُروعة. ولكن في اليوم الرابع، وحين بدأتُ الاستشارات المسائية وازدحمت العيادة بالمرضى المُنتظِرين، ظهر بولتون ومعه رسالة، وقد أصرَّ على تسليمها إياي يدًا بيد، الأمر الذي ضايق أدولفوس. كانت الرسالة من ثورندايك، وكان فحواها ما يلي:

> عرفتُ من دكتور نوربيري أنه تواصل مؤخرًا مع السيد ليدربوجين، من برلين — وهو مرجع عِلمي في الآثار الشرقية — والذي أشار إلى أنه التقى بعالِم آثار مصرية إنجليزي الجنسية في فيينا قبل عامٍ مضى. لم يستطع تذكُّر اسم الرجل

الإنجليزي، ولكنْ ثمة إشارات مُعينة في الرسالة جعلت دكتور نوربيري يشكُّ أنه يقصد جون بيلينجهام.

أودُّ أن أجتمع بالسيد والآنسة بيلينجهام في مكتبي هذه الليلة، الساعة ٨:٣٠ لمقابلة دكتور نوربيري والتحدُّث عن خطابه؛ في ضوء أهمية الموضوع، أنتظر منك ألا تَخذُلني.

اجتاحتني موجة من الأمل وشعور بالارتياح. كان لا يزال من الممكن أن تنفرج الكربة؛ وربما يأتي الخلاص قبل فوات الأوان. كتبتُ رسالة سريعة لثورندايك وأخرى لروث، مُحددًا موعدًا؛ وأعطيت كلتيهما إلى بولتون الأمين، وعدتُ بحماسٍ بعض الشيء إلى مهامي المهنية. وشعرت براحةٍ عميقة، حين توقف تدفُّق المرضى، ودخلت العيادة في حالتها المُعتادة من السبات؛ ومِن ثَم استطعتُ، دون اللجوء إلى الحِيَل الكاذبة والوضيعة، الفرار في الوقت المناسب إلى مكان اللقاء.

كانت عقارب الساعة تقترب من الثامنة مساءً حين اجتزت مدخل شارع نيفيلز كورت. لقد تلاشى ضوء فترة ما بعد الظهيرة الدافئ، إذ مضى فصل الصيف سريعًا. تلاشى الوهج الأحمر الأخير لغروب الشمس من فوق الأسطح العتيقة ومواسير المداخن، وبدأت ظلال المساء تجتمع في الزوايا والأركان على طول الشارع الضيق. وصلتُ إلى وجهتي الساعة الثامنة، كانت لا تزال بضع دقائق تفصلني عن تمام الساعة، ولذا سرتُ مُتئدًا على طول الشارع، متأملًا المشهد المألوف والوجوه المعتادة الودودة.

كان يوم العمل يقترب من نهايته. أغلقَت المحال الصغيرة مصاريعها، وبدأت الأنوار تسطع في نوافذ غرف الاستقبال؛ وارتفع صوت ترانيم مهيبة قادم من كنيسة مورافيا العتيقة، وتسربت أصداؤها عبر المدخل المُظلم الموجود تحت القنطرة والمؤدي إلى الشارع.

هناك كان يجلس السيد فينيمور (رجل ذو مواهب مُتعددة، تنزع مواهبه إلى الرسم والطلاء) بمئزرٍ أبيض اللون وقميص بأكمام، على كرسي في حديقته، يُدخِّن غليونه مُثبتًا ناظريه على زهور الداليا. وعند نافذة مفتوحة، وقف شاب يُمسك بيدٍ فرشة وأُخرى وراء أذنه، يُطيل نفسه في حين وقفت سيدة مُسنة تبسط خريطةً كبيرة بخفة ورشاقة. كان الحلَّاق يُشعل مصباح الغاز في صالونه الصغير، وظهر بائع الخضار والسيجارة في فمه وزهرة النجمة في عروة سترته، ورافقتْ مجموعة من الأطفال عامل إشعال المصابيح في دوريَّاته.

كل هؤلاء كانوا أهل شارع نيفيلز الأصليين؛ المولودين في الشارع، كما كان آباؤهم من قبلهم على مر الأجيال. كان هؤلاء الغالبية العُظمى لسكان المكان. حتى الآنسة أومان نفسها زعمت أنها من السكان الأصليين للمكان، وكذلك الجارة ذات الوجه الصبوح، وهي قريبة لعائلة تروبي الشهيرة المُعتنقة للمذهب الانشقاقي القديم، والذين يعود تاريخهم إلى احتجاجات جوردون. أما بالنسبة للشابِّ النبيل الذي يعيش في المنزل الخشبي والجصِّي العتيق في نهاية الشارع، فيُقال إنَّ أسلافه سكنوا ذلك المنزل منذ عهد جيمس الأول.

فكرتُ في هذه الحقائق أثناء سيري في الشارع، وفي الظاهرة الغريبة لقرية العالم القديم وسكَّانها القُدامى العالقين في قلب المدينة الصاخبة؛ وكأنها جزيرة سلمية وسط مُحيط من الاضطرابات، واحة في صحراء التغيير والحراك.

قادتني تأمُّلاتي إلى البوابة المتهالكة وسط الجدار العالي، وبينما كنتُ أرفع المزلاج وأدفعه لينفتح، رأيتُ روث تقف عند باب المنزل تتحدَّث إلى الآنسة أومان. من الواضح أنها كانت تنتظرني، حيث إنها كانت ترتدي مِعطفها الأسود الداكن وقُبعتها وطرحتها السوداء، وحين رأتْني خرجت، وأغلقت الباب وراءها ومدَّت يدها.

قالت: «أنت دقيق في مواعيدك. ساعة كنيسة سانت دونستان تدقُّ الآن.»

أجبتها قائلًا: «أجل، ولكن أين والدكِ؟»

«لقد أوى إلى الفراش، العجوز المسكين. لم يكن يشعُر أنه بخير بالقدْر الكافي لكي يأتي، ولم أُلحَّ عليه في المجيء. هو حقًّا مريض. هذا القلق المُروِّع سيقضي عليه إذا استمرَّ لوقتٍ أطول من ذلك.»

«لنأمل ألا يحدث هذا!» قُلتها بدون اقتناع وأخشى أن يكون هذا قد بدا في نبرة صوتي.

كنتُ مُعذبًا بأن أراها مُمزقة بسبب القلق على والدها، وكنتُ أتوق لمواساتها. ولكن ما الذي يَسعني قوله؟ كان السيد بيلينجهام منهارًا على نحوٍ جلي تحت وطأة ضغط التهديد المروِّع الذي يحُوم حول ابنته، ولن تجعل كلماتي الحقيقة أقلَّ وضوحًا.

سِرنا في صمتٍ على طول الشارع. حيَّتنا السيدة الواقفة في النافذة بتحية باسمة، وأخرج السيد فينيمور غليونه ورفع قبعته، وفي المقابل أومأت له روث بلطف، ثم مررْنا عبر الطريق المحفوف بالأشجار المؤدي إلى حارة فيتر، حيث توقفت رفقيتي ونظرتْ إليها.

سألتها: «عمَّ تبحثين؟»

أجابت بهدوء: «المُخبر السرِّي. سيكون من المؤسف أن يغفُل الرجل المسكين عني بعد أن انتظرني طويلًا. ورغم ذلك، أنا لا أراه.» ثم توجَّهت إلى شارع فلييت. كانت مفاجأة غير سارة بالنسبة لي أن عينَيها الحادَّتَين حدَّدتا المُخبر السري الذي يُراقب تحركاتها، كما آلمتني أيضًا النبرة الجافة والساخرة في تعليقها، وجعلتني أتذكَّر الأسلوب المُتحفظ القاسي الذي كانت تَصدُّني به في أيام تعارُفنا الأولى. ورغم ذلك لم يسعني سوى الإعجاب بمواجهتها غير المُبالية للخطر المُروِّع الذي يُحدق بها.

قالت، بينما كنَّا نسير في حارة فيتر: «حدِّثني قليلًا عن هذا الاجتماع. رسالتك كانت مُوجزة أكثر من كونها واضحة؛ ولكني افترضتُ أنك كتبتها في عجلةٍ من أمرك.»

«أجل، فعلتُ ذلك. ولا يمكنني إعطاؤك أي تفاصيل الآن. كل ما أعرفه هو أن الدكتور نوربيري لديه خطاب من صديق له في برلين، عالم مِصريَّات، كما فهمت، يُدعى ليدربوجين، الذي يُشير إلى أحد معارفه ومعارف نوربيري يحمل الجنسية الإنجليزية والذي رآه في فيينا قبل عامٍ مضى. ولا يستطيع أن يتذكَّر اسم الرجل الإنجليزي، ولكن في ظل ظروفٍ مُعينة يبدو أن نوربيري يظنُّ أنه يُشير إلى عمكِ جون. بالطبع، إذا اتَّضح أن هذا هو الحال، فلسوف يكون كل شيءٍ في موضعه الصحيح؛ ولذا حرص ثورندايك أن تلتقي أنتِ ووالدكِ بنوربيري وتُناقشوا هذا الأمر معًا.»

قالت روث: «فهمت.» كانت نبرتُها رصينة ولكنها ليست مُتحمِّسة بأي حالٍ من الأحوال.

علقتُ قائلًا: «لا يبدو أنك تُولين أهميةً كبيرة لهذه المسألة.»

«كلَّا، لا يبدو أنها تتناسب مع الظروف. ما الفائدة من اقتراح أن العمَّ جون المسكين لا يزال على قيد الحياة — والتصرُّف كمعتوه، وهو لم يكن كذلك بالتأكيد — بينما عُثِر على جثته؟»

قلتُ بنبرة تنمُّ عن العجز: «ولكن ربما يكون هناك خطأ ما. ربما لا تكون هذه جثته على أي حال؟»

تساءلتْ بابتسامة مريرة: «والخاتم؟»

«ربما تكون مجرد صُدفة. إنه نسخةٌ من شكل معروف من الخواتم العتيقة، ولعلَّ أشخاصًا آخرين يمتلكون نُسخًا منه مثلما كان يمتلك عمك.» وأضفتُ بمزيد من الإقناع قائلًا: «علاوة على ذلك، نحن لم نرَ الخاتم. ربما لا يكون خاتمه على أي حال.»

هزَّت رأسها وقالت في هدوء: «عزيزي بول، لا فائدة من خداع أنفسنا. كل الحقائق المعروفة تُشير قطعًا إلى أنها جثته. جون بيلينجهام مات: لا شكَّ في هذا. وبالنسبة إلى الجميع، باستثناء قاتله المجهول وواحدٍ أو اثنين من أصدقائي المُخلصين، يبدو أنني المسئولة عن وفاته. لقد أدركتُ من البداية أن الشكوك تحوم حولي وحول جورج هيرست؛ والعثور على الخاتم يُثبت التهمة عليَّ قطعًا. أنا مندهشة أن الشرطة لم تقُم بأي تحركات بعد.»

جعلتْني نبرة الاقتناع الهادئة، التي تحدثتْ بها، عاجزًا عن الكلام من الخوف واليأس لبعض الوقت. ثم استعدتُ توجُّه ثورندايك الهادئ والواثق وأسرعتُ أذكِّرها به.

قلت: «هناك أحد أصدقائك لم تُثبَّط همَّتُه بعد. يبدو أن ثورندايك لا يتوقع أي صعوبات.»

فردَّت قائلة: «ورغم ذلك، هو على استعدادٍ للتفكير في أملٍ ضعيف كهذا. ومع ذلك، سنرى.»

عجزتُ عن التفكير في أي شيءٍ لأقوله، وتابعنا طريقنا على طول شارع إنر تيمبل في صمتٍ كئيب وعبْر المداخل المظلمة والطرقات الشبيهة بالأنفاق التي أخرجتنا، أخيرًا، بالقُرب من وزارة المالية.

قلتُ لها، بينما كنا نعبُر شارع كينجز بينش ووك، وأشرتُ إلى صفٍّ من النوافذ المُظلمة والخالية: «لا أرى أي ضوء في شقة ثورندايك.»

«كلَّا، ومع ذلك مصارع النوافذ غير مُغلقة. لا بدَّ أنه بالخارج.»

«لا يمكن أن يفعل ذلك بعد أن حدَّد موعدًا معكِ ومع والدكِ. يا له من أمرٍ غامض للغاية. ثورندايك شديد الحرص على ارتباطاته.»

انكشف اللغز، حين وصلْنا إلى درَج السلم، بسبب قطعة ورقٍ مُعلقة بمسمار على الباب المتين.

«رسالة مُوجزة إلى بول بيركلي على الطاولة.» كانت هذه هي الملاحظة الموجزة: وحين قرأتها وضعتُ مفتاحي، وانفتح الباب الثقيل إلى الخارج، وفتحت الباب الداخلي الأخفَّ وزنًا. كانت الرسالة موضوعة على الطاولة أخرجتها إلى الدرَج لكي أقرأها على ضوء مصباح الدرَج.

> أعتذر لأصدقائي لحدوث تغيير بسيط في البرنامج. نوربيري حريص على أن أنتهي من تجاربي قبل عودة المدير، حتى أوفِّر على نفسي المناقشة. ولذا، طلب

منِّي أن أبدأ الليلة وقال إنه سيلتقي بالسيد والآنسة بيلينجهام هنا، في المتحف. من فضلك أحضرهما على الفور. أرى أن أمورًا مُهمة ربما تتَّضِح في اللقاء.

جون ثورندايك

قلتُ معتذرًا، بعد أن قرأتُ الرسالة لروث: «آمُل أنكِ لا تُمانعين.»

أجابت قائلة: «بالطبع، لا أمانع؛ بل أنا سعيدة. لدينا الكثير من المعارف في المتحف العتيق العزيز عليَّ، أليس كذلك؟» نظرتْ إليَّ لدقيقة في لهفةٍ غريبة ومُثيرة ثم استدارت لتنزل الدرَج الحجَري.

وعند مدخل الشارع، أشرتُ إلى عربة، وسرعان ما كنَّا نُسرع باتجاه الغرب والشمال على صوت الحركة اللطيفة لجرس الحصان.

سألتني على الفور: «ما هذه التجارب التي يُشير إليها دكتور ثورندايك؟»

أجبت: «لا يُمكنني الردُّ عليكِ إلا على نحوٍ غامض. أعتقد أن الهدف منها هو إثبات ما إذا كانت قابلية الاختراق للمواد العضوية بالأشعة السينية تتغيَّر حسب العمر؛ وما إذا كانت كتلة خشبية قديمة، مثلًا، أقل أو أكثر وضوحًا في ضوء الأشعة مُقارنة بكتلةٍ جديدة بالحجم نفسه.»

«وما الفائدة من المعرفة، لو توصَّل إليها؟»

«لا أستطيع أن أجزم. تُجرى التجارب للحصول على المعرفة بغض النظر عن فائدتها. الفائدة تظهر حين يتم اكتساب المعرفة. ولكن في هذه الحالة، إذا كان من الممكن تحديد عُمر أي مادة عضوية من خلال تفاعُلها مع الأشعة السينية، فربما يكون للاكتشاف قيمة مُعينة في المجال القانوني؛ مثل وضع ختمٍ جديد على وثيقة قديمة على سبيل المثال. ولكني لا أعرف ما إذا كان ثورندايك يلُوح أمامه شيء مُحدد. كل ما أعرفه أن الاستعدادات كانت على نطاقٍ واسع للغاية.»

«ما الذي تقصده؟»

«فيما يتعلق بالحجم. عندما ذهبتُ إلى المختبر صباح أمس، وجدت بولتون ينصب نوعًا من المشانق المحمولة بارتفاع نحو تسعة أقدام، وقد انتهى من تلميع زوجٍ من الصواني الخشبية الضخمة التي يزيد طول كل منها على ست أقدام. بدا أنه وثورندايك كانا يفكران في بضع تجارب مُتعلقة بتشريح الضحايا بعد الوفاة.»

«يا له من اقتراحٍ مُروِّع!»

«هكذا قال بولتون بابتسامته المُستغربة المُجعَّدة. ورغم ذلك، كان قريبًا جدًّا من استخدام الأداة. وأتساءل ما إذا كان بإمكاننا أن نرى أي شيءٍ من التجارب، إذا ما ذهبنا إلى هناك. هذا هو شارع المتحف، أليس كذلك؟»

قالت: «بلى.» وبينما قالتها، رَفعت سديلة إحدى النوافذ الصغيرة في مؤخرة العربة ونظرت من خلالها. ثم أغلقتها بابتسامةٍ هادئة وهازئة قائلة:

«كل شيء على ما يُرام؛ لم يَفقِد أثرَنا. سيكون الأمر بمثابة تغيير بسيطٍ ولطيف بالنسبة إليه.»

اتجهت العربة إلى شارع جريت راسل، وبينما كانت تستدير، رأيتُ عربة أخرى تتبعنا؛ ولكن قبل أن يتسنَّى لي رؤية راكبها الوحيد، كنا قد وصلنا عند بوابات المتحف.

قادنا البواب، الذي بدا أنه يتوقع قدومنا، على طول المَمر المؤدي إلى الرواق الكبير ومنه إلى القاعة الرئيسية، حيث سلَّمنا إلى موظفٍ آخر.

قالها الأخير ردًّا على استفساراتنا: «دكتور نوربيري موجود في إحدى الغرف المجاورة للقاعة المصرية الرابعة.» كان مُستعدًّا لمرافقتنا إلى هناك مُزوِّدًا نفسه بسراجٍ مُحاط بسلك.

وعلى درَج السلم الكبير، الذي كان يُغلفه ظلام غامض، مررْنا في صمتٍ مُسترجعين الذكريات الجميلة ليوم من الأيام التي كنَّا نخطو فيها فوق درجات السلم معًا؛ وعبر الصالون الرئيسي، وقاعة العصور الوسطى والصالون الآسيوي، ومنه إلى سلسلةٍ طويلة من المعارض الخاصة بالأعراق البشرية.

كانت رحلة غريبة. كان السراج المُتأرجح يمتدُّ شعاعه على نطاقٍ واسع إلى ظلام المعارض الكبيرة المعتمة، مُحدثًا وميضًا لحظيًّا على المعروضات الموجودة في نوافذ العرض، ومِن ثَم كانت تُبث فيها الحياة للحظةٍ خاطفة ثم تختفي مرةً أخرى في لمح البصر. أوثان شنيعة بعيون دائرية مُحدقة بزغت من الظلام، حدقت بنا لدقيقةٍ ثم اختفت. أقنِعة غريبة ظهرت فجأةً على الضوء الوامض، لتأخُذ شكل الوجوه الشيطانية التي بدت كأنها تُزمجر لنا وتثرثر أثناء مرورنا. أما بالنسبة إلى التماثيل بالحجم الطبيعي — الواقعية بالدرجة الكافية في ضوء النهار — فكانت هيئتها مُثيرة للفزع قطعًا؛ وبث الضوء المتحرك والظلال فيها الحياة والحركة، ومِن ثَم بدَتْ كأنها تُراقبنا في الخفاء، وتتربَّص وتستعدُّ للتسلل وتتبعنا. من الواضح أن الخيال أثر على روث كما أثر عليَّ أنا أيضًا، إذ اقتربت منِّي أكثر وهمست قائلة:

«هذه التماثيل مُفزعة جدًّا. هل رأيتَ ذلك البولنيزيي؟ شعرتُ وكأنه سينقضُّ علينا.»

قلت معترفًا: «إنها غريبة جدًّا، ولكن الخطر زال الآن. نحن خرجنا بعيدًا عن دائرة نفوذهم.»

وصلنا إلى درَج بينما كنتُ أتحدث ثم استدرْنا ناحية اليسار على طول المعرض الشمالي، ومن منتصفه دخلنا القاعة المصرية الرابعة.

وعلى الفور، انفتح أحد الأبواب في الحائط المقابل، وجاء صوتُ همهمةٍ حادة مسموعة، وخرج جيرفيس على أطراف أصابعه رافعًا يده.

قال: «سِر بخفةٍ بقدر ما يمكنك. نحن نقوم بعرض.»

عاد المرافق بسراجه، وتَبِعْنا جيرفيس إلى القاعة التي خرج منها. كانت قاعة كبيرة، ومضاءة أكثر قليلًا من صالات العرض، حيث إن المصباح المتوهج الوحيد المشتعل في الطرف البعيد من حيث دخلنا جعل باقي القاعة في ظلامٍ شِبه تام. جلسْنا على الفور على الكرسيين اللذين خُصِّصا لنا، وبعد تبادل التحيات، نظرتُ من حولي. كان هناك ثلاثة أشخاص في القاعة بالإضافة إلى جيرفيس: ثورندايك، الذي جلس وساعته في يده، ورجل ذو شعر رمادي والذي توقعت أن يكون دكتور نوربيري، وشخص ضئيل البنية عند الطرف المظلم البعيد، غير محدد، ولكنه بولتون على الأرجح. وعند طرف القاعة الذي جلسنا عنده كان يُوجَد صينيَّتان كبيرتان كنتُ رأيتهما في المُختبر، الآن كانت كل واحدةٍ منهما معلقة على حمالة ومُثبتة بأنبوب تصريف مطاطي متجه إلى أسفل نحو دلو. وفي الطرف البعيد من القاعة انتصب الشكل المشئوم للمشنقة عاليًا في الظلام؛ الآن فقط استطعتُ أن أرى أنها لم تكن مشنقة على أي حال، حيث كان مُثبتًا على العارضة العلوية حوض زجاجي كبير بدون قاع، وداخله لمبة زجاجية تتوهَّج بضوءٍ أخضر غريب؛ وفي قلب اللمبة بقعة حمراء اللون لامعة.

كان كل شيءٍ واضحًا بما يكفي. كان الصوت الغريب الذي ملأ الأجواء هو همهمة مفتاح قطع التيار الكهربائي، وكانت اللمبة عبارة عن أنبوب كروكس، والبقعة الحمراء بداخله، القرص المتوهج الأحمر الساخن لمضاد الكاثود. من الواضح أن صورة فوتوغرافية بالأشعة السينية التُقطت، ولكن لماذا؟ لقد أرهقتُ عيني بالنظر في الظلام إلى الجزء السُّفلي من المشنقة، وبرغم أن بإمكاني تمييز أن ثمة شيئًا مُستطيلًا مُلقًى على الأرض مباشرة تحت اللمبة، فلم أستطع التعرُّف على الشكل وتمييزه إلى شيء معروف. وعلى الفور قدم دكتور نوربيري حلَّ اللغز.

قال: «أنا مندهش إلى حدٍّ كبير من أنك اخترت غرضًا مُعقدًا جدًّا مثل المومياء. كان حريًّا بي أن أفكر في غرض أبسط، مثل التابوت أو جسمٍ خشبي، كان هذا سيُصبح أكثر فائدة.»

أجاب ثورندايك: «ستكون كذلك في بعض النواحي، ولكن المواد المتنوعة التي توفرها لنا المومياء لها فوائدها. أتمنَّى ألا يكون والدكِ مريضًا، آنسة بيلينجهام.»

قالت روث: «هو ليس بخير على الإطلاق، واتفقنا على أن آتي بمفردي. أعرف السيد ليدربوجين تمام المعرفة. لقد أقام لدينا لبعض الوقت حين زار إنجلترا.»

قال دكتور نوربيري: «أنا واثق من أنني لم أزعجك بلا جدوى. السيد ليدربوجين يشير إلى صديقنا الإنجليزي غريب الأطوار ذي الاسم الطويل الذي لا أستطيع تذكره مُطلقًا، وأظن أنه ربما يُشير إلى عمك.»

قالت روث: «ما كان ينبغي لي أن أصف عمِّي بغريب الأطوار.»

قال دكتور نوربيري على الفور: «لا، لا، قطعًا لا. ورغم ذلك، يمكنك أن تُلقي نظرة الآن على الخطاب وتحكُمي بنفسك. يجب ألا نتطرق إلى موضوعاتٍ غير ذات صلة أثناء إجراء التجربة، أليس كذلك يا دكتور؟»

قال ثورندايك: «من الأفضل لكم أن تنتظروا حتى ننتهي؛ لأنني سأُطفئ الأنوار. افصل التيار يا بولتون.»

اختفى الضوء الأخضر من اللمبة، وانخفض طنين مفتاح قطع التيار الكهربائي بمقدار درجةٍ أو درجتين ثم تلاشى. بعدها قام ثورندايك ودكتور نوربيري من مقعديهما وتوجَّها نحو المومياء، التي رفعاها وسحب بولتون من تحتها ما بدا على الفور أنه مظروفٌ ورقي أسود اللون كبير الحجم. وانطفأت اللمبة الوحيدة المتوهِّجة، لتترك القاعة في ظلامٍ دامس، حتى ظهر فجأة ضوء أحمر برتقالي لامع على الفور فوق إحدى الصينيتين.

التففنا جميعًا لنشاهد، بينما أخرج بولتون — رئيس كهنة هذه الممارسات الغامضة — من المظروف الأسوَد ورقةً كبيرة من البروميد، ووضعها بعناية في الصينية وشرع في ترطيبها بفرشاة كبيرة غمسها في دلوٍ من الماء.

قال دكتور نوربيري: «ظننتُ أنك استخدمت دومًا شرائح زجاجية في هذا النوع من العمل.»

«نحن نفعل ذلك، بناءً على الأفضلية؛ ولكن من المستحيل أن تجد شريحةً زجاجية بمساحة ستِّ أقدام، ولذا لديَّ ورقة ذات طبيعة خاصة وبالحجم نفسه.»

ثمة شيء رائع على نحوٍ مميز في مظهر الصورة المُحمضة، في الظهور الغامض والتدريجي للصورة من السطح الأبيض والمستوي للشريحة أو الورقة. ولكن الصورة الشعاعية؛ صورة الأشعة السينية، تتمتع بسحرٍ خاص بها. فعلى عكس الصور الفوتوغرافية العادية، التي تُسفر عن صورةٍ للأشياء المرئية بالفعل، فإنها تقدم صورةً للأشياء غير المرئية؛ وبالتالي، حين سكب بولتون مُظهِر الفيلم الفوتوغرافي على الورقة المُبتلة بالفعل، مَددْنا أعناقنا جميعًا إلى الصينية في فضولٍ شديد.

من الواضح أن مُحمض الفيلم كان بطيئًا للغاية؛ حيث لم يُرَ أي تغيير يذكر على السطح المستوي لمدة نصف دقيقة كاملة. ثم بالتدريج، وعلى نحوٍ غير ملموس تقريبًا، بدأ الجزء الهامشي يغمق، تاركًا الخطوط العريضة للمومياء بنقشٍ باهت. وبمجرد أن بدأ التغيير تقدَّم بسرعة. وصار هامش الورقة أغمق فأغمق حتى تحوَّل من رمادي أردوازي إلى أسود؛ ورغم ذلك ظلَّ شكل المومياء — صارت الآن ببروزٍ قوي — عبارة عن رقعةٍ طويلة بيضاء اللون. ولكن لم يستمر ذلك طويلًا؛ فعلى الفور بدأ الشكل الأبيض يشوبه اللون الرمادي، وبينما صار اللون أغمق، ظهر منه لون شاحب أكثر وكأنه ينبثق من اللون الرمادي المُستتر مثل شبحٍ أو طيف غريب ورائع. ظهر للعيان الهيكل العظمي.

قال دكتور نوربيري: «إنه أمر مذهل جدًّا. أشعر كما لو أنني أشارك في طقوس غير مُقدَّسة. فقط انظروا إليها الآن!»

كان الظلُّ الرمادي الخاص بالغلاف الكرتوني والضمادات واللحم يتلاشى في الخلفية وبرز الهيكل العظمي الأبيض في تناقضٍ حاد. من المؤكد أنه كان مشهدًا غريبًا.

قال دكتور نوربيري: «ستفقد العظام إذا واصلتَ تظهير الصورة أكثر.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «يجب أن أترك العظام لتصير أغمق، في حالة ما إذا كان هناك أي أجسام معدنية. لديَّ ثلاث أوراق أُخرى في المظروف.»

بدأ الشكل الأبيض للهيكل العظمي يتحوَّل إلى رمادي، كما قال دكتور نوربيري، وصار وضوحها أقل فأقل. انحنى ثورندايك على الصينية وهو يثبت عينيه على نقطةٍ في منتصف الصدر، كنَّا نراقبه جميعًا في صمت. وفجأة قام وقال بحدة: «الآن، يا بولتون، أحضر محلول الهيبوسلفات بأسرع ما يمكنك.»

وضع بولتون، الذي كان ينتظر وبيده حنفية أنبوب تصريف، مُظهِر الفيلم في الدلو وانغمرت الورقة بمحلول تثبيت.

قال ثورندايك: «الآن يمكننا أن نلقي نظرةً عليها في وقت فراغنا.» وبعد الانتظار بضع ثوانٍ، أشعل أحد المصابيح المتوهجة، وبينما غمر فيضان من الضوء الصورة، أضاف قائلًا: «كما ترون لم نفقد الهيكل العظمي بالكامل.»

قال دكتور نوربيري: «كلَّا.» ووضع النظارة الطبية وانحنى على الصينية؛ وفي هذه اللحظة شعرُت بأن يد روث تلمس ذراعي، بخفةٍ في البداية، ثم بقبضةٍ عصبية قوية؛ شعرت بأن يدها ترتعش. نظرت إليها في قلقٍ ورأيتها شاحبة شحوب الموتى.

ونظرًا لأن القاعة كانت، بنوافذها المُغلقة بإحكام، مكتومةً وحارة، سألتها: «هل تُفضلين الخروج إلى المعرض؟»

أجابت بهدوء: «كلَّا، سأبقى هنا. أنا بخير تمامًا.» ولكنها ظلت مُمسكة بذارعي.

نظر إليها ثورندايك باهتمام، ثم أشاح بنظره بينما وجَّه إليه دكتور نوربيري سؤالًا.

«في رأيك، لماذا تبدو بعض الأسنان أكثر بياضًا من غيرها؟»

أجاب ثورندايك قائلًا: «أظن أن البياض هو ظلال بسبب وجود المعدن.»

تساءل دكتور نوربيري: «هل تقصد أنه حشو أسنان؟»

«أجل.»

«فعلًا! هذا مُثير جدًّا للاهتمام. اشتُهر قدماء المصريين باستخدام الذهب لحشو الأسنان واشتُهروا أيضًا باستخدام الأسنان الصناعية، ولكن ليس لدينا نماذج لذلك في هذا المتحف. من المفترض أن تُكشف هذه المومياء. هل تظن أن كل هذه الأسنان محشوَّة بالمعدن نفسه؟ فبياضها ليس متساويًا.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «كلَّا، لا شك أن الأسنان ناصعة البياض محشوة بالذهب؛ أما الأسنان الرمادية فهي محشوة بالقصدير على الأرجح.»

قال نوربيري: «مُثير جدًّا! مُثير جدًّا! وماذا تظن بخصوص تلك العلامة الباهتة الموجودة عند الصدر، بالقُرب من أعلى عظمة القص؟»

أجابت روث عن سؤاله.

قالت بصوت خافت: «إنها عين أوزيريس!»

صاح دكتور نوربيري: «يا إلهي! هي كذلك. أنتِ مُحقة تمامًا. إنها عين حورس أو أوزيريس، إذا كنتِ تُفضلين تسميتها كذلك. أظن أنه شعار مَطلي بالذهب على بعض الأوشحة.»

«كلَّا؛ حريٌّ بي أن أقول إنه وشم. وليس شعارًا مَطليًّا بالذهب. وحريٌّ بي أن أقول كذلك إنه وشم باللون القرمزي، نظرًا لأن الوشم الكربوني لا يُظهر ظلالًا مرئية.»

قال دكتور نوربيري: «أعتقد أنك مُخطئ بخصوص ذلك، ولكن سنرى، إذا سمح لنا المدير بكشف المومياء. بالمناسبة، أعتقد أن تلك الأجزاء الصغيرة الموجودة أمام الرُّكبتين هي أجزاء معدنية؟»

«أجل، إنها أجزاء معدنية. ولكنها ليست أمام الركبتين؛ وإنما داخلها. إنها أجزاء من سلكٍ فضي مُستخدم لإصلاح رضفة الركبة.»

قال دكتور نوربيري وهو يُحدق في العلامات البيضاء الصغيرة بانبهار: «هل أنت مُتأكد من ذلك؟ لأنك إذا كنت متأكدًا، وإذا كانت هذه الأجزاء كما تقول، فإن مومياء سبك حتب هي عينة فريدة من نوعها تمامًا.»

قال ثورندايك: «أنا متأكد من ذلك تمامًا.»

قال نوربيري: «إذن، لقد توصَّلنا إلى اكتشاف. الفضل يرجع إلى روحك الباحثة. جون بيلينجهام المسكين! لم يكن يعرف الكنز الذي أهداه إلينا! كم تمنيتُ لو أنه عرف! كم تمنيتُ أن يكون معنا الليلة!»

توقف مرة أخرى ليُحدِّق بانبهار في الصورة. ثم قال ثورندايك بأسلوبه الهادئ والرزين:

«جون بيلينجهام هنا، دكتور نوربيري. هذا هو جون بيلينجهام.»

أجفل دكتور نوربيري وحدَّق في ثورندايك بدهشةٍ أعجزته عن الكلام.

وصاح بعد فترة توقفٍ طويلة: «أنت لا تقصد أن هذه المومياء هي جثة جون بيلينجهام!»

«بلى، أنا أقصد ذلك. لا شك في ذلك.»

«ولكن هذا مُستحيل! المومياء كانت موجودةً في المعرض قبل اختفائه بثلاثة أسابيع كاملة.»

قال ثورندايك: «الأمر ليس كذلك. شاهدتَ أنت والسيد جيليكو جون بيلينجهام آخِر مرة على قيد الحياة في الرابع عشر من أكتوبر، قبل أن تُنقل المومياء من ميدان كوين بأكثر من ثلاثة أسابيع. وبعد هذا التاريخ لم يرَه — حيًّا أو ميتًا — أي شخصٍ يعرفه أو يستطيع التعرُّف عليه.»

أخذ دكتور نوربيري يفكر في صمت لبعض الوقت. ثم سأل بصوتٍ واهن:

«في رأيك، كيف دخلت جثة جون بيلينجهام إلى هذا الغلاف الكرتوني؟»

قال ثورندايك بجفاء: «أظنُّ أن السيد جيليكو هو أكثر شخصٍ قادر على الإجابة عن هذا السؤال على الأرجح.»

ساد الصمت مرةً أخرى، ثم سأل دكتور نوربيري فجأة:

«ولكن ما الذي حدث لمومياء سبك حتب، في رأيك؟ أقصد المومياء الحقيقية؟»

قال ثورندايك: «أظنُّ أن رفات سبك حتب، أو على الأقل جزء كبير منها موجود في مشرحة وودفورد في انتظار التحقيق المؤجَّل.»

وبعد أن أدلى ثورندايك بهذا التصريح، انتابتْني ومضةٌ من الإدراك المتأخِّر يشوبها شعور بازدراء الذات. الآن بعد أن قُدِّم التفسير، كم كان الأمر واضحًا! ورغم ذلك، لقد أخطأت — وأنا مُتخصص كفؤ في علم التشريح والفسيولوجيا وتلميذ ثورندايك — في التعرُّف على هذه العظام القديمة وحسبتُها بقايا جثةٍ حديثة!

تفكَّر دكتور نوربيري في التصريح الأخير لبعض الوقت في ارتباكٍ واضح. وأخيرًا قال: «أعترف أن كل الأمور مُتَّسقة بالقدْر الكافي. ورغم ذلك، هل أنت متأكد تمامًا من عدم وقوع خطأ ما؟ الأمر لا يُصدَّق.»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «أؤكد لك أنه لا يُوجَد أي خطأ. ولكي أقنعك، سأقدِّم لك الحقائق بالتفصيل. أولًا، فيما يخصُّ الأسنان. التقيتُ بطبيب الأسنان الخاص بجون بيلينجهام وحصلتُ على تفاصيل من سجل حالته. كان هناك خمسة ضروس محشوة؛ ضرس العقل الموجود في الفك العلوي ناحية اليمين، والضرس الطاحن المجاور له، والضرس الطاحن الثاني في الفك السُّفلي ناحية اليسار، جميعها محشوة بحشوٍ ذهبي. يمكنك أن تراها جميعًا بكل سهولة في صورة الأشعة هذه. والقاطعة الجانبية في الفك السُّفلي ناحية اليسار بها حشو صغير جدًّا من الذهب، والذي يمكنك أن تراه كنقطةٍ بيضاء مُستديرة. بالإضافة إلى هذا، حُشِيت السن الضاحكة الثانية في الفك العلوي ناحية اليسار بمزيجٍ من القصدير، بينما كان المتوفَّى مسافرًا إلى الخارج، هذه هي البقعة الرمادية التي رأيناها بالفعل. كل هذا، في حدِّ ذاته، يُقدِّم وسائل كافية لتحديد الهوية. ولكن بالإضافة إلى هذا، نجد الوشم الخاص بشعار عين أوزيريس …»

تمتم دكتور نوربيري قائلًا: «حورس.»

«حورس، إذن، في الموضع نفسه الذي وشمَه المُتوفَّى، وباللون نفسه فيما يبدو. كما يُوجَد أيضًا قطوب خيوط جراحية في رضفة الركبة؛ أخبرَني السير مورجان بينيت، بعد مراجعة الملاحظات المدوَّنة عن العملية، أنه أدخل ثلاثة خيوط جراحية في رضفة الركبة اليُسرى واثنين في رضفة الركبة اليمنى؛ وهذا ما تُبينه صورة الأشعة. وأخيرًا، كان المُتوفَّى يُعاني من كسر بوت قديم بالكاحل الأيسر. هو ليس واضحًا الآن، ولكني رأيتُه بوضوحٍ

تام حين كانت ظلال العظام أكثر بياضًا. أظنُّ أن بعد كل هذا يمكنك أن تعتبر هوية الجثة ليست محلَّ شكٍّ أو سؤال.»

قال دكتور نوربيري في تسليم كئيب: «أجل، يبدو الأمر، كما قلتَ، محسومًا تمامًا. حسنًا، حسنًا، إنه أمر فظيع. العجوز جون بيلينجهام المسكين! يبدو الأمر استثنائيًّا كما لو أنه تعرَّض لمؤامرةٍ فظيعة. ألا تظنُّ ذلك؟»

ردَّ ثورندايك: «أجل هو كذلك. تُوجَد علامة على الجانب الأيمن من الجمجمة تبدو أشبه بكسر. ليست واضحة، نظرًا لوجودها في الجنب، ولكن لا بدَّ من تحميض الصورة لتظهر.»

أخذ دكتور نوربيري نفَسَه بحدَّة من بين أسنانه وقال: «هذا عمل بشع يا دكتور. عمل فظيع، وغريب أيضًا على أُمَّتنا. بالمناسبة، ما موقفنا في هذه المسألة؟ ما الخطوات التي يجب أن نتَّخذها؟»

«عليك أن تُخطر الطبيب الشرعي — سأتولَّى أنا أمر الشرطة — وعليك أن تتواصل مع أحد الأوصياء على تنفيذ الوصية.»

«السيد جيليكو؟»

«كلَّا، ليس السيد جيليكو في ظلِّ هذه الظروف الغريبة. من الأفضل أن تكتب للسيد جودفري بيلينجهام.»

«ولكني أعرف أيضًا أن السيد هيرست يشارك في تنفيذ الوصية.»

قال جيرفيس: «بالتأكيد، هو كذلك بواقع الحال.»

ردَّ ثورندايك: «ليس تمامًا. كان كذلك حين كان واقع الحال؛ إنما الآن هو ليس كذلك. يبدو أنك نسيتَ شرط البند الثاني من الوصية. يذكُر ذلك البند الشروط التي بموجبها يرِث جودفري بيلينجهام الجزء الأكبر من الممتلكات ويشارك في تنفيذ الوصية وهذه الشروط كما يلي: «تُدفن جثة الموصي في مكانٍ مُخول باستقبال جثث الموتى، ويقع ضمن حدود، أو بالقُرب من أماكن العبادة داخل أبرشية سانت جورج، بلومزبيري، وسانت جايلز في فيلدز أو سانت أندرو المُندرج تحتها أبرشية بارز والشهيد سانت جورج.» الآن المومياوات المصرية هي جُثث للموتى، وهذا المتحف هو مكان مُخول باستقبالها، وهذا المبنى موجود داخل حدود أبرشية سانت جورج، بلومزبيري. وبالتالي، فإن شروط البند الثاني مُستوفاة تمامًا، وبالتالي فإن جودفري بيلينجهام هو المُستفيد الرئيسي بموجب الوصية، والمشارك في تنفيذها، وفقًا لرغبات المُوصي. هل هذا واضح تمامًا؟»

قال دكتور نوربيري: «على نحوٍ مثالي، إنها أغرب صُدفة؛ ولكن، سيدتي الشابة العزيزة، أليس من الأفضل أن تجلسي؟ تبدين مُضطربة جدًّا.»

نظر في قلق إلى روث، التي بدت شفتاها شاحبة وكانت تتكئ في تثاقُلٍ على ذراعي.

قال ثورندايك: «أظن يا بيركلي، أنه من الأفضل أن تأخذ الآنسة بيلينجهام إلى قاعة العرض، حيث يُوجَد المزيد من الهواء. لقد كانت هذه ذروة هائلة لجميع الشدائد التي تحمَّلتها بكل شجاعة. اخرُجي مع بيركلي.» وأضاف بلطفٍ وهو يضع يده على كتفها: «اجلسي بينما سنُحمِّض الصورة. يجب ألا تنهاري الآن، تعلمين، حين تمر العاصفة وتُشرق الشمس.» فتح لها الباب وبينما كنَّا نخرج ألان وجهه بابتسامة تنمُّ عن اللطف الشديد قائلًا: «اسمحي لي أن أغلق باب هذه القاعة المظلمة للتصوير الفوتوغرافي الآن.»

وضع المفتاح في القفل وتوجهنا إلى قاعة العرض المُعتمة. لم تكن مُظلمة تمامًا، حيث تسلل ضوء القمر من هنا وهناك عبر الستائر التي غطت المناور. سِرنا ببطءٍ وذراعها تتشابك مع ذراعي، ولم يتحدَّث أي منَّا لبرهةٍ من الوقت. كانت القاعات الكبيرة يسودها صمت شديد وتتَّسم بالهدوء والوقار. تناسَب الصمت والسكون والغموض الذي يكتنف النماذج غير الواضحة المعالم في صناديق العرض من حولنا، مع الشعور العميق بالخلاص الذي غمر قلبَينا.

ومررْنا عبر القاعة المجاورة قبل أن يكسِر أيٌّ منَّا حاجز الصمت. تسللت يدانا على نحوٍ لا شعوري، وحين التقتا وتشابكتا بضغطةٍ متبادلة، قالت روث: «كم كان هذا مُروعًا ومأساويًّا! المسكين، العم جون المسكين! يبدو كما لو أنه عاد من عالم الأشباح ليُخبرنا بهذه الجريمة الشنعاء. ولكن يا إلهي! يا له من شعور مريح!»

التقطتْ أنفاسها في تنهيدةٍ أو اثنتين وضغطتْ على يديَّ بشغف.

قلت: «لقد انتهى الأمر يا عزيزتي. انتهى إلى الأبد. لم يتبقَّ شيء سوى ذكرى حزنك وشجاعتك وصبرك النبيل.»

همهمت قائلة: «لا أستطيع أن أُدرك ذلك بعد. الأمر أشبه بحلمٍ مُخيف لا نهاية له.»

قلت: «لنُنحِّي الأمر جانبًا ونفكر فقط في الحياة السعيدة الوشيكة.»

لم يأتني منها رد، مجرد التقاط سريع لأنفاسها، بين الحين والآخر، وَشَى بالمعاناة الطويلة التي تحمَّلتْها بهدوء بطولي.

سِرنا ببطء، لا نكاد نقطع الصمتَ بوقع خطواتنا الرقيقة، عبر المدخل الشاسع للقاعة الثانية. بدت الأشكال المُبهمة لتوابيت المومياوات تقف مُنتصبةً في نوافذ العرض

المُثبتة بالحائط غامضةً وعملاقة. المُراقبون الصامتون يقظون بالذكريات المحبوسة في صدروهم الغامضة. كانوا صحبة رائعة. الناجون المُوقرون من عالم مُختفٍ، ينظرون من مكان إقامتهم الكئيب؛ ولكن بدون تهديد أو حقد في حضورهم الصامت؛ وإنما مباركة مهيبة لبشرٍ عابرين في عالم اليوم.

وفي منتصف القاعة، ظلَّ شكلٌ شبحي، بمعزِل عن باقي صحبته، بدا مكان وجهه بقعةً قاتمة وشاحبة. في نفس اللحظة، وقفنا أمامه.

سألتها: «أتعرفين من هذا يا روث؟»

أجابت قائلة: «بالطبع، أعرف. إنه أرتيميدورس.»

وقفنا، مُتشابكي اليدين، أمام المومياء، تاركَين ذكرياتنا تملأ الصورة الظلية الغامضة بتفاصيلها المحفوظة جيدًا. في تلك اللحظة، اقتربت منها أكثر وهمست لها:

«روث! أتتذكرين متى كانت آخر مرة وقفنا هنا؟»

ردَّت بحماس قائلة: «كما لو أن بإمكاني أن أنسى! أوه، بول! الحزن! التعاسة! كم اعتصر الألم قلبي حين قلتها لك! هل كنتَ حزينًا جدًّا عندما تركتك؟»

«حزين! لم أعرف المعنى الحقيقي لكسرة القلب إلا حينها. بدا الأمر وكأن الضوء قد انطفأ من حياتي إلى الأبد. ولكن لم يتبقَّ سوى بقعة ساطعة صغيرة.»

«ماذا كانت هذه؟»

«لقد قطعتِ لي وعدًا يا عزيزتي؛ وعدًا قاطعًا، وشعرت — على الأقل كنتُ آمل — أن يأتي اليوم، فقط إذا انتظرتُ بفارغ الصبر، حين تتمكنين من الوفاء به.»

اقتربتْ منِّي أكثر فأكثر، حتى استقرَّت رأسها على كتفي ولامسَت وجنتها الناعمة وجنتي.

همستُ قائلًا: «حبيبتي العزيزة، هل الآن؟ هل حان وقت الوفاء بالوعد؟»

تمتمتْ برفقٍ قائلة: «أجل يا عزيزي، الآن، وإلى الأبد.»

احتضنتُها بين ذراعيَّ بإجلال؛ وضممتُها إلى القلب الذي يعشقها بلا حدود. من الآن فصاعدًا، لن تستطيع الأحزان أن تؤذينا، ولا تستطيع فجيعةٌ أن تُربكنا؛ لأننا سنسير متشابكي الأيدي في رحلتنا الدنيوية وسنعثُر على طريق أقصر كثيرًا.

لا شك أن الزمن، الذي تمضي رماله بسرعةٍ غير متكافئة بين العدل والظلم، الفرح والترَح، تخلف مع الإرهاق الذي تركناه في القاعة. أما بالنسبة لنا، فقد كانت حباته الذهبية تسيل سريعًا، تاركةً الزجاجة فارغة قبل أن نلاحظ مروره. أيقظنا من حُلمنا

بالسعادة المثالية استدارة مفتاحٍ وفتح أحد الأبواب. رفعت روث رأسها لتسمع، والتقت شفتانا للحظةٍ عابرة. ثم، بتحيةٍ صامتة إلى صديقنا الذي لاحظ حُزننا وشهد نهايتنا السعيدة، استدرْنا وعُدنا بخطواتنا سريعًا، لنملأ القاعات الخاوية بأصداء الثرثرة.

قالت روث: «لن نذهب إلى القاعة المُظلمة، التي لم تعُد مظلمة الآن.»

سألتها: «ولمَ لا؟»

«لأنني عندما خرجتُ كنت شاحبة جدًّا، أنا الآن ... حسنًا، لا أظن أنني شاحبة جدًّا الآن. بالإضافة إلى أن العم جون المسكين موجود بالداخل، ولا بد أن أشعر بالخجل وأنا أنظر إليه بقلبٍ أناني يفيض بالسعادة.»

قلت: «يجب ألَّا تكوني كذلك. إنه يومنا ومن حقِّنا أن نكون سعيدَين. ولكن لن تدخلي، إذا كنتِ لا ترغبين.» هكذا قُدتها ببراعةٍ أمام شعاع الضوء الذي يتدفَّق من الباب المفتوح.

قال ثورندايك، وهو يخرج مع الآخرين: «قُمنا بتحميض الصور السالبة، وسأتركها في عهدة دكتور نوربيري، الذي سيمضي على كل واحدةٍ منها حين تجف، نظرًا لأنها قد تُقدَّم كدليل. ما الذي ستفعلانه؟»

نظرتُ إلى روث لأرى ما الذي تتمنَّاه.

قالت: «إذا كنتَ لا تعتبرني جاحدة، أودُّ أن أنفرد بأبي الليلة. إنه ضعيف جدًّا، و...»

قلت بسرعة: «أجل، أتفهَّم ذلك.» وفعلت. كان السيد بيلينجهام رجلًا ذا مشاعر فيَّاضة وعلى الأرجح سيُنهكه التغيير المفاجئ للمقادير وخبر وفاة أخيه المأساوية.

قال ثورندايك: «في هذه الحالة، سأطلب خدماتك. هلَّا ذهبت إلى مكتبي وانتظرتني هناك، بعد أن تُوصِّل الآنسة بيلينجهام إلى المنزل؟»

وافقتُ على هذا، وتوجَّهنا تحت رعاية دكتور نوربيري (الذي حمل المصباح الكهربائي) لنعود من الطريق الذي جئنا منه؛ اثنان منَّا على الأقل كانا في حالةٍ ذهنية مختلفة تمامًا. انفضَّ الجمع عند بوابات الدخول، وحين ودع ثورندايك رفيقتي، أمسكتْ بيده ونظرتْ إلى وجهه بعينين دامعتَين.

قالت: «لم أشكرك بعدُ دكتور ثورندايك. وأشعر أنني عاجزة عن الشكر. فما فعلته من أجلي ومن أجل والدي يفوق سُبل التعبير عن الشكر. لقد أنقذتَ حياته وأنقذتني من العار الفظيع. إلى اللقاء! باركَكَ الرب!»

العربة التي انطلقت باتجاه الشرق — بأقصى سرعةٍ بلا داعٍ — حملت اثنين من أسعد المخلوقات داخل الحدود الشاسعة للمدينة. نظرتُ إلى رفيقتي بينما كانت أضواء

الشوارع تسطع داخل العربة، كنا مندهشين من التحوُّل. تحوَّل شحوب وجنتَيها إلى اللون الوردي الزهري، واختفت الصلابة والتوتر والقمع الذاتي المنهك الذي جعل وجهها أكبر من سنِّها، وعادت العذوبة الأنثوية التي سحرتني في أيام حُبنا الأولى. وظهرت الغمَّازات أيضًا بمجرد أن رُفعت الأسواط الكاسحة والتقتْ عيناها بعينيَّ بابتسامةٍ رقيقة غير مُتناهية.

لم نتحدَّث كثيرًا في تلك الرحلة القصيرة. كنَّا سعداء بالدرجة الكافية للجلوس، مُتشابكَي الأيدي، مُدركَين أن وقت مُحاكمتنا قد مر، ولن تُفرقنا الأقدار أبدًا الآن.

قادنا سائق العربة المندهش، في ضوء إرشاداتنا، إلى مدخل شارع نيفيلز، وراقبنا في اندهاش ونحن نختفي إلى داخل الممر الضيق. كان الشارع هادئًا ليلًا، ولم يلاحظ أحد عودتنا؛ ولم تنظر إلينا العيون المُتطفلة من جهة المنزل الداكن بينما كان يودِّع كلٌّ منَّا الآخَر، داخل البوابة.

سألتني: «ستأتي لتزورنا غدًا يا عزيزي، أليس كذلك؟»

«هل تظنين أنني يُمكنني البقاء بعيدًا، بعد الآن؟»

«لا آمُل ذلك، ولكن تعالَ في أقرب وقتٍ ممكن. سيتوق والدي كثيرًا لرؤيتك؛ لأنني سأُخبره عنك، كما تعرف. وتذكَّر؛ أنت من أنقذنا وخلَّصنا من كلِّ هذا. طابت ليلتك، بول.»

«طابت ليلتك، حبيبتي.»

رفعَتْ وجهها ببراءة لأُقبلها ثم ركضتْ إلى الباب العتيق، حيث لوَّحت لي مُودعة الوداع الأخير. أغلقتُ البوابة المُهترئة الموجودة في الجدار خلفي وحجبتُها عن رؤيتي؛ ولكن رافَقَني نور حُبها وحوَّل الشوارع الكئيبة إلى طريق للمجد.

الفصل التاسع عشر

اجتماع غريب

أصابتني صدمة المفاجأة حين وجدتُ قصاصة الورق لا تزال مُثبتة على مكتب ثورندايك. لقد حدث الكثير منذ آخر مرة ألقيتُ نظرة عليها بحيث بدت كما لو أنها تنتمي لفترةٍ أخرى من حياتي. أزلتُها وأنا أتأمَّلها والتقطتُ المسمار قبل الدخول، ثم أغلقتُ الباب الداخلي، ولكني تركتُ الباب الخشبي مفتوحًا، أشعلتُ مصباح الغاز وأخذت أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا.

يا له من حدثٍ رائع! كيف تغيرت ملامح العالم بأسرِه في دقيقةٍ إثر اكتشاف ثورندايك! وفي وقتٍ آخر، من شأن الفضول أن يدفعني إلى تعقُّب سلسلة المنطق الذي اتبعه العقل الحاذق لمُعلمي للتوصل إلى هذا الاستنتاج المذهل. ولكن الآن، سعادتي الخاصة تستحوذ على أفكاري. فصورة روث تملأ مجال رؤيتي الذهنية. رأيتها مرة أخرى كما رأيتها في العربة بوجهها المليح والمتأمِّل وعينيها المُسبلة؛ شعرتُ مرة أخرى بخدِّها الناعم وقبلة الوداع عند البوابة، صريحة وبسيطة جدًّا، حميمية وحاسمة للغاية.

لا بدَّ أنني انتظرتُ لوقتٍ طويل جدًّا، رغم أن اللحظات الذهبية مرَّت سريعًا، فحين عاد صديقاي، قدَّما لي اعتذاراتٍ لا داعي لها.

قال ثورندايك: «أظن أنك تتساءل عما أردتُك من أجله.»

في الواقع، لم أهتم بالأمر ولو لدقيقة.

شرح ثورندايك: «سنستدعي السيد جيليكو. ثمة شيء ما وراء هذه المسألة، وحتى أتأكد من كنهه، في رأيي، القضية غير مُكتملة.»

سألته: «هل ستفعل ذلك غدًا؟»

«ربما أفعل؛ وربما لا. ثمة مثل قديم يقول اصطَدِ ابن عرس وهو نائم. السيد جيليكو شخص يقِظ إلى حدٍّ ما، وأظن أنه من الأفضل تقديمه إلى المُحقق بادجر في أقرب وقتٍ ممكن.»

قال جيرفيس: «مقابلة بين ابن عرس وبادجر تُوحي بأنها ستكون مقابلة مُسلية. ولكن لا تتوقع أن يفضح جيليكو نفسه، أليس كذلك؟»

«هو لا يستطيع أن يفعل ذلك، بالوضع في الاعتبار أنه لا يُوجَد شيء لكشفه. ولكن أظن أنه قد يُدلي بإفادة. أنا متأكد من أن ثمة بعض الظروف الاستثنائية.»

سألته: «منذ متى وأنت تعرِف أن الجثة في المتحف؟»

«حريٌّ بي أن أقول قبلكَ بحوالي ثلاثين أو أربعين ثانية.»

قلت: «هل تقصد أنك لم تعرف حتى حُمِّضت الصورة؟»

ردَّ قائلًا: «زميلي العزيز، هل تفترض أنني إذا كان لديَّ معرفة أكيدة بمكان الجثة، كنتُ سأسمح بأن تتذوَّق تلك الفتاة النبيلة ألم التشويق الذي كان يُمكنني أن أختصره في لحظة؟ أم هل تفترض أنني سأخوض هذه الادعاءات الخادعة الخاصة بالتجارب العلمية، إذا كان هناك سبيل أكثر كرامةً متاحًا أمامي؟»

قال جيرفيس: «بخصوص التجارب، لم يكن بإمكان نوربيري أن يرفض إذا كنتَ قد استأمنته على سِر.»

«بالطبع، لم يكن بإمكانه، وعلى الأرجح لن يفعل. فسرِّي يتضمن تُهمة بقتل رجل محترم للغاية ومعروف بالنسبة إليه. لعلَّه سيُحيلني إلى الشرطة، ثم ما الذي يُمكنني أن أفعله؟ كان لديَّ شكوك كثيرة، ولكن ليس لديَّ حقيقة واحدة ثابتة.»

قاطع حديثنا وقع خطواتٍ متسارعة على الدرَج، وصوتٌ مُدوٍّ لمقرعة بابنا.

وحين فتح جيرفيس الباب، اقتحم المُحقق بادجر الغرفة وهو في حالة إثارة بالغة.

تساءل قائلًا: «ما كل هذا دكتور ثورندايك؟ أرى أنك تُقرُّ بمعلومات ضدَّ السيد جيليكو، ولديَّ أمر بالقبض عليه؛ ولكن قبل القيام بأي شيءٍ أظن أنه من الأصوَبِ أن أخبرك بأن لدينا المزيد من الأدلة أكثر ممَّا هو معروف عمومًا تُشير إلى جهة مختلفة تمامًا.»

قال ثورندايك: «استنادًا إلى معلومات السيد جيليكو. ولكن الحقيقة هي أنني عاينتُ وتعرفتُ على الجثة الموجودة في المتحف البريطاني حيث وضعَها السيد جيليكو. أنا لا أقول إنه قتل جون بيلينجهام — رغم أن هذا ما تُوحي به المظاهر — إلا أنني أقول إنه سيُضطرُّ إلى تفسير سِرِّ وضعه للجثة في هذا المكان.»

صُعق المحقق بادجر. كما أنه بدا مُنزعجًا بشكلٍ واضح. بدا أن الطُّعم، الذي نثرَه السيد جيليكو ببراعة شديدة في أعقاب الشرطة، ذو خصائص مُزعجة، فحين أعطاه ثورندايك مُختصرًا موجزًا عن الحقائق وضع يديه في جيوبه وقال على نحوٍ عابس:

«حسنًا، أنا مندهش جدًّا! وحين أفكر في الوقت الذي قضيته والصعاب التي واجهتُها لجمع تلك العظام الملعونة! أفترض أنها مجرَّد أدوات؟»

قال ثورندايك: «دعنا لا ننتقِص من أهميتها. لقد لعبتَ دورًا مفيدًا. فهي تمثل الغلطة الحتمية التي يقع فيها كل مُجرم عاجلًا أم آجلًا. فالقاتل يفعل الكثير في كل الأحوال. فلو أنه يحتجِب عن الأنظار ويدع الأمور على حالها، فإن المُخبرين ربما يبحثون بلا طائل عن دليل. ولكن حان الوقت لنبدأ.»

سأل المُحقق وهو ينظر إليَّ بالأخص وقد عرَفني معرفة غير لطيفة تمامًا: «هل سنذهب جميعًا؟»

قال ثورندايك: «سنأتي معكَ جميعًا. ولكنك بالطبع ستُنفذ أمر القبض على النحو الذي يبدو أفضل بالنسبة إليكَ.»

قال المُحقق: «إنه إجراء مُعتاد.» ولكنه لم يُبدِ أي اعتراضٍ مُحدد، وشرعنا في مهمتنا.

لم تكن المسافة بين شارع ذا تيمبل إلى لينكولنز إن كبيرة. ففي غضون خمس دقائق، كنَّا نقِف عند مدخل حارة تشانسري، وبعد دقيقتين كنَّا مُجتمعين حول عتبة منزلٍ عتيق فخم بميدان نيو سكوير.

قال بادجر: «يبدو أنَّ هناك نورًا في مقدمة الطابق الأول. من الأفضل أن تبتعدوا قبل أن أدقَّ الجرس.»

لم تكن الاحتياطات ضرورية. بينما تقدم المُحقق إلى الجرس، رفع رأسه إلى النافذة المفتوحة مباشرةً فوق الباب المُطل على الشارع.

تساءل صاحب الرأس المُطل من الشباك بصوتٍ تعرَّفتُ عليه بأنه صوت السيد جيليكو: «من أنت؟»

«أنا المُحقق بادجر من إدارة التحقيقات الجنائية. أودُّ أن أقابل السيد آرثر جيليكو.»

«إذن، انظر إليَّ. أنا السيد آرثر جيليكو.»

«لديَّ تصريح بالقبض عليك سيد جيليكو. أنت مُتهم بقتل السيد جون بيلينجهام، الذي اكتُشِفت جثته في المتحف البريطاني.»

«على يدِ من؟»

«على يد دكتور ثورندايك.»

قال السيد جيليكو: «حسنًا، وهل هو هنا؟»

«أجل.»

«ها! أفترض أنك تريد أن تقبض عليَّ؟»

«أجل. هذا هو سبب وجودي هنا.»

«حسنًا، سأوافق على تسليم نفسي رهنًا بشروطٍ مُعينة.»

«لا يمكنني قبول أي شروط سيد جيليكو.»

«بلي، سأضع شروطي، وستتقبلها. وإلَّا فلن تُلقيَ القبض عليَّ.»

قال بادجر: «لا داعيَ للتحدُّث بهذا الأسلوب. إذا لم تسمح لي بالدخول فسأضطر إلى الاقتحام. وأقول لك أيضًا إن المنزل مُحاصر.»

ردَّ السيد جيليكو بهدوء: «تأكد من أنك لن تُلقي القبض عليَّ إذا لم تقبل شروطي.»

سأله بادجر: «حسنًا، ما هي شروطك؟»

قال السيد جيليكو: «أودُّ أن أدلي بإفادة.»

«يمكنك أن تفعل ذلك، ولكن يجب أن أحذرك أن أيَّ شيء ستقوله قد يؤخَذ كدليل ضدك.»

«بالطبع. ولكن أرغب أن أُدلي بالإفادة في وجود دكتور ثورندايك، وأريد أن أسمع منه تصريحًا بخصوص أسلوب التحقيق الذي من خلاله اكتشف مكان الجثة. أقصد إذا كان على استعدادٍ للقيام بذلك.»

قال ثورندايك: «إذا كنتَ تقصد أن نتبادل كشف المعرفة أمام بعضنا، فأنا على استعدادٍ تام لذلك.»

«حسنًا جدًّا. إذن، شروطي، أيها المُحقق، هي أنني سأسمع تصريح دكتور ثورندايك وسيُسمح لي بأن أُدلي بإفادة شخصية، وحتى يُنتهى من تلك الإفادات، مع ضرورة الاستجواب والمناقشة، سأظل طليقًا ولن أتعرَّض للمُضايقة أو التدخُّل من أي نوع. وأوافق، بنهاية هذه الإجراءات المذكورة، أن أخضع بدون مقاومة لأي تصرُّفٍ قد تتَّخذه.»

قال بادجر: «لا أستطيع الموافقة على ذلك.»

قال جيليكو ببرود: «لا تستطيع؟» ثم بعد توقفٍ قصير أضاف قائلًا: «لا تتسرَّع. لقد حذرتك.»

كان هناك شيء في نبرة السيد جيليكو الخالية من العواطف أزعج المُحقق جدًّا، ولذا التفتَ إلى ثورندايك وقال بصوت خفيض:

«أتساءل ما هي خدعته؟ لا يمكنه أن يهرُب، كما تعرف.»

قال ثورندايك: «تُوجَد عدة احتمالات.»

قال بادجر وهو يداعب ذقنه في حيرة: «أها.»

«على أي حال، هل يُوجَد أي اعتراض؟ إفادته قد توفر المتاعب، ولعلك تكون في الجانب الآمن. ستستغرق بعض الوقت لتقتحم المكان.»

قال السيد جيليكو، ويده على النافذة: «حسنًا، هل توافق؟ نعم أم لا؟»

قال بادجر بعبوس: «حسنًا، موافق.»

«تعِد بعدم مُضايقتي بأي طريقةٍ حتى أنتهي تمامًا؟»

«أعدك.»

اختفى رأس السيد جيليكو وأُغلقت النافذة. وبعد فترة توقفٍ قصيرة سمعنا صرير مزلاجٍ ضخم وخشخشة سلسلة، وعندما انفتح الباب الثقيل، وقف السيد جيليكو في هدوءٍ وسكينة مُمسكًا بيده شمعدان مكتب قديم الطراز.

تساءل وهو ينظر بحدَّة من خلال نظارته الطبية: «من معك؟»

ردَّ بادجر قائلًا: «أوه، لا علاقة لي بهم.»

قال ثورندايك: «إنهما دكتور بيركلي ودكتور جيرفيس.»

قال السيد جيليكو: «ها! يا للطفهما وحرصهما على الزيارة. تفضلا بالدخول، أيها السيدان. متأكد أنكما ستهتمَّان بسماع مُناقشتنا الصغيرة.»

فتح الباب بلباقة مُتصلبة بعض الشيء، ودخلنا جميعًا الردهة يتقدَّمُنا المُحقق بادجر. أغلق الباب برفقٍ وسبقنا إلى أعلى السلم ثم إلى داخل الشقة التي كان يُملي من نافذتها شروط الاستسلام. كانت غرفة قديمة في حالة جيدة وشاسعة وفخمة ذات جدران مكسوة بألواحٍ خشبية ورف مدفأة منحوت، عليه شعار النبالة بالحروف الأولى «ج. و. ب.» وتاريخ «١٦٧١». وفي أقصى الطرف، تقف طاولة كتابة كبيرة وخلفها خزانة حديدية.

قال السيد جيليكو بنبرةٍ هادئة بينما وضع أربعة كراسٍ في مواجهة الطاولة: «كنتُ أتوقع هذه الزيارة.»

قال ثورندايك: «منذ متى؟»

«منذ مساء الاثنين الماضي، حين سُررتُ برؤيتك تتحدَّث مع صديقي دكتور بيركلي عند شارع إنر تيمبل، ثم استنتجتُ أنك تحتفظ بالقضية. كان هذا هو الظرف الذي لم يُقدَّم بالشكل الكامل. هل لي أن أقدم لكم يا سادة كأسًا من الخمر؟»

وبينما كان يتحدَّث وضَع على الطاولة إناءً للخمر وصينية كئوس، ونظر إلينا مُستجوبًا وفي يده سدادة.

قال بادجر الذي استقرَّت عليه نظرات المُحامي في النهاية: «حسنًا، لا أمانع إذا فعلتَ سيد جيليكو.» ملأ السيد جيليكو الكأس وناولها إليه بانحناءةٍ مُتيبسة؛ وبينما كان لا يزال مُمسكًا بقنينة زجاجة الخمر في يده، قال بنبرة مقنعة: «دكتور ثورندايك، اسمح لي أن أملأ كأسك؟»

قال ثورندايك بنبرة حاسِمة جدًّا لدرجةٍ جعلت المُحقق ينظر إليه بسرعة: «كلَّا، شكرًا لكَ.» وبينما التقتْ عينا بادجر بعينيه، توقفت الكأس التي كان بصدد رفعها إلى شفتَيه فجأةً وأُعيدت ببطءٍ ليضعها على الطاولة دون أن يذوقها.

قال المحقق: «لا أريد أن أستعجلك، سيد جيليكو، ولكن الوقت مُتأخر إلى حدٍّ ما وأودُّ تسوية هذا الأمر. ما الذي ترغب في القيام به؟»

رد السيد جيليكو قائلًا: «أودُّ أن أدلي بإفادة تفصيلية للأحداث التي وقعت، وأودُّ أن أسمع دكتور ثورندايك على وجه التحديد بخصوص كيف توصَّل إلى استنتاجه الرائع جدًّا. وعندما يتمُّ هذا، سأكون في خدمتك تمامًا؛ وأقترح أنه سيكون مُثيرًا للاهتمام أكثر إذا قدَّم دكتور ثورندايك إفادته قبل أن أقدم لكم الحقائق الفعلية.»

قال ثورندايك: «أنا أؤيد رأيك بالكامل.»

قال السيد جيليكو: «إذن، في هذه الحالة، أقترح عليك أن تتجاهلني، وتُوجِّه ملاحظاتك إلى صديقَيك وكأنني لستُ حاضرًا.»

أذعن ثورندايك بإيماءة، ثم جلس السيد جيليكو على كرسيه الخشبي خلف الطاولة، وصبَّ لنفسه كأسًا من الماء، وسحب سيجارةً من علبةٍ فضية أنيقة، وأشعلها بتأنٍّ، وانحنى إلى الوراء ليستمع على راحته.

بدأ ثورندايك بدون ديباجة: «كانت معرفتي الأولى بهذه القضية عبر الصحف اليومية قبل حوالي عامين؛ ولعلِّي أقول إنه على الرغم من أن اهتمامي لا يتعدَّى كونه اهتمامًا أكاديميًّا صرفًا لُمتخصصٍ تقع هذه القضية ضِمن حدود اختصاصه، فلقد أمعنتُ التفكير فيها باهتمام عميق. لم تتطرَّق التقارير الصحفية إلى تفاصيل العلاقة بين الأطراف التي

قد تُقدِّم أي تلميحات عن دوافع أي جانبٍ منها، ولكن مجرد بيان صريح للأحداث. وتُعد هذه ميزة واضحة، حيث تركت للمرء فرصة التفكير في حقائق القضية بلا اعتبارٍ إلى الدوافع؛ لموازنة الاحتمالات الظاهرية بعقلٍ مُتفتح. ولعلكم تتفاجئون بمعرفة أن تلك الاحتمالات الظاهرة أشارت من البداية إلى ذلك الذي تم اختباره من خلال تجربة الليلة. ومِن ثَم، سيكون جيدًّا بالنسبة إليَّ البدء بطرح الاستنتاجات التي توصَّلت إليها من خلال الاستدلال بالحقائق الواردة في الصحف قبل أي حقائق إضافية عرفتها.

من الحقائق الواردة في التقارير الصحفية، من الواضح أنه ثمَّة أربعة تفسيرات مُحتملة للاختفاء.

(١) لعلَّ الرجل على قيد الحياة ومُختبئ. وهذا أمر بعيد الاحتمال، للأسباب الذي ذكرها السيد لورام في جلسة الاستماع الأخيرة الخاصة بالالتماس، ولسببٍ آخر سأذكره حالًا.

(٢) لعلَّه تُوفِّي إثر وقوع حادث أو الإصابة بمرض، ولم يُتَعرَّف على جثته. كان هذا غير مُحتمل بدرجةٍ أكبر، حيث إنه واصل توفير سبل شخصية وفيرة لتحديد الهوية الشخصية، وفي ذلك بطاقات الزيارة.

(٣) لعلَّه قُتل على يد شخصٍ غريب من أجل ممتلكاته المحمولة. وهذا أمر بعيد الاحتمال بدرجةٍ كبيرة للسبب نفسه إذ لم يكن من الممكن التعرُّف على هوية الجثة.

هذه التفسيرات الثلاثة هي ما قد نُطلق عليها التفسيرات الخارجية. فهي لم تمس أي طرف من الأطراف المذكورة؛ ومن الواضح أن جميعها بعيد الاحتمال بصفةٍ عامة، وبالنسبة لها جميعًا ثمة إجابة واحدة قاطعة؛ الجعران الذي وُجد في حديقة جودفري بيلينجهام. هنا أُنحِّي هذه التفسيرات جانبًا، وأولي اهتمامي التفسير الرابع؛ ألا وهو أن الرجل المفقود قُتل على يد أحد الأطراف المذكورة في التقرير. ولكن، نظرًا لأن التقارير ذكرت ثلاثة أطراف، كان من الواضح أن ثمة اختيارًا واحدًا من بين ثلاث فرضيات، ألا وهي:

(أ) أن جون بيلينجهام قُتل على يد هيرست، أو (ب) على يد آل بيلينجهام، أو (ج) على يد السيد جيليكو.

الآن، لقد أكدتُ على تلاميذي أن السؤال الضروري الذي يجب طرحه في بداية تحقيقٍ كهذا هو: «متى كانت آخِر مرة شُوهد أو عُرف فيها الشخص المفقود أنه على قيد الحياة

بلا شك؟» هذا هو السؤال الذي طرحته على نفسي بعد قراءة تقرير الصحيفة؛ وكانت الإجابة أنه شُوهد لآخر مرة قطعًا على قيد الحياة في الرابع عشر من أكتوبر، عام ألف وتسعمائة واثنين، في ١٤١ ميدان كوين، بلوميزبيري. وبناءً على حقيقة أنه كان على قيد الحياة في ذلك الوقت وذاك المكان، فليس هناك أي شك، حيث شاهده شخصان في اللحظة نفسها، وكلاهما على معرفة حميمية به، وأحدهما هو دكتور نوربيري، الذي كان فيما يبدو شاهدًا نزيهًا. وبعد ذلك التاريخ، لم يرَه قط، حيًّا أو ميتًا، أي شخص يعرفه وقادر على تحديد هويته. ويُقال إنه شُوهد في الثالث والعشرين من نوفمبر حسب قول خادمة السيد هيرست؛ ولكن نظرًا لأن هذا الشخص لم يكن معروفًا بالنسبة إليها؛ لم يكن من المؤكد ما إذا كان هذا الشخص الذي رأته هو جون بيلينجهام أم لا.

وبالتالي، فإن تاريخ الاختفاء، ليس من الثالث والعشرين من نوفمبر، كما افترض كل شخصٍ فيما يبدو، وإنما من الرابع عشر من أكتوبر، ولم يكن السؤال: «ما الذي حدث لجون بيلينجهام بعد أن دخل بيت السيد هيرست؟» وإنما «ما الذي حدث له بعد مقابلته في ميدان كوين؟»

ولكن بمجرد أن قررتُ أن تلك المقابلة يجب أن تُشكل نقطة انطلاق حقيقية للتحقيق، ظهرتْ في الأفق مجموعة من الظروف اللافتة للنظر أكثر. وأصبح من الواضح أنه إذا كان لدى السيد جيليكو أي أسباب تجعله يرغب في قتل جون بيلينجهام، فإن ثمة فرصة نادرًا ما تسنح لقاتل مُتعمِّد.

تأمَّلوا الظروف وحسب. كان من المعروف أن جون بيلينجهام بصدد السفر إلى خارج البلاد وحدَه. ولم تُذكر وجهته بالضبط. وكان من المُقرر أن يغيب لفترةٍ غير محددة، ولكن على الأقل لمدة ثلاثة أسابيع. وبالتالي، لن يعلق أحد على حادثة اختفائه؛ ولن يُسفر غيابه عن أي تحقيقات، على الأقل لعدة أسابيع، خلالها سيكون لدى القاتل وقتٌ للتخلص من الجثة وإخفاء آثار الجريمة. كانت الظروف مثالية من وجهة نظر القاتل.

لكن هذا لم يكن كل شيء. فخلال تلك الفترة بعينها والتي غاب فيها جون بيلينجهام، انشغل السيد جيليكو بتسليم ما كان معروفًا بأنها جثة بشرية إلى المتحف البريطاني، وكانت الجثة ملفوفة في حاويةٍ مُغلقة بإحكام. هل من الممكن ابتكار وسيلةٍ مثالية أو آمنة أكثر من ذلك لنقل الجثة على يد أبرع قاتل؟ كانت الخطة تنطوي على نقطة ضعف واحدة فقط: سيُعرف أن المومياء انتقلت من ميدان كوين بعد اختفاء جون بيلينجهام،

وستثار الشكوك في نهاية المطاف. وسأعود إلى هذه النقطة حالًا؛ وفي الوقت نفسه سنفكر في الفرضية الثانية، ألا وهي أن الرجل المفقود قُتل على يد السيد هيرست.

الآن، بدا أنه لا شكَّ في أن شخصًا ما، يُفترض أنه جون بيلينجهام، زار بالفعل منزل السيد هيرست؛ ولا بدَّ أنه إما غادر المنزل أو مكث فيه. إذا كان قد غادر، فإنه فعل ذلك خفية؛ وإذا كان قد مكث فيه، فليس هناك أي شكوك منطقية بأنه قُتِل وأُخفِيت جثته. لنتفكر في الاحتمالات القائمة لكل حالة.

بافتراض أن الزائر كان فعلًا جون بيلينجهام — ويبدو أن جميعنا افترض ذلك — فإننا نتعامل مع شخصٍ مسئول في منتصف العمر، ولذا يصعب جدًّا قبول فكرة أن هذا الشخص دخل منزلًا وأعلن نيته في المكوث ثم تسلل إلى الخارج خفية. علاوة على ذلك، يبدو أنه سافر إلى إلثام بقطار السكك الحديدية فور رجوعه إلى إنجلترا، تاركًا أمتعته في حجرة المعاطف بمحطة تشيرينج كروس. وهذا يُشير تحديدًا إلى غرَضٍ مُحدد يتنافى مع حدث اختفائه الطارئ من المنزل.

من ناحية أخرى، فكرة أنه ربما يكون قد قُتل على يد هيرست لم تكن مُستبعدة. فالمسألة كانت مُمكنة من الناحية المادية. إن كان بيلينجهام موجودًا في غرفة المكتب حين عاد هيرست إلى المنزل، لكان من الممكن تنفيذ جريمة القتل — بجميع الوسائل المناسبة — ولأُخفيَت الجثة بصفةٍ مؤقتة في الخزانة أو في أي مكان آخر. وعلى الرغم من إمكانية حدوث ذلك، فإنه لم يكن مُرجَّحًا على الإطلاق. لم تكن هناك فرصة حقيقية. فالمُخاطرة والصعوبات اللاحقة ستكون كبيرةً للغاية؛ لم يكن هناك أي دليلٍ إيجابي على وقوع جريمة القتل؛ وسلوك هيرست المُتمثل في مغادرة المنزل بصحبة الخدَم يتنافى مع فرضية وجود جثة لإخفائها. ولهذا السبب، في حين أنه شبه مستحيل تصديق أن جون بيلينجهام غادر المنزل من تلقاء نفسه، فإنه من الصعب أيضًا تصديق أنه لم يُغادر المنزل.

ولكن ثمة احتمالًا ثالثًا قائمًا، ومن الغريب أنه لم يقترحه أحد فيما يبدو. فلنفترض أن الزائر لم يكن جون بيلينجهام بأي حال من الأحوال؛ وإنما كان شخصًا آخر انتحل شخصيته. فهذا من شأنه أن يُزيل الصعوبات تمامًا. فحينئذٍ لا يعود الاختفاء الغريب غريبًا، لأنه من الضروري أن يهرب المُنتحل سريعًا قبل عودة السيد هيرست واكتشاف الخدعة. ولكن إذا قبلنا هذا الافتراض، فإننا نُثير سؤالين آخرين: «من الذي انتحل شخصيته؟» و«ما الهدف من انتحال الشخصية؟»

الآن، من الواضح أن المُنتحل لم يكن هيرست نفسه؛ لأنه من الممكن أن تتعرَّف عليه خادمته؛ إذن فهو إما جودفري بيلينجهام أو السيد جيليكو أو شخص آخر؛ ونظرًا لأنه لم يأتِ ذكر شخص آخر في التقارير الصحفية، فلقد اقتصرت تخميناتي على هذين الاثنين.

أولًا، بالنسبة إلى جودفري بيلينجهام. لم يتَّضح ما إذا كان معروفًا أو غير معروف بالنسبة إلى الخادمة، ولذا افترضت — خطأً كما اتضح بعد ذلك — أنها لا تعرفه. ومِن ثَم، ربما كان هو المُنتحل. ولكن لماذا ينبغي عليه أن ينتحل شخصية أخيه؟ لم يكن بوسعه أن يرتكب جريمة القتل. لم يكن هناك الوقت الكافي. كان سيتعين عليه أن يترك وودفورد قبل أن يتوجَّه جون بيلينجهام إلى تشيرينج كروس. وحتى لو ارتكب الجريمة، فليس لديه هدف من وراء إثارة هذه الضجة. فمن مصلحته أن يلتزم الصمت والتظاهر بعدم معرفة شيء. جميع الاحتمالات تتعارَض مع افتراض أن المُنتحل هو جودفري بيلينجهام.

إذن، هل من الممكن أن يكون السيد جيليكو؟ الإجابة عن هذا السؤال تتضمن الإجابة عن السؤال الآخر: «ما الهدف من انتحال الشخصية؟»

ما الدافع وراء ظهور هذا الشخص المجهول مُدعيًا أنه جون بيلينجهام، ثم اختفائه على الفور؟ لا يمكن أن يكون هناك سوى دافع واحد، ألا وهو تحديد تاريخ اختفاء جون بيلينجهام؛ أي تحديد لحظة مُعينة شُوهد فيها لآخر مرة على قيد الحياة.

لكن مَن الذي مِن المُرجح أن يكون لديه هذا الدافع؟ فلنرَ.

قلت توًّا إنه لو كان السيد جيليكو قد قتل جون بيلينجهام ووضع الجثة في صندوق المومياء، لكان في مكانٍ آمن تمامًا في الوقت الحالي. ولكن ثمة نقطة ضعفٍ في درعه. لم يصدر أي تعليق على اختفاء موكله لشهرٍ أو شهرين. أما الآن، عندما لم يعُد، فقد قامت التحقيقات على قدمٍ وساق؛ وحينئذٍ بدا أنه لم يرَه أحد منذ أن ترك ميدان كوين. ثم تجدُر الإشارة هنا إلى أن آخِر شخص شُوهد معه هو السيد جيليكو. وعلاوة على ذلك، لعلنا نتذكَّر أن المومياء سُلِّمت إلى المتحف في وقتٍ ما بعدما شوهد الرجل المفقود على قيد الحياة لآخِر مرة. ومِن ثَم، قد تُثار الشكوك ويتبعها تحقيقات كارثية. ولكن لنفترض أنه ينبغي إظهار أن جون بيلينجهام شُوهد على قيد الحياة بعد مرور أكثر من شهرٍ على لقائه بالسيد جيليكو وبعد مرور بضعة أسابيع على إيداع المومياء في المتحف؟ بالتالي، لن يكون هناك صلة للسيد جيليكو بعملية الاختفاء بأي حالٍ من الأحوال، ومن الآن فصاعدًا سيكون بمأمنٍ تام.

هكذا، وبعد النظر بعناية في هذا الجزء من التقرير الصحفي، توصَّلتُ إلى استنتاجٍ مفاده أن الحادثة الغامضة في منزل السيد هيرست لها تفسير منطقي واحد، ألا وهو أن الزائر لم يكن جون بيلينجهام؛ وإنما كان شخصًا ينتحل صفته، وأن هذا الشخص هو السيد جيليكو.

يبقى أمامنا التفكير في وضع جودفري بيلينجهام وابنته، رغم أنني لا أستطيع استيعاب كيف يمكن لأي شخصٍ عاقل أن يَشتبه فيهما (هنا ابتسم المُحقق بادجر ابتسامةً مريرة). الأدلة ضدَّهما كانت ضعيفة؛ لأنه لا يُوجَد صلة بينهما وبين الحادثة باستثناء العثور على حلية الجعران في منزلهما، والحادث الذي ربما يُثير شبهاتٍ كثيرة في ظل ملابساتٍ أخرى، لم يكن له أي أهمية أمام حقيقة أن الجعران وُجِد في مكان مرَّ عليه مُشتبه به آخر قبل ذلك ببضع دقائق، ألا وهو هيرست. إلا أن العثور على الجعران دعم استنتاجَين مُهمَّين، ألا وهما أن جون بيلينجهام كان على الأرجح قد تعرض إلى لعبةٍ خبيثة، وأن من بين الأشخاص الأربعة الحاضرين للواقعة، كان هناك شخص واحد على الأقل في حوزته الجثمان. وبخصوص أيٍّ من بين هؤلاء الأربعة هو الجاني، لا تعطي الملابسات سوى تلميح، وهو: إذا كان الجعران قد أُسقط عمدًا، فإن أكثر شخصٍ مرجَّح للعثور عليه هو الشخص الذي أسقطه في المكان. كان الشخص الذي عثر عليه هو السيد جيليكو.

وحين نتبع هذا التلميح، وإذا سألنا أنفسنا ما الدافع الذي قد يكون لدى السيد جيليكو لإسقاط الجعران — بافتراض أنه القاتل — فسنجد الإجابة واضحة؛ لم تكن سياسته إثبات الجريمة على شخص بعينه، وإنما إضفاء التعقيد على الأدلة المُتضاربة التي من شأنها أن تستحوذ على انتباه المُحققين وصرفها بعيدًا عنه.

بالطبع، إن كان هيرست هو القاتل، لكان لديه الدافع الكافي لإسقاط الجعران، ومِن ثَم القضية ضدَّ السيد جيليكو ليست حاسمة؛ وإنما حقيقة أنه هو من عثر عليه، هي حقيقة ذات أهمية بالغة.

هذا يكمل تحليل الأدلة الواردة في التقرير الصحفي الأصلي الذي يسلط الضوء على ملابسات الاختفاء.

كانت الاستنتاجات التي ترتبت عليه كما يلي:

(١) شِبه مؤكد أن الرجل المفقود تُوفِّي، كما ثبتَ من خلال العثور على الجعران بعد اختفائه.

(٢) وأنه قُتل على الأرجح على يد شخصٍ واحد أو أكثر من أربعة أشخاص، كما ثبت من خلال العثور على الجعران في منزلٍ يسكنه شخصان منهم ويستطيع الآخران دخوله.

(٣) ومن بين الأشخاص الأربعة، كان واحد — وهو السيد جيليكو — هو آخِر شخص عُرِف بأنه كان بصحبة الرجل المفقود، وكان لديه فرصة استثنائية لارتكاب الجريمة؛ كما عُرف عنه أنه سلَّم جثة إلى المتحف بعد الاختفاء.

(٤) يفسر افتراض أن السيد جيليكو قد ارتكب جريمة القتل جميع الملابسات الأخرى للاختفاء؛ في حين أنه يتعذَّر تفسيرها تمامًا في ظلِّ أي افتراضٍ آخر.

مِن ثَم، تُشير الأدلة المُستقاة من التقرير الصحفي بكل وضوحٍ إلى احتمالية مقتل جون بيلينجهام على يد السيد جيليكو وإخفاء جُثته في صندوق المومياء.

لا أريد أن أعطيكم الانطباع بأنني استنتجت، فورًا، أن السيد جيليكو هو القاتل. لم أفعل. لم يكن هناك سبب لأفترض أن التقرير يحتوي على جميع الحقائق الأساسية، وإنما اعتبرته على نحوٍ تخميني مجرد بحث للاحتمالات. ولكني قررتُ أن هذا هو الاستنتاج الوحيد المُحتمل من الحقائق التي أُعطيت.

لقد مرَّ حوالي عامين قبل أن أسمع أي شيءٍ آخر عن القضية. ثم لفت نظري إليها صديقي، دكتور بيركلي وعرفتُ حقائق جديدة، فكرتُ فيها بالترتيب نفسه الذي عرفتموه الآن.

ألقت الوصية ضوءًا جديدًا على القضية. وبمجرد أن قرأتُ الوثيقة، أيقنتُ أن ثمة خطأً ما. كانت النية الواضحة للمُوصي هي أنه ينبغي أن يرِث أخوه المُمتلكات، إلا أن صياغة الوصية كانت أقرب إلى إحباط تلك النية. والتصرُّف في الممتلكات متوقِّف على بند الدفن؛ البند الثاني؛ ولكن عادةً سيُقرر مُنفذ الوصية ترتيبات الدفن، والذي تصادف أن يكون السيد جيليكو. وبالتالي، وضعت الوصية مسألة التصرُّف في الممتلكات تحت إشراف السيد جيليكو، على الرغم من إمكانية الطعن في تصرُّفه.

كُتبت هذه الوصية، رغم أن جون بيلينجهام قد صاغها، في مكتب السيد جيليكو وهذا مُثبت بحقيقة أنه شهد عليها اثنان من موظفيه. كان السيد جيليكو مُحامي المُوصي، وكانت مهمته هي الإصرار على صياغة الوصية على نحوٍ صحيح. ومن الواضح أنه لم يفعل شيئًا من هذا القبيل، وهذه الحقيقة أوحت بشدة إلى وجود نوعٍ من التواطؤ من جانبه مع هيرست، الذي أعدَّ نفسه للاستفادة من إخفاق تنفيذ الوصية. وهذه هي السمة

الغريبة في القضية، لأنه بينما يُمثل السيد جيليكو الطرف المسئول عن البنود المعيبة، فإن الطرف المُستفيد هو هيرست.

إلا أنَّ أغرب سِمة للوصية تمثلت في طريقة توافُقها مع ظروف الاختفاء. بدت كأن البند الثاني قد صاغته تلك الملابسات محلَّ النظر. ونظرًا لأن عمر الوصية عشر سنوات، كان هذا مُستحيلًا. ولكن إن لم يكن البند الثاني قد استُحدث ليتناسب مع ملابسات الاختفاء، أكان من المُمكن عدم تدبير ملابسات الاختفاء لتتناسب مع البند الثاني؟ لم يكن هذا مُستحيلًا بأي حال من الأحوال، في ظل الملابسات التي بدت مُرجَّحة جدًّا. وإذا كان هذا البند مُستحدثًا بهذه البراعة، فمَن الفاعل الذي أضاف ذلك البند؟ كان هيرست هو المُستفيد، ولكن لا يُوجَد دليل على أنه كان يعرف محتويات الوصية. بقي فقط السيد جيليكو، الذي تغاضى بالتأكيد عن سوء صياغة الوصية لغرَض في نفسه — غرض غير شريف.

إذن، تُشير أدلة الوصية إلى أن السيد جيليكو هو المُتسبِّب في الاختفاء، وبعد قراءتها، بالتأكيد اشتبهتُ أنه هو مُرتكب الجريمة.

إلا أن الاشتباه شيء والإثبات شيء آخر؛ لم يكن لديَّ أدلة كافية تقريبًا لتبرير تقديمي المعلومات، ولم يكن في استطاعتي التوجُّه إلى مسئولي المتحف دون توجيه اتهامٍ مُحدد. تمثلت المُعضلة الكبرى الخاصة بالقضية في عدم قدرتي على اكتشاف الدافع. لم يكن في استطاعتي معرفة وجه الاستفادة التي قد يُحقِّقها السيد جيليكو من الاختفاء. فنصيبه من الإرث كان محفوظًا، حينما يموت المُوصي وبأي طريقةٍ كانت. من الواضح أن جريمة القتل والتستر أفادت هيرست وحدَه، وفي ظل غياب دافع مقبول، يجب أن تكون الحقائق أكثر حسمًا ممَّا كانت عليه.»

سأله السيد جيليكو: «ألم تكوِّن أي رأيٍ على الإطلاق فيما يتعلق بالدافع؟»

لقد طرح السؤال بنبرةٍ هادئة خالية من المشاعر، كما لو أنه يناقش قضية رأي عام لا تستدعي لديه أي شيء سوى الاهتمام المهني. كان من أكثر السمات المُثيرة للدهشة في هذا اللقاء المذهل هو الاهتمام الرصين والمُحايد الذي أبداه السيد جيليكو بتحليل ثورندايك، وانتباهه الثابت، الذي تخللته إيماءات صغيرة بالموافقة على كلِّ نقطةٍ قوية من الحجة.

ردَّ ثورندايك قائلًا: «لقد كوَّنت رأيًا، ولكنه مجرد تخميني، ولم أتمكن قطُّ من التأكد منه. اكتشفتُ أنه قبل عشر سنوات مضت واجه السيد هيرست صعوبات وفجأة حصل على مبلغٍ مالي كبير، ولا أحد يعرف كيف حدث ذلك أو بناءً على أي سنداتٍ مالية. ولاحظتُ

أن هذا تزامَن مع تنفيذ الوصية، خمنتُ أنه ربما يكون هناك علاقة ما بين الأمرين. لكن كان هذا مجرد تخمين؛ وكما يقول المثل: «الاكتشاف منوط بإثبات مُكتشفه.» لم أستطع إثبات شيء، ولذا لم أكتشف دافع السيد جيليكو قط، وحتى الآن لا أعرفه.»

قال السيد جيليكو بلهجةٍ مفعمة بالحيوية بعض الشيء: «ألم تعرِف حقًّا؟» وضع عقب سيجارته، وانتقى أُخرى من العلبة الفضية، واستطرد قائلًا: «أظنُّ أن هذه أكثر سِمة مُثيرة للاهتمام في تحليلك الرائع فعلًا. هذا يمنحك عظيم الفضل. وغياب الدافع سيبدو بالنسبة إلى معظم الأشخاص طعنًا مُميتًا لنظرية الدعوى، كما يُمكنني أن أسمِّيها. اسمح لي أن أُهنئك على المثابرة والإصرار اللذين تابعتَ بهما الحقائق الفعلية والمرئية.»

انحنى بصلابةٍ إلى ثورندايك (والذي ردَّ عليه بانحناءة يابسة مُماثلة)، وأشعل سيجارة جديدة، وانحنى إلى الوراء مرةً أخرى على كرسيه بأسلوبٍ رصين مُنتبه يليق برجل يستمع إلى محاضرة أو عرض موسيقي.

استأنف ثورندايك حديثه قائلًا: «إذن، الأدلة غير كافية للتصرُّف على أساسها. لم يكن هناك شيء سوى الانتظار لظهور بعض الحقائق الجديدة. والآن، قد أبرزتْ دراسة لمجموعة كبيرة من جرائم القتل التي نُفِّذت بعناية، أن القاتل الحذر، في خضم حِرصه الشديد على تأمين نفسه، يُبالغ في تصرفاته، وهذه المبالغة في الحذَر تؤدي إلى اكتشاف الجريمة. هذا يحدُث باستمرار، بالطبع، لعلِّي أقول إن هذا يحدُث دومًا — في تلك الجرائم التي يتم اكتشافها؛ لأن الجرائم التي لا تُكتشف لا نستطيع أن نقول عنها شيئًا — ولديَّ آمال قوية بأن هذا سيحدث في هذه القضية. وهذا ما حدث فعلًا.

في تلك اللحظة حين بدت قضية مُوكلي قضية شِبه ميئوس منها، اكتُشف رفات بشري في سيدكوب. قرأت بيان الاكتشاف في جريدة المساء، ورغم أن التقرير كان غير كافٍ، فإنه قدَّم الحقائق الكافية لإقناعي بأن الخطأ الحتمي قد ارتُكب.»

قال جيليكو: «هل قدَّمها بالفعل؟ مجرد تقرير غير مُحنك لنشر الشائعات! لا بدَّ أن أفترض أنها عديمة القيمة تمامًا من وجهة النظر العلمية.»

قال ثورندايك: «كانت كذلك. ولكنه قدَّم تاريخ الاكتشاف وموقعه، كما ذكر أيضًا ماهية العظام التي عُثر عليها. كانت جميعها حقائق مُهمة. لنتناول مسألة الوقت. هذا الرفات الذي ظلَّ مَخفيًّا لمدة عامين، ظهر إلى النور فجأة في حين بدأت الأطراف — التي ظلَّت في الخفاء أيضًا — اتخاذ الإجراءات فيما يخصُّ الوصية. في الواقع، في غضون أسبوع أو أسبوعين من جلسة الاستماع الخاصة بالالتماس. كانت بالتأكيد صُدفة رائعة. وعندما

وضعتُ الظروف التي تسببتْ في الاكتشاف في الاعتبار، أصبحت الصدفة أكثر روعة. ونظرًا لأنه عُثر على هذا الرفات في أرض يمتلكها جون بيلينجهام، واكتشافه كان نتيجةً لعملياتٍ مُعينة (تنظيف أحواض البقلة المائية) أُجرِيت بالنيابة عن مالك الأرض المفقود. ولكن من الذي أعطى الأوامر للقيام بهذه الأعمال؟ من الواضح أن الأوامر جاءت من وكيل مالك الأرض. ولكن من المعروف أن وكيل المالك هو السيد جيليكو. وبالتالي، اكتُشف هذا الرفات في اللحظة المناسبة تمامًا بتصرُّف من السيد جيليكو. أقول مرة أخرى إن الصدفة كانت رائعة جدًّا.

ولكن ما جذب انتباهي فور قراءة التقرير الصحفي كانت الطريقة الاستثنائية التي فُصلت بها الذراع؛ فبالإضافة إلى كون عظام الذراع سليمة، كان هناك ما يُطلِق عليه خبراء التشريح الحزام الكتفي — لوح الكتف وعظمة الترقوة. كان هذا رائعًا للغاية. بدا أن هذا يُوحي بمعرفةٍ بعلم التشريح، وما من قاتل سيستعرض هذه المعرفة، حتى إن كان يملكها، في مثل هذه المناسبة. بدا بالنسبة إليَّ أنه يجب أن يكون هناك تفسير آخر. ومِن ثَم، عندما اكتُشف رفات آخر وجرى تجميعه في وودفورد، طلبتُ من صديقي بيركلي أن يذهب إلى هناك ويفحصه. وفعل ذلك، وكانت النتيجة التي توصَّل إليها على النحو التالي:

لقد فُصلت كِلتا الذراعين بالطريقة الغريبة نفسها؛ وكلتاهما كانتا كاملتين، وجميع العظام كانت من الجسد نفسه. كانت العظام نظيفة تمامًا — أقصد نظيفة من الأنسجة اللينة. لم يكن هناك أي جروح أو خدوش أو علامات عليها. لم يكن هناك أثر لمادة الموم — مادة شمعية غريبة تتكون على الجثث المتحللة في المياه أو في الأماكن الرطبة. خُلعت اليد اليمنى في الوقت الذي ألقيت فيه الذراع في البركة، وبُترت إصبع الخاتم من اليد اليسرى واختفت. هذه الحقيقة الأخيرة جذبت انتباهي من البداية، ولكن لن أتطرَّق لها في الوقت الحالي وسأعود إليها لاحقًا.»

سأله السيد جيليكو: «كيف اكتشفتَ أن اليد خُلعت؟»

ردَّ ثورندايك قائلًا: «من خلال علامات الانغمار. كانت ترقد في قاع البركة في وضعيةٍ من شأنها أن تكون مُستحيلة لو كانت متصلة بالذراع.»

قال السيد جيليكو: «أنت تُثير اهتمامي كثيرًا. يبدو أن خبير الطب الشرعي يجد الكتب في جداول المياه الجارية، والعظة في العظام، والأدلة في كل شيء. ولكن لا تدعني أقاطعك.»

استأنف ثورندايك حديثه قائلًا: «ملاحظات دكتور بيركلي بالإضافة إلى الأدلة الطبية من التحقيق، قادتني إلى استنتاجات مُعينة.

اسمحوا لي أن أذكر الحقائق التي اكتُشِفت.

الرفات الذي جرى تجميعه يشكل هيكلًا عظميًّا كاملًا لجسم إنسان باستثناء الجمجمة وأحد الأصابع والساقين من الركبة إلى الكاحل، وفي ذلك رضفتا الركبة. كانت هذه حقيقة رائعة للغاية؛ نظرًا لأن العظام المفقودة تشتمل على كل ما يمكن أن يُحدِّد ما إذا كانت هذه جثة جون بيلينجهام أم لا، والعظام الموجودة كانت بقايا مجهولة الهوية.

كان هذا نوعًا مشبوهًا من الانتقاء.

إلا أن الأجزاء التي كانت موجودةً كانت ذات دلالاتٍ غريبة أيضًا. ففي جميع الحالات، كان نمَط البتر غريبًا؛ حيث إن أي شخصٍ عادي من شأنه أن يفصل مِفصل الركبة تاركًا رضفة الركبة متصلة بالفخذ؛ لكنها في هذه الحالة تُركت بكل وضوح مُتصلة بعظم الساق، والرأس من شأنه أن يُفصل على الأرجح من خلال البتر عبر الرقبة بدلًا من فصله بدقة من عند العمود الفقري. وكل هذه العظام خالية على نحوٍ شبه تام من العلامات أو الخدوش التي قد تحدُث عادةً أثناء عملية البتر المعتادة. والآن أتحدث عن الاستنتاجات التي توصلتُ إليها من هذه الحقائق. أولًا، ثمة تجميعة غريبة للعظام. ما الذي كان يعنيه ذلك؟ حسنًا، من الواضح أن الفكرة القائلة بأن الجاني هو عالم تشريح دقيق كانت فكرة عبثية، ولذا نحَّيتُها جانبًا. ولكن هل كان هناك أي تفسير آخر؟ أجل، يوجد تفسير. لقد ظهرت العظام في مجموعاتها الطبيعية مُتصلة معًا بالأربطة؛ وكانت قد فُصلت من عند نقاط ارتباطها بالعضلات بالأساس. فعلى سبيل المثال، رضفة الركبة التي تنتمي إلى الفخذ، متصلة بها من خلال عضلة، ولكنها متصلة بعظام الساق من خلال رباطٍ متين. وكذلك الأمر ينطبق على عظام الذراع؛ فهي مرتبط بعضها ببعض من خلال الأربطة؛ ولكنها مرتبطة بالجذع من خلال العضلات، باستثناء طرف عظمة الترقوة.

بيد أن هذه كانت حقيقة مهمة للغاية. فالأربطة تتحلل على نحوٍ أبطأ كثيرًا مقارنة بالعضلات، ومِن ثَم فالجسد الذي تحللت عضلاته بصفةٍ عامة، ربما تظلُّ العظام متصلًا بعضها ببعض من خلال الأربطة. وبالتالي، فإن التجميعة الغريبة توحي بأن الجثة قد حُوِّلت جزئيًّا إلى هيكلٍ عظمي قبل بتر أعضائها؛ ومِن ثَم فإنها فُكِّكت، كل جزءٍ على حدة بدلًا من تقسيمها بسكين.

وهذا الاقتراح أُكِّد على نحوٍ لافت للنظر من خلال الغياب التام للجروح أو الخدوش التي تسببها السكين.

ثم هناك حقيقة أن جميع العظام خالية تمامًا من مادة الموم. فإذا كان ينبغي دفن الذراع أو الفخذ في الماء وتركها لتتحلل هناك، فمن المؤكد أن تتكوَّن كتل كبيرة من مادة

الموم. وعلى الأرجح لكان أكثر من نصف كمية اللحم قد تحوَّل إلى هذه المادة. وبالتالي، أثبت غياب مادة الموم أن الجزء الأكبر من اللحم قد اختفى أو أُزيل من العظام قبل دفنها في البركة. في الواقع، لم تكن جثةً مدفونةً وإنما كان هيكلًا عظميًّا.

ولكن ما نوع الهيكل العظمي؟ إذا كان الهيكل حديث العهد لرجلٍ مقتول من فترة قريبة؛ لتجرَّدت العظام من اللحم بعنايةٍ بحيث تظل الأربطة سليمة. ولكن هذا الأمر بعيد الاحتمال للغاية؛ لأنه لن يكون هناك طائل من وراء الحفاظ على الأربطة. وغياب الخدوش يُعارض هذا الرأي.

إذن، لا تبدو أنها عظام مقبرة. كانت المجموعة مُكتملة جدًّا. فمن النادر جدًّا العثور على هيكلٍ عظمي مقبور لم يُفقد الكثير من عظامه الصغيرة. فمثل هذه العظام عادةً ما تكون عرضةً للتجوية وقابلة للتفتُّت.

ولا تبدو أنها مثل العظام التي قد تأتي من عند تجَّار العظام؛ لأن هذه العظام عادة ما تحتوي على ثقوبٍ تسمح بخروج السائل الفائض إلى تجاويف النخاع. كما أنه من النادر جدًّا أن تأتي العظام كلها من الجثة نفسها لدى هؤلاء التجار؛ والعظام الصغيرة لليد محفور بها ثقوبٌ للتمكين من ربطها بالوتر.

لم تكن العظام تنتمي إلى غرفة التشريح أيضًا، حيث إنه لا يُوجَد أي أثر لأكسيد الرصاص في فتحات الشرايين المُغذية.

ما كان يوحي به المظهر الخارجي هو أن هذه أجزاء جثة تحللت في جوٍّ جاف للغاية (لا تتكوَّن فيه مادة الموم)، نُزِعت أو مُزِّقت، كما أن الأربطة المتصلة بالجثة — أو بالأحرى الهيكل العظمي — كانت ضعيفة وقابلة للتمزُّق بسهولةٍ كما تُشير اليد المفصولة، التي انقطعت بالخطأ على الأرجح. لكن النوع الوحيد الذي ينطبق عليه هذا الوصف تمامًا هي جثة مومياء مصرية. صحيح أن المومياء محفوظة بشكلٍ أو بآخر؛ ولكن عند تعرُّضها لهواء مناخ مثل مناخنا، فإنها تفسد سريعًا. كانت الأربطة هي آخر الأجزاء اللينة التي تحللت.

الفرضية بأن هذه العظام كانت جزءًا من المومياء تُشير بطبيعة الحال إلى السيد جيليكو. فإذا كان قد قتل جون بيلينجهام وأخفى جسده في صندوق المومياء، فسيكون بين يديه مومياء احتياطية، وهذه المومياء ستتعرَّض للهواء وتُعامَل معاملة قاسية إلى حدٍّ ما.

وثمة ظرف مُثير للغاية مُرتبط بهذه البقايا مُتمثل في اختفاء إصبع الخاتم. يتم بتر الأصابع من أيدي المتوفين في حوادث مختلفة من أجل سرقة الخواتم الموجودة حولها.

ولكن في مثل هذه الحالات يكون الغرَض هو الحفاظ على عدم المساس بخاتم قيِّم. فإذا كانت هاتان اليدان هما يدي جون بيلينجهام، فهذا الغرض لا ينطبق على هذه الحالة. وإنما الغرض هنا هو منع التعرُّف على هوية الجثة، ومن شأن تحقيق هذا الغرض بسهولةٍ أكبر وبشمولية أكثر من خلال التضحية بالخاتم، من خلال برْدِه أو بتر الإصبع بأكملها. وبالتالي، المظهر الخارجي لا يتفق مع الغرَض الظاهري.

إذن، هل يمكن أن يكون هناك أي غرَض آخر يتفق مع الحادث على نحوٍ أفضل؟ أجل، يمكن هذا.

إذا صادف أن جون بيلينجهام اشتُهر بارتداء خاتم في تلك الإصبع، وخاصة إذا كان هذا الخاتم مُثبتًا بإحكامٍ في هذه الإصبع، فإن بتر الإصبع سيفي بغرَض مفيد جدًّا. سيترك انطباعًا بأن الإصبع قد بُترت بسبب خاتم؛ لمنع التعرُّف على هوية الجثة؛ وهو انطباع من شأنه أن يُثير الشك بأنها يد جون بيلينجهام. ورغم ذلك، قد لا يُمثل هذا دليلًا يمكن استخدامه في التأكد من الهوية. الآن، لو كان السيد جيليكو هو القاتل وأخفى الجثة في مكانٍ آخر، فإثارة شكوك غامضة هو بالضبط ما يرغب فيه، ودليل الإثبات هو ما يتمنَّى تجنُّبه.

وقد اتضح فيما بعد أن جون بيلينجهام كان يرتدي بالفعل خاتمًا في تلك الإصبع وهذا الخاتم مُثبت في إصبعه بإحكامٍ شديد. ولذلك يتَّضح أن غياب الإصبع كان بمثابة نقطة إضافية تُشير إلى تورُّط السيد جيليكو.

والآن، دعونا نراجع بإيجازٍ هذا العدد الكبير من الأدلة. سترون أنها تشتمل على العديد من البنود، إما التافهة أو تلك التي تدعو إلى التفكير. فحتى وقت الاكتشاف الفعلي لم يكن لديَّ حقيقة مهمة واحدة، ولا أي دليل بخصوص الدافع. ولكن، رغم ضآلة الأدلة الفردية، فإنها تُشير بإجماعٍ مُثير للإعجاب إلى شخصٍ واحد، ألا وهو السيد جيليكو. وبالتالي:

الشخص الذي لديه فرصة ارتكاب جريمة القتل والتخلُّص من الجثة هو السيد جيليكو.

بالتأكيد شُوهد المتوفَّى آخر مرة على قيد الحياة مع السيد جيليكو.

سلم السيد جيليكو جثة مجهولة الهوية إلى المتحف.

والشخص الوحيد المعروف الذي يمكن أن يكون لديه دافع لانتحال شخصية المتوفَّى هو السيد جيليكو.

والشخص الوحيد المعروف الذي قد يفعلها هو السيد جيليكو.

وأحد الشخصين اللذين من المُمكن أن يكون لديهما دافع لإسقاط حِلية الجعران هو السيد جيليكو. والشخص الذي عثر على ذلك الجعران هو السيد جيليكو، رغم أنه أكثر شخصٍ من بين الحاضرين غير مُرجَّح للعثور عليه بسبب ضعف بصره ونظاراته الطبية.

والشخص المسئول عن تنفيذ الوصية المعيبة هو السيد جيلكيو.

أما بالنسبة إلى الرفات، فمن الواضح أنه لم يكن يخصُّ جون بيلينجهام، وإنما هو أجزاء جثة ذات نوعيةٍ خاصة. ولكن الشخص الوحيد الذي عُرف عنه اقتناء مثل هذه الجثة في حوزته هو السيد جيليكو.

والشخص الوحيد الذي قد يكون لديه الدافع لإحلال ذلك الرفات محلَّ رفات المُتوفَّى هو السيد جيليكو.

وأخيرًا، الشخص الذي تسبب في اكتشاف ذلك الرفات في هذه اللحظة بعينها هو السيد جيليكو.

كان هذا مُلخص الأدلة التي كانت بحوزتي حتى وقت جلسة الاستماع، وبالطبع حتى بعدها بفترةٍ من الوقت، ولم تكن هذه الأدلة كافية للتصرُّف على أساسها. ولكن حين نظرت المحكمة القضية، كان من الواضح أنه إما أن الدعوى ستُرفض — وهو أمر كان مُستبعدًا — أو ستكون هناك تطوُّرات جديدة.

راقبتُ تطوُّرَ الأحداث باهتمام بالغ. كان هناك محاولة (من جانب السيد جيليكو أو شخص آخر) لتنفيذ الوصية بدون دفن جثة السيد جون بيلينجهام، ولكن تلك المحاولة باءت بالفشل. إذ رفضت هيئة المُحلفين التابعة للطب الشرعي تحديد هوية الرفات؛ ورفضت المحكمة الحسبية افتراض وفاة الموصي. وبواقع الأمور، لا يمكن تنفيذ الوصية.

إذن، ماذا ستكون الخطوة التالية؟

كان من شبه المؤكد أنها ستنطوي على اكتشاف شيءٍ من شأنه أن يُحدد هوية الرفات المجهول باعتباره رفات الموصي.

ولكن ماذا سيكون ذلك الشيء؟

والإجابة عن هذا السؤال ستنطوي على إجابة سؤال آخر: هل كان حلِّي للغز هو الحل الصحيح؟

إذا كنتُ مخطئًا، كان من الممكن أن يُكتَشف بعض العظام الحقيقية لجون بيلينجهام لا شكَّ توًّا؛ على سبيل المثال، الجمجمة أو رضفة الركبة أو الشظية اليُسرى، فرفات أي منها يمكن تحديده قطعًا.

وإذا كنتُ مُحقًّا، فشيء واحدٌ من الممكن أن يحدُث. سيلعب السيد جيليكو بالورقة الرابحة التي كان يُخفيها في حالة رفض المحكمة للالتماس؛ وهي ورقةٌ من الواضح أنه كان مُترددًا في لعبها.

كان من شأنه أن يدفن عظام إصبع المومياء مع خاتم جون بيلينجهام. ليس هناك سبيل آخر.

ليس فقط العثور على العظام والخاتم معًا؛ بل يجب العثور عليهما في مكانٍ يستطيع السيد جيليكو الوصول إليه، وتحت سيطرته بحيث يمكنه تحديد التوقيت المناسب الذي ينبغي أن يحدُث فيه الاكتشاف.

انتظرتُ بأناةٍ الإجابة عن سؤالي. هل كنتُ محقًّا أم مُخطئًا؟

وجاءت الإجابة في الوقت المناسب.

اكتُشفت العظام والخاتم في بئر بأراضٍ تابعة لمنزل سابق لجودفري بيلينجهام. كان هذا المنزل ملكًا لجون بيلينجهام. كان السيد جيليكو وكيلًا لجون بيلينجهام. ومِن ثَم، كان من المؤكد عمليًّا أن التاريخ الذي أُفرِغت البئر فيه حدَّده السيد جيليكو.

واتضح الأمر.

أثبت الاكتشاف على نحوٍ قاطع أن العظام لا تخصُّ جون بيلينجهام (لأنها لو كانت كذلك، لصار الخاتم غير ضروري لتحديد الهوية). ولكن إذا كانت العظام لا تخصُّ جون بيلينجهام، فإن الخاتم يخصُّه؛ ومن هذا يأتي الاستنتاج المُهم بأن أيًّا كان الشخص الذي وضع هذه العظام في البئر فهو نفسه الذي بحوزته جثة جون بيلينجهام. ولا يمكن أن يكون هناك شكٌّ في أن ذلك الشخص هو السيد جيليكو.

بعد الحصول على هذا الإثبات الأخير لاستنتاجاتي، أتقدَّم على الفور إلى دكتور نوربيري للحصول على إذن لفحص مومياء سبك حتب، بالنتيجة التي تعرفونها بالفعل.»

وما إن اختتم ثورندايك حديثه، حتى نظر إليه السيد جيليكو مُتأمِّلًا إيَّاه لدقيقة ثم قال: «لقد قدمتَ لنا، يا سيدي، عرضًا مكتملًا وواضحًا لمنهجك في التحقيق. لقد استمتعتُ به كثيرًا، وينبغي أن أستفيد منه فيما بعد، في ظل ظروفٍ أخرى. هل أنت مُتأكد من عدم السماح لي بملء كأسك؟» أمسك بقنينة زجاجة الخمر، فنظر المُحقق بادجر في ساعته في انشغال.

قال السيد جيليكو: «أخشى أن يكون الوقت قد حان.»

قال بادجر بنبرة قاطعة: «أجل، إنه كذلك.»

قال المحامي: «حسنًا، لا حاجة لي باحتجازكم لفترةٍ أطول. إفادتي هي سردٌ للأحداث. ولكن أودُّ أن أُدلي بها، وأنتم، بلا شك، مُهتمُّون بالاستماع إليها.»

فتح العلبة الفضية وانتقى منها سيجارة جديدة ولكنه لم يُشعلها. أخرج المُحقق بادجر دفترًا مهيبًا ووضعه مفتوحًا على ركبته؛ وجلس البقية منَّا على مقاعدهم في فضولٍ كبير للاستماع إلى إفادة السيد جيليكو.

الفصل العشرون

نهاية القضية

خيم صمتٌ مُطبق على الغرفة وشاغليها. جلس السيد جيليكو وعيناه مُثبتتان على الطاولة كما لو أنه مُستغرق في تفكيرٍ عميق، وفي يده السيجارة غير المشتعلة، واليد الأخرى تُمسك بكأس الماء. سعل المُحقق بادجر بفارغ الصبر وتطلَّع إليه. قال: «أستميحك عذرًا يا سيدي، لأني أجعلك تنتظر.»

أخذ رشفةً من الكأس، وفتح علبة ثقابٍ وأخرج منها عودًا، ولكنه فيما يبدو أنه غيَّر رأيه، ووضعه ثم استهلَّ حديثه قائلًا:

«المسألة المؤسفة التي أتت بكم إلى هنا الليلة، ترجع أصولها لما قبل عشر سنوات مضت. في ذلك الوقت، صار صديقي هيرست فجأةً مُتورطًا في مشكلاتٍ مادية ... هل أتحدَّث بسرعة كبيرة بالنسبة إليك، سيد بادجر؟»

أجاب بادجر قائلًا: «كلَّا، على الإطلاق. أنا أدوِّن ملاحظاتٍ مختصرة.»

قال السيد جيليكو: «شكرًا لك. صار مُتورطًا في مشكلات خطيرة وقصدني لمساعدته. أراد أن يقترض خمسة آلاف جنيه لكي يتمكن من الوفاء بالتزاماته. كان لديَّ مبلغ من المال تحت تصرُّفي، ولكنني لم أعتبر ضمان هيرست مقبولًا؛ ومِن ثَم شعرتُ أنني مُجبر على الرفض. ولكن في اليوم التالي مباشرة، استدعاني جون بيلينجهام لمعاينة مُسوَّدة وصيته التي كان يرغب في أن ألقي نظرةً عليها قبل تنفيذها.

كانت وصيةً سخيفة، ولقد أخبرته بذلك تقريبًا؛ ولكن حينئذٍ خطر ببالي فكرة مُتعلقة بهيرست. كان واضحًا بالنسبة إليَّ، بمجرد أن ألقيتُ نظرة متمعِّنة على الوصية؛ أنه إذا تُرك بند الدفن كما كتبه المُوصي، فسيحظى هيرست بفرصةٍ جيدة جدًّا ليرث المُمتلكات، وباعتباري منفذًا للوصية يجب أن أكون قادرًا على تنفيذ هذا البند بالكامل. ومِن ثَم، طلبتُ بضعة أيام لدراسة الوصية، ثم قمتُ بزيارة هيرست وقدمت له عرضًا؛ وكان كما

يلي: يتعين عليَّ توفير خمسة آلاف جنيه له بدون ضمانات، ويجب عليَّ عدم المطالبة بالسداد، ولكنه يتعين عليه أن يتنازل لي عن أي فوائد قد يحصل عليها أو يكتسبها من مُمتلكات جون بيلينجهام بحدٍّ أقصى عشرة آلاف جنيه، أو ثُلثي أي مبلغٍ قد يرثه فوق هذا المبلغ. سألني ما إذا كان جون قد كتب أي وصية، وأجبتُه، إجابة صحيحة تمامًا، بأنه لم يفعل. وسألني ما إذا كنتُ أعرف شيئًا عن ترتيبات الوصية التي ينوي جون القيام بها، وأجبتُه ثانية، إجابة صحيحة تمامًا، بأنني أعتقد أن جون ينوي أن يُورِّث أخاه جودفري جزءًا كبيرًا من ممتلكاته.

وبناءً على ذلك، قبل هيرست عرضي، وقدمتُ له المبلغ ونفَّذ هو مهمة التنازل عن الممتلكات. وبعد تأخير لبضعة أيام، وافقتُ على الوصية باعتبارها مقبولة. كتب المُوصي بنفسه الوثيقة الفعلية من المسوَّدة؛ وبعد أن نفذ هيرست التنازل عن الممتلكات بأسبوعين، وقَّع جون على الوصية في مكتبي. وبموجب بنود تلك الوصية، سنحتْ لي فرصة ممتازة لكي أصير المُستفيد الرئيسي فعليًّا، ما لم يعترِض جودفري على طلب هيرست وما لم تُلغِ المحكمة شروط البند الثاني.

ها أنتم فهمتم الدوافع التي تحكَّمت في تصرُّفاتي اللاحقة. وسترى أيضًا، دكتور ثورندايك، كيف اقتربتَ كثيرًا من الحقيقة التي قادك إليها استنتاجك؛ وستفهم، كما آمُل، أن السيد هيرست لم يكن طرفًا في أيٍّ من هذه الإجراءات التي أنا بصدَد وصفها الآن.

بالرجوع إلى المقابلة التي جرت في ميدان كوين في شهر أكتوبر، عام ألف وتسعمائة واثنين، أنتم تعرفون الظروف العامة من شهادتي في المحكمة، والتي كانت صحيحة بالحرف الواحد حتى نقطة معينة. جرت المقابلة في غرفة بالطابق الثالث، الذي كانت تُخزن فيه الصناديق التي أحضرها جون معه من مصر. لم تكن المومياء قد فُرِّغت، وكذلك بعض الأغراض الأخرى التي لم يكن جون ليقدمها إلى المتحف، إلا أن عدة صناديق لم تُفتح بعد. وفي نهاية المقابلة، اصطحبتُ دكتور نوربيري حتى الباب الخارجي، وقفنا على عتبة الباب لنتبادل أطراف الحديث لمدة ربع ساعة تقريبًا. ثم مضى دكتور نوربيري في طريقه وعدتُ أنا إلى الطابق العلوي.

الآن، كان المنزل في ميدان كوين عبارة عن متحف تقريبًا. الجزء العلوي منفصل عن الجزء السُّفلي ببابٍ ضخم يُفتح من الردهة ويفضي إلى الدرَج ويُقفل بمزلاجٍ متين. ويُوجَد مفتاحان للمزلاج، اعتاد جون أن يحتفظ بواحدٍ وأنا أحتفظ بالآخر. وستجدون كليهما في الخزنة الموجودة ورائي. حارس المنزل ليس معه مفتاح ولا يُسمح له بدخول الجزء العلوي من المنزل إلا إذا سمح له أيٌّ منَّا بذلك.

في الوقت الذي دخلت فيه، بعد أن غادر دكتور نوربيري، كان الحارس موجودًا في القبو، حيث يمكنني أن أسمعه وهو يكسر الفحم لفرن الماء الساخن. كنتُ قد تركت جون في الطابق الثالث يفتح بعض الصناديق المُغلقة على ضوء المصباح بأداةٍ تُشبه مطرقة الجص؛ وهي مطرقة ذات نصل فأسٍ صغير عند الطرف المعاكس لها. وبينما كنت أتحدَّث مع دكتور نوربيري، استطعتُ أن أسمعه وهو يدقُّ المسامير وينزع الأغطية، وحين دخلتُ من الباب المؤدي إلى الدرَج، كان لا يزال بإمكاني سماعه. وحين أغلقتُ الباب خلفي، سمعتُ صوت ضجيجٍ مدوٍّ قادم من أعلى، ثم هدأ كل شيء.

صعدتُ إلى الطابق الثاني، ونظرًا لأن الدرَج كله كان مظلمًا، توقفتُ لإشعال مصباح الغاز. وبينما كنتُ أستدير لأصعد مجموعة الدرجات التالية، رأيتُ يدًا تبرُز عند حافة منبسط الدرج الأوسط. ركضتُ إلى أعلى الدرَج، وهناك عند المنبسط، رأيتُ جون مُتكومًا عند بداية الدرجات العلوية. كانت الدماء تسيل من جرحٍ في جانب جبهته. وعلى الأرض بالقُرب منه أُلقيَتْ مطرقة حديدية، وكان هناك دم على نصل المطرقة. وعندما نظرتُ لأعلى السلَّم، رأيتُ حصيرةً مُمزقة على الدرجة العُليا.

كان من السهل جدًّا تخيُّل ما حدث. كان يسير بسرعةٍ على منبسط الدرَج وفي يده المطرقة الحديدية. تعثَّرت قدمه في الحصيرة المُمزَّقة وانقلب رأسًا على عقب لأسفل الدرج وهو لا يزال مُمسكًا بالمطرقة الحديدية. لقد سقط بحيث ارتطم رأسه بحافة نصل المطرقة المُتجهة لأعلى؛ ثم تدحرج وسقطت المطرقة من يده.

أشعلتُ عود ثقاب وانحنيتُ لأتفحصه. كان رأسه في وضع غريب جدًّا، مما جعلني أشكُّ أن عنقه كُسرت. وسال من الجرح نزيف ضئيل جدًّا؛ ورقد بلا حراك تمامًا؛ لم أستطع تحرِّي أي علامةٍ للتنفُّس؛ وشعرتُ أنه مات بلا شك.

كانت مسألة مؤسفة للغاية، ووضعتني — كما فهمتُ في الحال — في موقفٍ حرج للغاية. كان دافعي الأول للتصرُّف هو إرسال الحارس ليأتي بطبيبٍ وشرطي؛ ولكن التفكير المتأنِّي لدقيقةٍ أقنعني بأن ثمة اعتراضات خطيرة أمام هذا التصرُّف.

لم يكن هناك ما يُثبت أنني لم أضربه، بنفسي، بالمطرقة. وبالطبع، لم يكن هناك ما يثبت أنني فعلتُ ذلك؛ بيد أننا كنَّا بمفردنا في المنزل، باستثناء الحارس الذي كان موجودًا في القبو بعيدًا عن الأسماع.

سيكون هناك تحقيق. وأسئلة التحقيق ستطول إلى الوصية التي عُرف بوجودها. ولكن بمجرد أن خرجَتِ الوصية إلى النور، ستحوم الشبهة حول هيرست. وسيُدلي على

الأرجح بإفادةٍ أمام قاضي التحقيقات وسأُتهم بجريمة القتل. وحتى إن لم أُتَّهم، سيَشك فيَّ هيرست وسيتبرأ على الأرجح من التنازل عن الملكية؛ وفي ظل هذه الظروف، سيستحيل عليَّ فرض الأمر بقوة. سيرفض أن يدفع المبلغ ولا يمكنني أن أرفع دعوى أمام المحكمة.

جلستُ على السلَّم فوق جثة جون مباشرة وتفكرتُ في الأمر بالتفصيل. على الأسوأ، أواجه احتمالية معقولة للموت شنقًا؛ وعلى الأفضل، كنتُ على مقربة من خسارة مبلغ خمسة آلاف جنيه. لم يكن هناك أي بدائل سارة.

من ناحية أخرى، بافتراض أنني أخفيتُ الجثة وأعلنتُ أن جون سافر إلى باريس، بالطبع، كان خطر الافتضاح قائمًا، وفي هذه الحالة سأُدان بجريمة القتل بالتأكيد. ولكن إذا لم يفتضح الأمر، فلن أكون فوق مستوى الشبهات وحسب؛ وإنما سأضمن مبلغ الخمسة الآلاف جنيه. وفي كلتا الحالتين، ثمة مخاطرة كبيرة، ولكن الخسارة واقعة في إحداهما لا محالة، بينما في الأخرى ثمة ميزة لتبرير المخاطرة. تمثلت المُعضلة فيما إذا كان من الممكن إخفاء الجثة. لو كان هذا مُمكنًا، فإن الربح المُحتمل يستحق القليل من المجازفة الإضافية. ولكن من الصعب جدًّا التخلص من جثةٍ بشرية، ولا سيما لشخصٍ قليل المعرفة بالثقافة العلمية مِثلي.

من المُثير للاهتمام أنني تفكرتُ في هذه المسألة لوقتٍ طويل جدًّا قبل أن يطرح الحل الواضح نفسه. تدبرتُ ما لا يقلُّ عن عشر طرُق للتخلص من الجثة، واستبعدتُها جميعًا باعتبارها غير عملية. ثم، فجأة، تذكرتُ المومياء الموجودة بالطابق العلوي.

في البداية، خطر على بالي احتمال رائع بأنه يمكنني إخفاء الجثة في صندوق المومياء. ولكن بينما كنتُ أتدبر الفكرة بدأتُ أرى أنه يمكن تنفيذها؛ وليس فقط إمكانية التنفيذ وإنما سهولة التنفيذ أيضًا؛ وليست فقط السهولة، وإنما الأمان المُطلق. فإذا وُضع صندوق المومياء في المتحف، فسأكون قد تخلَّصتُ منها إلى الأبد.

كانت الظروف، كما لاحظت يا سيدي، مواتيةً على نحوٍ استثنائي. لن يكون هناك جلبة وصراخ وتسرُّع وقلق؛ وإنما مُتسع من الوقت الكافي للاستعدادات اللازمة. بعد ذلك، كان صندوق المومياء في حدِّ ذاته مُناسبًا على نحوٍ غريب. كان طوله كافيًا، كما عرفت من قياساته. كان عبارة عن غلاف كرتوني مصنوع من مادةٍ مرنة نوعًا ما وله فتحة خلفية، مَحمية برباطٍ بحيث يتأتَّى فتحها بدون ضرر. لا حاجة إلى قطع أي شيءٍ سوى الرباط، الذي يمكن الاستعاضة عنه. قد يحدُث تلف بسيط لاستخراج المومياء ووضع جثة المُتوفَّى بدلًا منها؛ ولكن هذه التشقُّقات التي يمكن أن تحدُث ليست ذات أهمية. وهنا حالفني

الحظ مرةً أخرى. كان الجزء الخلفي بأكمله من صندوق المومياء مُغطًّى بمادة القار، وسيكون من السهل وضع طبقةٍ جديدة بمجرد أن يوضع المُتوفَّى داخل الصندوق بأمان، وهذه الطبقة لن تخفي التشقُّقات فحسب، وإنما ستخفي الرباط الجديد أيضًا.

وبعد تفكيرٍ متأنٍّ، قررتُ تنفيذ الخطة. نزلت إلى الطابق السفلي وأرسلتُ الحارس في مأموريةٍ بسيطة إلى منطقة محاكم العدل الملكية. ثم عدتُ وحملت المتوفَّى إلى إحدى غرف الطابق الثالث، حيث خلعتُ ملابسه ووضعتُه على صندوق شحنٍ طويل في الوضعية التي سيستلقي بها في صندوق المومياء. طويتُ ملابسه بعنايةٍ وحزمتها، باستثناء حذائه، في حقيبة سفر كان يُسافر بها إلى باريس ولا تحتوي على شيء سوى ثيابٍ للنوم وأدوات الحمام وملاءة كتَّانية. وفي الوقت الذي انتهيتُ فيه من ذلك وغسلتُ جيدًا المشمع الموجود على درجات السلَّم والمنبسط، كان الحارس قد عاد. أخبرته بأن السيد بيلينجهام سافر إلى باريس ثم ذهبتُ إلى المنزل. بالطبع، كان الجزء العلوي من المنزل مُؤمنًا بالمزلاج، ولكني — توخِّيًا للحرص الشديد — أغلقتُ باب الغرفة التي وضعت فيها المتوفَّى.

بالطبع، كان لديَّ قدْر من المعرفة بطرُق التحنيط، ولا سيما تلك الطرُق التي استخدمها القدماء. ومِن ثَم، في اليوم التالي، ذهبتُ إلى مكتبة المتحف البريطاني واطَّلعتُ على أحدث الأعمال حول هذا الموضوع؛ كانت مُثيرة جدًّا للاهتمام، حيث أظهرت التحسينات الرائعة التي أدخلتها المعرفة الحديثة على هذا الفن القديم. لا يجب عليَّ إزعاجكم بتفاصيل مألوفة لكم. كانت الطريقة التي انتقيتُها باعتبارها الأسهل بالنسبة لشخصٍ مبتدئ هي حقن الفورمالين، فخرجتُ من المتحف مباشرة لشراء المواد اللازمة. غير أنني لم أشترِ مِحقنة خاصة بالتحنيط: ذكر الكتاب أن المحقنة العادية الخاصة بالتشريح ستفي بالغرض نفسه، ورأيتها صفقة شراء أفضل.

خشيتُ أن أسيء استخدام المِحقنة، على الرغم من أنني درستُ بعناية الأدوات في أطروحة حول علم التشريح — أظنها لجراي. وحتى إن كانت أساليبي خرقاء؛ فإنها كانت فعَّالة للغاية. أجريتُ العملية في مساء اليوم الثالث؛ وحين أغلقتُ المنزل في تلك الليلة، شعرتُ بالرضا عندما عرفتُ أن رفات جون المسكين مُحصَّن ضد التحلل والتعفُّن.

لم يكن هذا كافيًا. سيلاحظ القائمون على التعامل مع صندوق المومياء فارق الوزن الكبير بين الجثة الجديدة والمومياء. علاوة على ذلك، ستُفسد الرطوبة المُتسربة من الجثة الغلاف الكرتوني سريعًا وستتسبَّب في طبقة مُشبعة بالبخار داخل الصندوق الزجاجي

التي ستُعرَض فيه. وهذا سيؤدي على الأرجح إلى إجراء فحصٍ طبي. كان من الواضح حينئذٍ أنه لا بدَّ من تجفيف رفات المُتوفَّى تمامًا قبل وضعها في الغلاف الكرتوني.

هنا كان جهلي المؤسف بالمعرفة العلمية عائقًا كبيرًا. لم يكن لديَّ أدنى فكرة كيف ستتحقق هذه النتيجة، وفي النهاية، اضطُررت إلى استشارة خبير تحنيط، أوضحتُ له أنني أنوي جمع بعض الحيوانات والزواحف الصغيرة وتجفيفها سريعًا لسهولة نقلها. ونصحني هذا الشخص بغمر الحيوانات النافقة في مرطبان كحول مِيثيلي لمدة أسبوع ثم تعريضها لتيارٍ من الهواء الدافئ والجاف.

إلا أنه كان من الواضح أن خطة غمر رفات المُتوفَّى في مرطبان كحول ميثيلي هي خطة غير عملية. ولكني ذكَّرتُ نفسي بأن لدينا في مجموعة مُقتنياتنا تابوتًا حجريًّا، تجويفه على شكلٍ مُهيَّأ لوضع مومياء صغيرة الحجم في صندوقه. جرَّبتُ وضع المتوفَّى في التابوت الحجري ووجدتُ أن التجويف يناسبه على نحوٍ فضفاض. حصلت على بضعة جالونات من الكحول الميثيلي، الذي صببتُه في التجويف، ليُغطي الجثة، ثم وضعتُ الغطاء وثبَّتُّه بإحكامٍ بمعجون. أخشى ألَّا أكون قد أثقلتُ عليكم بهذه التفاصيل؟»

قال بادجر: «سأطلب منك الاختصار بقدْر الإمكان، سيد جيليكو. إنها قصة طويلة والوقت يداهمنا.»

قال ثورندايك: «من جانبي، أرى هذه التفاصيل مُثيرة للاهتمام ومُفيدة جدًّا. إنها تُكمل الخطوط العريضة التي رسمتُها بالاستدلال.»

قال السيد جيليكو: «بالضبط، إذن سأكمل.

تركتُ المتوفَّى مغمورًا في الكحول لمدة أسبوعين ثم أخرجته، وجففتُه ووضعته على أربعة كراسٍ بقاعدةٍ خشبية مُخرمة فوق مواسير المياه الساخنة مباشرة، وسمحتُ لتيار هواءٍ يمرُّ عبر الغرفة. أذهلتني النتيجة جدًّا. وفي نهاية اليوم الثالث، صارت اليدان والقدمان جافةً تمامًا ومُتغضنة وصُلبة — بحيث سقط الخاتم من الإصبع المُتقلص — بدت الأنف أشبه بورق برشمان؛ كان جلد الجثة جافًّا جدًّا وأملس لدرجة أنه يمكنك طباعة عَقد عليه. ولمدة يومٍ أو يومين، قلبتُ المتوفَّى على فترات حتى تجفَّ جميع الأجزاء بالتساوي، ثم بدأتُ في إعداد الصندوق. قطعت الرباط وأخرجت المومياء بحرصٍ شديد — أقصد بحرص شديد بالنسبة إلى الصندوق؛ حيث إن المومياء تعرضت لبعض الضرَر أثناء استخراجها. كان تحنيطها سيئًا للغاية، هشَّة جدًّا لدرجة أنها تكسَّرت لعدة أجزاء بينما كنتُ أستخرجها، وحين كشفتُها انفصل الرأس وسقط الذراعان.

وفي اليوم السادس من إخراج الجثة من التابوت الحجري، أخذتُ اللفافات التي أزلتُها من سبك حتب ودثَّرتُ المتوفَّى فيها بحرصٍ بالغ، ناثرًا مسحوق المُر وراتنج البنزوين بإفراطٍ على الجثة وبين ثنايا اللفافات لإخفاء الرائحة الضعيفة للكحول والفورمالين التي لا تزال عالقةً بالجثة. وبعد وضع اللفافات، كان مظهر المُتوفَّى في أقصى درجات الإتقان حقًّا؛ كان يبدو في حالة جيدة جدًّا داخل صندوق زجاجي حتى بدون الغلاف الكرتوني، كدت أشعر بالندم من الاضطرار إلى إخفائه بعيدًا عن الأنظار إلى الأبد.

كان وضعه في الصندوق بدون مساعدة مهمةً صعبة، تصدَّع الغلاف الكرتوني بشدة في عدة مواضع قبل وضعه بداخله في أمان. ولكني وضعتُه داخله في النهاية، وحين أغلقتُ الصندوق برباطٍ جديد، وضعت طبقةً جديدة من القار أخفت التشقُّقات والرباط الجديد. مرَّرتُ قطعة قماش مُغبرة فوق طبقة القار حين جفَّت لتُخفي حداثتها، هكذا كان الغلاف الكرتوني بمحتواه الداخلي جاهزًا للنقل. أخطرتُ دكتور نوربيري بالواقعة، وبعد مرور خمسة أيام جاء ونقلَه إلى المتحف.

وبعد أن تخلَّصتُ من المعضلة الرئيسية، بدأت التفكير في المُعضلة اللاحقة التي ألمحتَ إليها بسهولةٍ مُثيرة للإعجاب، يا سيدي. كان من الضروري أن يظهر جون بيلينجهام على الملأ مرة أخرى قبل أن يطوي النسيان صفحته إلى الأبد.

هكذا، لفَّقتُ الزيارة إلى منزل هيرست، والتي كانت محسوبة لتخدم غرضَين. لقد أوجدتْ تاريخًا مقبولًا لاختفائه، نافية بذلك أي صِلة لي، وإلقاء بعض الشكوك على هيرست سيجعله أكثر انصياعًا، وأقل مَيلًا للاعتراض على طلبي عندما يعرف بنود الوصية.

كانت المسألة بسيطة جدًّا. عرفتُ أن هيرست قد غيَّر خدَمه منذ آخر مرة زرتُ فيها منزله، وكنت أعرف عاداته. وفي ذلك اليوم، أخذتُ حقيبة السفر إلى محطة تشيرينج كروس ووضعتُها في حجرة المعاطف، واتصلتُ بمكتب هيرست للتأكُّد من أنه موجود هناك، وذهبتُ من هناك مباشرة إلى شارع كانون واستقللتُ القطار إلى إلثام. وعند وصولي إلى المنزل، أخذتُ الاحتياطات اللازمة لنزع نظارتي الطبية — السمة الوحيدة المميزة لمظهري الخارجي — واقتِيدْتُ حينها إلى غرفة المكتب بناءً على طلبي. وبمجرد أن خرجت الخادمة من الغرفة، خرجتُ بهدوء من النافذة الفرنسية، التي أغلقتُها خلفي ولكن لم أتمكن من إغلاقها بإحكام، وخرجتُ من البوابة الجانبية وأغلقتُها خلفي أيضًا، مُمسكًا بلسان المزلاج بسكين الجيب خاصَّتي لكي لا أُضطرَّ إلى صفق البوابة لإغلاقها.

لست بحاجة إلى وصف الأحداث الأخرى لهذا اليوم، وفيها إسقاط حلية الجعران، لأنكم تعرفونها. ولكن لعلِّي أُبدي بعض الملاحظات بشكلٍ مناسب على الخطأ التكتيكي الذي وقعتُ فيه بخصوص العظام. وقع هذا الخطأ، كما فهمتم بلا شك، بسبب عادة المحامي المُستعصية التي تتمثل في الاستهانة بالخبرة العلمية. لم يكن لديَّ أدنى فكرة أن العظام وحدَها قادرة على تقديم الكثير من المعلومات لرجل العلم.

الطريقة التي حدث بها الأمر، كانت كما يلي: المومياء التالفة سبك حتب، تتلف تدريجيًّا بتعرضها للهواء، لم تكن مزعجة بالنسبة لي وحسب؛ وإنما كانت تُمثل خطرًا مؤكدًا. كانت هي الصلة الوحيدة الباقية بيني وبين واقعة الاختفاء. عزمتُ على التخلص منها وفكرتُ في بعض الوسائل لتبديدها. ثم في لحظةٍ شريرة، خطر على بالي فكرة استغلالها.

ثمَّة خطورة أكيدة بأن المحكمة ربما ترفض افتراض الوفاة بعد مرور فترةٍ قصيرة جدًّا؛ إذا كان ينبغي تأجيل الالتماس، فلن يتم تنفيذ الوصية أثناء حياتي. فإذا كان يمكن جعل عظام مومياء سبك حتب تُحاكي رفات المُوصي المتوفَّى، فسيتحقَّق خير مؤكد. ولكنني كنتُ أعرف أنه لا يمكن الخلط بين هذا الهيكل العظمي بأكمله والهيكل العظمي للمتوفَّى. فالمُتوفى كان يعاني من كسرٍ في رضفة الركبتين وكاحل مشروخ، وجروح افترضت أنه من شأنها أن تترك بعض الآثار الدائمة. ولكن إذا وضعتُ العظام المُنتقاة بعناية في مكانٍ مناسب، بالإضافة إلى بعض الأغراض الأخرى التي من شأنها أن تُحدد بوضوح الهوية باعتبارها خاصة بالمُتوفَّى، بدا لي أن هذا من شأنه أن يجعلني قادرًا على التغلب على هذه الصعوبة. لستُ بحاجة إلى إزعاجكم بالتفاصيل. والتصرُّف الذي اتبعته معروف بالنسبة إليكم في ظل الظروف المصاحبة، حتى الانفصال غير المقصود لليد اليُمنى — التي انكسرت بينما كنتُ أضع الذراع في حقيبة يدي. ورغم أن هذا التصرُّف ثبت أنه خطأ، كان من الممكن أن يُحقِّق نجاحًا لولا تدخلك الطارئ وغير المُتوقع في القضية.

ومِن ثَم، لمدة عامين تقريبًا، ظللتُ في أمانٍ تام. ومن وقتٍ لآخر، كنت أمرُّ على المتحف لأرى ما إذا كان المرحوم محفوظًا في حالةٍ جيدة؛ وفي تلك المناسبات اعتدتُ الشعور برضًا حين أفكر في الظروف المُرضية — رغم أنها غير مقصودة — التي توافقت مع رغباته، كما ذكرها (على نحوٍ معيب جدًّا) في البند الثاني من الوصية، ودون الإخلال بمصالحي.

جاءت الصحوة في تلك الأمسية حين رأيتك عند مدخل شارع ذا تيمبل تتحدَّث مع دكتور بيركلي. شككتُ على الفور أن ثمة خطأً ما قد وقع وأنه فات الأوان لاتخاذ أي إجراءٍ

مُفيد. ومنذ ذلك الحين، مكثتُ هنا أنتظر هذه الزيارة كل ساعة. والآن قد حان الأوان. لقد لعبتُ بالورقة الرابحة ولم يتبقَّ لي سوى أن أُسدد ديوني كمقامر أمين.»

توقف لبرهة وأشعلَ سيجارته بهدوء. تثاءب المُحقق بادجر ووضع مُفكرته جانبًا.

سأل المحقق قائلًا: «هل انتهيت سيد جيليكو؟ أريد أن أرسل خطابًا، كما تعلم، على الرغم من أن الوقت تأخَّر كثيرًا.»

أخرج السيد جيليكو سيجارته من فمه وشرِب كوب ماء.

قال: «نسيتُ أن أسألك ما إذا كنت كشفت المومياء، إذا كان يسعني استخدام هذه الكلمة للإشارة إلى رفات موكلي الراحل التي عُوملت على نحوٍ معيب.»

ردَّ ثورندايك: «لم أفتح صندوق المومياء.»

قال السيد جيليكو: «لم تفعل! إذن كيف تأكدتَ من شكوكك؟»

«التقطتُ صورة بالأشعة السينية.»

«أها! حقًّا!» تأمَّل السيد جيليكو لبضع دقائق. ثم تمتم قائلًا: «مُذهل! وأكثر ابتكارًا. مصادر العِلم في الوقت الحالي رائعة فعلًا.»

سأله بادجر: «هل لديك أقوال أخرى؟ لأنه إذا لم يكن لديك، فلقد انتهى الوقت.»

ردَّد السيد جيليكو ببطءٍ قائلًا: «أقوال أخرى؟ أقوال أخرى؟ لا ... أظن ... أظن ... انتهى ... الوقت ... أجل ... الـ... الوقت ...»

سكتَ فجأة وجلس بنظرةٍ غريبة مُثبتة على ثورندايك.

لقد تغيَّر وجهه فجأة على نحوٍ غريب. بدا مُنكمشًا وشديد الشحوب وظهر على شفتَيه لون أحمر قرمزي غريب.

سأله بادجر في ارتباك: «ما الخطب سيد جيليكو؟ أتشعر أنك لستَ بخير يا سيدي؟»

بدا أن السيد جيليكو لم يسمع السؤال، ولم يُحر سؤالًا؛ وإنما جلس بلا حراك، يتكئ إلى الخلف في كرسيه، ويداه ممدودتان على الطاولة ونظرته الغريبة مُثبتة على ثورندايك.

وفجأة سقط رأسه على صدره وبدا أن جسده ينهار؛ وفجأة هببنا واقفين على أقدامنا على قلبٍ واحد، انزلق إلى الأمام من فوق كرسيه واختفى أسفل الطاولة.

صاح بادجر: «يا إلهي! الرجل فقد وعيه!» وفي دقيقة، جثا على يديه وركبتيه، وهو يرتعد من الإثارة، مُتخبطًا أسفل الطاولة. وسحب المحامي فاقد الوعي إلى الخارج أسفل النور وجثا فوقه، مُحدقًا في وجهه.

سأل وهو ينظر لأعلى إلى ثورندايك: «ما خطبه، يا دكتور؟ هل هي سكتة دماغية؟ أم هل هي نوبة قلبية، في رأيك؟»

هز ثورندايك رأسه، وانحنى ووضع أصابعه على معصم الرجل الفاقد للوعي.

أجاب قائلًا: «حمض البروسيك أو سيانيد البوتاسيوم هو ما يُوحي به المظهر الخارجي.»

سأله المُحقق: «ولكن ألا تستطيع أن تفعل شيئًا؟»

ترك ثورندايك الذراع التي سقطت في وهنٍ على الأرض.

قال: «لا يمكنك أن تفعل الكثير لرجلٍ ميت.»

«ميت! إذن لقد أفلتَ من بين أيدينا بعد كل شيء!»

«لقد توقَّع العقوبة. هذا كل ما في الأمر.» كان ثورندايك يتحدث بنبرةٍ محايدة وغير متأثرة رأيتها غريبة جدًّا، واضعًا في الاعتبار وقوع المأساة على نحوٍ مفاجئ، كما أذهلني الغياب التام لعنصر الدهشة من سلوكه. بدا أنه يتعامل مع الواقعة باعتبارها واقعة طبيعية تمامًا.

على النقيض كان المُحقق بادجر، الذي هبَّ واقفًا على قدمَيه ووقف وهو يدس يديه في جيبه وينظر في تجهُّم وعبوس إلى المحامي المتوفَّى.

قال متذمرًا بنبرةٍ حادة: «يالي من أحمق لَعين حين وافقتُ على شروطه البغيضة.»

قال ثورندايك: «هراء! لو كنتَ قد اقتحمت المكان، لوجدتَ رجلًا ميتًا. وكما هي الحال، وجدتَ رجلًا على قيد الحياة وحصلتَ على إفادة مُهمة. لقد تصرفتَ على نحوٍ صحيح تمامًا.»

سأله بادجر: «في رأيك، كيف استطاع أن يفعل ذلك؟»

مد ثورندايك يده.

وقال: «لنلقِ نظرة على علبة سجائره.»

أخرج بادجر العلبة الفضية الصغيرة من جيب المُتوفَّى وفتحها. كان يُوجَد بها خمس سجائر، اثنتان منها كانتا عاديتين، بينما الثلاث السجائر الأخرى كانت ذات مِبسم ذهبي. أخذ ثورندايك واحدة من كل نوع وضغط برفقٍ على أطرافها. أعاد السيجارة ذات المِبسم الذهبي؛ بينما مزَّق السيجارة العادية بطولها، حتى قبل ربع بوصة من نهاية طرفها؛ سقط منها على الطاولة قُرصان أسودان صغيران. التقط بادجر واحدًا منهما بحماسٍ وكاد أن يتشمَّمها حين أمسك ثورندايك بمعصمه. وقال: «توخَّ الحذر.» وعندما تشمَّم القرص بحذَر — وهو يمسك به على مسافة آمنة من أنفه — أضاف قائلًا: «أجل، سيانيد البوتاسيوم.

ظننتُ هذا حين تحوَّلت شفتاه إلى ذلك اللون الغريب. حدث هذا في السيجارة الأخيرة؛ يمكنك أن ترى أنه قضم طرفها.»

وقفنا في صمتٍ لبعض الوقت ننظر إلى أسفل إلى الجسد الهامد المُسجَّى على الأرض. وفي الحال نظر بادجر لأعلى.

قال: «أثناء مرورك أمام حجرة البواب في طريقك إلى الخارج، ادخل إليه وأخبره أن يرسل لي شرطيًّا.»

قال ثورندايك: «حسنًا جدًّا. وبالمناسبة، يا بادجر، من الأفضل أن تضع تلك الخمرة في الإناء مرةً أُخرى وأغلق عليها بالقفل والمفتاح، أو اسكُبها من النافذة.»

قال المُحقق: «أجل، يا إلهي! أنا سعيد لأنك ذكرتَ ذلك. ربما يكون لدينا تحقيق بشأن شُرطي فضلًا عن محامٍ أيضًا. تصبحون على خير، أيها السادة، إذا كنتم بصدد المغادرة.»

خرجنا وتركناه مع سجينه — الذي كان هامدًا بالدرجة الكافية، وفقًا لوعده الغامض. وبينما كنَّا نمرُّ عبر البوابة، أبلغ ثورندايك رسالة المُحقق، باقتضابٍ وبدون تعليق، إلى البواب المتثائب، ثم عُدنا أدراجنا إلى حارة تشانسري.

التزمنا جميعًا الصمت والجدية الشديدة، ورأيتُ أن ثورندايك بدا مُتأثرًا بعض الشيء. لعلَّ النظرة الأخيرة المقصودة من جانب السيد جيليكو — التي أشكُّ أنه كان يعرف أنها نظرة رجل مُحتضَر — عالقة في ذاكرته كما علقتْ في ذاكرتي. وفي منتصف الطريق إلى حارة تشانسري، تحدَّث لأول مرة، فقط لكي يهتف: «الشرير المسكين!»

وافقه جيرفيس قائلًا: «كان شريرًا ماهرًا، يا ثورندايك.»

جاء رده: «ليس كذلك، بالأحرى يجب أن أقول إنه كان غير أخلاقي. كان يتصرَّف دون خُبثٍ ودون ورَع أو ندم. أظهر سلوكه نفعية متجردة من العواطف وهذا أمر مروِّع لأنه سلوك غير إنساني بالمرة. ولكنه كان رجلًا قويًّا؛ رجلًا شجاعًا ومُستقلًّا، وكنت أسعد حالًا لو قُدِّر ليدٍ أخرى غير يدي لتنفذ حُكم الإعدام.»

ربما بدا تأنيب الضمير لدى ثورندايك غريبًا ومتناقضًا، بيد أنني انتابتني نفس مشاعره أيضًا. ورغم القدر الكبير من البؤس والمعاناة اللذين فرضهما هذا الرجل الغامض على حياة من أحببتُهم، غفرتُ له ذنبه. وفي خضم سقوطه المفاجئ غفرتُ له القسوة المتجردة من الشفقة التي سعى بها وراء تحقيق غرضِه الشرير. فهو من أدخل روث في

حياتي، وفتح لي أبواب جنة الحُب التي دخلتُها توًّا. ومِن ثَم، تحوَّلت أفكاري بعيدًا عن الجثة الهامدة المُسجَّاة على أرضية الغرفة العتيقة في لينكولنز إن، إلى المُستقبل المشرق، حيث سأسير يدًا بيدٍ مع روث حتى يحين أجلي أيضًا؛ وحتى أسمع ناقوس المساء يدعوني لأبحر في ظلمة البحر الصامت، مثلما حدث مع المحامي المُكفهر الوجه.


هنداوي